





أمحمّد صافي المستغانمي



مسار ومنجزات

- أعمال الملتقى الدّولي -

(الجزء الثّالث)

منشورات المجلس 2021

وجاء الرّجلُ المنير بحسن التّدبير، وبما أحاط حوله من جماعة التّفكير. وأخرج الملفَ من مغلاق الأبراج، وأعمل فيه البصر والبصيرة بالعلاج وها نحن نشهد الحلّ لمشكلة المعجزة، وما كان من الخيال أضحى حقيقة. إنّ الفضل لدور هذا الشّيخ، إنّه الأستاذ (أمحمّد صّافي) المستغانمي الذي ينال اليوم التّكريم، لفعله السّليم؛ وهو أهل لكلّ تسنيم.

أيّها الصّافي؛ هي شينيّةُ التّشريف لشخصكم الشّديف، في ما أشَعْتم من استبشار الجذور؛ التي شاطرتم بها زملاءنا في المعجم التّاريخيّ؛ الذي تجشّمتم نشاطَه في تقميش ما أُشيع وما أُهمِل، وتقريش إحياء الشّباب في مشمول حروف العربيّة المحشيّة بالمستعمِل والمهمَل، في وحشات الكتب الصّفراء الشّحيحة، وتشاطرون غشيان الشّارد في وحشته وتعملون على إشراق شمسه؛ حتى تعودَ الى مشرح الاستعمال لا شاكٍ بل شافٍ. ويأتي هذا المشروع شارحاً؛ يغشاه البِشْر بشهادة الشّهد وبتباشير الرّشد، لا يحمل المشاحنة، ولا يُشْظي الأشطان، فَشَرَفاً للشّيخ الصّافي شَرَفاً، وشغفاً بعملكم كاشفاً.



المجلس الأعلى للغة العربية

52، شارع فرانكلين روزفلت
ص.ب 575 ، ديدوش مراد، الجزائر
الهاتف : 16/17 07 23 21 213+
النّاسوخ : 07 07 23 21 213+
الموقع الإلكتروني : www.hcla.dz





الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
رئاسة الجُمهوريّة
المجلس الأعلى للّغة العربيّة



أمحمّد صافي المستغانمي

مسار ومنجزات

أعمال الملتقى الدّولي

الجزء الثّالث

منشورات المجلس 2021

الفهـرس

القسم الثالث

-المحاضرات العامّة-

القسم الرّابع

ذات العلاقة

تجلّيات النّظريّة الحجاجيّة المعاصرة في أعمال أمحمّد صافي المستغانمي

(قراءة تحليليّة في منجز الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)

د. محمّد بن عمّارة
ج. عبد الحميد بن باديس مستغانم

الملخص: تندرج معظم الاجتهادات البلاغيّة المعاصرة، ضمن حقل الدّراسات الحجاجيّة التي أُعيد لها الاعتبار من خلال إسهامات مجموعة من الباحثين الغربيين بقيادة شاييم بريلمان وأوزفالد ديكرو وميشال ماير الذين أعادوا الاعتبار للشّق التّداولي الحجاجيّ للبلاغة بعد أن تمّ اختزالها في الشّق الأسلوبيّ الجماليّ لعدّة قرون وقد قادنا النّظر في الدّراسات العربيّة المعاصرة إلى وجود بعض الاجتهادات التي تلقت المنجز الحجاجي الغربيّ وحاولت الإفادة منه وإخضاعه للخصوصيّة العربيّة المتميّزة عن نظيرتها الغربية من النّاحية التّداولية ومن أهمّ الأعمال التي حاولت التّأسيس لنظرية بلاغيّة حجاجيّة إقناعيّة تداوليّة هي محاولة أمحمّد صافي في منجزه: (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) الذي حاول من خلاله التّأسيس لنظريّة حجاجيّة عربيّة، مستفيدا في ذلك من المنجزات الغربية على المستوى المنهجيّ وعليه ستحاول هذه الورقة البحثيّة رصد التّقاطعات

والتّجاذبات بين ما قدّمه أمحمّد صافي من إضافات في مجال البحث الحجاج وبين النّظريات الحجاجيّة الغربية باعتبارها المرجع المؤسّس لنظريّات الحجاج المعاصرة.

الكلمات المفتاحيّة: الحجاج –الإقناع – أمحمّد صافي.

مقدّمة: تندرج معظم الدّراسات البلاغيّة العربيّة المعاصرة ضمّن الجهود التي أعادت الاعتبار للشّق الحجاجيّ التّأثيري الإقناعيّ التّداولي للبلاغة العربيّة بعد أن ظلّت حبيسة المقاربات الجماليّة الأسلوبيّة الشّعرية لقرون مضت، ويأتي هذا التّحول في الخطاب البلاغيّ العربي بعد الانفتاح على المنجز الغربيّ الذي أعاد بعث الشّق الإقناعيّ التّداولي للبلاغة الغربيّة على يدّ (**شاييم بيرلمان وألبرخت تيتكاه**) في كتابهما (**مصنف في الحجاج البلاغة الجديد**) الذي أعادا فيه إحياء الشّق الحجاجيّ الإقناعيّ من بلاغة آرسطو.

ويعدّ الدّكتور (أمحمّد صافي) من أهمّ البلاغيّين الذي أعادوا الاعتبار للشّق التّداولي والإقناعي للبلاغة العربيّة في منجزه: (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) وذلك بتركيزه على مظاهر الإقناع في الخطابة العربيّة القديمة من خلال دراسة بعض الخطب بالاعتماد على المقاربة الحجاجيّة التي أتاحت له الكشف عن طرق المحاجة والإقناع في الخطابة العربيّة القديمة.

والمتأمّل في منجز (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) يلمس تقاطعا كبيرا بين ما وصلت إليه البلاغة الغربيّة المعاصرة في شقّها الحجاجيّ التي وضعت من خلاله آليات محدّدة ينبغي على المحاجج أو الخطيب التّقيّد بها لضمان

إصابة الإقناع والتّصديق، وبين ما قدّمه أمحمّد صافي من آليات حجاجيّة رأى بأنّها جوهر البلاغة العربيّة والشّق المميّز لها.

ومن هذا المنطلق ستحاول هذه الورقة البحثيّة رصد التّقاطعات والتّباينات الموجودة بين ما قدّمه أمحمّد صافي من تصوّرات واجتهادات في حقل الدّراسات الحجاجيّة والتّداوليّة، وبين الدّراسات الحجاجيّة العربيّة المعاصرة التي اعتمدت في مرجعيّاتها المعرفيّة وآليّاتها الإجرائيّة على ما قدّمه آرسطو وبيرلمان من تصوّرات وتنظيرات في هذا الحقل، وعليه سنركّز قراءتنا على جملة من القضايا المشتركة بين المنجزين أهمّها:

- المصطلح الحجاجيّ بين أمحمّد صافي والدّراسات الحجاجيّة العربيّة المعاصرة؛
- المنهج الإجرائيّ بين أمحمّد صافي والدّراسات الحجاجيّة العربيّة المعاصرة؛
- ثلاثيّة الإيتوس واللغوس والباتوس بين أمحمّد صافي والدّراسات الحجاجيّة العربيّة المعاصرة.

وتأتي هذه القراءة للكشف عن التّقاطعات والتّجاذبات الموجودة بين ما قدّمه أمحمّد صافي من إضافات في مجال البحث الحجاجيّ، وبين ما قدمته النّظريات الحجاجيّة المعاصرة بتوجهاتها البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة والتّداولية من إضافات مهمّة في حقل الدّراسات البلاغيّة المعاصرة.

أمّا فيما يخصّ الإشكاليّة التي عليها مدار البحث والدّراسة فقد تمثّلت في جملة من التّساؤلات التي يمكن إجمالها في:

- هل أفاد أمحمّد صافي من الدّراسات الحجاجيّة المعاصرة أم كانت اجتهاداته الشّخصيّة؟
- هل نجح أمحمّد صافي في تقديم نظريّة بلاغيّة حجاجيّة متكاملة لها خصوصيّتها العربيّة، أم هي محاولة تستدعي محاولات أخرى؟

تلكم هي التّساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها في خاتمة البحث.

1. تعريف موجز بمنجز (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع):

يندرج منجز (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) لـ أمحمّد صافي ضمن المنجزات التي تعالج أحد أهمّ القضايا النّقدية المعاصرة وهي الشّق الحجاجيّ التّداوليّ الإقناعيّ للبلاغة العربيّة الذي ظلّ مفقودا لقرون خلت لصالح شقّها الشّعري الأسلوبيّ الجماليّ، ليرُدَّ بذلك الباحث الاعتبار لبلاغة الحجاج التي أفل نجمها بعد تراجع فنّ الخطابة لصالح أجناس أدبيّة أخرى.

وقدّ قسم الباحث منجزه النّقدي إلي فصلين، عنون الأوّل بـ: (**مقوّمات فنّ الخطابة**) والثّاني بـ: (**نماذج من روائع الخطب العربيّة**) أمّا الفصل الأوّل فحاول التّركيز فيه على والتّقنيات الحجاجيّة والمقوّمات الإقناعية والأسّس التّداولية التي ينبني عليها فنّ الخطابة وقد قسمه إلى أحد عشر مبحثاً حاول من خلالها قدر الإمكان بسط النّظر في الأسّس البلاغيّة التي تضمّن صياغة خطاب حجاجي

ناجح يضمن تحقيق الإقناع والتّداول والتّأثير، ويمكن اختصار واختزال هذه الأسّس في ثلاثة مباحث هي:

- **حجج خاصّة بالمرسل**: وأطلق عليها اسم: (**مواصفات الخطيب النّاجح**)[1] أي تلك المميّزات والفضائل والأخلاق التي يجب توفّرها في الخطيب على كلّ المستويّات، أو ما يعرف في الدّرس البلاغيّ المعاصر **بحجج الايتوس** ETHOS[2]؛
- **حجج خاصّة بالمتلقي**: وأطلق عليها اسم: (**الاستدراج والاستمالة وأساليب الإثارة**)[3]، أي البحث فيما ينزع إليه المتلقي وتوظيف نوعية مخصوصة من الحجج يتفاعل معها ويميل إليها ويستجيب لها تلقائياً، ويعرف هذا النّوع من الحجج في البلاغة المعاصر بحجج **الباتوس**[4] PATHOS؛
- **حجج خاصّة بالخطاب**: وأطلق عليها اسم: (**الأسلوب الخطابيّ**)[5]، ويُعد أهمّ عنصر في العمليّة الحجاجيّة لأنّه جوهرها الذي يُعول عليه، وقد حاول الباحث في هذا المبحث التّركيز على الآليات التي ينبني عليها الخطاب الحجاجيّ في كليّته، من لغة وأسلوب وترتيب وتوّزيع الحجج داخل الخطاب ومصادر الاستشهاد والأدلة وغيرها من الآليات الحجاجيّة التي من شأنها تحقيق المساعي الحجاجيّة، ويُعرف هذا النّوع من الحجج في البلاغة المعاصرة **بحجج اللغوس**[6] **LOGOS**.

كلّ هذه الآليّات البلاغيّة مجتمعة ومتضافرة فيما بينها مـن شـأنها تحقيـق المرامـي الحجاجيّة والأهداف الإقناعيّة التـي يـروم الخطيـب إصـابتها وتمكينهـا في كيانـات متلقيه.

أمّا **الفصل الثّاني المعنون بـ: (نماذج من روائع الخطب العربيّة)** فكـان عبـارة عـن جملة من الخطب العربيّة البليغة في العصـور الزّاهـرة، وقـد توزّعـت هـذه الخطـب حسب كلّ عصر (جاهليّ، إسلاميّ، أمويّ، عباسيّ أندلسّـي، خطـب مـن العــصر الحديث).

2.التّصور المعرفيّ والإجرائيّ لبلاغة الإقناع في منجز أمحمّد صافي: ينـدرج منجـز (**الخطيب النّاجح بين عوامـل الإقنـاع ووسـائل الإمتـاع**) لــ أمحمّـد صـافي ضـمّن المشاريع النّقدية التي حاولت التّنظير لبلاغـة الإقنـاع مـن خـلال وضـع جملـة مـن التّصورات المعرفيّة والآليّات الإجرائيّة التي يجب على الخطيب المحاجج أن يراعيهـا أثناء ممارسة فعل المحاجة، وهذه الآليـات مـن شـأنها جعـل خطابـه نافـذاً ومـؤثّراً وقادراً على تحقيق فعليْ الإقناع والتّداول.

2.1. التّصور المعرفيّ لبلاغة الحجاج لدى أمحمّد صافي (قراءة في الخلفيّات).

ينطلق أمحمّد صافي في بناء تصوّره المعـرفي لبلاغـة الإقنـاع مـن الـتّراث العـربيّ بمختلف معارفه النّقدية والبلاغيّة والفلسـفيّة والتّفسـيرية والمعجميّـة التـي أسّـس عليها رؤيته الخاصّة لبلاغة الإقناع والحجاج ويبدأ أمحمّد صـافي في التّنظـير لمفهـوم

بلاغة الإقناع من خلال جنس الخطابة الذي يعتبره الميدان الأمثل لها فيبدأ بالدّلالة المعجميّة لمفهوم الخطابة بالاعتماد على معجميّ:

- ابن فارس (مقاييس اللغة)؛
- الزّمخشري (أساس البلاغة)[7].

ثمّ يواصل التّنظير لمفهوم الحجاج والإقناع من خلال دلالته القرآنيّة بالاعتماد على كتب التّفسير ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ فعل الحجاج والمحاجة يكون بواسطة (الكلام المحكّم المتضمّن للأحكام والمواعظ والأمثال والشّواهد ومكارم الأخلاق)[8] أيّ أنّ الخطاب الإقناعيّ هو خطاب مدعّم ومعضد بجملة من الآليات الحجاجيّة التي تضمّن حصول فعليّ التّصديق والإقناع.

وبعد الدّلالة القرآنية، ينتقل بنا أمحمّد صافي إلى بسط النّظر في مفهوم الإقناع عند البلاغيين والنّقاد القدامى، ليصل في هذا المبحث إلى أنّ الإقناع والحجاج في التّراث النّقدي والبلاغيّ العربيّ مرتبط أشدّ الارتباط بجنس الخطابة التي تتجلى فيها كلّ أشكال وأنواع الحجاج والمحاجة، ويخلصّ إلى جملة من النّتائج أثناء قراءته لمفهوم الخطابة والإقناع في التّراث النّقدي والبلاغيّ، يمكن حصرها في:

- الخطابة حديث موجه لجمهور من النّاس عن طريق المشافهة والإلقاء المصحوب بالإشارات مثل تحريك اليدّ والانفعالات التي تثير السّامعين وتوجه عواطفهم؛

- أنّ تكون الخطابة مقّنعة بحيث تشمل على أدلة قويّةٍ وبـراهين سـاطعة تثبـت صحة الدّعوى؛
- ضرورة اشتمال الخطابـة عـلى عنصــر الاسـتمالة والتّشـويق وذلـك لتوجيـه عواطف السّامعين وإقناعهم بالفكرة التي يدعو إليها؛
- أنّ تكون تُقـدّم الخطابـة في ثـوب لغـويّ وتركبـيّ وبيـانيّ وبـديعيّ واضـح ومفهوم؛
- ضرورة الابتعاد أثناء -صيّاغة الخطاب- عن محاكاة الشّعر[9].

بناء على ما سبق نستنج أنّ التّصور المعرفيّ الذي قدّمه أمحمّد صافي لبلاغة الإقناع مبنيٌ على جنس الخطابة التي تُعدّ الميدان الأمثل لممارسة فعل المحاجة، وقـد اسـتلهم أمحمّد صافي هذا التّصور من التّراث العربيّ بمختلف معارفه التي ذكرناهاً آنفـاً، أي أنّ الخلفيات المعرفيّة المؤطّرة لتصوّره البلاغيّ تراثيّة في مجملها، وبناء عـلى مـا سـبق يمكن القول أنّ مفهوم بلاغة الحجاج لدى أمحمّد صافي يتمثّل في القدرة على تحقيـق الإقناع والاستمالة والدّفع نحو الإنجاز عـن طريـق جملـة مـن الآليـات الحجاجيّـة والإستراتيجيّات الخطابيّة يمكن حصرها في:

- سلامة الخطاب بمراعاة حسن ترتيب أجزائه وتقديمه في لغة تراعي مسـتوى المتلقي؛
- ضرورة توفر الخطاب على جملة من الحجّج والأدلة والبراهـين التـي تضـمن تعضيد الدّعوى؛

- الإلقاء الجيّد المصحوب بالإشارات والانفعالات؛
- الابتعاد عن محاكاة الشّعر أو اللغة الشّعرية.

2.2. التّصور الإجرائي لبلاغة الحجاج لدى أمحمّد صافي (قراءة في الآليّات التي تحقّق الإقناع). يتأسّس الفعل الحجاجيّ لدى أمحمّد صافي على جملة من الأسّس والقضايا والتّصورات والفرضيّات التي ينسج من خلالها المحاجج خطّته الحجاجيّة التي تجعل خطابه نافذاً ومقنعاً، فالفعل الحجاجيّ التّداولي لديه مرتبط بالخطاطة الحجاجيّة التي يجب على كلّ خطيب أن يراعيها ويتقيّد بها أثناء بناء خطابه الذي يريد من ورائه تحقيق فعلي الإقناع والتّصديق.

وتتحقّق العمليّة الحجاجيّة لدى أمحمّد صافي بتضافر جملة من العوامل والشّروط يمكن إيجازها في:

- حجج مرتبطة بالخطاب (حجج اللغوس)؛
- حجج مرتبطة بالمرسل (حجج الإيتوس)؛
- حجج مرتبط بالمتلقي (حجج الباتوس).

1.2.2.الحجج المرتبطة بالخطاب في منجز أمحمّد صافي (اللغوس): حدّد أمحمّد صافي في منجزه (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) جملة من التّقنيّات الحجاجيّة والسّياسات الخطابيّة التي تميّز كلّ خطاب حجاجيّ يروم تحقيق فعلي الإقناع والتّداول، ومن بين الشّروط التي حدّدها ما يلي:

أ.اختيار الموضوع: يذهب أمحمّد صافي إلى أنّ التّوفيق في اختيار الموضوع المناسب للمقام الخطابيّ من أهمّ العوامل التي تساعد الخطيب على تحقيق أهدافه التّداولية، (فالخطيب النّاجح هو الذي يحسن اختيار موضوع خطبته، وأن يحسن اختيار المواضيع التي تهم أبناء مجتمعه وأفراد أمّته من حيث اهتمامهم والمشاكل التي تؤرقهم)[10] فالإصابة في اختيار الموضوع المناسب للمقام من أهمّ العوامل المساعدة على تحقيق المسعى وتعضيد الدّعوى.

ب. ترتيب جسم الخطبة: يندرج هذا الشّرط ضمن العوامل المهمّة المساعدة على تنظّيم المادة اللغويّة والحجاجيّة المحصل عليها وتوّزيعها داخل الخطاب استناداً إلى معايير عقليّة ومنهجيّة تستجيب لمتطلبات العمليّة الحجاجيّة ويؤكد أمحمّد صافي على ضرورة هذه العمليّة بقوله: « وجسم الموضوع هو الحيّز الواسع الذي يحرص فيه الخطيب على بيان قضيّته بتخيّر الأفكار السّليمة القائمة على المبادئ الصّحيحة ويحرص أن يكون بينها تناسق وتوافق بحيث تخدم الأفكار بعضها بعض، وتفضي المقدّمات الصّحيحة إلى نتائجها المنطقيّة، وأن يظهر الخطيب مهارته البيانيّة ومقدرته اللغوية»[11]، فمراعاة هذه الشّروط والتّقيّد بها يساعد بشكل كبير على صياغة خطاب حجاجيّ نافذ ومقنع، يساعد المتلقي على تحقيق أهدافه ومقاصده التي يتوخى إصابتها ويمكن تلخيص هذه الشّروط في:

- وحدة الموضوع؛
- التّرتيب؛

- الوضوح؛
- التّدليل بالأدلة المنطقيّة أوالخطابيّة الجاهزة؛
- الخاتمة.[12]

ج.الأدلة الحجاجيّة وأنواعها: بعد بسط النّظر في الشّــرطين الأولـين (**اختيـار الموضوع/ ترتيب أجزاء الخطاب**) ينتقـل بنـا أمحمّـد صـافي في مشـــروعه البلاغـيّ الحجاجيّ إلى الحديث عن نوعيّة الأدلة الحجاجيّة التي يجب على الخطيب الاستعانة بها أثناء ممارسته فعل المحاجة، والأدلة الحجاجيّـة لـدى أمحمّـد صـافي هـي جـوهر العمليّة الحجاجيّة وأساسها الـذي يُعـول باعتبارهـا الدّعامـة الأساسـيّة للخطـاب الحجاجيّ الذي يتأتي بواسطته الإقناع ويُحصِّل اليقين والتّصديق، وتختلـف الأدلـة لديه باختلاف المقامات، فلكل مقام أدلته الخاصّة التي قد لا تصـلح بالضّـــرورة في كلّ المقامات، وتنقسم الأدلة لدى الباحث إلى:

ج.1.الشّاهد: يُعدّ الشّاهد لدى أمحمّد صافي أهم عنصـر في العمليّة الحجاجيّـة لأنّ به (يبرهن الخطيـب عـلى صـحة كلامـه، وصـدق مـا يـذهب إليـه... فإقنـاع السّامعين وكسب ثقتهم واستمالتهم والتّأثير في نفوسهم يتمّ بواسطة الشّـواهد التـي يدرجها الخطيب في خطابه)[13]، فالشّاهد هـو منـاط العمليّـة الحجاجيّـة وجوهرهـا الذي يضمن حصول الإقناع والتّصديق إذا كان مناسـباً للمقـام، وينقسـم الشّـاهد لدى أمحمّد صافي إلى أنواع يمكن إجمالها في:

- **حجة الشّاهد القرآني**: يندرج الشّاهد القرآني لدى أمحمّد صافي ضمن أقوى الأدلة التي يتم بواسطتها تحصيل الإقناع من المتلقي، لأنّه «الحجة الوضحى والمحجة الكبرى، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه»[14] وعليه يمكن القول أنّ الشّاهد القرآني يحمل طاقات إقناعيّة ذات حمولة حجاجيّة تداوليّة ثابتة لا يمكن للمتلقي الاعتراض عليها باعتبار مصدرها الإلهيّ؛
- **حجة الاستشهاد بالحديث النّبوي الشّريف**: يتبوأ الحديث النّبوي مكانة حجاجيّة رفيعة يُستند إليها لتدعيم وتعضيد الحجة القرآنيّة أثناء ممارسة فعل المحاجة، ويرى أمحمّد صافي أنّ الحجة النّبوية هي «المصدر الثّاني في الاستشهاد بعد القرآن الكريم، لأنّها الشّارحة لمجمله، والمبيّنة لغريبه، والمفصلة لأحكامه»[15] وعليه يمكن القول أنّ الحديث يضطلع بأدوار حجاجيّة مساندة وداعمة لما أقرّه القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى حجّج الشّاهد القرآني والشّاهد النّبوي، ذكر أمحمّد صافي جملة من الشّواهد الجاهزة التي يُستند إليها في توجيه مسارات الحجاج وترشيد حركة الخطاب، نوجزها في:

- الاستشهاد بأقوال الصّحابة؛
- الاستشهاد بأقوال السّلف؛
- الاستشهاد بالأقوال المأثورة؛
- الاستشهاد بالقصص؛[16]

- الاستشهاد بالسّيرة النّبوية[17].

وبناءً على ما سبق يمكن القول أنّ أمحمّد صافي استند في بناء تصوّره الحجاجيّ إلى الإمكانات الحجاجية التي توفّرها الثّقافة العربيّة الإسلاميّة والتي يمكن للخطيب أن يعود إليها أثناء بناء خطابه لممارسة فعل المحاجة، أو ما سماه رولان بارت بمخازن الحجج[18]، إلاّ أنّه أهمل جملة من الشّواهد المهمّة في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة منها: الشّاهد الشّعريّ، الاستشهاد بعلوم القرآن، الاستشهاد بالحجة اللغويّة الاستشهاد بالمتون على اختلافها: التّفسيرية، الأصولية، الفقهيّة الكلاميّة).

د.الأسلوب الخطابيّ: يندرج الأسلوب الخطابيّ الحجاجيّ ضمن الكفايات اللغويّة التي يملكها الخطيب بحيث تساعده على نسج خطاب واضح في ألفاظه جليٌّ في معانيه، قادرٌ على ضمان تفاعل المتلقي، ويرى أمحمّد صافي أنّ (للخطاب الإقناعيّ سماتٌ وخصائص تميزه عن باقي الفنّون الأدبيّة الأخرى، فركن الخطابة الرّكين وأسّها المتين من حيث الأسلوب هو الإبانة والإفهام والتّوضيح)[19]، وقد حدّد أمحمّد صافي خصائص الأسلوب الخطابيّ الذي يتحقّق بواسطته الإقناع في مجموعة من النّقاط أهمها:

- وضوح الألفاظ والعبارات؛
- التزام الجمل القصيرة؛
- تنوّيع الأساليب؛
- تخيّر الألفاظ وانتقاؤها؛

- الإيجاز وحذف فضول الكلام؛
- حسن استعمال المترادفات؛
- مراعاة مقتضى الحال؛
- مراعاة التّناسب بين الألفاظ والموضوعات الخطابيّة[20].

بناء على هذه الشّروط التي وضعها النّاقد أمحمّد صافي، نستنتج أنّ الوعيّ بالأسلوب الخطابيّ ومراعاة شروطه التي تختلف في مجملها عن باقي الأجناس الأدبيّة من القضايا المركزيّة المهمّة في العمليّة الحجاجيّة التّواصلية والتي من شأنّها أن تضمن للخطيب تحقيق أهدافه الخطابيّة ومراميه التّداولية وتمكين مضامين خطابه في كيانات متلقيه قولا وإنجازاً.

2.2.2.الحجج المرتبطة بالمرسل في منجز أمحمّد صافي (الايتوس): بعد بسط القول في الآليات الحجاجيّة والسّياسات الخطابيّة التي ينبني عليها الخطاب الإقناعيّ يواصل أمحمّد صافي التّنظير لمعطى آخر مهم في العمليّة الحجاجيّة، وهي تلك المواصفات والميزّات التي يجب أن يتوفّر عليها الخطيب والتي تساعده على تحقيق أهدافه المرجوة من خطابه، ويندرج هذا الصّنف من الحجج ضمن القيّم والأخلاق والفضائل والمكانة الاجتماعيّة التي يحظى بها المرسل فالأشرار -كما يقول أرسطو- لا يُلتفت إلى خطاباتهم ونصائحهم لأنّهم لا يحظون بالثّقة[21] ويُؤكد أمحمّد صافي في مقامات كثيرة من منجزه على أهميّة هذا المعطى الحجاجي فيقول: «يمتاز الخطيب المِصْقع النّاجح بسمات، ويتميّز بخصائص تؤهله لاعتلاء المنابر

وخوض غمار فنّ الخطابة، وهذه الصّفات منها ما هـو متعلّـق بذاتـه ومنهـا مـا هـو متعلّق بمظهره»[22]، فالخطيب النّاجح هو الذي يقدّم نفسـه بطريقـة مقبولـة وملفتـةٍ لدى متلقيه قبل أن يقدم خطابه، ويُقسم **أمحمّـد صـافي** حجـج الخطيـب إلى **حجـج متعلّقة بالذّات وحجج متعلّقة بالمظهر** ويمكن أن نوجزها في النّقاط التالية:

- **الحجج المتعلّقة بالذّات:**
  - الاستعداد الفطريّ؛
  - مهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعيّ؛
  - طلاقة اللسان؛
  - رباطة الجأش؛
  - القدرة على مراعاة مقتضى الحال؛
  - الجرأة والشّجاعة والثّقة بالنّفس؛
  - صلاح الخطيب؛
  - سداد الرّأي ونفاذ البصيرة؛
  - حسن الخلق والإخلاص والصّدق؛
  - حسن الإلقاء؛
  - الاقتناع الشّخصيّ قبل إقناع الغيّر[23].
- **الحجج المتعلّقة بالمظهر:**
  - وقار لبسه وجمال مظهره؛

- وقار وقفته أثناء إلقاء الخطاب؛
- حسن استعمال الإشارات في موضعها، واتّزان الحركة[24].

وعليه يمكن القول أنّ الضّوابط التي وضعها النّاقد أمحمّد صافي تقع خارج البناء الدّاخلي الخطاب فهي كفايات متعلّقة بذات المرسل من حيث قدرته على توظّيف معطيّات حركيّة وصوتيّة وجسديّة تساعده على شدّ انتباه متلقيه وإقناعهم بما يُعرض عليهم من آراء وأفكار وتوجهات ودعاوي، فالاستعانة بهذه الضّوابط والشّروط التي حدّدها النّاقد أمحمّد صافي من شأنّه أن يُعزّز من الطّاقات الإقناعيّة للخطاب ويمنحه قدرة أكبر على النّفاذ وتحقيق المقاصد.

3.2.2.الحجج المرتبطة بالمتلقي في منجز أمحمّد صافي (الباتوس): اهتمّت النّظرية البلاغيّة المعاصرة بالمتلقي وجعلته مركز العمليّة الحجاجيّة والعنصر المميّز لها إذْ ركّزت على الدّور الحضوريّ للمتلقي قبل وأثناء وبعد إنتاج الخطاب نظراً لأهميّته قي تأويل الخطاب وتفسير دلالته وفكّ شفراته، وتندرج حجج الباتوس ضمن الآليات التي تبحث في نوازع المتلقي وميولاته الطّبيعية التي من شأنّها أن تساعد على تحقيق الإقناع والتّداول، لأنّ مراعاة هذا النّوع من الحجج يجعل المتلقي أكثر استجابة ويسهل من عمليّة اندماجه وتفاعله مع الخطاب، ويُؤكد أمحمّد صافي على أهميّة هذا المنحى الخطابيّ في مقامات كثيرة من منجزه فيقول: «والأَوْلَى بالخطيب النّاجح أن يخاطب النّاس من حيث اهتماماتهم ومعارفهم، ولا يوغل في تفاصيل القضايا نفياً وإثباتاً»[25] ويقول في مقام آخر: «ويجب على الخطيب التّسليم

جدلا بآراء ومسلكيات ينتجها جمهوره، ثمّ يجاريهم في الحوار والمحاجة إلى أن يصل بها إلى شاطئ الاقتناع بما يسوق من أدلة ساطعة»[26]، وقد حدّد النّاقد أمحمّد صافي جملة من الشّروط التي يجب مراعاتها في نوع وشكل وطبقة المتلقين للخطاب يمكن إيجازها في النّقاط التالية:

- الاستدراج؛
- محاورة النّاس بما يعلمون؛
- المشاركة الوجدانيّة؛
- إثارة الفضول[27].

وبناء على هذه الشّروط، نستنتج أنّ نجاح العمليّة الخطابيّة لدى أمحمّد صافي مرتبط بالمسافة الفاصلة بين الخطيب ومتلقيه، فكلما كانت المسافة قريبة تحقّقت المقاصد الحجاجيّة والمرامي الإقناعية التي يروم الخطيب إصابتها، وكلّ ابتعدت المسافة فشل في تحقيق غاياته المنشودة وأهدافه المقصودة.

ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ العمليّة الحجاجيّة لدى أمحمّد صافي هي نتيجة تضافر ثلاثة عوامل مجتمعة، منها ما هو متعلّق بالخطاب (**اللغوس**) في بنائه وشواهده وحججه وأسلوبه وترتيبه، ومنها ما هو متعلّق بالمرسل (**الايتوس**) في أخلاقه وقيّمه ومكانته ونفوذه، ومنها ما هو متعلّق بالمتلقي (**الباتوس**) في البحث عن نوازعه وميولاته ورغباته وهويته وقيمه وعاداته واستثمارها في الخطاب.

3. منجــز أمحمّــد صــافي في ميــزان الدّراســات البلاغيّــة الحجاجيّــة المعــاصرة (التّقاطعات/ التّجاذبات): حظيّت النّظريات البلاغيّة المعاصرة في شقّها الحجـاجيّ باهتمام متزايد وعناية بالغة نظراً إلى الفعالية التـي تتميّـز بهـا في فـكّ مغـالق مختلـف الخطابات الطّبيعية ويكتسي الحجاج أهميّته وزخمه من الوظـائف التـي يضـطلع بهـا داخل مختلف الخطابات إذْ يمنحهـا طاقـات إقناعيّـة وتداوليّـة مـن شـأنها ترسـيخ الأفكار والتّصـورات والمعتقـدات وتمكـين مقتضـيّات القـول في كيانـات المتلقـين تصديقا وإنجازاً، ويرجع فضل السّبق في إعادة الشق الحجاجي للبلاغة إلى (شـاييم بيرلمان وألبرخت تيتكاه) من خلال كتـابهما المشـترك (مصـنف في الحجـاج البلاغـة الجديدة 1958م) الذي أعلنا من خلاله العودة الرّسمية للنّظرية الحجاجيّة كسـلطة إبداعية في الكتابة وممارسة الإقناع، وكمنهج يُحتكم إليـه في قـراءة ومقاربـة مختلـف الخطابات الطّبيعية.

وبعد قراءتنا الدّقيقة والمركّزة لما قدّمه النّاقد أمحمّـد صـافي مـن تصـوّرات معرفيّـة وآليات إجرائيّة في طرق الإقناع والحجاج والمحاجة في منجزه (الخطيب النّـاجح بـين عوامـل الإقنـاع ووسـائل الإمتـاع)، سـنحاول في مقامنـا هـذا رصـد التّقاطعـات والتّجاذبات الموجودة بين ما قدّمه النّاقد أمحمّد صافي وبين التّصوّرات المعـاصرة التـي قدّمها النّقاد للنّظرية الحجاجيّة، مركزين جهودنا على التّصوّرات النّظرية والإجرائيّة.

1.3. التّصوّر المعرفيّ لنظرية الحجـاج بـين أمحمّـد صـافي والدّراسـات البلاغيّـة المعاصرة: تنطلق النّظرية الحجاجية المعاصرة في بناء تصوّراتها المعرفيّة مـن خلفيّـات

منطقيّة وفلسفيّة قام من خلالها الباحث البلجيكيّ **شاييم بيرلمان** بنقد المنطق العقلاني بشقيّه التّجريبي الرّياضي، والتّأسيس لمنطق بلاغيّ فلسفيّ جديد يحتفيّ بالاحتمال ويبتعد عن الضّرورة[28]، ليُعلن بذلك عن قيام بلاغة حجاجيّة جديدة تستظل بالمنطق وتأبي التّقيّد به، فالثّورة التي قام بها شاييم بيرلمان في حقل الفلسفة والمنطق تمّ من خلالها مراجعة شاملة للبلاغة الكلاسيكيّة المتوارثة عن أرسطو وتجاوزه والإعلان عن قيام بلاغة جديدة تستجيب للتّحوّلات التي تشهدها مختلف المجتمعات الإنسانيّة على مستوى الفلسفة والفكر والمنطق والمعرفة والنّقد وهذا التّصوّر الذي قدّمه بيرلمان نجده حاضراً وبقوة لدى مختلف النّقاد العرب: (محمّد العمري، عبد الله صولة، محمّد مشبال، محمّد الوالي، صلاح فضل، الحسين بنوهاشم، وحمادي صمود... وغيرهم، وبناء على ما سبق نستنتج أنّ الخلفيّات المعرفيّة للنّظرية الحجاجيّة المعاصرة تختلف عمّا قدمه النّاقد أمحمّد صافي في نظريّته الحجاجيّة، ويمكن إجمال التّباينات الموجودة بين النّظريتين في النّقاط التّالية:

- يستند الفكر الحجاجيّ المعاصر في خلفيّاته المعرفيّة على نقد الفلسفة والمنطق الصّوري البرهانيّ المغلق، والعمل على بناء منطق حجاجي احتمالي يتسم بالمرونة في مقاربة مختلف الخطابات الطّبيعية؛
- يستند النّاقد أمحمّد صافي في بناء نظريّته الحجاجيّة على خلفيّات تراثيّة محضة (المعجميّة، التّفسيريّة، النّقدية، البلاغيّة، الخطابيّة)، ليؤسّس بذلك لتصورٍ حجاجي يُراعي الخصوصيّة العربيّة التي تختلف عن نظيرتها الغربية.

أمّا على مستوى المفهوم، نجد أنّ جلّ الدّارسين المعاصرين الذين اهتموا بالحجاج أسّسوا أبحاثهم ومفاهيمهم انطلاقاً من المدرسة التي ينتمون إليها، فنجد للمدرسة البلاغيّة مفهوماً خاصاً بها، وللمدرسة المنطقية رؤّيتها الخاصّة، وللمدرسة اللسانيّة مفهوما آخر، وللمدرسة التّداولية مفهوماً خاصّاً بها، فالمدرسة البلاغيّة تعرف الحجاج (بأنّه تلك التّقنيات المودعة في الخطاب والتي من شأنّها أن تؤدي بالأذهان إلى التّسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو تزيد في درجة التّسليم)[29] أمّا المدرسة المنطقيّة فتعرف الحجاج بأنّه (تلك الاستدلالات الطّبيعية التي تتجلى في قوالب لغويّة متّسقة ومنسجمة تسمح بصياغة خطاب قادر على دفع المتلقي نحو القيام بأعمال ينشدها المرسل)[30]، أمّا المدرسة اللغويّة فترى بأنّ الحجاج يتجلى في (الوسائل والإمكانات اللغويّة التي تمدنا بها اللغات الطّبيعية لتحقيق بعض الأهداف والغايات الحجاجيّة)[31] أمّا المدرسة التّداولية فعرفته بأنّه (مذهب يدرس علاقة النّشاط اللغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيّات استخدام العلامات اللغويّة بنجاح والسّياقات والطّبقات المقامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب)[32].

وبناء على ما سبق نستنتج أنّ التّصوّر المعرفيّ للنّظرية الحجاجيّة المعاصرة يتّسم بنوع من الصّرامة في تحديد منطلقاتها المعرفيّة وأسّسها المنهجيّة، لكنها تشترك في الغائية المتمثّلة في تحقيق الإقناع والتّداول وتمكين مقتضيات القول في كيانات المتلقين.

وعليه نستنتج أنّ التّصوّر الحجاجيّ الذي قدّمه النّاقد أمحمّد صافي يختلف عن التّصوّرات المعاصرة ويمكن إجمال هذه التّباينات في النّقاط التّالية:

- تتّسم النّظرية الحجاجيّة المعاصرة بنوع مـن الصّــرامة في منطلقاتهـا المعرفيّـة وأسّسها المنهجيّة؛
- يتّسم التّصوّر الذي قدّمه أمحمّد صافي بـالعموم والشّـمولية، إذْ لمسـنا غيـاب تصوّر منهجيّ واضح لنظريته الحجاجيّة؛
- تنطلق النّظرية الحجاجيّة المعاصرة في التّأسيس لمفاهيمها من خلفيات بلاغيّـة ومنطقيّة ولسانيّة وتداوليّة، معاصرة فوجدنا أنّ لكلّ مدرسة مفهومها الخاصّ الذي يميّزها عن غيّرها؛
- ينطلق أمحمّد صافي في بناء تصوّره الحجاجيّ من مصادر تراثيّة تنمـي للثّقافـة العربيّـة الإسـلاميّة مثـل: (المعـاجم، كتـب التّفسـير، كتـب النّقـد، كتـب البلاغـة الخطابة)، ليؤسّس بذلك لتصوّر حجاجيٍّ له خصوصـيّته العربيـة التـي تميّـزه عـن نظيرتها الغربية، لكنه بالمقابل أهمـل جهـود الفلاسـفة المسـلمين الـذين كانـت لهـم إسهامات مهمّة في حقل الحجاج.

1.3. التّصور الإجرائيّ لنّظرية الحجاج بين أمحمّـد صـافي والدّراسـات البلاغيّـة المعاصرة: يتأسّس الفعل الحجاجيّ في الدّراسـات البلاغيّـة المعـاصرة عـلى علاقـة تخاطبيّة ينخرط فيها طرفان أو أكثر بمقتضـى عقد تواصليّ محكـوم بمجموعـة مـن القواعد والمبادئ المنظمة لهذه العلاقة التّخاطبية، وينبنـي الخطـاب الحجـاجيّ عـلى خطاطة حجاجيّة تتّسم بمنطق متسقٍ ومنسجمٍ يدعم القضايا ويعضـد التّصـوّرات التي يرُيد المحاجج تمكينها في كيانات متلقيه، وقد حدّد علـماء الحجـاج المعـاصرون

جملة من الآليّات المنهجيّة والتّقنيات الخطابيّة التي يجب على المخاطب التقيّد بها أثناء بناء خطابه الحجاجيّ، وهذه الآليّات منها ما هو منطقي يخضع لسلطان العقل، أو ما يُعرف في البلاغة الكلاسيكيّة بالحجج الصّناعية التي تكون من تصرف الخطيب بحنكته وقدرته على تصريف أفانّين القول، ومنها ما هو جاهز يُدمج مباشرة في الخطاب، أو ما يعرف بالحجج الجاهزة، وبناء على ما سبق سنحاول تحديد التّجاذبات والتّقاطعات الموجودة بين ما قدّمه أمحمّد صافي في نظريته الحجاجيّة وبين ما قدّمته النّظرية الحجاجيّة المعاصرة من آليّات إجرائيّة في الجدول التّالي:

المصطلح الحجاجيّ في البلاغة المعاصرة	المصطلح الحجاجيّ المقابل لدى أمحمّد صافي
• (المقدّمات الحجاجيّة: الوقائع، القيّم، الحقائق، الافتراضات، المواضع)؛	• يقابلها مصطلح (**الاستدراج**) لدى النّاقد أمحمّد صافي؛
• (الاختيار، التّشخيص، التّأويل، طريقة العرض، الموجهات)؛	• يقابها مصطلح (**الأسلوب**) لدى النّاقد أمحمّد صافي؛
• (الحجّج المنطقيّة: حجّة التّناقض وعدم الإتّفاق، حجّة التّماثل والحدّ، الحجّة القائمة على العلاقات التّبادلية، حجّة التّعدية حجّة إدماج الجزء في الكلّ، حجّة تقسيم الكلّ لأجزائه، حجّة الوصل السّببي الاستدلال بواسطة التّمثيل)؛	• عدم وجود مثل هذه النّوعية من الحجّج التي تعتمد على العلاقات المنطقيذة في التّصوّر الإجرائيّ للنّاقد أمحمّد صافي؛
• (حجّة الشّخص وأعماله، حجّة السّلطة حجّة الشّاهد، حجّة المثل، حجّة الإتّصال الرّمزي، حجّة النّموذج وعكسه).[33]	• يقابلها مصطلح (**الشّاهد**) لدى النّاقد أمحمّد صافي.

نستنتج في قراءة أوليّة للجدول أنّ التّصوّر الإجرائيّ الـذي قدّمـه النّاقـد أمحمّـد صافي يتقاطع مع التّصوّرات البلاغيّة المعاصرة في بعض التّصوّرات، ويتباين معهـا في أُخرى، فوجدناه يُقدّم تصوراً (للمقدّمات الحجاجيّـة) ممـاثلا للتّصـوّر البلاغـيّ المعاصر من ناحيّة المفهوم والدّلالة، إلاّ أنّه قام بصياغته تحت مصـطلح آخـر أطلـق عليه (الاستدراج)، وهـذا الاختيـار في نظرنـا جـاء مراعـاةً للخصوصـيّة الثّقافيّـة العربيّة، كما قدّم تصوّراً متكاملا لمصطلح (الأسلوب) الـذي ركّـز فيـه عـلى طـرق تقديم المادة الحجاجيّة في قوالب لغويّة، وهنا وجدناه يتقاطع مع التّصوّر الحجـاجيّ المعاصر الذي أطلق على هذا التّصـوّر الإجرائـيّ مصـطلح (طُـرق العـرض)، أمّـا الحجة (المنطقيّة العقليّة) فكانت شبه غائبة في التّصوّر الحجاجيّ الـذي قدّمـه النّاقـد أمحمّد صافي، عكس النّظريّـة الحجاجيـة المعـاصرة التـي احتفـت بهـذا النّـوع مـن الحجّج، أمّا الحجّة الجاهزة، أو ما سمّاها النّاقد بحجّة (الشّاهد) فقد كانـت حـاضرة بقوّة في تصوّره البلاغـيّ، بـل وجـدناه يُبـدع حجّجـاً تتجـاوز مـا قدّمتـه النّظريّـة الحجاجيّة المعاصرة، ويعـود التّركيـز عـلى هـذه النّوعيّـة مـن الحجّـج في نظرنـا إلى خصوصيّة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة التي تحتفى (بحجة النّص) سواء كان (قرآن، أو حديث، أو كلام الصّحابة، أم شعر...).وبناء على ما سبق، نسـتنتج أنّ التّصـوّرات الإجرائيّـة التـي قـدّمها النّاقـد أمحمّـد صـافي لنظريّتـه الحجاجيّـة تمتـاز بالشّـمولية والعموم، عكس التّصوّرات المعاصرة التي قدّمت آليات إجرائية تتّسـم بالصّـرامة المنهجيّة والدّقة في صياغة مصطلحاتها الإجرائيّة.

خاتمة: بعد قراءة فاحصة ومتأنيّة للتّصوّر البلاغيّ الحجاجيّ الذي قدّمه النّاقد (أمحمّد صافي) لمسنا أنّ هذا الأخير ينسج علاقة وطيدة بالأبحاث التي قدّمتها الدّراسات البلاغيّة الحجاجيّة المعاصرة من حيث التّصوّر المعرفيّ والإجرائيّ والوظيفيّ فكلاهما يَنشد ويراهن على تحقيق الإقناع والتّأثير والاستمالة عبر الإمكانات التي تتيحها اللغة الطّبيعية، وبناء على ما سبق يمكننا أن نجمل النّتائج والمحاصيل التي توصلنا إليها في هذه الورقة البحثيّة في النّقاط التّالية:

- يعتمد التّصوّر الحجاجيّ الذي قدّمه النّاقد أمحمّد صافي على خلفيّات عربيّة تراثيّة محضة (معجميّة، تفسيريّة، نقديّة، بلاغيّة، خطابيّة) من حيث المفاهيم والدّلالات التي صاغها لمصطلحات الحجاج والإقناع؛
- ينبني التّصوّر البلاغيّ الذي قدّمه النّاقد أمحمّد صافي على تضافر جملة من العناصر المكوّنة للعمليّة التّواصلية (المرسل، المرسل إليه، المقام، الخطاب) فمراعاة هذه العناصر أثناء العمليّة الإبداعيّة من شأنّه تحقيق الأهداف التّداولية التي يروم المرسل إصابتها؛
- تنحى البلاغة التي قدّمها النّاقد أمحمّد صافي منحى تداوليّا إقناعيّا وظيفيّا إذْ وجدناها في جلّ مراحلها يبحث عن طرائق الإقناع والتّأثير والاستمالة؛
- وجود تباينات معرفيّة بين الدّراسات البلاغيّة الحجاجيّة المعاصرة وبين تصوّر أمحمّد صافي من حيث المنطلقات، فالدّراسات المعاصرة تنطلق في بناء

تصوّراتها المعرفيّة وجهازها المفاهيميّ من خلفيات منطقيّة فلسفيّة، والنّاقد أحمّد صافي ينطلق في بناء تصوّره المعرفيّ من خلفيات تراثيّة عربيّة محضة؛

- وجود تقاطعات على المستوى الإجرائيّ إذْ وجودنا الآليّات الإجرائيّة الموجودة في البلاغة المعاصرة لها ما يُناظرها لدى النّاقد أحمّد صافي ؛
- احتفاء الدّراسات المعاصرة بمختلف الآليات المنطقيّة أثناء فعل المحاجة، في حين وجدنا النّاقد أحمّد صافي يهمل هذا المسلك الحجاجي لاعتبارات مرتبطة بخصوصيّة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة؛
- نجاح النّاقد أحمّد صافي في صياغة تصوّرٍ بلاغيٍّ له خصوصيّته العربيّة التي تميّزه عن باقي الاجتهادات المعاصرة التي تأثّرت بالتّصوّرات الغربيّة للبلاغة.

وفي الأخير نرجو أن نكون قد وُفقنا في التّقريب بين ما قدّمه النّاقد أحمّد صافي من تصوّرات بلاغيّة وبين ما قدّمته الدّراسات البلاغيّة الحجاجيّة المعاصرة، آملين في أنْ يكون ما قدمناه بمثابة إضافة أضاءت خفايا وخبايا الاجتهادات النّقدية للشّيخ أحمّد صافي.

الهوامش:

[1]- يُنظر، أمحمّد صافي، الخطيب النّاجح (بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، دار بن كثير، ط، 1 بيروت، 2018م، ص356.

[2]- حجج الإيتوس هي نوعيّة مخصوصة من الحجج ترتبط بأخلاق وفضائل الخطيب وما يجب أن يتوفّر فيه قبل إلقاء خطابه، وقد حصرها آرسطو في الفطنة والاستقامة واللّطف، يُنظر: حمادي صمود، الحجاج في التّقاليد الغربيّة، مقال لهشام الرّيفي، الحجاج عند آرسطو، ديوان المطبوعات الجامعيّة التّونسيّة، تونس، ص267.

[3]-يُنظر: المرجع السّابق، ص357.

[4] - تتعلّق حجج الباتوس بنوازع المتلقي وميولاته، أيّ هي تلك الحجج التي يتفاعل معها بشكل فطريّ وطبيعيّ، يُنظر: هشام الرّيفي، الحجاج عند آرسطو، ص267.

[5]- يُنظر: المرجع السّابق، ص357.

[6]- تندرج حجج اللغوس ضمن حجج الخطاب، وتنقسم إلى حجج صناعيّة من تصرف الخطيب وحجج جاهزة يُدرجها الخطيب في خطابه مباشرة، يُنظر: هشام الرّيفي، الحجاج عند آرسطو ص230.

[7]- يُنظر: أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح (بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، ص18.

[8]- المرجع نفسه، ص18.

[9]- يُنظر: المرجع نفسه، ص21.

[10]- المرجع نفسه، ص43.

[11]- المرجع نفسه، ص46.

[12]- المرجع نفسه، ص47.

[13]- المرجع نفسه، ص 62.

[14]– المرجع نفسه، ص64.

[15]– المرجع نفسه، ص65.

[16]– يُنظر: المرجع نفسه، ص65/ 66/ 67/ 68.

[17]– ينظر: المرجع نفسه، ص118.

[18]– يُنظر: رولان بارت، قارءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عبد الكريم شرقاوي وعمر أوكان أفريقيا الشّرق، ط، 1، المغرب، 1994م، ص50.

[19]– المرجع السّابق، ص55.

[20]يُنظر: المرجع نفسه، ص61.

[21]– لهشام الرّيفي، الحجاج عند آرسطو، ص267.

[22]– المرجع السّابق، ص59.

[23]– يُنظر: المرجع نفسه، ص 60/ 69.

[24]– يُنظر: المرجع نفسه، ص 69/ 71.

[25]– المرجع نفسه، ص94.

[26]– المرجع نفسه، ص94.

[27]– يُنظر: المرجع نفسه، ص 95/ 97

[28]– يُنظر: محمّد الولي، الاستعارة في محطات يونانيّة وعربيّة وغربيّة، دار الأمان، ط،2 ، الرّباط المغرب، 2111 م، ص366.

[29]– عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، دار الفارابي، ط 2، لبنان، بيروت، 2119 م.

[30]– الرّاضي رشيد، الحجاجيّات اللسانيّة عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر، سبتمبر، ص22 .

[31]– أبو بكر العزاوي، البنيّة الحجاجيّة للخطاب القرآني (سورة الأعلى نموذجا) مجلة المشكاة، العدد 21، وجدة، 2112 م، ص26.

[32]– مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، دار الطّليعة، ط، 1، بيروت، 2005م ص05.

[33]– يُنظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات) مسكيلياني للنّشر والتّوزيع تونس، ط، 1، تونس، 2011م، ص 19/ 40، وينظر، الحسين بنو هاشم، نظريّة الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط، 1، 2014م، ص 43/ 79.

مَعِينُ المِرْيَدِ الصّافِي في شِعرِ أمحمّد صافي

د. محمّد حرّاث

ج. حسيبة بن بوعلي، الشّلف

المقدمة: ما فتئ العلماء قديما، يجمعون إلى العلم والفقه والاجتهاد روحًا من الأدب والشّعر، ذوقًا وقراءةً في أغلبها، وكتابةً وقَرْضًا في بعضِها غيرِ القليل. يأبى الواحد منهم، وهو يُعْمِل العقلَ، إلا أنْ يُرْدفَ القلبَ، وما الشّافعيُّ تمثيلا عنّا ببعيد. وفي المقابل لم يكن من المعقول، وأنت ترى الباحثَ العِلميّ والمفسّر واللّغويّ أمحمّد صافي المستغانميّ يُبحر بين عُبَاب التّفاسير اجتذابًا واقْتضابًا واجتهادًا، وبين عَوَالم الفصاحة والبلاغة والنَّظْم سَائحًا مانِحًا، قادِحًا زِنَادَ الإبداع، وصائلا جائلا بين دفاتر وأسْفار الأوَّلين مُقْتَبِسًا، ثُمّ مُتَمرِّسًا، ثُم مُنْبَجِسًا تأليفًا وتحريرًا أنْ يَتَخَلَّفَ عن رَكْبِ صِنوِه مِن سَلَفِه الأوَّلِين، فيغيبَ عن ساحة الشِّعر ذَوقا وَقَرْضًا.

فالمستغانميّ شاعرا -لِزامًا- لا يَبْرَحُ أنْ يَفْرِيَ فَرْيَهُ في صَوْغِ شَذَراتِ الجَمَال في قوالِبِ الشِّعْرِ المَليح المُنِيفِ؛ وذاكَ مَا نَبغي من مقالتنا هذه الّتي نُحاولُ فيها سَبْرَ أَغْوارِ الرُّوحِ الشِّعريّة الإبداعيّة لدى المُحْتَفى به أمحمّد صافي المستغانميّ، نحلِّلُ فيها، في مقاربةٍ أدبيّةٍ نقديّةٍ تحليليّةٍ جَمَاليّةٍ أسلوبيّة، نُصوصَهُ ولُغَتَهُ الشّعريَّةَ وأسُسَ البِناءِ الشِّعرِيّ لديه، وكذا أهمّ خَصائِصِه الفنّيّة والتّصويريّة، وما يَنْدَاحُ من خِلالها مِنْ آليّاتِ الصِّناعةِ الشِّعْريّة الأُخَر.

1- سَبْرُ المدوّنة وتسْويرها: بعد تواصل مع الأستاذ الشّاعر أمحمّد صافي المستغانمي، حصلنا على بعضِ ما كَتَبَ، ولسبب انشغالاته، لم يستطع التّوصل إلى كلّ ما قرضه من شعرٍ، نتمنّى في قابل الأيّام أن تتوسّع الدّراسة بعد الحصول على شذراتٍ أخرى من شعره، وربّما تجود علينا الأيّام بخبرٍ أنّه طبع ديوانه، فنكونَ على بيّنة أكثر وأنجع من سالفيها. وما حازتْه أيدنا مجموعة من القصائد العموديّة بلغ تَعدادها ثلاثًا وعشرين قصيدةً (23) ونُجْمِلُ القولَ فيها، مرتّبينَ إيّاها بحسب تاريخ كتابَتِها، مؤخّرين منها ما لم نقف على تأريخٍ لها:

1/1- صرخة العراق: (02/ 04/ 2003): يبدو من العنوان موضوع القصيدة، إنّه عراق الحضارة، ترسُّمُ هذه القصيدةُ قوميّةَ الشّاعر وعُروبَتَه ومشاركَته هموم بني جنسه، مطلعُ القصيدة:

إلهي أعنّي فأنتَ المُجيرُ فقدْ جَلَّ خَطْبي وَقلَّ النّصيرُ

قصيدةٌ رائيّة، عدد أبياتها ثمانية عشر بيتا (18)، عموديّة من بحر المتقارب (فعولن 8X). يفتتحها بالدّعاء والشّكوى على لسان العراق الجريح، الذي أفرده إخوانه من الدّول العربيّة، إفراد البعير الأجرب، فراح يُكابِدُ الأمرّين: تسلُّطَ العدوِّ، وتنكُّرَ القريب.

2/1- فتى الإسلام وقدوتُه: (27/ 04/ 2003): قصيدَةٌ تحمل العطف والحنوّ على شباب اليوم، وكأنّي بالمستغانميّ يتمثّل الشّاب المسلم كما تمثّله شيخه الإبراهيميّ، فيُغرق القصيدة بالنّماذج والقدوات التّاريخية والدّينية والعربيّة، فلا

يدع فراغا للشّاب إلاّ وضع له نبراسا في أيّ طريقٍ أراد سلوكها، فإنْ عدلا فالفاروق، وإنْ حياءً فذو النّورين، وإنْ بسالَةً فحيدرةُ، وهلمّ جرّا. قصيدةٌ كالعقْدِ ضمّتْ سبعةً وعشرين (27) حبّةً/ بيتًا، داليّةٌ متبوعةٌ بهاءِ الوصل، من بحر المتدارك (فاعلن 8X)، مطلعها:

أفْــــرَحُ المــــرْءِ قلْبًــــا وأســــعَدُهُ   مســــــلِمٌ يهــــــواهُ مُحمّــــــدُهُ

درجتْ هذه القصيدة على ثنائيّة داخليّة جميلة، وهو ينصح فتى الإسلام، وهي ثنائيّة: (الصّفة= القدوة) إذْ حاول المستغانمي وهو يعدّد مجالات الحياة وصفات المرْءِ فيها، أن يضع قبالة كلّ صفةٍ أنموذجًا يقتديه ويحتذيه الفتى في أوّل طريق، فإن شاء العلم والفقه فهذا معاذ بن جبل، وفي الإقراء والتّجويد ابن مسعودٍ...

1/ 3- غربةُ شاعر: (30/ 04/ 2003): لم يكد شاعرٌ، عاشَ ذلك أم لم يعشه أنْ ينجو من شكوى الغربة أو الاغتراب فهو موضوع يغري بالبوح، وسرد المشاعر، والحنين إلى الأوطان البعيدة، والأزمنة الغابرة، ذات المجد والأحباب. إذن فالعنوان أجلى تِيمة القصيدة، وأشرعَ مصراعيها أمام مسبار المتلقّي. "غربة شاعر" قصيدة عموديّة، عينيّة مشفّعة بهاء الوصل من تسعة عشر بيتا (19) من بحر البسيط (مستفعل فاعلن 4X). مطلعها:

لا تتركيــــه فــــإنّ البــــينَ يوجِعُــــهُ   فــــالبَيْنُ وِقْــــرٌ ولا يُطيــــقُ يرفعــــه

يشكو في هذه القصيدة شدّة وطأة الغربة على قلبه المرهف، ويصف ما عملته المسافات في غور جراحه أكثر من الأفعال دون الأسماء، إذْ أراد أن يهيّج مشاعر

المتلقّي وينقله في حركيّة دائمة إلى غربتِهِ اليباب التي ضربت بأطنابها على قلب الشّاعر، المستغانمي الذي أكلت الغربة شبابه، وهي تنخُرُ شيبَتَهُ.

أهمّ ما ميّز هذه القصيدة ألفاظُ اليأسِ والأسى التي غلّفَتْ حزنَهُ، فراحت القصيدة تعجُّ بمثلِ هذه الألفاظ من قبيل: "لا يُطيق، يكادُ يقتُله، يكاد يقطعه، عِلل تظلّ تفزعه، تولِعه، أضحت حدائقه تبكي، لا شيءَ في الدّنيا يمتّعه، مصائب جمّةٌ والجرح متّسع، وكيف تحلو له الحياة، وكيف يهنأ، تُدَكُّ أضلُعُه، شوقٌ يُصَدِّعُهُ...".

1/ 4- يهوى المحبّون ذِكرَ اللّهو والغزل: (08/ 05/ 2003): هي القصيدة الرّابعة من مدوّنتنا، لم يضع لها عنوانًا، وهكذا دأب مع بعض القصائد الأخريات لكنّه ذكر مناسبتها، فقد قيلت تهنئةً بمناسبة توسيع أحد المساجد، وقد تخلّلها مدح وثناءٌ للممدوح الذي عُني بتوسعة المسجد وأشرف عليه. قصيدة عموديّة لاميّة من عشرين بيتا (20)، من بحر البسيط، مطلعها:

يَهوى المحبّون ذِكْرَ اللّهو والغزل ويَعشقونَ جمالَ اللّحْظِ والمُقَلِ

ما يميّز هذه القصيدة أسلوب المدح، الذي يُعيدُنا إلى قصائد المدح في العصر العبّاسيّ، ويظهر هذا جليًّا في بعض المقاطع، منها:

جاوزْتُ مِقدامَ خيرٍ فاضِلا ورِعًا ولا يُساجِله في الجودِ من مَثَل

قوّالَ حقٍّ وصِدْقٍ حازمًا فطِنًا مُطابقًا قولُهُ لصادِقِ العَمَلِ

أبا أسامةَ قد أسرفْتَ في الكرمِ جاوزْتَ في الجودِ فيضَ الوابِلِ الهَطِلِ

1/ 5 – في ذكرى رسول الله ﷺ (17/ 05/ 2003): لا أدري إن كان هـذا هـو عنوانها، أم مناسبتُها فقط، ولكنّها قصيدةٌ في مدح المصطفى، عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم، يذكر فيها خصاله وشمائله، كما فعل سابقوه وأسلافه في المديح النّبويّ، وهي قصيدة عموديّة بائية بهاء السّكت السّاكنة من بحر الطّويل (فعولن مفاعيلن 4X). من ستّة وعشرين بيتا (26)، مطلعها.

يـــؤرّقني شـــوقٌ أودُّ أغالِبُـــهْ ويُسْـــهِرُني فَجْـــرٌ أبيـــتُ أراقِبُـــهْ

1/ 6 – يا صاحب الحوض العميم تحيّـةً: (25/ 03/ 2004): هـذه القصـيدة كسابقتها، في مدح النّبيّ ﷺ، إلاّ أنّه فاقتهـا جمـالا وروعـةً، قصـيدةٌ بحـقٍّ ينبغـي أن ينحني لها الجمال والإعجابُ، فقد أبدع فيهـا الشّـاعر، فصـنعها عـلى عينـه سـبيكةً خريدَةً مذهّبةً، هي قصيدةٌ عموديّة تقع في ثمانية وستّين بيتا (68) لاميّة بهاء السّكت السّاكنة، التي ولع بها شاعرنا، من بحر الطّويل، مطلعها:

وليـــلٍ بطـــيءٍ أثقلتنـــي كلاكِلُـــهْ ووجْـــدٍ عميـــقٍ أســـهرتْني بلابِلُـــهْ[1]

وهذه القصيدة افتتحها بالشّكوى والاشتياق: "فاضـت دمـوع الشّـوق، هبّـت رياح الحبّ، تكوي مشاعري أحاطت بي الأشجان، أسهرتني..."، ثـمّ ذكـر بعـض المشـاهد والأحـداث مـن السّـيرة النّبويـة: "المجـوس، الـرّوم، الأحبـاش أبرهـةٌ الإسراء..." وبعض صفات النّبي ومعجزاته، فكانت بحقّ قصيدةً فسيفسـائيّة ثريّـة غنيّة بما تعطّر من سيرة المصطفى ﷺ.

من جميل ما جاء في هذه القصيدة، وكلّ ما فيها جميل:

ألا أيّهـــا المحمـــــودُ قبـــل مجيئِـــهِ مقامُـــكَ محمـــودٌ فمـــن ذا يُحاوِلُـــهْ

ويـــا أيّهـــا المـــذكورُ في كـــلّ مجلـــسٍ وذِكْـــرُكَ في القـــرآن مـــن ذا يُعادِلُـــهْ

ولـــدتَ فَعَـــمَّ الخـــيرُ في الأرضِ كلّهـــا وأشرق مـــن نـــور النّبـــوّة عاجلُـــهْ

فصـــاحةُ أهـــلِ الفـــنِّ مِلْـــحٌ بحورُهـــا وبحـــرُكَ عـــذْبٌ قعْـــرُهُ وســـواحِلُهْ

ما يُلاحظُ في هذه القصيدة والتي قبلها، **تشابه** بضع الأبيات، وبعض الأشطر إلى حدّ **التّطابق** في بعضها، وهذا لسبب تشابه الموضوع، وتقارب زمن كتابتها. كما يُلاحظُ فيها **قوّة** إحاطته **وتقليصه واختصاره** لأهمّ أحداث السّيرة النّبوية في قصيدة واحدة، فمن يقرأها سيطّلع على الكثير من حياة نبيّنا ﷺ.

1/ 7– أيا عجمانُ تيهي بحكمةٍ: (03/ 04/ 2004): يمدح الشّاعر في هذه القصيدة مدرسة الحكمة، وإنْ لم يصرّح بها، والقصيدة عموديّة عينيّة، متبوعة بهاءٍ مطلقة، عدد أبياتها ثلاثةَ عشر بيتا (13) من بحر الطّويل، مطلعها:

أيـــا حكمـــةً طابـــتْ ولـــذّت ربوعُهـــا ويـــا دَوحـــةً طالـــتْ ورفَّـــتْ فروعُهـــا

وتحمل القصيدةُ مشاعر جيّاشة، كتبها الشّاعر بهذه المدرسة.

1/ 8– شُعاع أمل في ليل العرب: (19/ 11/ 2004): قصيدةٌ قوميّة، جيّاشة بالعواطف، عموديّة داليّة، من ثمانية عشر بيتا (18)، من بحر البسيط، مطلعها

هـل راقَكُـمْ بعـضُ عيـد العُـرْبِ يـا عيـدُ أمّـــا أنـــا فهـــو لي هَـــمٌّ وتســـهيدُ

و**شكوى الأعياد** سنّة درج عليها الشّعراء قديما، إمامهم فيها القائل:

عيــد بأيّــةِ حــالٍ عــدتَ يــا عيــدُ   بــما مــضى أم لأمــرٍ فيــكَ تجديــدُ

القصيدة حمّلها الشّاعر أطنانًا من الحزن والأسى، فرسم **لوحــةً تراجيديّـةً**، تضـع القارئ رغما عنه في قلب ما يحدُث للعرب.

في كــلِّ يــومٍ مــن الأنبــاءِ فاجعــةٌ   تــذوبُ مــن هولهــا الجُــمَّ الجلاميــدُ

صورةٌ في غايـة الأسـى، أنْ يـذوب الجُلمـودُ الصّـلبُ لهولهـا. ومـا يميّـز هـذه القصـيدة، **كثـرة النّـداءات** والاسـتغاثات والاسـتنجادات بالأبطـال والصّـناديد والمخلِّصين: "فأين أبطالُنا، أين الصّناديدُ، ألا بَطلٌ، ألا كُـماةٌ، ألا حُمـاةٌ..." نـداءات تحمل في طيّتها الضّعف والأسى لما آل إليه حالُنا، وحال إخواننا في الفلّوجـة خاصّـة فهذا **التّكرار** في النّداء بثّ في القصيدة جوًّا مشحونًا بالآهات والآلام.

1/ 9- دعيني أجـلّي مـا تكـنّ الأضـالع (دون عنـوان): (جـوان 2009): هـي قصيدة كتبها بمناسـبة تخـرّج إحـدى دفعـات الثّانويّـة العامّـة في مدرسـة الحكمـة الخاصّة، مادحا فيها الشّيخ حميد بن راشد النّعيمي، وهي قصيدةٌ غرّاءٌ عتيدةٌ، لغتُهـا راقية جدّا، محكمة السّبكِ، وفّق فيها الشّاعر أيّما توفيق، بل إنّ مطلعها ليبهر السّـامع ويأخذ به إلى عصر قوّة الشّعر الأوّل، قصيدةٌ عموديّة، عينيـةٌ، مـن سـتّة عشـر بيتـا (16) من بحر الطّويل، مطلعها:

دعينــي أجــلّي مــا تُكِــنُّ الأضــالِعُ   فقــد طــالَ شــوقي والــدُّموعُ هوامِــعُ

1/ 10 – شِبلٌ همام لا تُعدّ مآثره: (20/ 04/ 2004): مناسبة القصيدة شهودُ وليّ عهد (عجمان) حفل تكريم الخرّيجين في مدرسة الحكمة الخاصّة، التي كان بها شاعرنا مديرا لقسم البنين، فأنشأ يمدح وليّ العهد ويعدّد خصاله، وهي قصيدة عموديّة رائيّة مشفّعة بهاء ساكنة، من اثني عشر بيتا (12)، من **بحر الطّويل، وهو بحر ولع به شاعرنا**، فأكثر من القرْضِ على منواله جاء في مطلعها:

وأكـرمْ بضـيفٍ طالَعَتْنـا بشـائِرُهْ   وشِـبْلٍ هُمـامٍ لا تُعَـدُّ مـآثِرُهْ

1/ 11 – فوزٌ أبو ظبي عظيمٌ ودائم: (24/ 04/ 2010): كُتبت القصيدة بمناسبة فوز مدرسة الحكمة الخاصّة بالمركز الأوّل على مستوى المدارس المتميّزة فأنشأ قصيدةً عموديّة ميميّة من سبعة عشر بيتا (17)، من بحر: الطّويل، مطلعها:

على قـدر أهـل العلـم تـأتي المغـانِم   وللحكمـة الغـرّاءِ تُسـدى المكـارِمُ

وفي القصيدة تناصّات ومعارضات كثيرة لقصيدة المتنبّي، وهذا من براعة شاعرنا المستغانميّ.

1/ 12 – معارضة لقصيدة: وفي السّبعين من عمري: (جوان 2019): مقطوعة شعريّة من عشرة أبيات (10)، يُجيب فيها شاعرنا شيخًا بلغ السّبعين أرسل بقصيدةٍ إلى المجمع يرغب في العمل، جاء في مطلع قصيدة الشّيخ السّبعيني:

وفي السّبعينَ من عمـري   وقـد قـرّرتُ أنْ أعمـلْ

وهـل في ذاك من عيـبٍ   وهـل في ذاكَ ما يُخْجِـلْ

فأجابه من باب **المعارضة**، بقصيدة من الرّويّ نفسه، والبحر نفسه، الهزَجِ (مفاعيلن 6X)، جاء في مطلعها:

أيــــــا ذا الهِمَّـــــــةِ العُلْيــــــا وقــــــد قــــــرّرتَ أن تعمــــــلْ
فــــما عيــــبٌ بــــأنْ تعمَــــلْ وكــــلُّ العيــــبِ أنْ تُهْمَــــلْ
لكــــم منّــــا تحيّــــاتٌ أحبِّرُهــــا بــــأنْ تُقْبــــلْ

ومعارضة الشّاعر دليل على قوّته وقدرته الشّعرية، وعلوّ كعبه في المناجزة والمنافسة، فالمعارضة فيها تحدٍّ في القافية والرّويّ والبحر والموضوع، فيجد الشّاعر نفسه مقيّدًا فوق تقييده الأوّل لو شاء أن يكتب من اختياره، فهذا قيدٌ مُضاعف وقد بان اقتدار الشّاعر في معارضته هذه. بل **جاوز المعارضة الشّعريّة إلى المعارضة الأسلوبيّة** فاقترب من أسلوب الشّاعر الأوّل، وعارضه بأسلوبه، فتظنّها من معينٍ واحدٍ إنْ لم تتثبّتْ قبلُ.

1/ 13 – ألا أيّها القاموس طال غيابكم: (جوان 2019): كُتبت هذه القصيدة بمناسبة دورة التّحرير المعجميّ في الشّارقة، ينشُدُ فيها مشروعًا حضاريًا وقوميًا يخدُم اللّغة العربية: المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، قصيدة عموديّة قافيّة من أربعة عشر بيتا (14) من بحر الطّويل مطلعها:

أقــولُ وقلبــي مســتهامٌ ومشــفِقُ ودمــعُ عيــوني بــالجوى يترقــرق
ألا أيّهــا القــاموس هــل مــن زيــارةٍ تمــنُّ بهــا بعــد البِعــادِ وتُشْــفِقُ[2]

قصيدةٌ مليئةٌ من مشاعر الشّوق والانتظار لبلوغ هذا المعجم المبتغى:

ألا أيّهـــا القـــاموس طـــالَ غيـــابُكم لكـــم في قلـــوبِ القـــارئين تشـــوُّقُ

هجــرتُم ديــار العُــرْب هجْـرًا مطـوّلا عقــودًا مــن التّنظــير والأمــرُ مُقْلِــقُ

وهـــامَ بكـــم عشّـــاق علـــمٍ وحكمَـــةٍ وكـــلُّ مِحـــبٍّ في هـــواكم معلّـــقُ

ويفتح بابًا للأمل والتّحدّي والصّبر وتجاوز المعيقات:

لـــئن فرّقتنـــا أيْـــدُ مكـــرٍ خفيّـــة فـــإنّ دمـــاءَ العُـــرْب لا تتفـــرّق

ويـــا أيّهـــا القـــاري المحـــبُّ لضـــاده هنيئًـــا فأشـــجارُ العروبـــة تـــورِقُ

بقـــاموسِ تـــاريخٍ عريـــق مبجّـــل أحاديثـــه صـــدقٌ وقولُـــهُ أوثَـــقُ

1/ 14- كلّنا لله عبدٌ: (03/ 04/ 2019).قصيدة رثائيّـةٌ، ذات إيقـاع غنـائيّ جميل، أو لنقل حزين، فبعض الغناءِ بكاءٌ. داليّة من اثني وعشـرين بيتـا (22)، مـن بحر الرَّمَل (فاعلاتن 6X). جاء في مطلعها:

لـــــــيسَ في الـــــــدّنيا خلـــــــودٌ كـــــلّ نفـــــسٍ ســـــوف تغـــــدو

نحـــــن في الـــــدّنيا ضـــــيوف ونفـــــــــــوسٌ تُسْـــــــــــتَرَدُّ

وقد أحسن الشّاعر مواساة قلب المفجوع، بكلمات نديّـة رقراقـة، تحكـي القَـدَر المحتوم، وتخفّف من وطأة الحادث الجلّل:

وســـــــهامُ المـــــــوتِ حـــــتْمٌ وقضـــــــــــاءٌ لا يُـــــــــــرَدُّ

لـــــــيس للمـــــــرْءِ خيـــــارٌ كلُّنـــــــــا لله عبـــــــــدُ

خالِـــــــدٌ بـــــــالقبْرِ ضْـــــيفٌ قـــــد حـــــواهُ اليـــــومَ لحْـــــدُ

15 – **لغة التّنزيل**: (29/ 08/ 2019).

من العنوان يتّضح الموضوع، قصيدة تصف اللغة العربيّة وتمدحها وتتغنّى بها وتحكي عن أبنائها، قصيدة عموديّة رائيّة متبوعةٌ بهاء مطْلَقة، تعدادُها تسعةَ عشر بيتا (19)، من بحر الطّويل، جاء في مطلعها:

ورُعبوبَةٍ غيداءَ قَلَّ نظيرُها … وفاحَ بأرجاءِ البلادِ عبيرُها[3]

قصيدةٌ حاول فيها الشّاعر إكرام اللّغة، فارتقى –وكان إذا أراد استطاع– بلغته فجاءَ بها رصينَةً من معينِها الأوّل يُلاحظُ في هذه القصيدة لغةٌ يقلّ استعمالها عهدناها في الشّعر الجاهليّ؛ منها:

لها أعينٌ دُعْجٌ وضيءٌ جبينُها … وإيقاعُها عَذْبٌ وكلُّ أسيرُها

لئن أَجَّ ماءُ البحرِ كُلَّ أُجوجَةٍ … فقد عذُبَتْ أوزانُها وبُحورُها

ويشكو تنكّب أبنائها، وتنكّرهم وتقاعسهم في خدمتها:

فماذا دهى قومي تجاه بهائِها … فما لي أراها اليوم عزَّ نصيرُها

أيا لغةَ التّنزيل عذْرًا مضاعفًا … فإنّ هذيل الشّعرِ غابَ أميرُها

رموا لغة القرآنِ، لوّوا رؤوسهم … وهل يُنْكِرُ النّعماءَ إلّا كَفورُها

1/ 16 – **تحيّةٌ لآل شنقيط**: (01/ 09/ 2019): قصيدة كتبها الشّاعر بمناسبة انعقاد مؤتمر اللغة العربيّة في أفريقيا بنواقشط فدبّج لأهل الشّعر قصيدة عينيّة كأنّها عين الشّعر، من سبعة وعشرين بيتًا (27) من بحر المتقارب، جاء في مطلعها:

سلامٌ زكيٌّ من الأضلُعِ … ودمعٌ سخيٌّ من المَدْمَعِ

وحبٌّ وثيقٌ أقدِّمُهُ … إلى مجلِسٍ مُخْصِبٍ مُمْرِعِ

وما يميّزها أنّها قصيدةٌ غنائيّة إيقاعيّة عذبة جميلة، يحيّ فيها آل شنقيطَ، ويخاطب فيها اللّغة العربيّة، مادحًا إيّاها متغنّيا بأفضالها. ثمّ يعرّج إلى واقعها الأليم.

1/ 17 – زلزال الجزائر: يحنّ الشّاعر إلى وطنه في هذه القصيدة، ويشارك إخوانه مصابهم الجلّل، بعد أن ضرب الزّلزال الجزائر في بداية الألفينات، ويصف مشاهد الزّلزال المروّعة، في هذه القصيدة تمكنّا من معرفة **قدرة الشّاعر الوصفيّة** ويعدّ، وهذا ما نراه، **الوصف** في **الشّعر من أعقد الأغراض وأصعبها وأعسرها على الشّاعر** الشّاعر الذي يجب أن يرسم ويلوّن دون ريشة ودون ألوان، الشّاعر مطالب بأنْ ينقل صورة متحرّكة إلى القارئ، فهو أمام تحدٍّ كبير والمتلقّي المتذوّق، سيعترف بحقٍّ لا مجاملة فيه ولا محاباة بقدرة شاعرنا على التّنقل من حدث إلى حدث، **بلغةٍ واصفةٍ** بديعة فائقة رائقة، تجعل من شاهد الزّلزال أو عاشه يعيد معايشته من جديد كأنّه لم يعشه قبلُ.

قصيدةٌ عموديّة ميميّة حزينة، من إحدى وعشرين بيتا (21)، اختار لها بحر البسيط، المناسب للوصف جاء في مطلعها:

أيا جزائرُ ما دَهاكِ من وَصَمِ ... وما اعتراك من الأدواء والسَّقَمِ

وما أصابكِ من بَلْوى ومن مِحَنٍ ... رماكِ دهرٌ شديدُ البَطْشِ والنِّقَمِ

وللتّدليل على لغته الشّعرية الواصفة الممتعة، نختار بِضْعا من قريضه:

بالأمسِ حربٌ ضروسٌ لم تَذَرْ أحدًا ... واليومَ زلزالُ أرضٍ للدِّماءِ ظَمِي

عَدَتْ عليكِ عوادي الدّهرِ وانهمَلَتْ ... أحداثُ كونٍ وأبْدَتْ كلّ منكَتِمِ

هـــــوتْ قصـــــورٌ ودُورٌ ثَــــمَّ عاليَـــةٌ وصـــارَ صـــاحِبُها مـــن ســـاكني الخِـــيَمِ

وســـالَ دمْــعُ المشــــرّدين منهمـــرا وعـــــضّ كلّهــــم أنامـــل النَّـــــدَمِ

أيـــا جزائِــرُ كـــوني أنـــتِ صــــابرَةً فأنـــتِ أَمٌّ لأهــــلِ الصَّــــبْرِ والكَـــرَمِ

1/ 18– رثاء زايد الخير: قصيدة رثائيّة تبدو من عنوانها، عموديّة عينيّة من بحـر الطّويل، أبياتها واحد وعشرون بيتا (21) جاء في مطلعها:

فـــؤادٌ كئيـــبٌ ضرَّسَـــتْه القـــوارِعُ ودمْـــعٌ حـــزينٌ فجّرتْـــهُ المـــدامِعُ

وخطْـــبٌ جســـيمٌ لا يُطـــاقُ احتمالُـــهُ تهـــاوَتْ لـــهُ الشُّـــمُّ العِظـــامُ الفـــوارِعُ

وهي قصيدةٌ من فصيح وجميل وبديع شعريه، قصيدة قويّـة مـن جميـع جوانبهـا **بلغ فيها شاعِرُنا ذروةَ شعريّته.**

تنضح حكمةً وبراعةً وتصويرا، نختار منها:

ودُكّـــتْ حصـــونُ الخـــيْرِ، ثُلّـــتْ عروشُـــها
وغابـــتْ شـــموسُ الفضْـــلِ، وهْـــيَ ســـواطِعُ

وهـــلْ أحـــدٌ يسْـــطيعُ دفـــعَ منيّـــةٍ
إذا نَشَـــبَتْ أظفارَهـــا أو يُقـــارِعُ

وهـــلْ يـــدفعُ المـــوتَ الشّـــجاعُ ببأسِـــهِ
وهـــل تـــدفعُ المـــوتَ السّـــيوف القواطِـــعُ

إذا مهجَـــةُ الإنســـانِ حـــانَ رحيلُهـــا
توالَـــتْ مآســـيهِ الجِســـامُ الفواجِـــعُ

كأنّك وأنت تقرأ هذه الأبيات تقف أمام المتنبي أو أبي تمّام، أوغل شاعرنا في لغته الشّعريّة أيّما إيغال.

1/ 19 – بذكرك تحلو في الشّفاهِ القصائِدُ (دون عنوان): قصيدةُ مـدْحٍ مهـداةٌ إلى الشّيخ محمّد بن راشد آل مكتوم، عموديّة داليّة، بها ثلاثة عشر بيت (13) مـن بحـر الطّويل، وهو **بحر مناسبٌ للمدح** والثّناء، فالمـدح يسـتدعي التّطويـل والإسـهاب والإفاضة والأطناب، وكلّ ذلك في بحـر الطّويـل لطـول مقاطعـه الصّـوتيّة، وهـو أطول البحور، جاء في مطلع القصيدة:

بـــــذكرك تحـــــلي في الشّـــــفاهِ القصـــــائِدُ

ويحـــــي قـــــديمُ المَجْـــــدِ، والمَجْـــــدُ عائِـــــدُ

1/ 20 – وداعًا يا عثمان: قصيدةٌ يرثـي فيهـا الشّـاعر الدّاعيـة الإسـلاميّ محمّـد عثمان، يائيّة كيائيّة مالك بـن الرّيـب، مـن عشـرين بيتًـا (20)، مـن بحـر الطّويـل مطلعها:

هـو المـوتُ لا يُبقـي مـن الخلْـقِ باقيـا أبـــادَ ملوكًـــا والقـــرونَ الخواليـــا

ذكر في أوّلها أحوال المـوت والنّـاسِ والـدّنيا، وعـرّج إلى مناقـب الشّـيخ ورثـاه بكلماتٍ نديّة:

لـــئنْ لم تُبلّـــغ في الحيـــاةِ المقاصِـــدًا فـــإنّ الإلـــه الحَـــقَّ يـــؤتي الأمانيـــا

أيـــا قـــبْرَ عـــثمانَ الشّـــجاعَةِ والتُّقـــى ســـقاكَ غـــمامُ المُـــزن وَبْـــلا وغاديـــا

1/ 21- **دمعةٌ على حال أمّتنا:** قصيدةٌ عموديّة لاميّة مشفّعة بهاءِ مطلقةٍ، يبكي فيها الشّاعر حالَ أمّته المكلومة، من ستّة عشر بيتا (16)، من بحر الطّويل، مطلعها:

وهاجِرَةٍ أعيا فؤادي دلالُها		وحيّا جناني طيفُها وخيالُها

وإنْ كان **للشّعر سجدةٌ** كما أنّ للقرآن العظيم سجدةٌ، فإنّ القلب طالما سجد عند هذه القصيدة، فإنّ إذا رحتَ تختارُ منها اخترتَ كلَّها، وإذا رمْتَ وصفَها لم تَجِرْ جوابًا، وإذا قصدْتَ تُعليها لمْ ترقَ إليها، قصيدةٌ سبيكةٌ بلغ بها شاعرُنا ذُروةَ القصيدِ ولا مجاملة.

1/ 22- **المعلّم:** قصيدةٌ عموديّةٌ ميميّة، من ستة عشر بيتًا (16)، من بحر الطّويل، يُشيدُ فيها بمقام وريثِ الأنبياءِ، حامِل لواء العلْمِ والأخلاق: المعلّم، ولا يعرفُ لأهلِ الفضْلِ فضْلَهم إلاّ أولو الفضلِ، جاءَ في مطلعها:

وقالوا: نشيطٌ بالثّناءِ، مُكَرَّمُ		فقلتُ: بديعُ الدَّرْسِ، فَذٌّ، مُعَلَّمُ

وقالوا: رفيعُ القَدْرِ، ثُمَّ مميَّزُ		فقلتُ: مكينٌ، ذو علومٍ، مُفَهَّمُ

1/ 23- **نصحتُ بني قومي ونصحي مزلزلُ (دون عنوان):** قصيدةٌ من دون عنوان، عموديّة لاميّة، من بحر الطويل أيضا، عدد أبياتها: ثمانية عشر بيتًا (18) وهي قصيدةٌ قوميّة يتوجّه بها الشّاعر إلى أمّته العربيّة المكلومة المضرّجةُ دمًا بكلّ جرحٍ، ناصحا أبناءَها الأوفياء أن ينفضوا عنهم الغبار، ويأخذوا بزمامها إلى المعالي جاء في مطلعها:

نصحتُ بني قومي ونصحي مُزلزِلُ فإنّي أرى الويلاتِ بالعُرْبِ تنزِلُ
فمالي أرى الأعداءَ جدّوا وشمّروا وأبناءَ قومي بالصَّغارِ تسربلوا

إلى أنْ يقول:

تُحيطُ بنا الأرزاءُ من كلّ جانِبٍ وتُفزِعنا الأنبا بما هو مُعْضِلُ
وإنّ جهادَ العزِّ لا ريبَ كائِنٌ وإنّ صلاحَ الدّينِ لا بُدَّ مُقْبِلُ
وإنّ سماءَ النّصرِ يدْنو صباحُها وإنّ جيوشَ الظُّلْمِ عنّا سَترحلُ

ونقف هنا موقفا يجب التّنبيه والتّنويه إليه، وهو ما يتعلّق **بشعر المناسبات**، فلئن ظن ظانٌّ، ولا ريب بأنّه مخطئٌ، أنّ شعر المناسبات ممّا يُعاب عليه الشّاعر، فليس ذلك كذلك، فشاعرنا، الذي كتب شعره جلّه في مناسبات دعتْه إلى ذلك، وغيره من الشّعراء ممن فعل ذلك، إنّما كان هذا ديدنهم، وأردّ على المُعيب **بمقالتين** ثِنْتَيْنِ، لا أثلّثُ عليهما، وإنْ كانَ التّعديد ممكنا، **فأوّلها** بأنّ الشّعراء المبرّزين الأوّلين، أجزم قاطعا، ما نجا منهم أحدٌ كتب لمناسبة بعينها، بل إنّ أكثر شعرهم شعرُ مناسبات لو أمعن الرّائي النَّظَرَ، وأعملَ البَصَرَ.

ومقالتي الأخرى، تنسف قول القائل: الشّعر ما يكون إلهامًا عند عدم طلبه أجمل من طلبه استجابةً لمناسبة طارئة، فلا غرو في أنّ من يملك ناصية الشّعر، لن تحرجه المناسبات، فأمّا الذي تقهرُه كلّ مناسبة لافتقار جعبته، وخلوّ كنانته من نبل المعاني فلا يغدو هذا الشّاعر مقياسًا ينقاس عليه غيره من الشّعراء، بل أرى الشّاعر وشاعرنا مثلهم، إذا استطاع أن يُسْتجيبَ قريحَتَهُ الشّعريّة، ويتأتّاها متى أراد، وكيفما

أراد، فتلك النّبوغة الشّعريّة والنبوّة الإبداعيّة، وقد اسطاع شاعرنا وقلّ من يستطيع، أن ينبري لكلّ مناسبةٍ قادحا زناد القريض ينشده في كلّ نادٍ، وما ذلك إلاّ دليلٌ على ثراء معجمه الشّعريّ.

2 – **سُلْطَةُ التّناصّ:** يفرض التّناص جيشه وأسطوله على صحاري الشّعراء وبحورهم، فلا يكاد ينفكّ من ربقته شاعر، وما ينبغي له ذلك، فليس الشّاعر بمعزَلٍ عن نصوصٍ سبقته. وللتّناصّ مسوّغات وضرورات وجماليّات كثيرة فالتّناصّ فيه "إثارةُ الذّاكرة وإحياءُ الماضي، وتنوّع المرجعيّات، وإنتاجُ الدّلالة الجديدة، وكذا إثراء اللّغة الحاضرة باللّغة التّراثيّة"[4]. وهو تفاعلٌ بين النّصوص وتواصلٌ بين الأجيال.

وما يُلاحظُ عند عتبةِ القراءة الأولى لشعر المستغانمي، أنّه أبى أن لا يستهلّ إلاّ استنانا واعتضادا بمستَهَلٍّ من عيون الشّعر العتيد، وهذا يُفضي إلى اطّلاع الشّاعر المُحتفى به على ما قالت العرب، وعلى ما اشتهر في ديوانهم، وهذا صنيعُ الشّعراء منذ زمن، يقول المستغانميّ في مطلع (غربة شاعر):

لا تتْرُكيه فإنّ البينَ يوجِعهُ   فالبَيْنُ وِقْرٌ ولا يُطيقُ يرفَعُهُ

يذكّرنا هذا المطلع بمطلع قصيدة ابن رزيق البغداديّ:

لا تَعْذُليهِ، فإنّ العَذلَ يولِعُهُ   قد قلتِ حقّاً، ولكن ليس يسمعُهُ[5]

وفي مطلع قصيدته: في ذكرى رسول اللهّ ﷺ:

يؤرّقني شوقٌ أودُّ أغالِبُهْ   ويسهرني فجرٌ أبيتُ أراقِبُهْ

يحيلنا إلى مطلع قصيدة الخنساءِ المشهور:

يــــؤرّقني التّــــذكّر حــــين أمــــسي فيَردَعُنــــي مــــع الأحــــزانِ نُكْــــسي [6]

وكذلك يذكّرنا بقول الشّاعر البارع البغداديّ:

تركتْنــــي والهــــوى فــــرْدًا أغالبُــــهْ ونــــامَ ليلُــــك عــــن هــــمٍّ يــــؤرّقني [7]

ويقول في أوّل قصيدته: (يا صاحب الحوض العميم تحيّةً):

وليــــلٍ بطــــيءٍ أثقلتنــــي كلاكِلُــــهْ ووجْــــدٍ عميــــقٍ أســــهرتْني بلابِلُــــهْ

يذكّرنا هذا المطلع ببيت امرئ القيس المشهور:

وليــلٍ كمــوجِ البحــر أرخــى ســدوله عــــليَّ بــــأنواع الهمــــوم ليبــــتلي

فقلــــتُ لــــه لّمــــا تمطّــــى بصــــلبه وأردف أعجــــازًا ونــــاءَ بكلكــــلِ

ألا أيّهــــا اللّيــــل الطّويــــل ألا انجــــلِ بصــبح ومــا الإصــباح منــك بأمثــلِ [8]

ولو قال شاعرنا: (وليلٍ طويلٍ أثقلتني كلاكِلُهْ) لكان أوقع في التّأثير وأجمل في التّصوير، فاللّيل دأب الشّعراء على وصفه بالطّول، وأشدّ ما في اللّيل وطأةً طولُهُ.

ويفتتح قصيدته: (دعيني أجلّي ما تكنّ الأضالع):

دعينــــي أجــــلّي مــــا تُكِــــنُّ الأضــــالِعُ فقــد طــالَ شــوقي والــدُّموعُ هوامِــعُ

دعينــــي أكثّــــر حاســــديكِ بحفلَــــةٍ تســلّي حــزين القلــبِ، والقلــبُ خاشــعُ

يفتتحها كصنوه من شعراء الجاهليّة، بخطاب المفترض المؤنّث، يـذكّرنا بقـول الشّريف المرتضى:

وعادلــــةٍ هبّــــتْ عــــليَّ تلــــومني فقلــــتُ دعينــــي والمصــــابَ دعينــــي [9]

أو قول ابن المعتزّ:

دَعيني هَكَذا خُلُقي دَعيني فَما لَكِ حيلَةٌ فيهِ وَلا لي[10]

وأمثلة ذلك كثيرة في الشّعر العربيّ.

ويفتتح قصيدة (فوزٌ أبو ظبي عظيمٌ ودائم) بقوله:

على قدر أهل العلم تأتي المغانِم وللحكمة الغرّاءِ تُسدى المكارِمُ

وهو تناصٌّ بهيّ نديّ مع مطلع أبي الطّيب المتنبّي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر أهل الكرام المكارم[11]

ثمّ يقول في مطلع قصيدته: (لغة التّنزيل):

ورُعبوبَةٍ غيداءَ قَلَّ نظيرُها وفاحَ بأرجاءِ البلاد عبيرُها

يذكّرنا هذا المطلع بقول ابن عربي:

بِهَيفاءَ غَيداءَ رُعبوبَةٍ فُؤادُ الشَجِيِّ لَها تائِقُ[12]

وتناصٌّ كثير في شعره من **غير المطلع**، ينمّ عن ثقافة شعريّة غنيّة، واطّلاع كبير على ديوان العرب يقول في قصيدته: (فوزٌ أبو ظبي عظيمٌ ودائم):

أيا سالِمَ الخيرات دُمْتَ موفَّقًا جبينُك وضّاءٌ وثغرُكَ باسِمُ

ويقول في قصيدةٍ أخرى:

... *** وَنَهْجُكَ وضّاحٌ قويمٌ وقاصِدُ

يذكّرنا هذان العجُزَان من البيت بقول المتنبّي:

وَقَفْتَ وَما في المَوْتِ شكٌّ لوَاقِفٍ كأنّكَ في جَفنِ الرّدَى وهْوَ نائِمُ

تَمُــرّ بــكَ الأبطــالُ كَلْمَــى هَزيمَــةً وَوَجْهُــكَ وَضّــاحٌ وَثَغْــرُكَ باسِــمُ[13]

ويقول المستغانمي أيضا:

وثوبــوا لحســناء اللّغــاتِ جميعِهــا وإنْ تُخطَــبِ الحســناءُ تُحْمَــدْ مهورُهــا

بيتٌ يستدعي كثيرا من أقوال الشّعراء، الذين درجوا على استعمال هـذا المعنى

يقول الجزّار السّرقسطيّ:

مَــن يَخطــب الحَســناء يُغــلِ مَهرَهــا إن الجِســـان فَـــوارِكُ الـــبُخَلاء

ويقول محي الدّين بن عربي:

مــن خطــب الخنســاءَ في خِــدرها مُتــيماً لم يغلــه المهــر

ويقول محمّد صالح الجزائريّ:

ويــرخص في العليــاء نفســاً نفيســة ومــن خطــب الحســناء لم يغلــه المهــر

وأشهر من ذلك قول أبي فراس الحمداني:

وَنَحْــنُ أُنَــاسٌ، لا تَوَسُّــطَ عِنْــدَنَا لَنَــا الصّــدرُ، دُونَ العــالَمين، أو القَــبرُ

تَهُــونُ عَلَيْنَــا فِي المَعَــالي نُفُوسُــنَا وَمَــنْ خَطَــبَ الحَسْــناءَ لَمْ يُغلِها المَهـرُ[14]

ويقول في آخر قصيدته: (المعلّم):

وإنْ أنــتمُ خــالفتمُ أمــرَ ربّكــم فــإنّي إلى قــومٍ ســواكُمْ لأميــلُ

لا شكّ فإنّ عجُزَ البيت يُحيل إلى قول الشّنفرى:

أَقيمــوا بَنــي أُمّــي صُــدورَ مَطِــيِّكُم فَــإِنّي إِلى قَــومٍ سِــواكُم لَأَمْيَــلُ[15]

وفي قوله:

فيا أيّها المبعوث للنّاسِ رحمةً *** ...

استحضارٌ لقول الأنصار، حين هجرة النّبي ﷺ إليهم:

أَقيمـــوا بَنـــي أُمّـــي صُـــدورَ مَطِـــيِّكُم فَـــإِنّي إِلى قَـــومٍ سِـــواكُم لَأَمْيَـــلُ

ومن أشكال التّناصّ أيضا في شعر المستغانمي **استحثاث الـتّراث** في كثير مـن قصائده، ففي قصيدة (صرخة العراق) استحاثَ تراث العـراق العتيـد، ومكتنزاتـه الفكريّة والدّينيّة المتنوّعة، دلّت على ذلك ألفاظٌ مفاتيحٌ منها: (قصـر الرّشـيد، قـبر الحسين، حدائق بابل...)، وفي قصيدة (فتى الإسلام وقدوته) أثخنَ في الاستحاث فما كاد عَلَمٌ في زمن أو مكـانٍ، قـدوةٌ في فنّـه، إلا أشـار إليـه، فعـرّج عـلى (أبي بكـر وعمر، وعثمان، وعليّ، ومعاذ وابن مسعود، والخنساء وأمّ حـرام والشّـافعيّ، وابـن حنبل...) وغيرهم.

وفي قوله، مادحا النّبي ﷺ:

وزُعْـــزِعَ أصـــلُ الشـــرّْكِ واجْتُـــثَّ أصْـــلُهُ

وزُحْـــزِحَ بيـــتُ الشـــرّْكِ، هُـــدَّتْ هياكِلُـــهْ

وأمّـــا مجـــوسُ النّـــارِ فـــانحطّ شـــأنُهم

وخـــابَ عظـــيمُ الـــرّومِ وانهـــارَ باطلُـــهْ

استحضارٌ لمعجزاته حين ولادته، كتصدّع إيـوان كسـرى، وخمـود نـار الفـرس وغيرّها من المعجزات.

3 – **أسلوبيّة العَنونة:** اختيارُ العنوان جزءٌ مهمٌّ لا يُغفله الشّاعر، فهو كتسميّة البنت الجميلة، فإنّ الأذن والعين والقلب يأنفون من جميلةٍ حسناءَ تحمل من الأسماء ما تمجّه الطّباع فكذلك القصيدة. وما لاحظناه على المجموعة الشّعريّة التي بين أيدينا، غياب العنونة في بعض القصائد، كما هو مبيّن في الجدول السّابق، لذا سنشتغل على ما تمّت عنونته من قصائده، لنستشفّ جماليّة العنونة لدى شاعرنا المحتفى به.

كان يغلُبُ على عناوينه الأسلوب الواضح المباشر، فكأنّي بـ المستغانميّ يريد جعل العنوان مفتاحًا طيّعا بين يدي المتلقّي يستكْنِهُ به كوامن ومكامن القصيد، دون تزوية أو تكنيّة، كما يحدُث ويشيع في الشّعر الحديث فغدت عناوينه من قبيل: (في ذكرى رسول الله ﷺ، دمعةٌ على حالِ أمّتنا، المعلّم، كلّنا لله عبدٌ شِبْلٌ همامُ لا تُعدّ مآثره، (تحيّةٌ لآل شنقيط)، كما يُلاحَظُ استخدامه لتركيبة المضاف والمضاف إليه بكثّرة، ومثال ذلك: (غربَةُ شاعرٍ، فتى الإسلام وقدوتُهُ، رثاءُ زايد الخير، شُعاعُ أملٍ في ليلِ العربِ، زلزال الجزائر، صرخَةُ العِراق، لغة التّنزيل). ويُكثِرُ كذلك من أسلوب النّداء في عناوينه، مثل: (وداعًا يا عثمان، أيا عجمانُ تيهي بحكمة يا صاحب الحوض العميم، ألا أيّها القاموس طال غيابُكم).

ولا تخلو عناوينه من شاعريّة رقيقة، فمثلا قصيدته النّبويّة: (يا صاحب الحوض العميم) اختار لها المنادى الاستعطافيّ المدحيّ، وكأنّه يعرّض دون تصريح بحاجتِهِ

إلى الرِّيِّ من كفِّ صاحب الوِرْدِ الشّهيّ، وهو عنوانٌ في حدّ ذاته يحمل شاعريّةً لا تقلّ عن شاعريّة أبيات القصيدة.

4- **جماليّة التّصوير الفنّي**: التّصوير الفنّي هو أعزّ ما يملكه الشّاعر في قصيدته فهو في تصوير المعاني يستوسل بآليات كثيرة كالتّشبيه، والاستعارة، والكناية والمجاز، وغيرها ممّا لا يعدّ ولا يُحصى. وشاعرنا المستغانميّ، أوّل ما يُلاحظُ في شعره، أنّه لم يكن ينظُم لأجل النّظم، بل كانت تظهر في الكثير من أبياته قدرة فائقة عجيبة على تصوير بعض المعاني، نشأت لديه من قوّته اللّغوية، ومن لغته القرآنية ومن اطّلاعه المسهب والمتغوّر في التّراث العربيّ عامّة والشّعريّ خاصّة، ويصعُبُ علينا حصر جميع الصّور الفنّية التي توشّحت بها قصائده، لكن ما من بدّ للذِّكْرِ تمثيلا لا حصرا، فمن جميل ما جاء في شعره، قوله في قصيدته النّبويّة: (يا صاحب الحوض العميم):

ألا أيُّها المحمودُ قبل مجيئِهِ مقامُكَ محمودٌ، فمن ذا يُحاوِلُهْ

استغراقٌ للزّمان والمكان بديعٌ لذيذ، صدر البيتِ هذا، يزنُ قصيدةً بكاملها، إنّه **البيتُ القصيدةُ**، وصورةٌ فنّيّة أخّاذَةٌ. ويقول بعدها:

ويا أيّها المذكورُ في كلّ مجلسٍ وذِكْرُكَ في القرآن من ذا يُعادِلُهْ

وُلدتَ فَعَمَّ الخيرُ في الأرضِ كلّها وأشرق من نور النّبوّة عاجلُهْ

يتواصل الاستغراق المنتهي في المدح، فإنّه وإن كان مذكورًا في كلّ المجالسِ وهذا مدحٌ، ولكن ما بعدهُ يستصغرُهُ، فمن خلّدَ القرآنُ ذِكْرَهُ، يستغني عن غيره من

الذِّكْرِ، فمن ذا يُعادله. وأجمل ما في صدر البيت الأخير الفاء المستعجلة العاطفة بسرعةٍ، دون وقت أو تراخٍ، فما إنْ وُلدَ، حتّى عمَّ الخير، وماذا عمَّ، عمَّ الأرضَ "كلّها" فقد أبدع وأجاد المستغانميّ حين نسج هذا الصَّدر بالفاء ثمّ (كلّها) فهو تطويق للخير زمانا بالفاء ومكانا بالكلّ فهل بعد هذا التّصوير من تصوير؟

ومن جماليّة التّصوير أيضا في القصيدة نفسها:

فصاحةُ أهلِ الفنِّ مِلْحٌ بحورُها وبحرُكَ عذْبٌ: قعْرُهُ وسواحِلُهْ

فالبحر المِلحُ غير البحر المالح، أحسن اختيار اللّغظ المغرقة في المدح، وزاد جمال الوصف في العَجُزِ: قعره وسواحِلُهْ، تفصيل بعد إجمال، لإزالةِ وهم عدم التّعميم والاستغراق عمّن يظنّ ذلك.

5- الالتجاء إلى الضّرورة الشّعريّة: لا يسع المقام إلى ذكر التّعريف والأنواع والأسباب وما يتعلّق بالضّرورة الشّعريّة، فهي صارت من المعلوم لدى باحثينا والمستغانمي، كغيره من الشّعراء، لم يكن بِدَعًا من القَرْضِ إذا ألجأهُ سُلطان الوزن كما ألجأَ سَلَفَهُ إلى بعض الضّرائر الشّعرية، ونكتفي بذكر بعضِها:

يقول في قصيدة (صرخة العراق): (حدائِقُ بابِلْ ينوحُ حماها) فسكّنَها، وشاعَ الفتْحُ نيابة عن الكسرة في هذا الموضع، لامتناعها عن الصّرف، يقول مصطفى صادق الرّافعي:

وأريتِنا من سحرِ بابلَ أعيناً تجري علينا البابلي مشعشعا

إلاّ أنّ أحمد شوقي يتجاوز امتناعها من الصّرف، ويكسرها في قوله:

تِلـــكَ الكُـــرومُ بَقِيَّـــةٌ مِـــن بابِـــلٍ   هَيهـــاتَ نَســـيَ البـــابِلِيّ جَنـــاكِ

ومن الضّرورات التي التجأ إليها، مشاكلةُ القافية في صدر البيت في غير مطلع القصيدة، مثال ذلك:

ومِقْـــدامُ بـــأْسٍ لا يُضـــامُ مُجـــاوِرُهْ   يؤيِّـــدُهُ التّوفيـــقُ والنّصـــرُ صـــاحِبُهْ

ولا أحـــدٌ يمـــشي عـــلى مـــا يُخالِفُـــكْ   ولا أحـــدٌ يَهْـــوى الـــذي أنـــت عائِبُـــهْ

فقد اضطرّه الوزن إلى تسكين ما حقّه التّحريك، وأمثلـةُ ذلـك في قصـائد أخـر.

ومن الضّرائر أيضا تذكير ما حقّه التّأنيث في قوله:

عفــوتَ وكــان العفــوُ منــكَ ســجيَّةً   ورِفْقُـــكَ محمـــودٌ حميـــدٌ عواقِبُـــهْ

6- **جماليّة الإيقاع الدّاخليّ:** يخضع الإيقاع لمقصديّة الشّاعر، ولا يفـرِضُ نفسَـه عليه وإنّما يلجأ إليه الشّاعر ليستكمل به ما لا تستطيع معاني الألفاظ أنْ تؤدّيه مـن الأحاسيس والمشاعر[16]. ويعدّ الإيقـاع أيضـا أقـوى عنـاصر الجـمال في القصـيدة الشّعرية. فالمتلقّي غير العربي يطرب للشّعر العربيّ في جرسـه وإيقاعـه. فـالجمال/ الجماليّة هي الصّفة التي تميّز قيمة الشّعر حسنِه من رديئه، ولا يميّز بـين النصـوص إلا المتلقّي المتذوّق، الذي يفقه خصائص الجمال وميزاته. والجمال هو الذي يُضفي على النّصوص المتعة، التي تجعل النّصّ مقبولا مرغوبا فيه من قِبل المتلقّين، يُقبلون عليه بنَهَم.

أمّا من حيث الإيقاع الدّاخلي الموسيقي الصّوتي للقصيدة فإنّه يتشكّل بتضافر ظواهر صوتيّة عدّة كالتّكرار والتّقابلات التّركيبيّة، وكذا بعض الجناسات، وبعض الحروف الصّوتيّة ذات الدّلالات. وإنْ كان كلّ الشعراء يشتركون في الإيقاع الخارجي، من حيث البحر والوزن والقافية والرّوي، فإنّ مقدرة الشّاعر وتميّزه يظهران على صعيد الإيقاع الدّاخلي، يُظهِر فيه إبداعه وتفوّقه على أقرانه، فقد تجد القصيدة موزونة مقفّاةً، ولكنّها تفتقر إلى البناء الإيقاعي الدّاخلي المُحكَم، فتصبح القصيدةً مجرّد رصفٍ للمباني دون مراعاة للمعاني والإيقاع.

والمعن لكتابات أمحمّد صافي المستغانمي الشّعرية يلحظ بعض الإيقاعات الجرسيّة التي تولّد نغما داخليا ماتعا، فلنطربْ ببعض هذه التّمظهرات الإيقاعيّة منها قوله في قصيدة (صرخة العراق):

إلهي أعنّي// فأنتَ المجيرُ *** فقد جَلَّ خَطْبي// وقلَّ النّصير

فهذا التّشاكل المقطعيّ الصّوتي، يستجليه المتذوّق بسهولة، فكأنّ الشّاعر أعطى المتلقّي وقفة لطيفة وسط الصّدر والعجز، بتقابل متناسق، فيصير البيتُ غنائيا من أربع مقاطع صوتية: (إلهي أعنّي – فأنت المجير – فقد جلّ خطبي – وقلّ النّصير)

وكذلك في أبياتٍ أخر منها:

أبادوا بنِيَّ// أساؤوا إليَّ *** ...

وماتَ الحريمُ// وتاهَ الحليمُ *** وضَلَّ الحكيمُ// وضاقَ الصّبور

وتستوقفنا في البيت نفسه جماليّة الجناس والسّجع والطّباق في كلمتين عبّرتا شكلا ومضمونًا عن حمولةٍ دلاليّة متخمةٍ بالحزن والأسى (جَلَّ=قَلَّ) تناغُم شَكليّ إيقاعيّ، وتضادٌّ ضمنيّ دلاليّ.

ويقول في قصيدة (يهوى المحبّون ذكر اللّهو والغزل):

رَقّتْ شمائلُهُ// جلّتْ فضائِلُهُ *** يسمو إلى قِمم// يرقى إلى زُحل

حييتَ في فرحٍ// وعِشْتَ في مَرَحٍ *** سَعِدْتَ في بدنٍ// ودُمْتَ في جَذَلِ

7- **لُغَةُ الشّاعر وأسلوبه الشّعريّ:** ليس المقام مقام نقدٍ ولا مقام انتقادٍ، وإنّما **مقامُ أسلَبَةٍ ووصْفٍ، وتذوّقٍ وتلقٍّ**، لا معياريّة فيه؛ لأنّ الشّعر إذا التزم صاحبه بشروطه العلميّة، من وزن وقافية وسلامة لغويّة تعبيريّة، فإنّه -**بحسب نظريّ**- سيظلّ شعرا؛ فقد أدّى مَهمّته الأساسيّة المنوطة به: نقل الشّعور ووصفه، ويبقى التّفاوت الجماليّ نسبيًّا ذوقيا لا غير فكم من القصائد تنال الحظوة عن قومٍ، لا يكادُ يعدّها شعرًا من الأصلِ قومٌ آخرون، وكم من قصيدة من شاعر صادقٍ ناح وباح وصاح، فأخرجها كلماتٍ من القلب صادقاتٍ، فاقتْ بتأثيرها في المتلقّين، مستمعين أو قرّاء، غيرَها ممّن لم تؤثّر فيهم عيونَ الشّعر أو قصائد أرباب الشّعر من الأوّلين أو الآخرين. لذا فإنّ الشّعر شعور ولا تفاضل بين المشاعر، إلاّ في صدق التّعبير عنها. فأصدق الشّعر أعذبُه.

وإذا ما رمنا استشفاف بعض تمظهرات أسلوبيّة القرض الشّعري لدى شاعرنا المحتفى به، فإنّنا نقول: لا يكاد يختلف فيه اثنان، ممّن يمعن النّظر في لغة المستغانمي

الشّعريّة، أنّها لغةُ لغويٍّ أكثر منها لغة شاعرٍ متساهلٍ في اللّغة، وربّما كـان مـن سـنّن الشّعر وسَنن الشّعراء أن يجعلوا للشّعر لغته الانسيابية الخاصة. فشاعرنا المستغانمي لم يستطع إخفاء سُلطان عقله على قلبه، فكما عهدنا عن الشّعراء تغليب القلـب عـلى العقل في المسألة اللّغوية في نظم القصيد، فإنّ شـاعرنا أمحمّـد صـافي لم تطاوعـه يـده اللّغوية أن تسمح لليراع بالتّنازل عن بعض الجفاف الذي تفرضه قواعد اللّغة، وأيّ قواعـد، إنّ المسـتغانمي كـان يغـوص إلى عمـق الفصـحى التـي ينـدر السّـباحة في حياضها فيأتي باللّغة متماسكة شديدة التّلاحم، قد تُشكِل على انسـيابية الفهـم لـدى المتلقّي والمتذوّق العاديّ. وربما يرجع ذلك إلى الضمير والمسـؤوليّة اللّـذين يحملهـا بأمانته العامّة لمجمـع اللّغـة العربيّـة بالشّـارقة، ولانشـغاله كـذلك بتفسـير القـرآن العظيم، وهذا واضح في اللّغة القرآنية الطّافحة على شعره.

تتمظهر هذه اللّغة السّيبويهية/ السّيبويّة في نماذج كثيرة مـن شـعره، نـذكر منهـا قوله، في مطلع قصيدة (غربة شاعر):

... *** فالبَيْنُ وِقْرٌ ولا يُطيقُ يَرْفَعُهُ

شَبابُهُ كَسَفَتْ شموسُ بهجَتِهِ *** ...

... *** وكلُّ خَطْبٍ به تُدَكُّ أضْلُعُهُ

أبـلى غضاضَـتَهُ، أفنـى شَـبيبَتَهُ   أشـجى كهولَتَـهُ شَـوْقٌ يُصَـدِّعُهُ

فيجـب عـلى القـارئ أن يستسـيغ حـذف (أن) في الشّـاهد الأوّل، أو في قولـه: (يؤرّقني شوقٌ أودُّ أغالبُهْ)؛ لأنّ اللّغة تسمح بذلك، مع أنّ الشّـعر يسـتثقله، وعـلى

المتلقّي أن يستسيغ التّضايف الطّويل بين الكلمات الأربع في الشّاهد الثّاني، أيضا لأنّ اللّغة تسمح به، ولو ثَقُلَ في لغة الشّعر الحديثة. ولا يجب أن يشكو المتلقّي من الفعل المبني للمفعول في آخر البيت (تُدَكُّ) لأنّ اللّغة تفرضه حتّى تسمح للشّاعر برفع الرّويّ، وعليه أيضا المتلقّي أن يصبر بعد الجمل الثّلاث، ليُجيبَهُ عن الفاعل ليزيد الفاعل المتأخّر (شوقٌ) القارئَ شوْقًا فأتبع المستغانميُّ اللّغةَ الشّعرَ.

وتظهر **اللّغة** جليّا في قصيدته: (فتى الإسلام وقدوته)، إذ تكاد أن تكون القصيدة كلّها رصفًا لغويًّا يحترم فيه الشّاعر اللغّة وقواعدها، زاهِدًا فيما يسمح ويدعو إليه القالب الشّعريّ السّلس النّاعم. فكأنّي به ألبسَ القصيدةَ الأنثى النّاعمةَ البِزَّةَ الخضراء العسكريّة، ووضع بدل (المِكْياجِ) (كُرْباجًا). يقول في مطلعِها:

أفْرَحُ المرءِ قلْبًا وأسعَدُهُ   مسلمٌ يهواهُ محمّدُهُ

عُمر العدل أحسنُ أُسوتِهِ *** ...

يستقي عذْبًا وعلى ظمإٍ *** أعذَبُ الماءِ ورْدًا أبْرَدُهُ

فإنّ صيغة التّفضيل في هذه الشّواهد قد لا يكون هذا موضعها الأمثل، وإن كان لا غبارَ عليها لغةً، فإنّ الشّاعر يتحرّز في لغته الشّعرية أن يبدأ بها قد يثقُلُ على أذن المتلقّي الموسيقيّة، لما فيه من تعقيدٍ لفظيّ تأباه الأذن الشّعريّة، وهذا ناتج عن لغة الشّاعر الجزلة القويّة، التي اعتادت على فخم الكلام وفاخره.

ويقول في موضعٍ آخر:

جـاورْتُ مِقـدامَ خـيرٍ فاضِـلا ورِعًـا ولا يُسـاجِله في الجـودِ مـن مَثَـل

قـوّالَ حـقٍّ وصِـدْقٍ حازمًـا فطِنًـا مُطابقـا قولُـهُ لصـادِقِ العَمَـلِ

فيبدو واضحا تحرّزُهُ في المواضع الإعرابية تقديما وتأخيرًا، وهـذه صـناعةٌ لغويّـة أكثر منها شعريّة. ويبدو التّعقيد اللّفظيّ واضحا في قوله:

علـيمٌ، بصـيرُ القلـبِ دومًـا، مُسَـدَّدُ مَناهلـهُ وَحْـيٌ معـينٌ مَشـارِبُهْ

فلا تستبين المعنى من عجُز البيت خاصّة؛ إلاّ بعد تمكين التّأويل اللّغوي جدلًا.

ويُلاحَظُ في شِعره سمةُ **الوصل والعطف بغير أدوات العطف وحروفه**، هذا وإنْ كانت اللّغة تسمح به فإنّ البيت الشّعريّ يستثقلُهُ إذا أكثَرَ الشّاعر مـن اللّجـوء إليـه هربا من الكسر العروضيّ، ومواضع ذلك كثيرة منها على سبيل التّمثيل لا الحصر:

... *** تُذَلُّ أعاديهِ –تُعَزُّ كتائِبُهْ

... *** قهرْتَ ظلامَ الكُفْرِ –زالتْ غياهِبُهْ

تداعى عليها الظّالمون –تكالبوا *** وعضّت أفاعي الغرب –ثارت عقارِبُهْ

وربّما لم يكن التّنبيه إلى هذا الأمر إلا لكثرته، فأنتَ تـرى في قصـيدةٍ واحـدةٍ كـم عطف فيها الشّاعر بغير عاطف ظاهر، وفي هذا لم يكن خارجا عن أسلوب الشّـعراء المحدثين، فقد غدت هذه المَلْمَحة شائعة في شعر الكثير، عـلى أنّهـا لم تكـن في شـعر الأوّلين من شعراء الجاهليّة إلى غاية العصر العبّاسيّ الزّاهر الأوّل.

وأمّا **اللّغة القرآنيّة** التي أبَتْ أن تفارقَ يراعه، فبحكم تكوينه أولا، وبحكم اشتغاله حاليا بتفسير القرآن العظيم، وهذه سمة محمودة في الشّعراء، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من المصطلحات الإسلاميّة والقرآنيّة ومن المعاني الدّينية، يقول في بعض أبيات قصائده:

إلا فَشُدُّوا ولا تَثّاقلوا أبدًا   بالحبْلِ فاعتصموا، فالحبْلُ ممدودُ
وشارِقَةُ العِلْمِ تدعو له   بِمَقْعَدِ صِدْقٍ غدًا أرفَعِ
لكنْ له أملٌ في اللهّ خالِقِهِ   سبحانَهُ وتعالى سوفَ يُرْجِعُهُ
فيا ربِّ أكرِمْنا ويسِّرْ أمورَنا   فأنْتَ الإلهُ الحقُّ، جلّت مواهِبُهْ

ويغرقُ أحيانًا في **الأسلوب المباشر**، وهذا ما تفرضه عليه بعض المناسبات الطّارئة التي قد لا يُطاوعها الشّعر/ الشّاعر، إذ يكون في حال تأتٍّ إجباريّ للشّعر الذي لا ينقاد بسهولة إلا إذا دعاه الإلهام والوحيُ الباطنيّ وهذه **النّظميّة** لم ينجُ منها حتى الشّعراء المعروفون. ومن أمثلة النّظميّة في شعره، قوله:

يراقبُ الله في الإسرار والعلن   ويرجو النّجاةَ لدى نهايةِ الأجَلِ
أبا أسامةَ قد أسرفْتَ في الكَرَمِ   جاوزْتَ في الجودِ فيض الوابِلِ الهَطِلِ
بنيتَ لله مسجْدًا تُريدُ به   النّجاةَ والفوزَ يوم الرّوع والوجَلِ

فالتّكرار في (الوابل=الهطل)، (الكرم=الجود)، (النّجاز=الفوز)، (الرّوع= الوجَل)، والتّعريف في (السّرّ العلن، الكرم، النّجاة) أغرق القصيدة في بعض مواضعها في النظميّة والأسلوب المباشر. فإنّك تلاحظُ إنسابيّة لو تخلّى مثلا عن

التّعريف في صدر البيت، ليقول: ﴿يراقب الله في سرٍّ وفي علَنٍ﴾ لتلمّستَ بعض الانعتاق من قيود النّثر، ويقول بعد الصّدرِ مُعْجِزًا: ﴿يبغي نجاةً إذا ما حلَّ بالأجل﴾ فيها انسابيّة الشّعر اللّذيذة، فإنّ لغة الشّعر تأبي أن تناظِرَ لغة النّثر.

ومن مظاهر النّظميّة في شعره، بعض **التّكرار** الذي قد لا ينتبه إليه الشّعراء، ولا نقصد التّكرار الإيقاعي الذي يكون مقصودا، فيولّد نغما وجرسا موسيقيًّا، وإنّما ذلك **التّكرار الذي يتّكئ عليه الشّاعر**، فلا يُنوِّعُ من **التّلفيظ** وهذا يعود إلى غناء أو فقر المعجم الشّعري لدى الشّعراء، الذي يتفاوت من شاعر إلى آخر؛ من أمثلة ذلك قصيدته في مدح النّبيّ ﷺ التي في مطلعها:

يــؤرّقني شــوقٌ أودّ أغالبُــهْ	ويُسْـهِرُني فَجْـرٌ أبيـتُ أراقِبُـهْ
ولا أحــدٌ يــدري جليــل محبّتــي	وحِبّــي رســولٌ لا تُعَــدُّ مناقِبُـهْ
وأجلسَــه عرشًــا رفيعًــا مقامــه	ولا أحــدٌ في الأنبيــاءِ يُصــاقِبُهْ
فــلا أحــدٌ يبغــي ســوى مــا تــودُّه	ولا أحــدٌ يمحــو الــذي أنــت كاتِبُـهْ
ولا أحــدٌ يمشــي عــلى مــا يُخالِفُــكْ	ولا أحــدٌ يهــوى الــذي أنــتَ عائِبُـهْ

فالمُلاحَظ في هذه القصيدة الإكثار من قوله: "ولا أحد، فلا أحـد..."، وكـذلك الإغراق في النّداءات في قصيدة (يا صاحب الحوض العميم تحيّـةً) منهـا قولـه: (ألا أيّها المحمود، ويا أيّها المذكور، فيا أيّها المبعوث، ويا أيّها المرفوع، ويا أيّها المنصور، أيـا سيّد الخلق، ويا صاحب الحوض العميم...) وقد تُحمَـل محمـل المناجـاة والتّضـرّع الذي دفعه إليها شوقه إلى (حِبِّهِ).

وقد يمسّ هذا التّكرارُ المعنى، فيُسهِبُ في وصفٍ، فيتكرّر المعنى، يقول مثلا:

... *** وفاضَتْ عيونُ القَلْبِ= سالَتْ بِدَمْعِها

تُغشّي مُحيّاه المهابةُ والرّضى *** فلا مَن يُدانيه= ولا مَن يُقارِبُهْ

... *** وغَنَّتْ بأشعاري الطّيورُ= الحمائِمُ

وقد يمسّ التّكرارُ القالبَ اللّفظيَّ، فيبقى الشّاعر حبيس أنماطٍ معيّنة، يفرضها الوزن والقافيّة على الشّاعر من أمثلة ذلك:

دعيني أكثّرْ حاسديكِ بحفْلَةٍ *** تسلّي حزين القلب= والقلبُ خاشِعُ

أن اليومَ يا أمّي أغنّي بمجمع *** يضمّ وجوه الخيرِ= والخيرُ واسعُ

أغنّي بشعرٍ في جموعٍ مهيبةٍ *** وأروي فنونَ الشّعرِ= والشّعرُ رائع

أمام هُمام ذي جلالٍ وهيبة *** ينادي بفضْلِ العلم= والعلمُ نافع

وهذه الأبيات الأربعة متتاليّة في قصيدة واحدة، أضف إليها أبياتا أخرى متناثرة من البناءِ نفسه، وشاعت في قصائد أخرى. لكنّه لم ينفرد بهذه السِّمة، فقد شاركه فيها كثيرٌ من شعراء العصر الحديث والمعاصر. وإنّما ما كان منها مقبولا، وظهرت في شعر الأوّلين، هو ما كان خاصّا فيتمّ تعميمه أو كان عامًّا فيتخصّص، فإنّ كان كذلك، زان هذا القالِبُ القصيدةَ، وإنْ لم يزد في المعنى فإنّه يعيقُ استطعامَ القصيدَةِ وينفثُ فيها نشازًا خفيًّا.

وممّا زاد القصيدةَ معنًى وجمالاً قولُ شاعرنا:

وهبْنـــــي تجـــــاوزْتُ الحقيقَـــــةَ مادِحًـــــا
أيخفـــى ضــياءُ الصُّــبْحِ؟ والصّــبحُ صــارِمُ

أجادَ الشّاعر هنا حين كرّر "الصّبح"، وليسا في المعنى سواء، فإنّ ضـياء الصّـبح لا يخفى، وكيف يخفى وهو صارمٌ قاطعٌ كلّ ديجور، فكأنّه أكدّ بالثّانية ما قـد يُـداخِلُ الأولى من شكوك.

وقد تظهر في القصائد بعض **ملامح التّكرار الخفيّة جدّا**، وهي التي تمـسّ روحـه الشّاعريّة وأسلوبه الشّعري عامّة، ولا يمكـن استشـفافها إلا مـن خـلال الاطّـلاع الدّقيق على قصائد كثيرة من إنتاج الشّاعر، وهذا ملمحٌ يتشارك فيه شاعرنا مع كثـير من الشّعراء، وليس من العيـوب، وإنّـما غـدا ملمحًـا أسـلوبيًّا خاصّـا بكـلّ شـاعر ونضرب لذلك مثالا: تكثُر في قصائد شاعرنا الفاضل أيقونة: (فلا من كذا ولا مـن كذا)، قد ولع بها الشّاعر فتراه يستحضرها عن قصـدٍ أو اعتباطًـا، في جـلّ قصـائده يقول في قصيدة: (فوزٌ أبو ظبي عظيمٌ ودائم):

هنيئًــــا أيـــــا عجــــمانُ تيهـــي بحكمَـــــةٍ
فـــلا مَــــنْ يـــدانيها ولا مــــن يُـــزاحم

ويقول في قصيدة: (دعيني أجلّي ما تكنّ الأضالع):

يكــــرّمُ أهـــلَ العلـــم في كـــلّ محفـــل
فــــلا مـــــن يدانيـــــه ولا مَـــــن يُنـــــازع

ويقول في قصيدة: (في ذكرى رسول الله ﷺ):

تُغشـــــّي مُحيّـــاه المهابـــةُ والـــرّضى فـــلا مَـــن يُدانيـــه ولا مَـــن يُقارِبُـــهْ

وكذلك يقول في قصيدته: (يا صاحب الحوض العميم تحيّةً):

نبـــــيٌّ أشــــادَ الأنبيـــاءُ بفضــــلِهِ فـــلا مَـــنْ يُدانيـــه ولا مَـــنْ يُســـاجِلُهْ

هذا لا يعني خلوّ شعره من الرّوح الشّعريّة النّديّـة، بـل إنّنـا وقفنـا عـلى لمسـات شعريّة فائقة بارزة، استنَّ فيها شاعرنا بسَنن الأوّلـين مـن الشّـعراء، ففـي قصـيدة: (يهوى المحبّون ذِكر اللّهـو والغـزل) التـي كـان موضـوعها التّهنئـة بتوسـعة أحـد المساجد، أبى الشّاعر إلا أن يحذوَ حذو الشّعراء الكبار، بمقدّمة غزليّة نديّة، تنفـذ إلى القلب ولها سُلطانُ الجمال عليها، يقول ويبدع:

وكيـــف يسْـــلَم مـــن جـــراحِ حـــبّهمُ قلـــبٌ أتـــى الحَـــرْبَ دون السّـــيفِ والأسَـــلِ

وأجاب عُذّالَه فقال:

... *** مَن يركب الحُبَّ لا يخشى من العَذَلِ

"إنّ المُحـــبّ عـــن العُـــذّال في صَـــمَمِ أنـــا الغريـــقُ فـــما خـــوفي مـــن البَلَـــلِ"

استنادٌ ذكيّ بهيٌّ واقتباس ملـيحٌ مُنيـف. وانظـر معـي إلى هـذا التّـأخير اللّذيـذ المشوّق الممتع، في قوله:

نبـــــيٌّ، إذا أهـــــلُ المـــــروءَةِ أجـــــدبوا وَشَـــحَّ بنـــوا الأخيـــارِ؛ جـــادَتْ سَـــحائِبُهْ

بيتٌ خريدةٌ حسناءُ من كلّ جهةِ حُسْنٍ، انظر إلى الفخامة في اللفظة التي ابتدأ بهـا البيت، التّنكير أعطى الكلمة استغراقا وتحدّيا منقطـع النّظـير، يعرفهـا أهـل الـذّوق

(نبيٌّ)، تنطِقها ثمّ تتوقّف، لتعدّ وتصف حالَ غيره إذا تنكّبوا، وأيُّ غَيْرٍ، إنّهم المَظْنُونُ منهم ما ضَنّوا به، فإذا أهل المروءةِ تنكّبوا، وأهل الكرم بخلوا، هنا تأتي العبارة التي أخّرها لتنسف ما قبلها: (جادَتْ)، وأيُّ جودٍ، جودُ السّحائِب المُزنِ تهمي وتفيضُ على المستقين وزاد جمالَ البيتِ الجمع في سحائب، فليست سحابةٌ ولكنّها سحبٌ تَتْرَى وسحائِبُ.

وقد يرتقي بالبيت إلى لغة فطاحل الشّعراء، ألا ترى ذلك جليًّا في قوله:

شجاعٌ إذا ما الحرْبُ نادَتْ رِجالَها وسيفُ طِعانٍ لا تُفَلُّ مضارِبُهْ

ويُجيدُ الوصف مادِحًا، فيقول:

إذا حَلَّ في عجْمانَ ضَيْفٌ مُؤمِّلٌ أشارتْ إلى بيت الأمير الأصابعُ

أجمل ما في هذا البيت الأسلوب الشّرطيُّ، وكذا متعة تأخير (الأصابع)، ودلالة التّناص الخفيّة في البيت المؤمَّلٍ، أيُقرى وحُميدٌ في عَجْمانَ؟

وعلى ذكّر **الأسلوب الشّرطيّ**، ولمّا كانت **الجملة الشّرطيّة/ التّركيب الشّرطي/ تلازم المعاني**، من أكثر وأهمّ ما يميّز الشّعر الجاهليّ وما بعده، فإنّ شاعرنا لم يتنكّب عن هذا السَّنَن، وإنّما عجّتْ، كما فعل سلَفه قصائده **بتلازمات المعاني وترابطِها وتشارُطِها**، وهذا من جماليّات القصيدة العربيّة، بل لا تكاد قصيدة تخلو من أساليب الشّرط، وكان في كثيرٍ منها يبدِع في صياغتها، وفي استوساها لتحقيق المعاني الشّعرية التي يروم التّعبير عنها. نمثّل لها بنماذج مختلفة من قصائد مختلفة:

ولوْ أنَّ أحزانًا تردُّ من انتهى لردَّتْكَ للدُّنْيا العيونُ الهوامِعُ

مقايَضَةٌ المحتوم (الموت) بأغلى ما يمكنُ التّضحية به (النّفس/ الدّمع)

لـئنْ كـانَ أبطـالُ السّياسـات قِلَّـةً   فإنّـكَ في دنيـا الْمُلـوكِ لواحِـدُ

مقابلةٌ الكثير، بواحِدٍ فرْدٍ، كأنّهم عندَهُ فَرْد، وهو جمْعُ في جلالَةٍ وفي حَشَمٍ.

لـئِنْ حسُـنت مـن قبـلُ فيـك المـدائِحُ   لقـد أبـدع الرّاثـونَ فيـكَ المَراثيـا

لـئنْ عـدّد الأحبـابُ فيـكَ المحاسـنا   لقـد أبعـدَ الأعـداءُ عنـكَ المسـاويا

بيتان رائعان، جمع فيها شاعرنا بين أبعد شيئين، زمانا ومكانـا، فـأنعِمْ بـه مادِحـا وأبشرْ له ممدوحًا، فإنْ كانَ المَدْحُ وهْوَ حيٌّ فيهِ حَسَنًا، فإنّ رثاءَهُ، وهو ميتٌ، أحسـنُ أحاطَ الشّاعر بالحياتين والقولين مدحا ورثاءً في بيتٍ واحد، ولَعَمْري، ما بعـده يَبُـزُّ ما قبْلَهُ، وإنْ كانا في سماءِ الإبداعِ يعتلجان، جمـع بـين الفـريقين المتباعـدينِ مشـرقًا ومغربًا، لئنْ عدَّدَ الأحباب، وما يستطيعون، محاسنَه وأفضالَه، فذاك فريـقٌ آخـر، لا ينفكُّ ينفي عنه المساوئَ، فأيُّ ممدوحٍ رأيتَهُ جَمَّعَ ما استجْمَعَ لممدوحِ المستغانمي وإنّـه لذو حظٍّ عميم. ولا تُطاوعني قريحتي، إلاّ أنْ أتنصَّصَ:

لـئنْ حَسُـنَتْ مـن قبـلُ فيـكَ مـدائِحٌ   لقـد أحْسَـنَ الرّاثـونَ فيـكَ مراثِيَـكْ

والتّنكير في هذا أجمل، وليس في الثّاني (المساويا) إلا التّعريف، تنزيها، فلا تنسـب إليه (مساويَكَ) إنْ كنتَ تنفيه عنه بعدُ.

أجبـتهم ودمـوع العـين تنهمـلُ   مـن يركـب الحـبّ لا يخشـى مـن العَـذَلِ

من يخطُبِ الحسناءَ يعطِ مهرَها، ومن يركَبِ البَحْرَ لا يخشـى مـن الغَـرَقِ، ومـن يركب الحبَّ لا يضيق من العَذَلِ. جوابٌ يقول لتُهمهم: رُفِعت الجلْسة.

وإنْ أنــــتمُ خــــالفتمُ أمــــرَ ربّكــــم   فــــإنّي إلى قــــومٍ ســــواكُمْ لأميــــلُ

يستحسِنُها الشّنفرى لو كانَ حيًّا، وأنعم به من اعتزال.

8 – سَجْدَةُ شِعْرٍ: (في رِحاب قصيدة: دمعةٌ على حالِ أمّتنا).

ذكروا أنّ الفرزدق مرّ بمسجدٍ، وعليهِ رجلٌ يُنْشِدَ قصـيدةَ لبيـدٍ، التـي مطلعُهـا: "عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فمُقامُها" فلمّا بلغ قولَهُ:

وَجَــلَا السُّــيُولُ عَــنِ الطُّلُــولِ كَأَنَّهَــا   زُبُــــرٌ تُجِــــدُّ مُتُونَهَــــا أَقْلَامُهَــــا

سجَد الفرزْدَقُ، فأنْكَرَ عليهِ من بالمَجْلِسِ، فقالَ: مَا لَكُـمْ! أَنْـتُمْ تَعْرِفُـونَ سَـجَدَة الْقُرْآنِ، وَأَنَا أَعْرِفُ سَجَدَة الشِّعْرِ وَهَذَا مَوْضِعُ سَجْدَةٍ[17]، ولسانُ حالِـهِ وحـالِ كـلّ مذواقٍ: وإنّي لأعرف موضع السّجدة من الشّعرِ كـما تعرفـون موضـع السّـجدةٍ في القرآن. وحكوا أنّ الحُلّيّ قَدِمَ الموصل، وجاءه أهلها، فأنشَدَهُ رجلٌ شـعرا فاسـتَجادَهُ فسألَ جليسَهُ أنْ يقولَ مِثْلَهُ، ففكّر ساعةً ثمّ قال:

ومــا كــلُّ وقــتٍ فيــه يســمح خــاطري   بــنظم قــريضٍ يقتضــي لفظُــه معنًــى

ولم يُــبِح الشــرّعُ المُبــين تَــيمُّمًا   بــتُربٍ وبحــرُ الأرض في ســاحةٍ معنــا

فقال له الحليّ: ويحك اسـجد، ويلـك اسْـجُدْ، فـإنّ هـذا موضـعٌ مـن مواضـع سجدات الشعر، وأنا أعْرَفُ النّاسِ بها[18]. ولم يكتفِ العرب بالسّجود، مجازًا للشّـعر بل ذكروا أنّ أبا عمرو بن العلاء قال: "كانـت العـرب إذا أرادتْ أن تُنْشِـدَ قصـيدة المُتَلَمِّسِ توضّؤوا لها:

تُعــيّرُني أمّــي رجــالٌ ولــنْ تــرى   أخــا كَــرَمٍ، إلا بــأنْ يَتكَرَّمــا[19]

وما كنتُ لأختار من بين قصائده هـذه القصـيدة، إلاّ لمواضـع السّـجدات فيهـا يحارُ القلبُ فيها مشدوهًا. ونختم بها، وما أجمله ختـامٌ، بقصـيدة القصـائد، قصـيدَةٌ تأخذُ بلبّكَ وأنت ترفُلُ في إيوانِها، وترتَعُ في رياضِها، لغةٌ راقية عتيدَةٌ رصـينة مكينـةٌ بليغَةٌ، وهاجرةٍ، تذكّرُنا بعيون الشّعر، يبدأ بهـا الشّـعراءُ الفحـول شـعرَهم: "وليـلٍ كموجِ البحر وقائِلةٍ لمّا أردتُ وداعها، وعاذلةٍ هبّتْ بليلٍ تلومني ... ؛

وهــــاجِرَةٍ أعيـــا فـــؤادي دلالُهـــا   وحيّـــا جَنـــاني طيفُهـــا وخيالُهـــا

تبديلٌ ذكيّ ماتع بين الفؤادِ والجَنانِ تجنُّبًا للتّكـرار، فـؤادٌ أعيـاهُ عـذْبُ الـدّلالِ وأعيته تحيَّةُ الخيالِ العابرِ والطّيفِ الغابِرِ.

أهاجَــتْ فــؤادًا طــالَ بــالأمسِ سُــقْمُهُ   وســيّانَ عنــدي: هَجْرُهــا ووصــالُها

ما أعذب الهمز في الإهاجَةِ، لغةٌ قديمَةٌ أحياها، وما أعذب تأخير السّقْمِ، كأنّـه لا يريدُ العَتَـبَ عليهـا وأجمـل مـنهما، التّفصـيل في العَجُـزِ، سـيّانِ عنـده الحالتـان: إنْ هَجَرَتْ، وإنْ وصلتْ، فكلاهما سُقْمٌ وعذابٌ. ويكفيها عذرا أنْ أعادت شاعِرنا إلى سالفتِهِ، بعدَ فتْرَةٍ من فتورٍ تصريف فنون الشّعر ونظْمه:

وعـــاوَدَني شِـــعْرٌ رقيـــقٌ هَجَرْتُـــهُ   وأبْـــرَأَ سُـــقْمي دَلُّهـــا وجَمالُهـــا

وَحَـــرَّكَ وِجْـــداني وفاضَـــتْ مشـــاعِري   وأذْهَـــبَ غَمّـــي ذِكْرُهـــا ومَقالُهـــا

عـــلامَ البُكـــا يـــا صـــاحبي، ولمَ الأســـى   وأفْجَـــعَ قلبـــي سُـــؤْلُها وسُـــؤالُها

وأنعِمْ به من تقابلٍ إيقـاعيّ جميـلٍ، بـثَّ في القصـيدَةِ نغـمًا إلى نغمهـا، ووتَـرًا إلى عودِها. ثمّ يوغِلُ بالطَّعْنِ في كَبِدِ الكلماتِ، فتُدْمي على يديهِ:

فقلتُ:

-ولم أملِكْ سوابِقَ عَبْرَةٍ- حياتي ليالٍ غابَ عنها هلالُها

وآلمني دينٌ مهيضٌ جناحُهُ وسَحَّتْ عيونُ الشَّرع][زادَ انهمالُها

أبدَع في تأخير الفاعلين، أورَثها أسلوبا رائقا، وزادت الجملةُ الاعتراضيّةُ المقامَ بهاءً، وكان العطفُ بغير أداةٍ في هذا المقامِ مناسبًا، تُعطي سَكْتَتُهُ مجالًا لتنهيدَةٍ طويلة.

أيا ريمَ نَجْدٍ، حدّثينا وأوجزي عن الشِّرْعةِ الغرّاءِ: كيفَ مآلُها

ما أجمل السّكتتين (، :) في هذا البيت، بعد النّداء سكتةٌ ننتظر بها التفاتة الريم المنشودة، وسكتةٌ تفكّر فيها النَّفْسُ تحضيرا لسؤال الحسرة والعَبْرَة. وما أحَنَّه نداءٌ: أيا ريمَ نَجْدٍ.

وتأتي القفْلةُ الأخيرة، تجيبُ كلَّ جيلٍ، تَعَاقب الزّمانُ عليه، أو تغيّرَ المكانُ حوله:

ولكنَّ مجْدَ الدّينِ لا بُدَّ عائِدٌ وشِرْعَتُنا الفُضْلى، ونحنُ رِجالُها

قُفْلٌ يُجيبُ كلّ سؤال، ويزيلُ كلّ دهشة، وحيرة، وتعجّب، وشكّ، قفلٌ يضع الغدَ في اليَدِ، ويضمّخُ المستقبَلَ بالأمل. وليتَ شِعْري، فهذه قصيدة القصيد.

على سبيل الختام: أمّا بعدُ؛ فهذه مقالتي، أنجزتُها على عجَلٍ ووجل وأمل، عجلٌ إذْ تداركنا الوقتُ وعضّنا بأنيابه، ووجلٌ إذْ تَجاسَرْنا على مقام أستاذنا الفاضل أحمّد صافي المستغانمي خادم العربيّة وفارسها، وأملٍ في أن نقدّم أستاذنا الفاضل شاعرًا ونفتَحَ بابًا من نورٍ جليل من أنوارِ جهودِهِ وعلْمِه. وأعترفُ أنّني ما ألمْتُ إلا لِماما فذكرتُ المثالَ ليُغنيَ عن مثيله ومشابِهِهِ، وأذكر الإشارةَ فتغني عن التّفصيل والشّعرُ يستعصي على وريقاتٍ وأيامٍ قلائلَ، يحتاجُ جهدًا كبيرا، ووقتا كثيرًا وكلامًا غزيرا.

ثمّ أمّا بعدُ أيضا، لقد كان، لَعَمْري، المستغانميّ شاعرًا مِقوالا مُفَوَّهًا مِصْقَعًا خِنْذيذًا مُفْلِقًا مُبَرّزًا، مُبينًا فصيحًا بليغًا، بارعًا مُبدِعًا مُمْتِعًا، ذا قَريحَةٍ قادحةٍ، وذا كعْبٍ عالٍ، حائزًا قَصَبَ السّبق، غارِفًا من نَهْرٍ رقْرَقٍ سبّاحًا في بحار الشِّعر لم يغْرَقِ صائلًا جائلًا بين المعاني والألفاظِ، كأنّما يَمْتَحُ من مَعينِ عُكاظٍ، وهذا غَيضٌ من فَيْضٍ، وشَرارةٌ من حريقٍ، وقُراضَةٌ من تبْرٍ، وبَرْضٌ من عِدٍّ، ونقطَةٌ من بحرٍ، ورَذاذٌ من وَبْلٍ، ورَشاشٌ من سَجْلٍ، هذا مقالي قُبالَةَ مقالِه، فإنَّ البديعَ من مقاله أكثرُ من المَدِّ إذا سالَ، يَسْتنِفِدُ الأقلامَ قبْل التّمامِ، ويُفني الأعمارَ قبْلَ بلوغِ المِعشار.

كيف لا، وقد غدا المستغانميُّ للدّينِ مَفْزَعا، وللعِلْمِ مَجْمَعًا، العِلْمُ حَشْوُ ثيابِهْ والعقْلُ ملءُ إهابِه، والأدَبُ ماثِلٌ في شَخْصِهِ، والوقارُ بادٍ في لَحْظِهِ، والضّادُ مزهوَّةٌ في قريضِهِ، رَفَعَ الحرفَ من حضيضِهِ، وقوَّمَ المعنى من مُتَقَيَّضِهِ. وفي هذا المقالِ —ختامًا— سُلْوَةٌ لَملولٍ، وغَنْوَةٌ لُمْستَقِلٍّ، ومَعِينٌ صَافٍ من المِرْبَدِ، واللهُ من وراءِ القَصْدِ والصّلاةُ على النّبيّ محمّدِ.

الهوامش:

[1]– مجلّة العربيّة لساني، مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، السّنة الثّانية، العدد السّادس، 2021 ص108 .109

[2] – مجلّة العربيّة لساني، مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، السّنة الأولى، العدد الثّاني، 2019، ص73.

[3]– مجلّة العربيّة لساني، مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، السّنة الثّانية، العدد الرّابع، 2020 ص122 .123

[4] – جماليّات التّناص ودلالاته، قرنوط الحسين، مجلّة المداد، جامعة الجلفة، الجزائر، المجلّد4 العدد2 ص194.

[5] – مصارع العشّاق، أبو محمّد السّراج القاري البغدادي، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، ص23.

[6]– ديوان الخنساء، شرح: أبو العباس ثعلب، تح: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمان، الأردن، ط1 1409ه/ 1988م، ص325.

[7]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمّم، ابن الجوزي، تح: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط1، 1412ه/ 1992م، ج17، ص259.

[8]– ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح: أبو سعيد السّكريّ، تح: أنور عليان أبو سليم ومحمّد عليّ الشّوابكة، مركز زايد للتّراث والتّاريخ، الإمارات، ط1، 1421ه/ 2000م، ج1، ص239- .241

[9] – ديوان الشّريف المرتضى، شرح: محمد ألتونجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1417ه، 1997م ج3، ص438.

[10]– ديوان أشعار الأمير أبي العباس المعتزّ بالله، تح: محمّد بديع شريف، دار المعارف، القاهرة مصر ج2، ص295.

[11] – ديوان المتنبّي، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1403ه/ 1983م، ص385.

[12]– ديوان ترجمان الأشواق، محي الدّين بن عربي، اعتنى بـه: عبـد الـرّحمن المصـطاوي، دار المعرفـة بيروت، لبنان، ط1 1425ه/ 2005م، ص159.

[13]– ديوان المتنبي، ص387.

[14]– ديوان أبي فراس الحمداني، شرح: خليـل الـدّويهي، دار الكتـاب العـربي، بـيروت، لبنـان، ط2 1414ه، 1994م، ص165.

[15] – ديوان الشّنفرى، تح: إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنـان، ط2، 1417ه/ 1996م، ص58.

[16]– جماليّات الإيقاع وأبعاده الدّلاليّة في الشّعر العربيّ، سعيد عكّاشة، مجلّة جسـور المعرفـة، جامعـة الشّلف، المجلد2، العدد6 ص41.

[17]– كتاب الأغاني، أبو فرج الأصفهاني، تح: إحسان عبّاس وآخران، دار صادر، بيروت، لبنـان ط3 1429ه/ 2008م، ج15 ص253.

[18] – معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديـب، يـاقوت الحمـوي، تـح: إحسـان عبّـاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ط1، 1414ه/ 1993م، ج4، ص1695.

[19]– طبقات النّحويين واللّغويين، أبو بكر الزّبيدي، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعـارف ط2 ص39.

قراءة تحليليّة مقارنة في (كتاب الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) لـ أمحمّد صافي المستغانميّ

د. محمّد خاين

ج. أحمد زبانة. غليزان

الملخص: تروم هذه الورقة تقديم مقاربة للكتاب المشار إليه في العنوان أعلاه وذلك من خلال قراءة تحليليّة مقارنة في ضوء المنجز الخطابيّ العربيّ المعاصر، بغيّة مَوْضعته ضمن الموقع الذي هو أهل له. ونقصد بالمنجز الخطابيّ كتابين الأوّل منهما للدّكتور عبد الجليل عبده شلبي والموسوم بـ(الخطابة وإعداد الخطيب) والثّاني بعنوان فنّ الخطابة لإيليا الحاويّ).

وستكون زاوية التّناول منصبّة على المنهج والمحتوى باعتبار أنّ كتاب الخطيب النّاجح اشترك مع العملين المشار إليهما، في تناول الإشكاليّة ذاتها ممثّلة في: ماهيّة الخطابة ومقوّماتها، ومعارف الخطيب وعوامل نجاح الخطبة في العصر الحديث؛ أيّ أنّ صاحبه أراد له أن يكون بمثابة دليل إرشاديّ لكلّ من يتصدّى للخطابة في أيّ ميدان من ميادين الحياة المعاصرة، وقد طعّمه بتجربته الشّخصيّة. يضاف إلى ما تقدّم أنّ الفصل الثّاني من الكتاب سار على نهج الكتابين المذكورين حيث قدّم نماذجَ متنوّعة لخطب ناجحة في مختلف الأغراض والفنّون والعصور.

تأسيسا على ما تقدّم فإنّ عملنا سيحاول رصد عناصر التميّز في كتاب الخطيب النّاجح والإضافات التي قدّمها بالنّظر إلى سابقيْه.

1 -توطئة: يعمل كلّ من يتصدّى للشّأن العامّ من قادة الرّأي وأساطين الفكر على أن تصل مضامين ما يعرضونه على متلقّيهم صافيّة خاليّة من أيّ لبس أو تشويش بعيدة عن كلّ ما يعيقها أثناء عمليّة التّبليغ، لغة ووسائط وحضور شخصيّة. ومن ثمّة كانت الخطابة ومن ورائها إعداد الخطيب النّاجح السّبيل الموصل إلى هذا المبتغى.

وعليه فليس من المستغرب أن تحظى الخطابة بكلّ هذا التّراكم المعرفيّ عبر مختلف العصور وفي شتّى الحضارات، ويختلف النّاس في شأنّها باختلاف فهومهم وتعدّد مقاصدهم منها، وكذا اشتراك فنون أخرى معها في بعض المكوّنات، ويبقى أدّق تعريف وأوضحه كما يرى عبد الجليل عبده شلبي هو أنّها: (فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائيّة تشتمل على الإقناع والاستمالة)[1] ، ولذا فقد شدّت اهتمام الدّارسين في أدقّ الجزئيّات والتّفاصيل سواء أتعلّق الأمر بالتّنظير أو بالممارسة، وفي مختلف المستويّات: انثناء واشتغالا، نظرا لكوّنها: (أشدّ الأنواع الأدبيّة التزاما، لأنّها تهدف أبدا، إلى التّأثير والإقناع، معبّرة عن عقيدة الخطيب، ورأيّه في مشكلات الوجود)[2].

واستنادا إلى ما للخطابة من أهميّة، وعملا على تبيانها، ستتعرّض هذه الورقة التّحليليّة المقارنة لكتاب (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) لـ أمحمّد صافي المستغانميّ، من خلال التّركيز على آليّتي الإقناع والإمتاع اللّتين يسعى

أيّ خطيب إلى تحقيقهما (للتّأثير في السّامعين وإخراجهم من آرائهم ووجهات نظرهم إلى التّصديق برؤية الخطيب الذي أمامهم، والاقتناع بها والتّحوّل من مواقفهم بما جاء في كلامه ونصائحه)[3]. بمعنى أنّهما قطب الرّحى في الفعل الخطابيّ وعليهما تتأسّس المقاصد ابتداءً: الإقناع بوصفه الوسيلة الموصلة إلى التّأثير في المتلقّي وحمله على الإيمان بالأفكار أو الرّسالة التي يدعو إليها الخطيب، والإمتاع بوصفه المحقّق للاستمالة، والتي هي بدورها آلية تحمل المتلقّي على التّصرّف إيجابيا بإزاء المضامين الفكريّة أو الدّعويّة، وإن شئنا الدّقة العلميّة الرّسالة التي تحملها الخطبة وبهذا يتحقّق التّعاطف معها، والدّفاع عنها.

وعليه فإنّ الإشكاليّة التي ستشتغل عليها هذه الورقة ستكون حول ثنائيّة الإقناع والإمتاع في كتاب الخطيب النّاجح للمستغانميّ، والكيفيّة التي تعامل معها في فكّها وتقريب مفاصلها معرفيّا من متلقّيه، وإبراز مدى توفّقه من خلال المنهجية التي تبنّاها في معالجته في ضوء الرّؤية التي رسمها والمتمثّلة في نظرنا في مركزيّة الخطيب وخطورة الدّور الذي يؤديه في حقل الدّعوة الإسلاميّة: (من هنا كان لزاما على كلّ من ينبري للدّعوة الإسلاميّة في العصر الحديث أن يتسلّح بفنّ الخطابة، فهو وسيلة الإقناع والإمتاع، والسّلاح الجبّار لتحقيق النّصر على مستوى النّفوس والعقول والأفكار)[4].

وتكمن قيمة الكتاب في كونه أعاد التّذكير بأهمّيّة الخطابة في هذا العصر الذي تحوّل فيه مركز الاهتمام إلى شبكات التّواصل الاجتماعيّ، ودورها الفعّال في تغيير

الرّؤى والأفكار وتوجيه الرّأي العـامّ، وصـار الحـديث عـن التّواصـل الجماهـيريّ التّفاعليّ سمة بارزة، والذي مكّن كلّ فرد في الجماعة بغضّ النّظر عن مستواه وطبقته الاجتماعيّة، أن يصير له حضور وازن؛ وبالتّالي أن يكون في مقدوره أن يشغل الـرّأي العـامّ ويوجّهـه، في زمـن أصـبحت فيـه الأمـور تقـاس فيـه بعـدد المشـاهدات والإعجابات والتّعليقات. والنّتيجـة إنّـه قـد تعـدّدت الوسـائط، وتنوّعـت سـبل التّواصل الجماهيريّ، وامتلك آليّات وقنوات التّواصل كلّ من هبّ ودبّ. ويضاف إلى ما تقدّم وعلى المستوى الأكاديميّ قلّت فيه الموادّ التـي تعطـي الأهميّـة للخطابـة وهذا ما يجعلني أجيز لنفسيّ القول: إنّه قد قُتل الخطاب في مختلف تمظهراته وأشكال تجلّيه بحثا ومدارسة، وقلّ الالتفات إلى الخطابة.

2 -**المضامين المعرفيّة للكتاب**: ولأجل الوصـول إلى اسـتيفاء مدارسـة الموضـوع والإجابة عن الإشكاليّة المطروحة على شكل أسئلة ضمّنها مقدّمة عملـه: (فـما هـي الخطابة، وما مقوّمات الخطيب النّاجح، وما الـزّاد الـذي عليـه أن يتشـبّع بـه، ومـا العوامل المساعدة على نجاح الخطبة في العصر الحـديث)؟[5]،قـام بإنجـاز مـا يمكـن وسمه بالدّليل الإرشاديّ الذي قد يصل إلى أن يكون مرجعيّة لخطباء العربيّة الـدّعاة في هذا العصر، وهذا ما جعله مباشرا في طرح تصوّره العامّ.

وقد قسّم المستغانميّ عمله إلى فصلين، اسْـتُهِلّا بمقدّمـة تحـدّث في بـدايتها عـن مكانة الشّـعر والخطابـة في حيـاة العـربيّ وحـال العربيّـة في راهنهـا[6]. واسـتنادا إلى الاستهلال الذي قـام عـلى التّعـرّض إلى مكانـة الشّـعر والخطابـة في حيـاة العـربيّ

وراهنها الذي لا يسرّ في ظلّ ضعف ملكة اللّغة لدى أبناء العربيّة نخبةً وعوامَّ، اتجّه إلى سرد جملة الدّواعي التي كانت وراء التّأليف في موضوع الخطابة: (وإنّما الذي حرّك أشجاني ودفعني إلى كتابة هذه السّطور حول الخطيب النّاجح أنّي رأيت أنّ السّواد الأعظم من من خطباء المساجد والمحافل اليوم خِلوا من زاد فنّ الخطابة)[7] وبذلك يكون قد أبان عن الغايّة من التّأليف الذي يتوجّه به صوب فئة مخصوصة ممثّلة في خطباء المساجد والمحافل على وجه التّحديد: (ولسوف يجد فيها الخطيب الباحث والقارئ الكريم مايبصِّره ويهديه إلى سواء السّبيل في ميدان الخطابة الممتع المؤثّر الفسيح)[8].

ثمّ اتجّه إلى تبيان بنيّة كتابه. فقد جاء في فصلين، الأوّل منهما حمل عنوان: مقوّمات فنّ الخطابة، والثّاني وسمه بـــ: من روائع الخطب في عصور العربيّة الزّاهرة[9]، وفق ما جرت عليه الأعراف والتّقاليد الأكاديميّة في مثل هكذا مقدّمات.

وإنّ أكثر ما يهمّنا في عمل المستغانميّ هو فصله الأوّل، ذلك أنّ الفصل الثّاني منه هو عبارة عن منتخبات لخطب ألقيت في مختلف عصور العربيّة الزّاهرة، وليس للباحث فيها إلّا جهد الانتقاء والتّنسيق وترتيبها زمنيّا، والتّدخّل في الهامش للإحالة على مصدر الخطبة المنتقاة، أو الالتفات بين الفينة وأختها إلى مفردة غامضة أو لفظة غريبة وردت في خطبة من الخطب لأجل شرحها وتقريبها للقارئ[10].

وما يستشفّ من هذا الجهد أنّه ينمّ عن ذائقة أدبيّة رفيعة وحسن اختيار، ويحيل على مرجعيّة أصيلة، تشرّب صاحبها بالتّراث العريق وتمثّله في إنتاجه. وهو الذي لا

يخفي ذلك ويعلنه صراحة في مقدّمة كتابه إذ يقول: (وأضفت إلى كتابات السّابقين ما توصّلت إليه من خلال تجربتيّ المتواضعة في الأعوام التي قضّيتها بصحبة المنابر)[11]. وما لا ينبغي أن يغفل أيضا ههنا أن المستغانميّ سار في هذا التّرتيب محتذيا منهج من سبقوه من المحْدَثين الذين طرقوا موضوع الخطابة، وأخصّ بالذّكر أحمد زكي صفوت في كتابه ذي الأجزاء الثّلاثة: جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزّاهرة[12]،ومحمد أبو زهرة بمنجزه: الخطابة:أصولها.تاريخها في أزهر عصورها عند العرب[13]. وإيليا الحاوي في كتابه: فنّ الخطابة وتطوّره عند العرب[14]، وعبد الجليل عبده شلبي بمصنَّفه: الخطابة وإعداد الخطيب[15].

وكما أشرنا من قبل ستنصبّ قراءتنا على الفصل الأوّل الذي تأسّس على مركزيّة الخطيب الذي شغل حيّزا كبيرا منه إذ إنّه مِنْ ما مجموعُه أحد عشرا مبحثا كان للحديث عن الخطيب فيها ثمانيّة مباحث كاملة، وبذلك كان المستغانميّ وفيّا لعنوانه الذي صدّره بعبارة (الخطيب النّاجح)، بحيث كانت المباحث جميعها تصبّ في خانة تعميق الدّراسة في كلّ ما مِنْ شأنه أن يرْقى بالخطيب على كلّ المستويات. وإن نظرة عجلى على عناوين المباحث والمطالب تهدينا إلى ما نحن بصدد تقريره، فقد كتب عن كيفيّة إعداد الخطيب الذي يقوم في نظره على اختيار الموضوع وضبطه وتنسيق عناصر الخطبة من حيث البناء والتّرتيب والصّياغة الخطابيّة: استهلالا ولغة ومادّة وجودة إلقاء وغيرها من القضايا الفنيّة التي ينبغي أن يُحرص على توفّرها في إعداد الخطيب[16]. ذلك أنّ نجاح الخطبة في تحقيق الإقناع والإمتاع مرتبط بـ

(ضرورة إعداد الخطيب لنفسه ومدى قناعته بالرّسالة الدّعويّة التـي يحملهـا، وعـلى الخطيب أن يعلم بأنّه يحمل على عاتقه مهمّة الأنبياء والمرسلين، وهـي وظيفـة شـاقّة تتطلّب قوّة نفسيّة، وشجاعة أدبيّة، ومراسا ودربة وصبرا عـلى لَأْواءِ الطّريـق وبعـد المشقّة)[17].

وقد عرّج المستغانميّ مواصلا استفراغ الجهـد في الكيفيّـات والسّـبل المؤديّـة إلى تخريج خطيب ناجح متمكّن من أدوات الإقناع ومـتحكّم في آليّـات الإمتـاع، عـلى الوسائل المعينة على إعـداد الخطيـب، ومنهـا: شروط الاستشـهاد بـالقرآن الكـريم والحديث النّبويّ الشّريف، والأقوال المأثورة، وأقـوال الصّـحابة، وعلـماء السّـلف وكذا القصص، وأهميّة مراعاة مقتضـى الحـال، وحسـن سَـوق الشّـواهد، وكيفيّـة التّوشيح بالحكم والأمثال وروائع الأشعار، والتّناسب التّوافقيّ بين طبائع الألفـاظ والموضوعات الخطابيّة[18]. ومردّ ذلك أنّ: (أيّة فكرة يدعو إليها الخطيب ويودّ إقنـاع غيّره بهـا لـن تترسّـخ جـذورها في أذهـانهم، ولـن تتعمّـق مفاهيمهـا في نفوسـهم ومداركهم ما لم يـدعمها صـاحبها بالشّـواهد النّقليّـة الصّـحيحة، والأدلّـة العقليّـة الصّريحة)[19].

وهو بمعالجته لمثل هذه المسائل الجوهريّة ذات الصّلة بتكـوين الخطيـب النّـاجح يبدي حرصه على إمداد النّاشئين من الخطبـاء بـما يعـزّزون بـه خُطـبهم، ويُكسِـبهم المصداقيّة لدى جمهور متلقّيهم، فـــــ: (لكي تتمكّن أيّها الخطيب المبتـدئ مـن فـنّ الخطابة، وتمتلك ناصيتها، وتتربّع على عرشها مع طائفة من الخطباء المصـاقع الـذين

يرتجلون الخطب الرّائعة في المحافل الجامعة والمواقف الجليلة؛فإنّه يتعيّن عليك أن تأخذ نفسك بالنّصائح الآتية)[20]. وبهذا يوجّهه إلى المرجعيّة الدّينيّة والمعرفيّة التي تمدّه بالأدلّة النَّقلية والعقليّة التي يبني عليها خطبه. وهو بتبئير خطابه في هذه الفئة المخصوصة من الخطباء الممثّلة في الدّعاة والأئمّة يجعلنا بإزاء نوع معيّن من الخطابة ألاّ وهي الخطابة الدّينيّة، ولذلك مسوّغاته: كتأثير التّكوين الشّخصيّ للباحث واشتغاله في حقل الدّعوة، ممّا أدى إلى هيمنة ثقافته الإسلاميّة جليّة في هذا المنجز المعرفيّ، وكذا الوجهة العقديّة التي سلكها في طرحه هذا.

واتّجه المستغانميّ بعد ذلك صوب استعراض جملة من المسائل تتعلّق بمواصفات الخطيب النّاجح، وهي في نظرنا صفات خَلقيّة وخُلقيّة يرى الباحث أنّه لا مندوحة للخطيب أن يتّسم بها إذ إنّ الأمر لا يعتمد: (في نجاح الخطب على صحّة المعلومات ووفرتها بقدر ما يعتمد على طريقة عرضها وإلقائها، والقضية فنّيّة أكثر منها علميّة)[21]، وقوامها الاستعداد الفطريّ وطلاقة اللّسان ورباطة الجأش. ولكي يبيّن أهميّتها ودورها في حياة الخطيب استعرض نماذج حيّة لخطباء تعرّضوا لمواقف محرجة بسبب الارتجاج عليهم؛ لخلل مردّه غياب صفة من الصّفات المذكورة آنفا أو كلّها أو جلّها، ولا يتأتّى ما سبق أيضا إلّا إذا اكتسب الخطيب الشّجاعة الأدبيّة وكان يملك القدرة على مراعاة مقتضى الحال، إضافة إلى جملة من الأخلاق التي تعزّز مكانته الاجتماعيّة في وسط المخطوب فيهم، كالصّلاح وسداد الرّأي ونفاذ البصيرة، وحسن الخلق والإخلاص ورضا الله تعالى والفراسة والقدرة

على الاستنباط والحماسة وتأجيج العاطفة، وقوّة الملاحظة وحسن الإلقاء وجودة النّطق ومجانبة اللحن والتمهل في الإلقاء، والحركات والإشارات وأسلوب العرض[22]. إضافة إلى جملة أخرى من التّفاصيل والجزئيّات الدّقيقة اتنبه الباحث إليها، والتي نرى أنّ التّجربة والمراس الشّخصيّين في مجال الخطابة كانا وراء الالتفات إليها والحرص على الإحاطة بها، ونقصد أسلوب العرض وإحساس الجمهور بالتّواصل المباشر وما يسمّيه الباحث بالبشريّة في الخطاب[23]، والتي نحسب أنّها مصطلح من ابتكار الخطيب ، والتي نرى أنّ المراد منها الحميميّة والدّفء اللّذان يجب أن يتلمّسهما المتلقّي للخطبة في كلام الخطيب ولحن القول لديه، دون تكلّف وهو ما يحقّق الاستمالة المنشودة من وراء كلّ خطبة، ذلك أنّ : (الجماهير تسرّ عندما يتحدّث الخطيب بشكل مباشر مصغيا إلى فطرته البشريّة متناغما مع طبيعة جمهوره، كأنّه يتحدّث إليهم في جلسة سمر)[24]. وبما أنّ غايّة الكتاب أن يكون دليلا إرشاديّا للخطيب النّاشئ فقد كان المستغانميّ يضمّنه ما نسمّيه التّوجيهات، وهي ذات صلة خاصةً بسرِّ الإلقاء الجيّد وسرعة البديهة ونلحظ أيضا حرصه على تقديم النّماذج الحيّة كما في حالة:نماذج رائعة لسرعة البديهة[25].

وقد ختم المستغانميّ هذا المبحث بطائفة من الفنّيات التي تعين الخطيب على شدّ المتلقّي إليه، ومن ثمّة تحقيق الإقناع والإمتاع كصدق اللّهجة والتّلطّف في الحديث والتّودّد للسّامعين، واليقين العميق والاقتناع الشّخصيّ والطّاقة الاحتياطيّة والتّدريب العمليّ[26].

ولم يفوِّت المستغانميّ المناسبة دون التّعرّض للصّفات المتعلّقة بـالمظهر الخـارجيّ للخطيب كالوقار وجمال المظهر، ووقفته حال أداء الخطبـة وحسـن إشـارته واتّـزان حركاته[27]. إذ إنّه: (لا بدّ للخطيب النّـاجح مـن صـفات شـكليّة وسـمت ظـاهريٍّ يتّسم به، ومن هيئة مهيبة يعود أثرها على المستمع تقديرا واحتراما. ولذا وجب عليـه أن يجتهد في الظّهور بالمظهر اللّائق المناسب)[28].

وقد وصل في محطّة تالية إلى ما سمّاه عوامل نجـاح الخطبـة، وأدرج فيهـا: تجنّـب الخطيب الخوض فيما لا يعلم، وكذا مخاطبة النّاس بما يعرفـون وأن يراعـي في ذلـك مقتضى الحال، مـع عـدم إغفـال التّنويـع في الأسـاليب الخطابيّـة، واتّخـاذ أسـلوب استدراج المتلقّي، وكذا سوق القصّة[29] سبيلا في تحقيق الإقناع والاستمالة، إضافة إلى جملة أخرى من الآليات التي من شأنها أن تساعد على نجاح الخطبة؛ وبالتّـالي تحقُّـق الاستمالة، والتـي سـمّاها الباحـث طرائـق الاسـتمالة وأسـاليب الإثـارة كالمشـاركة الوجدانيّة، ومهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعيّ والقدرة على شدّ الانتباه[30].

وقد ختم المستغانميّ هذا المبحث بما وسمه: أربـع نصـائح ضروريّـة للخطيـب النّاجح: إبداء رغبة قويّة، اعرف ما الذي ستتحدّث عنه، تصـرّف بثقة، تـدرّب ثـمّ تدرّب ثمّ تـدرّب[31]. وهـو في هـذا يحـاكي في صـياغة نصـائحه وتوجيهاتـه مـنهج المشتغلين بالتّنميّة البشريّة، فقد كانت نصائحه مبـاشرة وتقريريّـة بكـاف الخطـاب: (إذا كانت لديك رغبة قويّة وهمّة عاليّة للنّبوغ في فنّ الخطابـة فإنّـك سـتحرز تقـدّما هـائلا في زمـن قصـير)[32]، إضـافة إلى صـيغ الأمـر الـذي خـرج لغـرض النّصـح

والتّوجيه:(اهجم على مخاوفك، بدّد مشاعر الفزع التي تنتابك، تغلّب عليها بشجاعتك)[33] ، وكذا النّهي: (لا تعبث بلحيتك، ولا بأزار قميصك أو ثوبك، لا تله بمسبحتك، لا تفرك يديك)[34] ؛ وكأنّنا بإزاء عمليّة برمجة عصبيّة (أكّد لنفسك بأنّك سيّد الموقف، وإنّك ستكون)[35] .

وإنّ نظرة خاطفة على العناصر المشار إليها أعلاه تهدينا إلى أنّ المستغانميّ في أسلوبه ذاك كان متأثّرا ب(ديل كارنيجي)، وطريقته في العنونة، مع اختلاف في طريقة المعالجة للمضامين المتعامل معها، وإن كان الاقتباس جليّا[36]، إذ كان (ديل) يعمد إلى التّحليل وإيراد الأمثلة ، والإكثار من التّعليل، في حين كان المستغانميّ ينحو صوب المباشرة في الخطاب بوساطة النّصح القائم على الأوامر والنّواهي وبراعة القول، والاستلهام من التّراث العربيّ الإسلاميّ؛ وهذا ما يعني أنّه طوّع الأفكار التي استلهمها من (كارنيجي) لتتوافق والمهمّة الرّساليّة للخطيب الإمام والدّاعية بما يتواءم والرُّؤية الإسلاميّة. ما ينبغي أن نشير إليه أنّ الباحث وإن وضع كتاب فنّ الخطابة ل(ديل كارنيجي) ضمن قائمة مراجعه، وأحال عليه في مواطن كثيرة من كتابه إلّا أنّه لم يَعْزُ ما اقتبسه منه في هذه العناصر. وربّما وجدنا بعض المسوغات كون عمل المستغانميّ ينحو نحو الإجرائيّة، والخروج من دائرة الأبحاث الأكاديميّة، وأن يكون كما أسلفنا من قبل لأن يكون دليلا إرشاديّا جعلت الباحث يتساهل في أمر العزو، وكذا أنّ أفكارا مما حمله عمل (كارنيجي) يدخل في باب المشترك الإنسانيّ.

وفي مبحث هو السّابع في سلسلة المباحث التي حواها الفصل الأوّل والذي حمل عنوان: مصادر ثقافة الخطيب النّاجح راح المستغانميّ يجمع كلّ ما له صلة بتعريف القرآن الكريم، وتعداد خواصّه، التي منها أنّه كتاب معجز، وأنّه نقل إلينا بالتّواتر، وأنّه محفوظ من الزّيادة والنّقصان، ثمّ تطرّق إلى جملة ما أطلق عليه عنوان: (ما ينبغي للخطيب أن يعلم حول القرآن الكريم، من حيث بلاغته القاهرة وبيانه الرّفيع، وإخباره بالغيبيات الماضيّة والمستقبليّة، وإشاراته وإيماءته إلى الحقائق العلميّة الكونيّة ومضامين القرآن، وأحكام تلاوته، والعلم بعدد من القراءات القرآنيّة)[37].

والأمر ذاته قام به المستغانميّ لّما تعرّض إلى المصدر الثّاني من مصادر ثقافة الخطيب، ألا وهو السّنّة؛ فقد عرّفها لغة واصطلاحا، ثمّ تطرّق إليها عند الأصوليّين، وتوجّه بعد ذلك إلى المصادر الحديثيّة التي يحسن الإفادة منها ومصادرها قديما وحديثا، وأشهر كتبها. ليلتفت بعدها إلى علوم اللّغة العربيّة التي يجب أن تكون من ركائز ثقافة الخطيب، والتي هي علوم: النّحو، والصّرف والبلاغة، وقد ختم المبحث بدعوة الخطيب إلى الإكثار من حفظ بليغ الخطب وكذا الأشعار[38].

ونحن نرى أنّه كان بإمكان الباحث أن يختصر كلّ ما ضمّنه في هذا المبحث الذي وسمه بصفات الخطيب النّاجح في صفحتين على أكثر تقدير يخصّصهما لثقافة الخطيب التي ينبغي أن تكون واسعة وأصيلة مؤسّسة على كتاب الله وسنّة نبيّهﷺ

دون إطناب، وخاصّة أنّه تعرّض في مبحث سابق إلى شروط الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وسائر الكلام البشريّ[39]، إذ كان بإمكانه أن يجعل ما أطنب فيه في هذا المبحث الذي استغرق منه ما يزيد عن الثّلاثين صفحة من مُتضمَّنات ما سبقت الإشارة إليه؛ فهو لم يكن في حاجة إلى إعادة مدارسة القرآن الكريم وبلاغته وخواصّه وإعجازه، والذي تحوّل إلى مبحث في علوم القرآن الكريم، وكذا الشّأن ذاته مع علوم الحديث. وهو تطويل لا مسوّغ له في نظرنا على الأقل ولا يفيد الخطيب الذي سيستقي هذه المادّة من مظانّها، وليس في حاجة إلى نتفٍ ومختصرات قائمة على محفوظات الباحث والتي هي خلاصات قراءات في الموضوع.

وإنّنا بدعوانا هاته لا نتحامل على الباحث فقد انتهج هذا الأسلوب من سبقه بالتّأليف في الموضوع، فصاحب (الخطابة وإعداد الخطابة) جمع ما أطنب فيه الباحث في فقرة من ثلاثة عشر سطرا[40]، نقتبس منها هذه الأسطر لدلالتها القويّة: (سعة المحفوظات الأدبيّة من الشّعر والنّثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا هذا فضلا عن حفظ القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النّبويّة فهذا المحفوظ يمدّه بالعبارات التي يستغلها بسرعة ويمنحه القدرة على التّصرّف في تعبيراته وألفاظه كما أنّه يسعفه بما يستشهد به على ما يقول)[41].

وقد ختم هذا المبحث بمطلب خامس ذي صلة بمصادر ثقافة الخطيب، حمل عنوان:دراسة الجوانب السّلوكية في علم النّفس التّعليميّ، فبعد الاستغراق فيما

يمكن وصفه بالرّكن الرّكين في ثقافة الخطيب، شكلت هذه الانعطافة نحو العلوم الحديثة كعلم النّفس التّربويّ والتّعليميّ التي يمكن أن تعين الخطيب في أداء رسالته الخطابيّة بما تزوّده من معارف حول نفسيّات المخطوب فيهم، ودوافعهم ودواخلهم، ولكنّا لاحظنا أنّ هذه الانعطافة أخلّ بها الإيجاز المفرط، إذا لم يتجاوز الحيّز الذي أخذته الصّفحةَ، الثّلثَ منها اقتباس عن الغير[42].

واتّجه في المبحث الثّامن صوب القدوة والنّموذج الذي ينبغي بل يجب أن يستلهمه الخطيب ويحتذيه في الخطابة، ويكون خير إعداد للخطيب النّاجح، ونعني به النّموذج النّبويّ: (فما أحرى الخطباء والدّعاة إلى الله تعالى على المنابر وفي المحافل والأعياد والجمعات أن يقتبسوا من جذوة البيان النّبويّ، وأن يهتدوا بهديه ﷺ في خطبه وطريقة حديثه وإلقائه وحركاته وسكناته)[43]، وقد سمّاه: هديه ﷺ في خطبه. حيث ركّز فيه على الكيفيّة التّي اتّخذها رسول الله ﷺ في خطبه: من قيام وجلوس وتوكّؤ، وإقبال على النّاس،وارتقاء منبر، وجلوس بين الخطبتين، ليتجّه بعدها إلى مضامين خطبه ﷺ وإشاراته ﷺ وتشهّده في خطبه وقراءة شيء من القرآن الكريم، وقطع الخطب لحاجة ما، وطريقة إلقائه، وغيرها من الفنيّات والتّقنيات التي تطلب في موضعها من الكتاب[44].

وكرّس المستغانميّ المباحث الأخيرة من الفصل الأوّل للحديث عن عيوب الخطبة وطرق معالجتها، إذ قدّم لها بتوطئة بيّن من خلالها ما لهذه العيوب من آثار سلبيّة على الخطابة: (تكون سببا في انصراف الجماهير عنهم، وبالتّالي لا تؤتي

الخطابة أكلها، وبدل أن ينقاد النّاس إلى الفضائل والأحكام الشّرعيّة والأخلاق الحميدة التي يدعوهم إليها الخطيب، تكون النّتيجة على العكس من ذلك انصرافا وإعراضا ونفورا)[45].

وقد اضطلع بعد هذا التّقديم القصير بعمليّة جرد وإحصاء للعيوب التي يمكن لها أن تطال الخطب كاللّحن في اللّغة والإطالة فيها، وسوء الإلقاء وسوء الاستشهاد وسوء الاستنباط، وتوظيف العاميّات، والسّجع المتكلّف والزّخرفة اللّفظيّة المصطنعة، وعدم حفظ النّصوص، والتّقليد للمشاهير من الخطباء، كما تعرّض إلى طائفة أخرى من العيوب ذات الصّلة بخطب الجمعة[46].

وقام بتعداد ما وصفه بأدواء يعاني منها الخطباء كالعصبيّة والتّوتّر، والنّسيان التّكرار، وقدّم لها العلاج. ثمَّ تحدّث عن أنواع الخطباء الذين منهم القارئ والحافظ والمرتجل، وخلص في المبحث الأخير إلى ما سمّاه: وصايا ونصائح عامّة للخطباء وهي وصايا فنيّة لا يستغني كما يرى الباحث الخطيب عنها[47]. وقد لخّصها الباحث من (فنّ الخطابة) (لديل كارنيجي)، وأشار إلى ذلك في هامش الصّفحة.

3 – **نتائج القراءة في المضامين المعرفيّة للكتاب:** بعد هذه الإطافة السّريعة بين مضامين الكتاب، وخاصّة تلك التي لها صلة بإعداد الخطيب النّاجح، والتي ركّز فيها المستغانميّ على محاولة إمداد الخطيب المبتدئ بالأدوات والآليّات التي توصله إلى تحقيق مقاصد أيّ خطبة –وكما أشرنا في أكثر من موضع– ممثّلة في الإقناع والإمتاع، نصل إلى تقديم النّتائج التي خرجنا بها ونراها تتمثّل في:

1 –حصر المستغانميّ اهتمامه في نوع معيّن من الخطابة ممثّلا في كيفيّة النّجاح في إنجاز خطبة دينيّة تحقّق الأثر والصّدى في متلقيها، وبذلك يكون قد تفرّد عمن كتبوا في الموضوع، ولم يحدّدوا الفئة المستهدفة من عملهم، فهو يسكنه همّ رساليّ دعويّ أفصح عنه في مواطن كثيرة من كتابه، ومن ثمّة كانت غايته إجرائيّة عمليّة قصد صاحبها الأخذ بيد الخطيب المبتدئ.

2 – كان المستغانميّ وفيّا للخطّ التّحريريّ الذي سنّه سابقوه ممّن تمّت الإشارة إليهم في هذه الورقة من حيث المنهج والمحتوي، وذلك بالتّصدّي لدراسة فنّ الخطابة، والتّمثيل له من عصور العربيّة الزّاهرة، الذي تبوّأت فيه مركز الصّدارة وزاحمت فيه الشّعر مكانته. وما تفرّد به المستغانميّ هو المباشرة في الطّرح وتبسيط المادّة الخطابيّة وتقديمها واضحة بعيدة عن الإطناب، والتّركيز على الإعداد بالقدوة والنّموذج، ونقصد ههنا ذلك الحيّز الذي خصّصه لهدي الرّسولﷺ في خطبه.

3 –تبنّى المستغانميّ خطابا تعليميّا في معالجة المادّة العلميّة التي طرحها في كتابه الذي أراد له أن يكون دليلا إرشاديّا، ولذا انتهج التّبسيط تقنيّة، واختزل المضامين واستحضر الشّاهد والمثال، وهذا ما كان يدفعه أحيانا إلى عزل المعرفة التي ضمنها كتابه عن مؤلّفيها.

4 – بدا لنا أنّ المستغانميّ قد تجاوز الحدّ في مسألة العنونة التي حوّلت عمله إلى كتاب مدرسيّ، ودعوانا هاته لا تعني أنّنا ننكر قيمة العناوين بوصفها عتبات يخترق عبرها النّص، إلّا أنّ الطّريقة التي وظّفها بها الباحث نرى أنّها حوّلت العناوين من

مفاتيح هاديّة إلى طفيليّات تشوّش على القارئ، فقد لا حظنا أنّ أيّ صفحة لم تخل من عنوانيْن أو ثلاثة على الأقل. وقد نلتمس للباحث العذر في توخّيه هذا المنحى إذ إنّ مقصديّته من هذا المصنّف تحكّمت في هذا التوجُّه.

5- ما تفرّد به المستغانميّ في منتخباته، أنّه تجاوز عصور العربيّة الزّاهرة وخصّص حيّزا من عمله لخطب ألقيت في العصر الحديث، كما وسّع العيّنة إلى المغرب الغربيّ المغيّب في الكتابات المشرقيّة في هذا الغرض الأدبيّ، وذلك بانتقائه نموذجين من خطب البشير الإبراهيميّ.

6- في التّوطئة التي تحدّثنا فيها عن قيمة الكتاب، أشرنا إلى أنّ أهمّيّته تكمن في أنّه جاء ليذكّر بقيمة الخطابة، ويعيد الاعتبار إليها في زمن شبكات التّواصل، وهو ما كنّا نودّ أن ينصرف إليه جهد الباحث واهتمامه، وذلك بالتّعرض إلى موقعيّة الخطابة في هذا الفضاء الرّقميّ، والكيفيّة والآليّات التي يمكن توظيفها في استثمار هذه الوسائط الجديدة ، التي أفضت إلى نشوء ما يسمّى بالإعلام الجديد، وما حقّقته من المشاهدة الرّهيبة التي هيمنت على المشهد العامّ في حياتنا المعاصرة، وكيف للخطيب أن يستغل هذه الخاصيّة التّفاعليّة التي تنماز بها. وخاصّة ونحن نشاهد أنّ هذا الفضاء الرّقميّ قد صنع نجوما يحظون بالمتابعة ولهم تأثير فاق قدرة خطيب المسجد.

4ـالهوامش والإحالات:

[1] - عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشـّروق، القاهرة-بيروت، 1981. ص13.

[2] - إيليا الحاوي، فنّ الخطابة وتطوّره عند العرب، دار الثّقافة، بيروت، د.ت.، ص8.

-أمحمّد صافي المستغانميّ، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير. [3] بيروت، 2017، ص21.

[4] - السّابق، ص14.

[5] - أمحمّد صافي المستغانميّ، الخطيب النّاجح، ص9.

[6] - السّابق، ص7-8.

[7] - السّابق، ص9.

[8] - السّابق، ص9.

[9] - السّابق، ص9.

[10] - السّابق، ص187-342.

[11] - السّابق، ص9.

[12] -ينظر: لمزيد من التّفصيل: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزّاهرة المكتبة العلميّة، بيروت،د.ت.

[13] - ومحمّد أبو زهرة، الخطابة: أصولها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربيّ الكويت، 1980م.

[14] - ينظر:لمزيد من التّفصيل: إيليا الحاوي، كتابه فنّ الخطابة وتطوّره عند العرب.

[15] - لمزيد من التّفصيل ينظر: عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب.

[16] - أمحمّد صافي المستغانميّ، الخطيب النّاجح، ص41-60.

[17] - السّابق، ص42.

[18]– السّابق، ص62–67.

[19]– السّابق، ص61.

[20]– السّابق، ص101.

[21]– السّابق، ص83.

[22]– السّابق، ص69–81.

[23]– السّابق، ص82.

[24]– السّابق، ص82.

[25]– السّابق، ص83–84.

[26]– السّابق، ص85–88.

[27]– السّابق، ص89–91.

[28]– السّابق، ص89.

[29]– السّابق، ص93–96.

[30]– السّابق، ص96–100.

[31]– السّابق، ص101–103.

[32]– السّابق، ص101.

[33]– السّابق، ص101.

[34]– السّابق، ص101.

[35]– السّابق، ص101.

[36]– ينظر: ديل كارنيجي، فنّ الخطابة، الوسام للخدمات المطبعيّة، عَمّان، 2001، ط1. ص18–24.

[37]– السّابق، ص105–113.

[38]– السّابق، ص114–135.

[39]- ينظر: على سبيل التّخصيص المطلب الثّاني من المبحث الرّابع، ص60-68.

[40]- عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص35-36

[41]- السّابق، ص35.

[42]- أمحمّد صافي المستغانّمي، الخطيب النّاجح، ص136-137.

[43]- السّابق، ص140.

[44]-السّابق، ص139-148.

[45]-السّابق، ص149.

[46]-السّابق، ص150-162.

[47]-السّابق، ص163-167.

منهج المستغانميّ
في تقديم المَثَل القرآني للمُشاهد

دراسة بَيانيّة حِجاجِيّة

أ. الدّكتور محمود نجيب
ج. حلب، سورية

الحمد لله على نَعمائه، والثّناء عليه بآلائه ووافر عِطائه، والصّلاة والسّلامُ على جميعِ أنبيائه، وبعد؛

فقد تنوّعتِ المباحث العلميّة التي ارتادَها العالِمِ الموسوعيُّ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، فهو الحافظ والفقيه واللغويّ والخطيب الذي شَهِدت له المؤلَّفات والمنابر والفضائيات، وممّا استرعى انتباهي دراستُهُ البيانَ القرآني في بَرنامج ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾الذي شاهدتُ معظم حَلَقاته، فتأمَّلتُ أسلوبَ عَرضها وتقديمها لأتبيَّنَ جهد مُعِدِّها وخصائصَ أسلوبه حيث أماط اللّثام عن دلالة المَثل في آي الذّكر الحكيم، وأزاح السّتار عن أسلوب البيان القرآنيّ من خلال عَرضِه عرضًا صريحًا ومضمّنًا، فأفاض في تِبيان دَلالاتِه وتوضيح غريب لغاتِه، وبَيَّنَ معاني الزّيادة في الأفعال ودلالةَ معاني الأدوات، وقارنَه بنظائره، وربطَه بتطبيقاته في العقيدة ومناحي الحياة، ووقفَ عند الإعجاز اللّغويّ والعلميّ والتّشريعيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ.

كما قدّم مفاتيح تُعين المُشاهد والقارئ على التّدبّر، فَأَبرزَ الآثار النّفسيّة للمثَل القرآنيّ في النّفس البشريّة، وبيَّنَ قدرةَ المَثل على تغيير السّلوك بنقل الحقائق والعقائد عبر التّصوير.

واستطاع الأستاذ المستغانمي – وهو من حُفّاظ كتاب الله– أن يوظّف حفظه في تحليل الأمثال وتدبّرها وتحليلها وتفسيرها وتقريبها من أذهان السّامعين، فكان من خصائص أسلوبه الدّقة في انتقاء المفردة القرآنيّة، وتوظيفها في تأصيل موقع المثل في سياق الآيات الكريمة، وغلب على منهجه أيضًا إبرازُ النّزعة العقليّة التي سلَّطت الآياتُ عليها الضّوءَ بأسلوب مباشر يخاطب العقل.

وبما أنّ النّاس تختلف استعداداتهم الفطريّة في تلقّي المعاني القرآنيّة فإنّ القرآن الكريم راعى تلك الفروق الفرديّة للمخاطبين سواء مَنْ يعتمد منهم على السّمع وحده أم مَنْ يعتمد على المشهد البصريّ، وقد تجلّى ذلك من خلال اختيار آياتٍ قَدَّمت بعض مسائل العقيدة والتّشريع والأحكام والأخلاق والقيّم مُجسَّمةً في تصوير حسيّ ملموس.

وامتاز منهج الأستاذ المستغانمي باعتماد الحِجاج والإقناع والإمتاع من خلال توظيف عناصر المثل في الإيضاح والرّدّ على ما يثور في ذهن المُشاهِد من خواطر الذّهن البشري: لِمَ استعمل السّياق هذه المفردة دون تلك؟ وما فائدة ذكر هذه الجملة؟ ولِمَ وردت هذه الجملة في هذا الموقع من السّياق؟

أولًا: تحرير المُصطَلَحات.

أ – المَثَل القرآني: ورد في القرآن الكريم (43) مثلًا صريحًا ذكرت فيه ألفاظ المَثَل ومشتقّاته، ووَردتْ عشرات الأمثال الخفيّة، فهلِ كان المثل القرآنيّ بِدْعًا لم يَعهده العربُ في لغتهم؟ أَم جاء القرآن على دَيدنِهم في ذِكر الأمثال التي عَرفوا قيمتها وأثرَها الحقّ في تَجلية الغوامض كما قال الزّمخشري: (الأمثال تُظهر خَبيئات المعاني وتظهر الخَفيَّ في شكله الظّاهر والمتوهّم كأنّه متيقّن وضَرْب المثل يُحيّي في نفس القارئ معانيَ كامنة لا يؤدّيها الخطاب العقليّ المباشر كقولنا: (الدّنيا قصيرة) فقد لجأ العربيّ إلى تصوير المعنى وتجسيده كي يرسخ في الذّهن، فَتأمّلْ قولَ لَبيد[1]:

ومـا المـالُ والأَهلُـونَ إلّا وَدائـعٌ
ولا بُـدَّ يومًـا أنْ تُـرَدّ الوَدائِـعُ

تَجِدْ أنّ المعنى بات مجسّدًا راسخًا في ذهن المُخاطَب، لأنَّ الودائع عاريةٌ مهما بقيت عندنا ولا بد من ردّها إلى أصحابها. فبيت الشّعر جلّى الحقيقة وأعطى المعنى قوّة وترسيخًا، ولو أنّ الله – جَلَّ شَأْنُهُ – أمَرَنا، فقال: لا تغتابوا... لا تُشركوا لكانَ الخطاب عقليًّا مباشرًا، لكنَّ بيانَ الله المُعجِز اصطفى الأسلوب الأسمى المُعجِز فَقدَّمَ المعنى مُصوّرًا بالغًا الكمالَ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الحجرات، الأية: 12، ولو قال: ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضًا لأدّى الغرض، لكنّ الله الخبير بمدارك العباد أردفَهُ بالمثل الرّائع فَصوَّرَ الغيبّة وما تُثيره من كراهيّة وسماجة وما تُمثله من فعلة شنعاء وإنَّ المُغتابَ كمن يُقبِلُ على أكل لحم أخيه ميتًا، فعناصر

الصّورة البيانيّة والمثل اشتملت على جُملٍ ركز عليها البيان القرآنيُّ: أيُحِبُّ، ويأكلُ ولَحْمَ مَنْ، ولَحْمَ أخيهِ، وهُوَ مَيتٌ. فالطَّبعُ البشريّ السّليم يَعافُ أكلَ لحم الإنسان الحَيّ وينفر منه، فما بالك لو كان هذا الإنسانُ أخاكَ الميتَ!

ب – أنواع المَثَل القرآني: أَفي القرآن الكريم نوع واحد من الأمثال أمْ أنواعٌ متعدّدة ؟ فيه الأمثال المصرحة القياسيّة التي تبدأ غالبًا بـ : (ضربَ اللهُ مثلًا واضرِبْ لهم مَثَلًا وضُرِبَ مَثَلٌ) وهي ظاهرة ملموسة، وثَمّةَ أمثالٌ كامنة مختفيّة في سياق الكلام تُضرب في سياق مناسب فالأمّة الإسلاميَّةُ أمّةُ الاعتدال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾البقرة، الأية: 143 ومعنى الوسطيّة في قول الله تعالى﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ البقرة، الأية: 68 أيضًا من خلال وَصفِ البقرةَ لبني إسرائيل بأنّها متوسطة العمر ليست كبيرة ولا صغيرة. وهذا النّوع من الأمثال نستطيع أن ننتزعه من سياقه لنستعمله في سياق آخر مناسب، فنقول لإنسان نوصيه بالوسطيّة ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ الإسراء الأية: 29 أو ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾الإسراء، الأية: 110 فَرَوعةُ المثل في خبايا الآيات.

وهناك الأمثال السّائرة المرسلة التي تنطلق بها الألسنة وتنتشر، وتسير بها الرّكبان، كقوله عَزَّ شَأنُهُ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ يوسف، الأية: 51 وقوله﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾يوسف، الأية: 76 وقوله﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

النّجم، الأية: 39 وقوله ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ الرّوم، الأية: 32 وقوله ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ ﴾آل عمران، الأية: 92.

فحين نستدعي المثل القرآنيّ يجب أن نستعمله في سياق رفيع، لأنَّ الأمثال ليست بدعًا من القول بل ضربَها العرب، لكنَّ الأمثال العربيّة على فصاحتها وبلاغتها لا تقف أمام أمثال القرآن الكريم، ولسنا في ذلك نسعى إلى أن نبخس العرب حقهم ونقلّل من شأن أدائهم، فهم مَصاقعة وأرباب بيان رفيع، ومن جميل أمثالهم (الصّيفَ ضيّعتِ اللّبن)[2] و(يداك أوكتا وفوك نفخ)[3] و(أنت على ضربة معول). لكنْ شتّان بين كلام الخالق والمخلوق.

ويتجلَّى الفرق من ناحية أخرى من خلال اختلاف طرائق أمثال القرآن عن عرض أمثال العرب كلَّ الاختلاف، فمن خصائص العرض القرآنيّ الإعجاز اللغويّ والفكريّ و... في الوعظ نحو قوله تعالى﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ﴾ إبراهيم، الأية: 18، فَموردُها عَيْنُ مَضربها، و(الصّيف ضيعتِ اللَّبنَ) يُضرب في موقع مشابه، أمّا في القرآن الكريم فعَيْنُ المَورِدِ هو عَيْنُ المَضربِ.

ثانيًا: منهج تحليل المثَل.

بيّن الأستاذ المستغانمي مفاتيح تدبّر المثل القرآنيّ بمنهجٍ علميّ دقيق يعتمد على تدبّر القرآن الكريم في المقام الأوّل، ثمّ تدبّر الآيات المتقدمة على آية المثل، ثمّ بيانِ مورد المثل وبيان عين مضربه بشرحِ معناه الإجماليّ شرحًا موجزًا ميسّرًا يستسيغه السّامع والمشاهد، وبيان الغريب من لغته، وتحليل الجُمل الواردة في سياقه، وتبيان

معاني الأدوات وأثرِها، وذِكر المشبّه والمشبّه به مع إيضاح وجه الشّبه المنتزع من متعدّد في التّشبيه التّمثيلي المشتمل عليه، ثمّ الاحتجاج للمثل بما له من أشباه ونظائر في بعض الآيات والأحاديث والأبيات من الشّعر على نحو يُجلّي مواطن الإعجاز اللّغويّ والبلاغيّ والعلميّ.

وكان كثيرًا ما يُعزّز آراءه بمقتطفات من أقوال المفسّرين والنّحاة والبلاغيين فلم يخل مَثَل من نكتة لغويّة أو بلاغيّة أو نحويّة أو صرفيّة، وحرص في التّحليل على الأمور الآتية:

أ – دراسة الآية في سياقها: استغرق الحديث عن المنافقين (13) آية من سورة البقرة تلاها ذِكر المثل في الآية السّابع عشرة ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، ليرسّخ المعنى ويصوّره، فالمنافق يؤّمن ثمّ يكفر كما قالَ ﷺ[4]: (إِنَّ بَيْنَ يَدَي السّاعةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيها مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا) فما الذي جيء بالمثل في هذا السّياق؟ أورده البيان الإلهيّ لتأكيد المعاني السّابقة، فالمنافق يؤّمن ثمّ يكفر ثمّ أردف الحديث العقليّ النّظري بمثل وتصوير حسّي عجيب، فقوله تعالى ﴿فلمّا أضاءت ذهب الله بنورهم﴾ أبرزَ كيفَ أضاءَ الإيمان لحظة في صدر المنافق، ثمّ انطفأ فارتكس في حمأته من جديد وعاد إلى كفره، ثمّ قال الله عن المنافقين ﴿صُمٌّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ فصوّرهم في الظّلمات من دون أعين ولا آذان ولا ألسن ولا عقول، وكان غرض الصّورة التّنفير من النّفاق والمنافقين. ولابن فارس اللُّغويّ

كتاب عنوانه (أفراد كلمات الكتاب العزيز)[5] استنتج فيه أنّ دلالة (صُمٌّ بكم عمي) في القرآن بالبكم والصّمم والعمى عامّة إلّا في قوله تعالى﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الإسراء، الأية: 97 فهي على الحقيقة، أمّا في آية البقرة فالصّمم والبكمّ والعمى يشمل كلّ أنواع الصّمم وكلّ أنواع العمى وكلّ البكمّ وعدم البصيرة.

نتساءل عن أثر التّفكّر في فهم المثل، فإذا فهمنا المثل وفكّرنا في مغزاه الكبير نفكر في الجمل التي أنشأته. ففي التّنمية البشريّة تبيان لأصناف النّاس من حيث اعتمادهم على حاسّة دون أخرى في إدراك المعنى، لأنّ النّاس منهم السّمعي الذي يسمع فيعقل ومنهم البصريّ الذي ينظر حتى يفهم، و(ليس الخبر كالمعاينة). ولو قلنا: إنّ الدّنيا إلى زوال وهلاك وفناء لأدرك بعض النّاس هذا المعنى المجرّد بعيدًا دون أدنى تأثير خلافًا للعرض القرآنيّ في قوله ﷻ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾. يونس الأية: 24 حيث كان للتّصوير وَقعٌ أكبر وتأثيرٌ أشد على القارئ، فتضمّنت الآية عشرَ جُمل متضافرة أدَّت المعنى المكتمل معًا فرسمت لنا مظاهر زوال الحياة الدّنيا (لا تغرنّكم هذه الحياة ولا يغرنكم زخرفها فهو إلى زوال ونعيمها إلى اضمحلال وتصرم وانقطاع) وتكوّن جمل التّشبيه التّمثيلي من الجمل (إنّما مثل الحياة الدّنيا كمثل ماء) و(أنزلناه من السّماء) فـ(اختلطَ به نبات الأرض ممّا يأكل النّاس) و(أخذتِ الأرض

زخرفها وازّيّنتْ) أي: ازدهرت بالنّبات وأصناف الأشجار والأزهار، ففي جملة (ازّيّنتْ) صورة بلاغيّة واستعارة لا يدرك قيمتها إلاّ بلاغيّ ضليع.

ب- تـدبُّر المَثَـل: قـال تعـالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾. محّمـد الأيـــة: 24 وقـــال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ النّساء، الآية: 82، فما مفاتيح تدبر الأمثال؟ ينبغي أن نتدبّر القرآن كاملًا فـالمؤمنون مطالبون بتدبّر القرآن الكريم، فلمّا ورد الفعـل في سـياق تـدبر القـرآن كـاملًا قـال: ﴿يتدبرون﴾ فجاء بالفعل كاملًا ولمّا أراد تدبّر المثل قال: ﴿يدّبّروا﴾ فجزم الفعل.

وقال في آية أخرى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾المؤّمنون الأيـة: 68 فعلى المتدبّر أن يحيط علمًا باللسان العـربي ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف، الأية: 2 وقـال ﷻ ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾النّحل الأية: 103، لأنَّ الإبانة والإفصاح عن الحقائق مطلوبان فمـن أراد أن يعرف معانيه وأسراره فعليه بالعربيّة فالوسيلة الأولى هي المعرفة بالعربيّة نحوهـا وصرفها وعروضها ومعاني الأدوات.

وإتقان فنّ البيان القرآنيّ الوسيلة الثّانية في تدبّر الأمثـال إذ إنّ الأمثـال مـن نـوع التّشبيه التّمثيلي. وثمّة فرق بين التّشبيهين العاديّ والتّمثيلي، ففي العادي نشـبّه شـيئًا بشيء ومفردًا بمفرد، أمّا في التّمثيلي نشبّه صورة مركّبة بصورة مركبة أو حالة بحالـة فيكون المثل وفقًا لذلك تشبيه حال بحال، ويكـون وجـه الشّـبه في التّشـبيه التّمثـيلي منتزعًا من متعـدّد، كقولـه تعـالى ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

الحجرات، الأية: 12 حيث تعدّد وجه الشّبه وتكوّنت الصّورة من عـدّة جُمـل هـي: الأولى وصف أكل الغيبة، والثّانية أكل لحم إنسان ميت، والثّالثة الميت أخٌ، والرّابعة: أنّك بعض النّاس يحب أكل لحم أخيه ميتًا.

إنّ التّدبر يحتاج درايّةً لغويّة وتمكنًا من اللسان العربيّ، والتّمكن جزء من الجانـب البيانيّ لا يتوافر في ظل اللهجات والعاميّة، فكلمة (الكوثر) من قـول الله تعـالى﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ الكوثر، الأية: 1 تدل على الخير الكثير بأوسـع المعـاني وأسـاها ولن نجد كلمة أخرى تحيط بكلّ هذه المعاني.

ج – إبراز الأثر النّفسي للمَثَل: للأمثال تأثير كبير في النّفس كي تستجيب لأمر الله وتطبّق شرعه في الحياة. قال الله تعالى ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾العنكبوت، الأية: 43 فهي للنّاس كافّةً، وحتى لا يقتصـر تأثيرها على العالِمِين برزَ المغتابُ في الآية السّالفة مجرمًا يأكل لحم أخيه الميت، وبرزَ بَعضُ أهل الكتاب حمارًا يحمل أسفارًا لا بضاعةً في قوله تعالى﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الجمعة الأية:5 على نحو يُحرّك النّفوس ويهزّها ويوقظها، فلو ذُكرَ المعنى مجردًا لكان أثره على النّفس محدودًا. فالأمثال مضروبة لمن يتدبّر، لكنَّ العالِمِين همُ الذين يعقلون أسرارها وينتفعون بدررها وبأسرارها ولآلئها وأصدافها، فالعالم يعرف كيف شبّه الله اليهود الذين لم يطبقوا التّعاليم بحمار يحمل كتبًا.

وبالمثال يتّضح المقال، ففي قول الله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ الفتح، الأية: 29 تمثيل أخلاق الصّحابة بأفعال حِسِّيَّةٍ جميلة: استغلظ الإسلام وقويّ واستوى على سوقه وأخرج شطأه برسول الله ﷺ وآزره بأبي بكر واستغلظ بعمر واستوى على سوقه بعثمانَ وعلي تنعكس الرّحمة على سلوك السّامع عندما يسمع ﴿أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾ ويزداد حبًّا للصّحابة الذين ناصروا النّبيﷺ أكثر من التّلقي الذّهني المباشر: الصّحابة من أفاضل الخلق لأنّهم نصروا الرّسولﷺ.

ثالثًا: التّمثيل للمُنْفِقينَ أنموذجًا.

1 – المُنْفِقون المُخلِصون.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة، الأية: 265، ما موقع المثل بين الآيات السّابقة له والتّالية له؟ تَحَدَّثَ المَثَلان عن الإنفاق ووصَفَ المرائين فاستشرفت النّفوس مزيدًا من الإيضاح عن المنافقين وجدَتْهُ في التّمثيل بذكر الحبّة ذِكرًا فيه زركشة، فَمثَلَ الذين ينفقون يبتغون مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنّة، وهذه الآية تتطلب الإخلاص والتّثبيت من النّفس فهو يثبّت إيمانه فالإيمان يزداد وينقص، و(من أنفسهم): تفيد التّبعيض يثبّتون بعض إيمانهم فإن لم يكن كريمًا فإنّه يتكارم ويتساخى، قال المتنبي[6] يصف كافورًا:

وفي الـنّفس أخـلاقٌ تـدُلّ عـلى الفتـى   أكـانَ سَـخاءً مـا أتـى أم تَسـاخِيا

فالإخلاص لابتغاء مرضاة الله وتثبيت الإيمان، من أنفسهم: (من) ابتدائيّة ينفقون من تلقاء أنفسهم تثبيتًا منطلقًا من إيمانه، المنفق المخلص كمثل جنّة وهذا يناسب الذين يعرفون الجنّات والجنّة: أشجارها كثيفة ملتفّة حائط بستان فيه نخيل ليس ملتفًّا والجنّة تستر من مصدر: جَنّ يجُنّ ولها سواد واخضرار والجنّة فيها معنى الاستتار، فلماذا هي بربوة؟ هي مرتفعة قليلًا فكلمة ربوة (مثلثة الرّاء) تعني الأرض المرّتفعة المعتدلة فوق السّهل ودون الجبيل، صَوَّرَ مضاعفة النّفقة بمضاعفة إنتاج جنة بربوة، والرّبوة في علم الزّراعة معرضة للهواء الجميل وأشعة الشّمس وتربتها أجود التّرب وتكون مبتعدة عنِ الصّخور والمياه الجوفيّة، وجذور أشجارها ثابتة لا تقتلعها الرّياح وتلقّحها الرّياح بسهولة والرّياح المّطرة تصيبها والرّياح المحمّلة بالنّدى تصيبها والرّياح المرمّلة لا تضرها فينزل الرّمل والتّراب في الأراضي المنخفضة والأمطار الغزيرة الوابل المطر الشّديد فلا يغرقها فالفائض ينزل، فتأمّل الدّقة في الإيجاز والإعجاز والإبداع، فالجو فيها معتدل مناسب في الرّبوة مناسب للنّبات، أمّا السّهول فترتفع حرارتها والجبال تنخفض حرارتها، فالجنة في أعظم المواقع، وجاء في تفسير القرطبيّ: منظر جنات الرّوابي جميل، فاختيار الرّبوة فيه منتهى الإعجاز البيانيّ فصاحة وبلاغة إذ وضع المعلومة محلّها، الوابل الشّديد قد يهلك الحرث والنّسل: أوبلت السّماء وبلًا إذا أمطرت مطرًا شديدًا فآتت ثمارها ومحاصيلها ضعفين (مرتين) وهذا يناسب الكرم الرّباني، فقد ذكر محمّد رشيد رضا

صاحب تفسير المنار أن (ضعفين) تحتمل أربع مرّات، والطّلّ: المطر الخفيف: هذا زيادة والطّل الرّذاذ يكفيها فطَلّ يكفيها، الرّبوة لها كرم منبت والعطاء الرّبّاني يفيد التّوسيع فالجنّة مثمّرة بكلّ أحوالها، أطلّت السّماء طلًّا فالطّل يفيد أن الرّبوة سهلة الرّي الرّش بالرّذاذ وهذا إعجاز إذ تثمّر في كلّ الأحوال من ماء المطر وفي هذا مدح للجنّة الواقعة في الرّبوة وهذه الجنّة سهلة الرّي فالجبال والسّهول يعاني المزارعون فيها من صعوبة ريّ زروعهم، دعا الأستاذ المستغانمي إلى تدبر القرآن بكلّ لفظة فقهًا وبلاغة وعلمًا، فالصّورتان المتناقضتان في هذا المثل والمثلِ الذي يشبه نفقة المرائين بالصّفوان جميلتان، والضدد يظهر حسنه الضّد، وفي عنق الحسناء يُستحسن العِقد فالمقابلة بين حال المُنْفق المُرائي الذي لا يناله أجر كالوابل على الصّفوان والمنفق المُخلصِ ذي الجنة الرّابية تمثيل بديع راقٍ يشجّع على الإنفاق، فإذا أراد المنفق أن ينفق تثبت فإن كان لله أنفذه وإن كان لغير الله أمسكه، فقد وقف الحسن البصريّ أمام قوله تعالى: تثبيتًا من أنفسهم وقال: (كان السّلف الصّالح والنّاس الصّادقون إذا أنفقوا تثبّتوا فإن كانت لله أمضوها وإن كانت لغير الله أمسكوها) فالله ينمي نفقة المنفق الأكل الذي يضاعف ضعفين لا نتصوره، وقد روى أبو هريرة[7]: (مَن تَصَدَّقَ بِتَمْرةٍ من كَسبٍ طيِّبٍ ثمّ وضعها في موضِعِها أخذَها اللهُ بِيَمينِهِ، ثُمّ لم يبرَحْ يُربّيها كما يُرَبّي أحَدُكُم فَلُوَّه حتّى تُصبِحَ مثلَ الجَبَلِ أَوْ أعْظَمَ) ثمّ ذيل الله الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ بما ننفق والتّذييل فيه وعيد للمرائي وتشجيع للمخلص.

2 - المُنْفِقون المَنّانون.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾البقرة، الأية: 264، تحدثت الآية عن المنّ حديثًا بديعًا متناسقًا مع الآيات السّابقة التي تحدثت عن الإنفاق، حتى لكأنَّ كلّ آية تمسك برقبة أختها ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود، الأية: 1 فالقرآن المحكّم أتبع هذه الآية بقوله تعالى ﴿ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ ﴾ليؤكّد أنّ عدم الإنفاق خير منَ الإنفاق مع الأذى، والتّنكير في (قولٌ) يفيد التّقليل وكلمةٌ طيّبة يردّ بها أخاه خير من صدقة يتبعها أذًى للمتصدَّق عليه والله غنيّ عن صدقة المنّان، كنا في الآية السّابقة في سياق الثّناء والإشادة ثمّ انتقلنا إلى الصّدقات العامّة ففي سياق الثّناء والإشادة كان على الصّحابة كعثمان ﷺ إذ جهز جيشًا والإنفاق على معيّن المنّ فيه وارد، وهؤلاء المنفقون ناداهم الله بالإيمان ولم ينفِهِ عنهم. وقال: لا تبطلوا فالمنّان هو الذي يبطل صدقاته، والآية تقول: مَحِّصْ نيّتك. فالله غني عن صدقة المؤذيّ وحليم عن أخلاقك وأخلاق المتصدّق عليه ويريد أن تكون الصّدقة خالصة. فمن منّ بمعروفه سقط شكره. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم ﴾ الصّدقات العامّة فمن يتصدّق ببناء مسجد أو تجهيز جيش فعلى من سيمنُّ؟ والمنّ: إيذاء بالكلام، والأذى أعمّ منَ المنّ فالبطلان كما قال العلماء والفقهاء: إن كان الإنفاق واجبًا فبطلانه بعدم جوازه، وإذا كان متطوّعًا فيه فبطلانه بسقوط ثوابه. والنّداء

للمؤّمنين. وقال ابن مسعود، رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا﴾ فأرعِها سمعَك فإنّه خيرٌ تؤمر به أو شرٌّ تُنهى عنه)[8]. والأذى أكثر من المنّ ثمّ الضّرر الصّغير المخفّف لن يضروكم إلّا أذًى، المنّ أقلّ من الأذى والمنّ بالقول. وفي قوله عزّ وجلّ ﴿كالذي ينفق ماله رئاء النّاس﴾ شبه المَنّانَ والمؤذيّ بالمرائي، فالمرائي أسوأ من المنّان ومَثَلهُ كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا فلم يبق من عمله شيء وشبه المرائيّ بالصّفوان فالمنان يشبه الصّفوان والصّفوان: الحجر الأملس عليه تراب كثير صالح للزّراعة والوابل مطر شديد لم ينبت التّراب بالمطر الوابل بل عرّاه الوابل.

ووجه الشّبه: منتزع من متعدّد كما يقول عبد القاهر عوض الإنبات تركه صلدًا فوجه الشّبه خيبة أمل المرائي وعدم جنيه مما زرع لم تقل الآية عمله باطل بل صورته تصويرًا مشاهدًا مرئيًّا، الأصل في التذراب أن ينبت لكنَّ تغير النّية أدى إلى تغير لا يقدرون على شيء ممّا كسبوا (التّنكير للتّقليل) على الرّغم من أن التّراب صالح للإنبات لكن الوابل تركه صلدًا.

توصية

بعد هذه الدّراسة العَجلى لبَرنامج ﴿ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ للنّاسِ أمْثالَهُمْ ﴾ لا بد من التّنويه إلى شرف المضمون وحُسنِ العَرضِ، مع اقتراح:

1 - ضرورة نشر الحلقات في كتاب يُقدِّمُ المَثَل القرآني للقارئ، لأنّ الكتاب أبقى وأدوم وأكثر نفعًا من البثّ الذي لن يحتفظ به المشاهدون على كثرتهم.

2 - توجيه طلبة الدّراسات العليا إلى دراسة جهود الأستاذ المستغانمي اللغويّة المتنوِّعة، ومنها منهجه في عَرْضِ المَثَل القرآنيِّ ودَرسهِ.

الحواشيّ

---

[1]- ديوان لبيد بشرح الطّوسي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط 1، 1414هـ= 1993م، بيروت ص 111.

[2]- مجمع الأمثال، الميدانيّ (ت: 518هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة، بـيروت 2: 68.

[3]- الأمثال، أبو عُبيد القاسم بن سلّام الهروي (ت: 224هـ) تح: الدّكتور عبد المجيد قطامش دار المأمون للتّراث، دمشق، ط 1، ، 1400هـ=1980م، ص 331.

[4]- مسند أحمد ، تح: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط 1، 1421هـ=2001م، 32: 504 تحت الرّقم 19730. ص 105.

[6]- ديوانه، 1403 هـ = 1983م، دار بيروت، ص 442.

[7]- الجزء الثّاني من مسند أبي هريرة، أَبُو إِسْحاقَ إِبْراهِيْمُ بنُ حَرْبٍ العَسْكرِيُّ (ت: بعد 282هـ) تح: عامر حسن صبري، النّاشر: دار البشائـر الإسلاميّة، ط 1، 1427هـ=2006م ص 73.

فنّ الخطابة في فكر أمحمّد صافي المستغانمي قراءة في كتابه: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

د. مختارية بن عابد

ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

ملخص: يعدّ (أمحمّد صافي المستغانمي) من نخبة المفكّرين الجزائريّين، وأحد كفاءاتها المهاجرة التي قدمت العديد من العطاءات خدمة للغة العربيّة والإسلام والوطن وهو ما يظهر جليّا في برامجه المتنوعة ومؤلّفاته العديدة، حيث قمنا في هذه الدّراسة بقراءة أحد مؤلّفاته الموسوم بالخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

وقد حاولنا من خلالها إبراز مفهوم الخطابة لدى هذه القامة العلميّة، وأهمّ مقوّماتها، وتبيان أهمّ العوامل التي تمكّن الخطيب من النّجاح في خُطبه بامتياز متناولين بالتّحليل بعض النّقاط التي طرحت في هذا الكتاب القيّم الثّري الذي يظهر من خلاله مدى حبّ صاحبه للغة العربيّة وغَيْرته عليها.

الكلمات المفتاحيّة: الخطابة؛ الخطيب؛ أمحمّد صافي المستغانمي؛ عوامل النّجاح.

The art of oratory in the thought of (Amhammed Safi Al-Mostaghanemi) - Reading in his book: the successful Orator between persuasion factors and Means of enjoyment.

Abstract: Amhammed Safi Al-Mostaghanemi is one of algeria's elite intellectuals, and one of her immigrant talents, who has submitted many bids for the Arabic language, Islam and the homeland, which is evident in his various classes and his many writings,in this study we read one of theme is the book the successful Orator between persuasion factors and Means of enjoyment.

We have tried to highlight the concept of oratory at this thinker, and its most important elements, and to show the most important factors that enable al-Khatib to succeed in his speeches, taking into account some of the points that were put forward in this valuable book, through which he shows how much his owner loves the Arabic language.

Keywords: Oratory; Orator; Amhammed Safi Al-Mostaghanemi; Success Factors.

1. مقدمة:إنّ التّاريخ لا يحفظ الأمّم ولا يخلّد حضاراتها إلاّ من خلال عطاءات وأعمال أبنائها خاصّة العلماء والمفكّرين الأفذاذ منهم الذين يقدّمون عصارة أفكارهم وما جادت به عقولهم في سبيل بناء أوطانهم وخدمةِ الحضارة الإنسانيّة بصفة عامّة والجزائر أمّة قد زخرت وفخرت برجال ونساء بقيت أسماؤهم وأعمالهم خالدة شاهدة على عطاءاتهم وتضحياتهم، وإن لم يُوَفَّ الكثيرون منهم حقّهم كما يجب ولا يعني ذلك أبدا أنّ أمثال هؤلاء لم يعد لهم بقيّة، بل لازالت الجزائر تزخر بهم إلى يومنا هذا، فالأسماء عديدة والعطاءات ممدودة غير محدودة في سبيل بناء

الوطن حاضرا ومستقبلا، ومن هؤلاء الذين لازالت إشعاعاتهم العلميّة والأدبيّة تتّجه في مختلف ربوع الجزائر والبلدان العربيّة بل العالميّة أيضا نجد المفكر الباحث (أمحمّد صافي المستغانمي) -أطال الله في عمره- الذي لم يبخل بأي جهد في خدمة الإسلام واللغة والوطن، هاته المقوّمات الأساسيّة للهويّة الوطنيّة التي يتمسّك بها ويحافظ عليها على غرار الشّخصيات المهاجرة الوفيّة.

واحتفاءً بهذه الكفاءة واعترافا بعطاءات هذه القامة السّخيّة نقوم في هذه الورقة البحثيّة بقراءة في أحد مؤلّفاته القيّمة الموسوم بـ: (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) بهدف إبراز مفهوم فنّ الخطابة لدى هذا المفكّر الجزائريّ وتبيان مقوّمات الخطيب النّاجح، وما الذي يمكّنه من بلوغ مستوى النّجاح والجوّدة في خُطبه حسب ما يراه مؤلّفنا (أمحمّد صافي المستغانمي)، حيث كانت قراءتنا في كتابه هذا بمثابة طرح لبعض الأفكار التي لفتت انتباهنا فيه، والتّعليق عليها وفق وجهة نظرنا لها، فالكتاب مفتوح على القراءات المتعدّدة التي قد تتوافق أو تتعارض.

2. فنّ الخطابة عند (أمحمّد صافي المستغانمي): الخطابة من الفنون النّثريّة التي عرفها الإنسان منذ القدم بغرض الإبانة لغيره عمّا في ضميره، وإقناعه بصدق مقاله وسداد رأيّه، وقد كان للأنبياء والرّسل عليهم السّلام فيها الحظ الأوفر والمقام الأعلى في سبيل الدّعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد النّاس إلى الصّراط السّويّ كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه الحكيم.

وهي تصلح لأيّ موضوع يُراد، فقد رُوي عن (أرسطو) أنه قال: (بـأنّ الخطابـة ليس لها موضوع خاصّ تبحث عنه بمعـزل عـن غـيره، فهـي تتنـاول كـلّ العلـوم والفنون، ولا شيء حقيرا كان أو جليلا معقولا أو محسوسا إلاّ يدخل تحت حُكمهـا ويخضع لسلطانها). ومن ثَم يقول الباحثون أنّه يلـزم أن يكـون الخطيـب ملـما بكـلّ العلوم والفنون ما استطاع، وأن يسعى دائما إلى أن يزداد كلّ يوم علما.

وتُعرف الخطابة في اصطلاح الحكماء بأنّها مجموع قوانين يُقتـدر بهـا عـلى الإقنـاع الممكن في أي موضوع يُراد، والإقناع: (حمل السّـامع عـلى التّسـليم بصـحة المقـول وصـواب الفعل أو الـتّرك). وفي عُـرف الأدبـاء تُطلـق عـلى معنيـين أحـدهما: أنّهـا كالخُطبة بضم فسكون، اسم للكلام المنثور سجعا كان أو مرسلا وثانيهما: أنّها إلقـاء الكلام المنثور مسجوعا كان أو مرسلا، لاستمالة المخـاطبين إلى رأيّ أو تـرغيبهم في عمل، وهذا ما يريدونه في قولهم: فلان يقوم على الخطابة أكثر ممّا يقوم على الكتابة[1].

ولعلّ أشمل وأحسن ما قيل في غاياتها وأهـدافها وأهمّيتهـا وفوائـدها أنّ (غايـة الخطابة عند الحكماء الحصول على قوة التمكن من الإقناع، وفضلها عظـيم وشرفهـا جسيم؛ إذ فضل العلوم، والصّناعات، وشرفها بشرف غاياتها، وللخطابة غايـة ذات شأن خطير وهي إرشاد النّـاس إلى الحقـائق، وحملهـم عـلى مـا يـنفعهم في العاجـل والآجل. والخطابة معدودة من وسائل السّـيادة والزّعامـة، وكـانوا يعـدّونها شرطـا للإمارة، فهي تكمّل الإنسان، وترفعه إلى ذُرى المجد والشّرف، قـال العلامـة (ابـن سينا) في الشّفاء: إنّ الخطيب يرشد السّامع إلى ما يحتاج إليـه مـن أمـور دينـه ودنيـاه

ويقيم له مراسم لتقويم عيشه، والاستعداد إلى ميعاده، وحسبها شرفا أنّها وظيفة قادة الأمّم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك، وكبار السّاسة. وفوائدها جمّة؛ فهي التي تعرّف صاحبها كيف يمتلك القلوب، ويستميل النّفوس، ويحرّك العواطف ويهيّج الخواطر نحو ما يريد، بنبراسها تستضيء موارد الدّليل، وتتّضح مصادر الحجة لإنفاذ كلّ أمر جليل، وإدراك كلّ غاية شريفة، وقوانينها ترشد الطّالب إلى مواضع الضّعف وشعب السّهو والزّلل فيَقْوى على دحض حجة المُناظر وتزييف سفسطة المُكابر، وهي التي تثير الحماسة في النّفوس الفاترة، وتهدِّئ النّفوس الثّائرة وهي التي ترفع الحقّ وتخفض الباطل، وتقيم العدل وتردّ المظالم، وهي التي تهدي الضّال إلى سواء السّبيل، وتفضّ النّزاع، وتقطع الخصومات؛ فالخطيب البارع يقف بين ذوي المنازع المختلفة والآراء المتضاربة، فلا يزال يبيّن لهم النّافع من الضّار والصّواب من الخطأ حتى يجعل الجميع في قبضة يده، والخطيب البارع يقوم بين طائفتيْن استعرتْ بينهما نار العداوة والبغضاء، فيذكّرهم بعواقب التّقاطع ويحذّرهم من نتائجه السيئة، فإذا القلوب مُؤتلفة والنفوس متآخية). [2] والخطابة كما يراها المفكّر الكاتب (أمحمّد صافي المستغانمي) في مؤلَّفِه (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) تتمثّل في أمور عدّة، نوجزها في النّقاط التّالية:

1.2 الخطابة فنّ محاورة الجماهير، وفنّ من فنون التّواصل والإعلام.

2.2 ميدان الخطابة ممتع مؤثّر وفسيح؛ لا يمكن جمع كلّ ما يتعلّق به في كتاب واحد وبيد باحث واحد؛ إذ يستحيل ذلك على مجموعة باحثين متعاونين فكيف بمؤلّفنا لوحده أن يفعل ذلك؛ فيصرّح بذلك قائلا: (ولستُ أدَّعي أنّي جمعتُ كلّ ما يتعلّق بفن الخطابة من مهارات وتقنيات، فذاك مطلب عسير يستحيل أن يصل إليه باحثون مُتظاهرون، فضلا أن يصل إليه باحث بمفرده).[3]

3.2 الخطابة وسيلة الإقناع والإمتاع: حيث يصرّح بذلك في قوله: (من هنا كان لزاما على كلّ من يَنْبري للدّعوة الإسلاميّة في العصر الحديث أن يتسلّح بفن الخطابة، فهو وسيلة الإقناع والإمتاع، والسّلاح الجبار لتحقيق النّصر على مستوى النّفوس والعقول والأفكار. وإذا انتصر الإسلام في السّاحة الفكريّة والعقليّة فإنّ النّصر يكون حليفه في جميع المجالات الأخرى، ولسوف تعود رايته خفّاقة من جديد، وما ذلك على الله بعزيز)[4]، ويضيف في موضع آخر أنّها (تعدّ من أشدّ الأنواع الأدبيّة إقناعا وتأثيرا)[5].

4.2 الخطابة مختلفة عن الفنون الأدبيّة (النّثرية والشّعريّة): على الرّغم من أنّ (أمحمّد صافي المستغانمي) لا ينكر أنّ الخطابة نوع من الفنون الأدبيّة النّثرية، لكنّه يرفض اعتبارها نثرا فنّيا أدبيا وإن كانت تحمل الكثير من خصائصه؛ لأنّها تتميّز عليه بعنصريّ الإقناع والاستمالة، حيث يوضّح ذلك بقوله: (وجملة القول: إنّ الخطابة نوع من النّثر يختلف بخصائصه ومميزاته عن الأنواع الأدبيّة الأخرى، ولا

يمكن اعتبار الخطابة نثرا فنيا أدبيا، وإن كانت تحتوي على الكثير من خصائصه البيانيّة من مثل: جمال التّركيب، والصّنعة اللفظيّة، والصّور البيانيّة، والمحسنات البديعة... ، بينما الخُطبة وإن تضمّنت الكثير ممّا يشتمل عليه النّثر الفنيّ الأدبيّ إلاّ أنّها ترتكز على رُكنيْ الإقناع والاستمالة) [6].

كما تختلف عن الشّعر للسّبب ذاته أيضا، بالإضافة إلى عناصر أخرى أهمّها الواقعيّة والابتعاد عن الخيال الذي هو عمود الشّعر على حدّ قوله الذي مفاده: (وهي تختلف عن الشّعر، فالشّعر كلام موزون مقفًّى يعمد فيه الشّاعر إلى استجاشة العواطف بأسلوب تشيع فيه الرّقّة الموسيقيّة والألفاظ والعبارات الأدبيّة القويّة والمؤثّرة، وعموده وذُروة سَنامه الخيال والعاطفة. أمّا الخُطبة فهي أبعد ما تكون عن الخيال، بل من أخصّ خصائصها الصّدق والواقعيّة وجدّة المواضيع التي تطرحها وتناقشها، وتقوم على عُنصريْ الإقناع والاستمالة...) [7].

5.2 **الخطابة سلاح في يدّ الدّاعية المسلم**: حيث يؤكّد أنّه يجب على هذا الأخير أن يتسلّح بفن الخطابة حتّى يتمكن من أداء واجبه الدَّعَوي كما ينبغي، ويستطيع تحقيق غايات الإسلام التي اختصرها في قوله: (جاء ليرسي قواعد الحق والعدل والإحسان، ويعمّق مفاهيم عقيدة الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره، ويؤسّس النّفوس على التّقوى، ويهذّبها بشتى أنواع العبادات، ويحميها بسُور الفضائل الكريمة والأخلاق الحميدة) [8].

6.2 للخطابة عدّة مقوّمات: يذكر (أمحمّد صافي) أنّ الخطابة تقوم على أسّس معينة موضّحا إياها في قوله: «يقوم بنيانها على اللغة الواضحة، والعبارات الصّحيحة الفصيحة، والحجج القاطعة، والبراهين السّاطعة، والأداء الرّائع والإلقاء البارع، والنّفس الطّويل، والقلب الشّجاع، والنّفس الوثّابة، والبديهة السّريعة، وإلاّ فقل لي بربك كيف يستطيع متحدّث أن يُقنع سامعيه، ويصرفهم عن أفكارهم، ويُصحّح مُنحنيات أحوالهم، ومُعوَجَّ شؤونهم إن لم يكن فصيح اللسان عذب البيان، قويّ الحجة، واضح البرهان، حاضر البديهة، رابط الجأش، دَمِث الخلق، حَسن المعاملة؟[9]، والأهمّ من كلّ ذلك أنّها (تقوم على عُنصريْ الإقناع والاستمالة للتّأثير في السّامعين، وإخراجهم من قناعاتهم وآرائهم ووُجهات نظرهم إلى التّصديق برؤيّة الخطيب الذي أمامهم، والاقتناع بها والتّحوّل من مواقفهم إلى العمل بما جاء في كلامه ونصائحه).[10]

7.2 الخطابة إحدى وسائل الرّسول ﷺ الكبرى بعد الوحيّ المنزّل: التي اعتمدها من أجل إقامة دولة الإسلام؛ فيقول في هذا الشّأن: (ولنا في رسول الله ﷺ الأسوّة الحسنة والقدّوة الصّالحة فهو الذي -بتأييد من الله وتوفيق- أقام دولة الإسلام وأسّس أركانها ورفع قواعدها على الحقّ والعدل والإيمان بالله ورسوله. ومن وسائله الكبرى التي ساعدته على تأسيس دولة الإسلام الأولى -بعد الوحيّ المنزَّل- خَطابَته في الجموع والمَحافل).[11]

8.2 **للخطابة دور كبير في التّاريخ الإسلاميّ**: وقـد صرّح بـذلك قـائلا: (فـنّ الخطابة لعب عبر التّاريخ الإسلاميّ المجيد دورا لا ينكره إلاّ جاحد، بل كان الوقود الذي يلهب الضّمائر، ويهيّج النّفوس، ويحفّز الهِمم، ويفتِـق أكـمام الإبـداع والإيـمان والعمل الصّالح في نفوس الجماهـير عـلى اخـتلاف مشـاربهم ومنـاهلهم وألـوانهم وأجناسهم وألسنتهم) [12] ، كما أنّ لها مكانة خاصّـة في الإسـلام؛ فهـي شـعيرة مـن شعائره التي يجب تعظيمها.

3. **عوامل نجاح الخطيب حسب (أمحمّد صافي المستغانمي):** وهذا العنصر ـ هـو محور الكتاب ولبّ موضـوعه الـذي تـمّ معالجتـه في مباحـث الفصـل الأوّل التـي تتكامل مع بعضها وتتداخل في الأفكار المطروحة فيها لتعطي هيكلا عاما لمقوّمـات الخطيب والعوامل التي تساعده وتمكّنه من إلقاء خطب جيّدة بنجاح وامتياز، لكننـا سنركّز في تحديد عوامل نجاح الخطيب على مبحثين فقط لأنهـما بـارزين ومـرتبطين بهذا العنصر بشكل مباشر، وهما: المبحـث الخـامس: مواصـفات الخطيـب النّـاجح والمبحث السّادس: عوامل نجاح الخطبة، ومن خلالها اسـتنتجنا أنّـه ممّـا قـد يجعـل الخطيب ناجحا في رأيّ (أمحمّد صافي) ما يلي[13]:

- **تجنّب خوض الخطيب فيما لا يعلم**: الخطيب الرّاشد هو الذي يقول ما يعلـم صحّته بيقين، ويتحرّى الدّقة في ألفاظه وعباراته ومعانيه وفتاويـه والأحـداث التـي يرويها، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ولا فيما يجهله؛

- **مخاطبة النّاس بما يعرفون**: فلجوء الخطيب إلى دقائق المعارف وشوارد العلوم وتفصيلات في علوم تجريبيّة أو بحتة رغبة منه في مزيد من التّوضيح والبيان؛ هو في حقيقة الأمر تصرّف مخلّ بالخُطبة، ويدل على عدم فقهه، وهو من قبيل تكليف النّاس بما لا يطيقون، إذ تختلف مستويات السّامعين، فهم من شرائح اجتماعية وثقافيّة متنوّعة؛
- **مراعاة مقتضى الحال**: لكلّ مقام مقال، ولكلّ شريحة اجتماعيّة لسانا تتحدث به، وبيان تتواصل به، وألفاظ تتداولها، من هنا وجب على الخطيب الذّكي الألمعيّ أن يراعي مقامات القول، ويحدّث كلّ طائفة بما يتناسب مع مستويات أفرادها العلميّة، ومداركهم العقليّة؛
- **التّنويع في الأساليب الخطابيّة**: بهدف إقناع الجماهير واستمالة عواطفهم، ومن بين هذه الأساليب:

- **الاستدراج**: بمعنى تسليم الخطيب جدلا بآراء ومسلكيّات ينتهجها جمهوره ثمّ يجاريهم في الحوار والمحاججة إلى أن يصل بهم إلى شاطئ الاقتناع بما يسوق من أدلة ساطعة، وبراهين قاطعة؛

- **سوق القصّة**: من الأساليب الماتعة الشّائقة التي تستهوي جماهير السّامعين وتسترعي اهتمامهم، واتّخاذ عبرتها حجةً دامغة للإقناع والتّأثير. وكثيرا ما يعمد الخطباء الأذكياء إلى القصص المفترضة أو الحقيقية لبناء جسم الخطبة.

- **طرائق الاستمالة وأساليب الإثارة**: عديدة ومتنوّعة، اقتصر المؤلّف على ثلاثة منها، وهي:

- **المشاركة الوجدانيّة**: المقصود بها أن يعيش الخطيب ظروف الجمهور الذي يخاطبه، ويحسّ بأحاسيسهم، ويفرح لمسرّاتهم، ويحزن لمصائبهم، ويشاطرهم آلامهم وآمالهم... إلخ؛

- **مهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعيّ**: فلابدّ أن يتمتع الخطيب بمهابة عظيمة ومكانة اجتماعيّة ساميّة بين أهاليه وذويه، فهو لا يخطب بلسانه فقط، وإنّما يتحدث بلسان حاله، فإذا كانت شخصيّته قويّة مؤثّرة، وكان ذا نفس توّاقة متطلّعة للمعالي وقلب همام مقدام لا يثنيه عن عزمه شيء، فإنّ النّفوس تنجذب إليه، والآذان تتُوق إلى سماع حديثه، وتكون له سلطة على النّفوس لا يُؤتاها إلاّ ذو حظ عظيم.

والمهابة نوعان: فطريّة، ومكتسبة. فالفطريّة: هبة وسَمتٌ ووقار وأريَحية نفسيّة عظيمة يرزقها الله من يشاء من عباده. أمّا المكتسبة: فمنشؤها السّمعة الحسنة والماضي المشرق، والسّيرة العطرة، والأخلاق الفاضلة التي يتمتع بها الإنسان

- **القدرة على شدّ الانتباه**: ويكون ذلك بسلوك الخطيب واعتماد أساليب وطرائق جديدة ومتنوّعة رغبة منه في إبعاد السّآمة والملّل عن قلوب وعقول سامعيه. فالقلوب -كما أخبرنا الصّادق الأمين- تصدأ كما يصدأ الحديد، وتملّ ويصيبها الفتور.

• **أربع نصائح ضروريّة للخطيب النّاجح**: أورد المؤلّف أربع نصائح للخطيب المبتدئ حتى يتمكّن من فنّ الخطابة، ويمتلك ناصيتها ويتربّع على عرشها، وهي: البدء برغبة قويّة، معرفة ما سيتحدّث عنه، التّصرّف بثقة، التّدرّب ثمّ التّدرّب ثمّ التّدرّب.

بالإضافة إلى هذه العوامل المؤدّية إلى نجاح الخُطبة أشار (أمحمّد صافي المستغانمي) إلى بعض الصّفات التي يجب على الخطيب الاتصاف بها حتى يبلغ مستوى النّجاح والجودة في خُطبه، حيث قسّمها إلى قسمين: الصّفات التي تتعلّق بذات الخطيب، والصّفات المتعلّقة بمظهر الخطيب الخارجيّ.

أ) **الصّفات التي تتعلّق بذات الخطيب**: منها [14]:

• **الاستعداد الفطريّ**: المواهب أرزاق مقسومة، فبعض النّاس يولد مفطورا على حبّ الخطابة أو فنّ الشّعر أو التّجويد أو ما إلى ذلك من أنواع العلوم والفنون والمهارات، وهذا يوفر على المتعلّم جهدا كبيرا في حصوله على كمال هذه الصّفة والارتقاء بها؛

• **طلاقة اللسان**: الذي يعدّ أداة الخطيب الأولى، وسلاحه الضّروري والأقوى الذي يمكّنه من الانضواء في سلك الخطباء، فالخطيب النّاجح هو الذي يتمتع بلسان سليم، تام، كامل الخلق، بريء من كلّ أمراض الفأفأة والتّمتمة واللجلجة واللثغة وغيرها، بل عليه أن يكون ذَرِب اللسان، فصيحا بليغا، قديرا على التّعبير، ذا ملكة قويّة في الإنشاء والتّصرّف في فنّ القول؛

- **رباطة الجأش**: من صفات الخطيب النّاجح سكون النّفس وهدوء البال، فإذا كان ساكن النّفس ثابت الجنان لا تنتابه الحيرة أثناء الحديث، ولا تعتريه الدّهشة ازداد كلامه قوة، وحسن وَقْعه في نفوس السّامعين، وسَلِم من الحُبْسة والحَصَر
- **القدرة على مراعاة مقتضى الحال**: فالخطيب البليغ هو الذي يراعي مقامات الخطاب، ويخصّص لكلّ مقام مقالا، ويُلبِس لكل حالة لَبوسَها، ومن الحكمة ومراعاة مقتضى الحال –مثلا- أن يخاطب المتحدثُ جمهور الثّائرين الهائجين بعبارات حكيمة متّزنة تكفّ بَأْسهم...؛
- **الجرأة والشّجاعة والثّقة بالنّفس**: وهي من سمات الخطيب النّاجح ومكونات شخصيّته، ونعني بالجرأة: عدم التّهيّب والتّردد، فلا بدّ للخطيب من شجاعة أدبيّة صادرة عن إيمان راسخ وعقيدة قويّة وثقّة بما يقول. وقد ذكر (أمحمّد صافي) في هذا السّياق كيفيّة تنميّة الخطيب لشجاعته الأدبيّة وثقته بنفسه؛
- **صلاح الخطيب**: الخطيب النّاجح هو المؤّمن المتصف بالصّلاح والتّقوى والوَرَع، وهو الذي يقول ما يفعل ويفعل ما يقول، وبذلك يكون كلامه إلى القلوب أقرب، وإلى النّفوس أحبّ؛
- **سداد الرّأي ونفاذ البصيرة**: الخطيب النّاجح هو الذي يتّسم بسداد الرّأي ونفاذ البصيرة، يرى بنور القلب ما يعجز عنه نور البصر؛
- **حسن الخلق**: وهو من أبرز الصّفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الخطيب؛

- **الإخلاص**: فهو قوّة فعالة في توجيه النّفس البشريّة وقيادة زِمامها والخطيب المخلص هو الذي يتسرّب كلامه إلى قلوب السّامعين بدون استئذان، وما خرج من القلب دخل إلى القلب، وما خرج من الفمّ لا يتجاوز الأذُنين؛
- **رضا الله ﷻ**: رضوان الله تعالى والفوز بجنّته غاية يسعى إليها كلّ مسلم
- **الفراسة والقدرة على الاستنباط**: ففراسة الخطيب المستنيرة بنور الله ومقدرته الفائقة على الاستنباط من الأحداث والوقائع من السّمات الشّخصيّة التي تساعده على النّجاح في رسالته؛
- **الحماسة وتأجّج العاطفة**: لا ريب أن للحماسة والعاطفة المتأججة التي يمتاز بها الخطيب أثرا كبيرا في استمالة الجماهير وإقناعهم وتحريك عواطفهم؛
- **قوة الملاحظة**: يلزم على للخطيب أن يكون قويّ الملاحظة، حديد البصر مستنير البصيرة، ويكون ذلك بقراءة ملامح الجمهور، والاطلاع على أحوالهم ومدى تجاوبهم وتفاعلهم... إلخ؛
- **حسن الإلقاء**: ويُقصد به الطّريقة التي يصل بها الخطيب إلى قلوب السّامعين فلا جدوى من الفصاحة والبيان، ولا من صحة المادة العلميّة ووَفْرتها، ولا من الحماس والاندفاع إذا لم يحسن الخطيب إلقاء خطبته والوصول إلى قلوب جمهوره حيث فصّل المؤلّف (أمحمّد صافي) في تقديم جملة من العوامل المساعدة على حسن الإلقاء، وكذلك توجيهات خاصة بسرّ الإلقاء الجيّد؛

- **سرعة البديهة**: قد يتعرض الخطيب أثناء خطبته لموقف أو سؤال أو اعتراض يتطلّب منه أن يكون حاضر الذّهن سريع البديهة في اتخاذ الموقف المناسب والرّد السّليم لتفادي الحرَج ومواصلة الخُطبة؛
- **صدق اللهجة**: لا بدّ أن يكون الخطيب مخلصا صادقا حريصا على قول الحق والعمل به، فينبغي ألا يُسرف في مدح ولا ذمّ، ويتجنّب فاحش القول وبذيئه... إلخ
- **اللطف في الحديث والتودّد للسّامعين**: ما دخل الرّفق في شيء إلاّ زانه، وما اتّصف أحد بعنف إلاّ شانه. هذه سنّة مطَّردة في الخَلق أجمعين، والخطيب وهو المعلم والمرشد، لا بدّ أن يتحلّى بخُلق الرّفق، ويتزيّن بخصلة اللين في الحديث كالدّعاء لهم مثلا. وأيضا التّلطّف في المعاملة، والتّواضع... إلخ؛
- **اليقين العميق والاقتناع الشّخصي**: الخطيب القويّ ذو ثقة في نفسه، مقتنع بالأفكار التي يدعو إليها. وقوّة اقتناع الخطيب بأفكاره تَظهر بجلاء في نبرات صوته، وحماسته المنبرية، وملامح وجهه، وطريقة إلقائه، وصدق لهجته، وحرصه على إقناع السّامعين بما يدعو إليه؛
- **الطّاقة الاحتياطيّة**: عامل أساسي لنجاح الخطبة، والمقصود بها أن يجمع الخطيب كثيرا من المواد والمعلومات والمعارف والنّصوص والأمثلة والشّواهد المتعلقة بموضوع خطبته، ثمّ يصطفي منها ما يستجيد شكلا ومضمونا، ويطرح ما بقي. فكلما اتسع رصيد معلوماته؛ زادت طاقته الاحتياطيّة التي تُنجده إذا ما طلب وتسعفه إذا ما أمر؛

- **التّدريب العمليّ**: مع كلّ الصّفات السّابق ذكرها؛ لا بدّ أن يتلقى الخطيب تدريبا عمليا وإعدادا جيدا. فلا يَصقُل الموهبة مثلُ الميدان، ولا بدّ له من أن يتعوّد على مواجهة الجماهير؛

ب) الصّفات المتعلّقة بمظهر الخطيب الخارجيّ: لا بدّ للخطيب النّاجح من صفات شكليّة، وسَمْت ظاهري يتّسم به، ومن هيئة مَهيبة يعود أثرها على المستمع تقديرا واحتراما، لذا وجب عليه أن يجتهد في الظّهور بالمظهر اللائق المناسب ومراعاة النّقاط الآتية[15]:

- **وقار لبسه وجمال مظهره**: إنّ حسن المظهر وجماله أمر حبّذه الإسلام، وحضّ عليه، ولذلك ينبغي للخطيب أن يهتمّ بمظهره وتناسق لباسه، فلا يخالف المألوف عند النّاس؛
- **وقفة الخطيب حال أداء الخُطبة**: ينبغي أن يهتم الخطيب بكيفيّة وقوفه وهيئته، حيث فضّل العلماء أن يقف الخطيب على مكان مرتفع حتى يتمكّن الجمهور من رؤيته، ويتمكّن هو من رؤيّة الجمهور، فالرّؤية المتبادلة تُسهم في عملية التّأثير والتّأثر؛
- **حسن إشارة الخطيب واتّزان حركاته**: الإشارة وسيلة هامّة من وسائل الاتّصال بين النّاس، ومهما كان الخطيب ناجحا ومتمكّنا من مادته العلميّة وفصيحا في حديثه فإنه لا يستغني عن الإشارة بيديه، أو حركة رأسه، أو ملامح وجهه، أو نظرات عينيه، وغيرها من الأعضاء التي يمكن الإشارة والإفهام بها.

3. قراءة في كتاب (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع):

جاء هذا الكتاب الذي أفرده (أمحمّد صافي المستغانمي) لفنّ الخطابة والخطيب في ثلاثمائة وثمانية وستون (368) صفحة في شكل جميل يجعل القارئ يميل لمطالعته وينجذب لتفحّصه سواء من حيث نوع الخطّ أو الألوان المستعملة فيه، صادر عن دار ابن كثير في طبعته الأولى سنة 1438ه/ 2018م، وقد جعله صاحبه في مقدمة ومدخل وفصلين، ثمّ خاتمة، ومسرد للمراجع والمصادر، وفهرس للموضوعات.

3.1 **المقدّمة**: استهلّ المؤلِّف مقدمته بالتّنويه بمكانة الشّعر والخطابة عند العرب، باعتبارهما سِمَتيْن بارزتيْن للشّخصية العربيّة منذ القدم، ممّا يبيّن بشكل واضح الأهميّة البالغة والعناية الفائقة التي أولاها العرب للغتهم آنذاك، لتستوقفه حسرة وتأسّف على حال هذه اللغة اليوم وكيف أصبحت منزلتها عند أبنائها مشيرا إلى جملة من الأسئلة رأى أن أفضل جواب عنها هو السّكوت، حيث يصوّر لنا هذا الوضع المرير بقوله: «إنّ اللغة العربية اليوم غريبة في دارها، منبوذة بين أهلها مُنكَّسة أعلامها، كاد لها أعداؤها قديما وحديثا، وجنَى عليها أبناؤها، فحيثما التفتَّ سمعتَ ناعقا بإحدى الرَّطانات الأجنبية، وحيثما وَلَّيتَ وجهك قابلت من تعنو جباههم نحو الغرب مقتفين آثار أبنائه حذو القُذّة بالقُذة، وإذا رأيتَ خطيبا في أحد المحافل أو المجامع، سمعتَ ما يسُوؤك وينُوؤك، وأدركتَ أن الخَطْب جلَل، وأن المصيبة عظيمة، ويَحِقّ لكل منّا أن يقول:

وإذا أُصِيبَ القومُ في (أقْوالِهِم) فأَقِمْ علَيهم مَأْتمًا وعَوِيلًا[16]

وكلّ ذلك دليل لا شكّ فيه أن (أمحمّد صافي المستغانمي) رجل محبّ للغته غيور عليها متألّم لما آل إليه حالها عند أهلها، وهو السّبب الرّئيس الذي كان دافعا إلى تأّليفه هذا الكتاب الجمّ الفوائد، فيقول في ذلك: «وإنّما الذي حرّك أشجاني ودفعني إلى كتابة هذه السّطور حول الخطيب النّاجح أني رأيت السّواد الأعظم من خطباء المساجد والمحافل اليوم خِلواً من زاد فنّ الخطابة، يعتلون المنابر وبضاعتهم من العلم الشّرعي مزجاة، وحظّهم من اللسان العربيّ قليل، بل لا أكون مبالِغا إذا قلتُ إن أعدى أعدائهم النّحو العربيّ، حيث يلجؤون إلى العاميات والرَّطانات ظنّاً منهم أنهم يَلطِّفون بها أجواء خُطبهم، مستهينين بالعربية الفصحى وأبنائها»[17].

2.3 المدخل: ابتدأ مؤلفنا (أمحمّد صافي) المدخل بسؤال مفاده: لماذا فنّ الخطابة؟ أراد من خلاله أن يجذب انتباه القارئ، ويوضّح أكثر سبب اختياره لهذا الفنّ حتى يؤلّف فيه كتابه هذا؛ فكأنّه يريد أن يقول: لماذا اخترتُ فنّ الخطابة بالذّات دون غيرها من الفنّون على الرّغم من أنّه قد ذكر في المقدمة كما أشرنا سابقا سبب تأّليفه لهذا الكتاب.

والجواب عليه موجود في أسطر المدخل التي ينوّه فيها بقيمة الخطابة وعظمة شأنّها باعتبارها سلاحا قويا في يدّ الدّاعية المسلم الذي يرغب في تحقيق غايات الإسلام ومقاصده، خاصة وأن الخطيب اليوم على حدّ قوله هو «في ميدان حرب حامية الوطيس مع الأفكار الهدّامة، والمعتقدات الباطلة، والرّذائل المُشينة والمسلكيّات المنحرفة؛ لذا فلزام عليه أن يتسلّح بالقرآن الكريم الذي هو عِصمةٌ

لكل من تعلّق بحبله، وأن يتدرّع بسنّة المصطفى ﷺ، فهي الدُّروع الواقية من الزَّلل في مَهاوي الانحرافات، ومستنقعات الشّهوات»[18].

موضّحا دورها العظيم عبر التّاريخ باعتبارها عريقة عراقة وجود الإنسان على الأرض، وسائدة في مختلف العصور، حيث يقول في ذلك: «والخطابة عريقة عراقة وجود الإنسان على وجه الأرض، فقد عرفتها الأمّم السّابقة، والقرون الخاليّة، ولم يخل منها سجلّ أمّة وَعَى التّاريخ ماضيها، فقد حفظها خط آشور المسماريّ، وقيّدها خطّ الفراعنة الهيروغليفيّ، ورَواها تاريخ اليونان الأدبيّ والسّياسيّ منذ القرن السّابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهنديّة لتعاليمه، وبها أذاع الدّينَ أنبياءُ بني إسرائيل، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاصّ»[19].

ليخص بالذّكر العصر الإسلاميّ الزّاهر وما أدّته الخطابة من دور مهمّ وفعّال فيه كما سبق الإشارة إليه، معزّزا ذلك بحديثه عن خطابة رسول الله ﷺ التي كانت أحد أهمّ الوسائل الكبرى التي ساعدته على تأسيس دولة الإسلام الأولى بعد الوحي المنزّل، فيقول في هذا الصّدد: «فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وأكرمه ربُّه -عز وجل- بمقدرة خَطابيّة فائقة، وموهبة بيانية شائقة رائقة، استطاع من خلالها مخاطبة أهل مكّة ويَثْرب وغيرهم من القرى والقبائل العربيّة الفصيحة بلسان يفوق ما أَلِفوه وبيان تشِعّ أنوار النبوّة من ألفاظه وعباراته، وشَاقَهم حديثه لفظا ومضمونا وأذعنوا واعترفوا له بالفضل والسَّبق، وهم الذين وَرِثوا العربيّة كابرًا عن كابر»[20].

وجملة القول أن ما ذكره في هذا المدخل من مكانة الخطابة عبر التّاريخ وقيمتها العظيمة باعتبارها سلاحا قويا في يدّ الخطيب المسلم –كما كانت في يدّ رسول الله ﷺ الذي هو قُدوتنا ومَثَلنا الأعلى– بغية تحقيق غايات الإسلام وتحقيق النّصر على مستوى النّفوس والعقول، خاصّة في وقتنا الرّاهن الذي كثُرت فيه النّفوس المريضة والأفكار الهدّامة والأهل النّافرون من لغتهم الأم المباركة، أصلح الله حالنا وحال بلادنا وحال الأمّة الإسلاميّة قاطبة.

3.3 الفصلان الأوّل والثّاني: جاء الفصل الأوّل موسوما بـ (مقوّمات الفنّ الخطابيّ)[21]، متضمّنا إحدى عشر (11) مبحثًاعناوينها على التّرتيب كالآتي: فنّ الخطابة، أنواع الخطب، كيفية إعداد الخطبة، الأسلوب الخطابيّ، مواصفات الخطيب النّاجح، عوامل نجاح الخطبة، مصادر ثقافة الخطيب النّاجح، هديُّه ﷺ في خُطَبه، عيوب الخطبة وطرق معالجة بعض أدوائها، أنواع الخطباء، وصايا ونصائح عامّة للخطباء.

أما الفصل الثّاني الموسوم بـ: (من روائع الخطب في عصور العربيّة الزّاهرة)[22] فقد تضمّن نماذج مختارة من الخطب، حيث جاءت مباحثه الستة (06) معنونة كالتّالي: خطبٌ جاهليّةٌ غرّاء، من روائع خطب العصر الإسلاميّ الرّاشدي، من خطب العصر الأمويّ، نماذج من خطب العصر العباسيّ، خطب أندلسية، خطب من العصر الحديث.

4.3 تحليل لبعض الأفكار: إنّ الذي يهمنا هنا هو الفصل الأوّل، حيث لاحظنا كما أشرنا سابقا أن الأفكار المطروحة ضمن مباحثه العديدة والمتنوّعة تصبّ كلها في فنّ الخطابة وما يستلزم على الخطيب من أمور حتى يكون ناجحا، ولكننا لن نقوم باستعراض مضامين تلك المباحث، إنّما سنطرح جملة من الأفكار التي تراءت لنا ونحن نقوم باستقرائه خلال جولة خاطفة مستعجلة، نذكر أهمّها:

1.4.3 تعريف الخطابة: أورد (أمحمّد الصافي المستغانمي) في تعريف الخطابة لغةً جملة من التّعاريف اللغويّة المأخوذة من مجموعة من المعاجم المشهورة منها (مقاييس اللغة لابن فارس) و(أساس البلاغة للزّمخشري)، كما تعرّض لمادة (خطب) في القران الكريم.

وفي التّعريف الاصطلاحي للخطابة اكتفى بإيراد تعريفين فحسب، الأوّل للإمام (أبو زهرة)[23] والثّاني للشّيخ (عبد الجليل شلبي)[24].

وما لفت انتباهنا أنّه وضع عنوانا وهو (تحليل التّعريف)[25] بعد هذين التّعريفين الاصطلاحيين، ممّا يجعل القارئ يعتقد أنّه تحليل للمفهوم الاصطلاحي الذي يتضمّن تعريف كل من (أبي زهرة) و(عبد الجليل شلبي)، إلاّ أنّ الذي اتضح بعد قراءة التّحليل أنّه يتعلق فقط بتعريف (عبد الجليل شلبي) الذي يقول فيه أنّ الخطابة هي: «فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائيّة تشتمل على الإقناع والاستمالة والتّأثير»[26] بدليل أن التّحليل يقتصر فقط على العناصر الأربعة المذكورة في هذا التّعريف والتي عدّدها (أمحمّد صافي) في النّقاط التّالية[27]:

1) الخطبة حديث موجّه لجمهور من النّاس، وليس حديثا فرديا مع فرد أو اثنين؛ لأنّ الحديث الموجه لفرد أو اثنين لا يحتاج إلى لهجة خَطابية، بل يحتاج إلى شرح المعنى أو الفكرة بصوت هادئ، وطريقة الأحاديث والمحاورات المألوفة.

2) تكون الخُطبة بطريقة إلقائيّة، تعتمد على جَهارة الصّوت، وتكييف نَبَراته حسب العاطفة المسيطرة على الخطيب، ووفق المضمون المراد شرحه، وتَصحب الطريقةَ الإلقائيّة إشاراتٌ باليد، أو بغير اليد، وتبدو على الخطيب انفعالات تثير السّامعين، وتوجه عواطفهم نحوه، وتجعلهم أكثر استجابة لرّأيه.

3) أن تكون الخطبة مقنعة بحيث تشتمل على أدلة قوية وبراهين ساطعة تثبت صحة الفكرة التي يدعو إليها الخطيب، فإذا خَلتْ الخطبة من الأدلة المقنعة فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأيّ.

4) أن يسيطر على الخطبة عنصر الاستمالة والتّشويق، وذلك لتوجيه عواطف السّامعين، وإقناعهم بالفكرة التي يدعو إليها، وسوقهم من الاقتناع النّظري إلى التّطبيق العمليّ.

أما تعريف الإمام (أبي زهرة) بأنّ الخطابة «صفة راسخة في نفس المتكلّم يقتدر بها على التّصرّف في فنّون القول، لمحاولة التّأثير في نفوس السّامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم»[28] فهو يتضمّن عنصرا آخر غير موجود مع تلك النّقاط الأربع، ويتمثل في أن الخطابة (صفة راسخة في نفس المتكلّم يقتدر بها على التّصرّف في فنّون القول)؛ وهو الذي لم يذكره (أمحمّد صافي) في تحليله للتّعريف

ولذلك كان يَحسُن أن يقال مكان ذلك العنوان (تحليل التّعريف الثّاني أو تحليل تعريف عبد الجليل شلبيّ).

2.4.3 ترقيم العناوين: يلاحظ قارئ الكتاب أن صاحبه لا يعتمد ترقيما للعناوين الموجودة في الفصل الأوّل، بل في الكتاب كلّه، إلا نادرا في بعض العناصر الفرعية، وهذا الأمر يؤدي إلى اللبس في تحديد العناوين الفرعية والتي تتفرّع عنها باعتبار أن العناوين الرّئيسية بارزه وجلية، وهذا ما وقع معنا فعلا ونحن بصدد استقراء مضمون الكتاب، حيث التبس علينا تحديد العديد من العناوين لمن هي تابعة، مثلا في عنوان (طرائق الاستمالة وأساليب الإثارة)[29] الذي يعد عاملا من (عوامل نجاح الخطبة) وهو المبحث السّادس، فقد ذكر ضمنه أن من الأساليب الشّائقة والجاذبة (المشاركة الوجدانية، مهابة الخطيب ونفوذه الاجتماعي، القدرة على شدّ الانتباه)، والحقيقة أننا لم نتمكّن من التّفريق فيما إذا كانت هذه العناوين الثّلاثة تابعة للعنوان الرّئيسي أم أنّها تابعة للمطلب في حد ذاته.

كما ذكر (أمحمّد صافي) في المبحث ذاته أنّه من العوامل أيضا (التوسّع في الأساليب الخطابيّة)، حيث أورد بعد هذا العنوان عنواني: الاستدراج وسَوْق القصّة. فلو أنه لم يذكر العبارة القائلة: (ومن الأساليب التي ينتهجها الخطباء المَصَاقع رغبة في إقناع الجماهير واستمالة عواطفهم: أسلوبا الاستدراج وسوق القصّة)[30]، لاعتبر القارئ أن هاتين الوسيلتين هما من عوامل نجاح الخطبة وليسا عنصرين تابعين لعامل التّنويع في الأساليب الخطابيّة.

ونشير هنا إلى أن هذين العنصرين كان يمكـن إدراجهـا تحـت عنـوان (طرائـق الاستمالة وأساليب الإثارة) باعتبارهما من أهـم عنـاصر الاسـتمالة، وهـو مـا قـررّه (أمحمّد صافي) بنفسه حين صرّح بالعبارة السّالفة الذكر.

كما لاحظنا أيضا أن عنوان (حسن الإلقاء)[31] الذي يعدّ من الصّفات التي تتعلّـق بذات الخطيب، قد أُتبع بعنوانين هما: (سرّ الإلقاء الجيّد، وتوجيهـات خاصّـة بسـرّ الإلقاء) دون ترقيم، مع أن العناصر التي تتفرّع عن العناوين الثّلاثة جاءت مرقّمة.

الأمر ذاته مع بقيّة الصّفات فصاحب الكتاب يوردها دون ترقيم لعناوينها حتـى إذا وصلنا عند صفة (رباطة الجأش)[32]-مثلا- نجد بعـدها عنـوان (نـماذج لخطبـاء أُرتِج عليهم فوق المنبر) دون ترقيم وهو تابع للصّفة السّابقة؛ أي أنّـه عنـوان متفـرّع عن عنوان (رباطة الجأش) وليس من ضمن الصّفات التـي تتعلّـق بـذات الخطيـب كذلك الأمر مع صفة (الجرأة الشّجاعة والثّقة بالنّفس)[33]، فبعدها يرد عنوان فرعـي عنها دون ترقيم وهو(كيف ينمي الخطيب شجاعته الأدبيّة وثقته بنفسه).

والأمثلة كثيرة يضيق بنا المقام لحصرها جميعا، المهم أنّه كان مـن الأفضـل اعـتماد التّرقيم، أو على الأقل تغيّير لون الخطّ المعتمد في العناوين الرّئيسـية أو حتـى حجـم الخطّ من أجل التّمييز ورفع اللُّبس.

ولا بأس أن نشير في هذا السّياق أنّ هناك من المباحث ما يتضمن مطلبين أو أكثر وهي المباحث (4-5-7-9-11)، والأخير منها لا يتضمن المطلب الأوّل منه عـلى

عناصر بعكس مطالب المباحث الأخرى، أمّا المباحث (1-2-3-6-8-10) فلا مطالب بها بل تحتوي على عناصر فقط.

وملاحظة أخرى تتمثل في أن (أمحمّد صافي) ذكر عنوان مبحث غير موجود في الكتاب أثناء تحليله لتعريف الخطابة، حيث ذكر في العنصر الثّالث من التّحليل ما يلي: (والخطيب النّاجح هو الذي يشرح الأدلة التي يسوقها شرحا وافيا مستعينا بالأساليب اللغويّة والبيانيّة التي سيأتي شرحها تحت مبحث وسائل الخطيب النّاجح وبضاعته العلميّة)[34]، فمبحث (وسائل الخطيب النّاجح وبضاعته العلميّة) ليس له ذكر مع مباحث الكتاب.

3.4.3 **مصادر الكتاب:** وضع الكاتب مسردا لأهمّ المصادر والمراجع التي اعتمدها في كتابه هذا، وذلك للأمانة العلميّة. لكن الذي لاحظناه أنّه قد اعتمد بشكل كبير جدا على ثلاثة مصادر أساسيّة وهي: الخطابة وإعداد الخطيب لعبد الجليل عبده شلبي، وفنّ الخطابة لديل كارنيجي[35]، والخطابة: -أصولها وتاريخها- في أزهر عصورها عند العرب للإمام أبي زهرة؛ فهذا المصدر الأخير غير موجود في قائمة المراجع والمصادر في الكتاب مع أنّه مذكور في الهوامش، ولعلّه سقط سهوا أو نسيانا من الكاتب؛ لأنّه من أكثر المصادر التي أخذ منها معلوماته المهم أن (أمحمّد صافي) استقى معظم مادّته منها، وفي غالب الأحيان بالصياغة ذاتها الموجودة في هذه المصادر الثّلاثة، والذي يُؤخذ عليه أنه لم يشر إلى هذه المصادر في

المواضع التي أخذ عنها بصيغتها اللغويّة، وإن كانت مصبوغة أحيانا بأسلوبه وصياغته اللغويّة الخاصّة.

ونذكر من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر ما ذكره (أمحمّد صافي) تحت عنوان (أربع نصائح ضرورية للخطيب النّاجح)[36]، حيث أورد أربع نصائح للخطيب المبتدئ حتى يتمكّن من فنّ الخطابة، ويمتلكَ ناصيتها ويتربّعَ على عرشها، وهي: البدء برغبة قويّة، معرفة ما سيتحدّث عنه، التّصرّف بثقة، التدرّب ثمّ التدرّب ثمّ التدرّب. وهي النقاط ذاتها التي ذكرها (ديل كارنيجي) من أجل بلوغ النّجاح في الخطبة بسرعة وفاعليّة[37].

وأيضا ما ورد تحت عنوان (النّسيان وطرق معالجته)[38] وهو من الأدواء التي يعاني منها الخطباء (المطلب الثّاني من المبحث التّاسع: عيوب الخطبة وطرق معالجة بعض أدوائها)، حيث ذكر (أمحمّد صافي) أن هناك ثلاثة قوانين طبيعية لمعالجة النسيان وهي: الانطباع، والتّكرار، وترابط الأفكار. وهي أساسا (قوانين التّذكر الطّبيعية)[39] الثّلاثة التي تحدّث عنها (ديل كارنيجي)، وقال بأنّ جهاز الذاكرة قد أنشئ على أساسها.

وكذلك ما جاء ضمن عنوان (حسن الإلقاء)[40] من عناصر تتمثّل في: جودة النّطق، مُجانَبة اللّحن، التمهّل في الإلقاء، الحركات والإشارات، وهي ممّا يجب مراعاته من قبل الخطيب بغية الإبداع في حسن الإلقاء، وهذه النّقاط الأربعة قد

ذكرها الإمام (أبو زهرة) في كتابه الخطابة[41]، وكذلك (عبد الجليل شلبي) في عنصر قواعد الإلقاء الجيد[42] .

وفيما يخص عنوان (خصائص الأسلوب الخطابيّ)[43] فإنّ أغلب الخصائص التي ذكرها (أمحمّد صافي) تحت هذا العنوان خاصّة منها النّقاط من 1 إلى 5، قد أوردها (عبد الجليل شلبيّ) أيضا في ما يتعلّق بسيمات الأسلوب الخطابي[44]، كما أن أغلب الصّفات المتعلّقة بالخطيب التي ذكرت في هذا الكتاب موجودة في كتاب الإمام أبي زهرة.

4. **خاتمة**: من أهمّ النّتائج التي أفضت إليها هذه الدّراسة ما يلي:

- أنّ المفكّر (أمحمّد صافي المستغانمي) رجل محبٌّ للغة العربيّة حبا كبيرا وغيور عليها لدرجة أنّ من دواعي تأليفه هو عدم تقبّله لسماع الخطباء الذين يستهينون باللغة العربيّة وأبنائها؛
- فنّ الخطابة في نظر (أمحمّد صافي المستغانمي) هو أحد فنّون التّواصل والإعلام ومخاطبة الجماهير، يعتمد أكثر ما يعتمد على خصائص الإقناع والاستمالة والإمتاع، بالإضافة إلى أمور أخرى تم التّفصيل فيها في الكتاب؛
- الخطيب النّاجح هو الذي ينبغي عليه التمتّع بصفات عديدة منها ما يتعلّق بذاته وأخرى بشكله الخارجيّ، بالإضافة إلى الأخذ بالعوامل والخصائص التي تمكّنه من بلوغ الجودة والنّجاح في خُطبه؛

– الكتاب هو منبع لفنّ من أهمّ الفنّون الأدبيّة النّثرية، وزاد وفير للخطيب لكنّه لا يخلو من بعض الهفوات والزّلات، وذلك ليس عيبا، إنّما هو من طبيعة أي عمل أو كتاب؛

وأخيرا نقول أن فنّ الخطابة لا يحتاجه الخطيب الدّاعية المسلم فقط، بل يحتاجه كل من يرغب في استمالة من يكلّمُه ليُوصل إليه أفكاره، ويصبو إلى إقناعه والتّأثير فيه ليقوم بما يريده منه، فالمُحاضر خطيب، ورجل الأعمال خطيب، والرّئيس خطيب، والقائد خطيب، والسّياسي خطيب، والمحاميّ خطيب، والوالد في بيته خطيب... ، باعتبار أنّ الخطابة هي (ملكة الاقتدار على الإقناع، واستمالة القلوب وحمل الغير على ما يراد منه)، بل هذا هو المعتبر عند المحققين في معنى العلم ويؤيّده ما نُقل عن أرسطو في رسمها حيث قال: (هي قوة تتكلف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأشياء المفردة)، ومعناه أن الخطابة ملكة يطيق صاحبها إقناع المخاطَبين في أي أمر يدّعي أنّه غرض صحيح)[45].

الهوامش:

1. ينظر: علي محفوظ، فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، القاهرة، 1984م، ص 13-14
2. المرجع نفسه، ص 15-16.
3. أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير بيروت الطّبعة الأولى، 1438ه/ 2017م، ص 09.
4. المرجع نفسه، ص 14.
5. المرجع نفسه، ص 21.
6. المرجع نفسه، ص 22.
7. المرجع نفسه، ص 21.
8. المرجع نفسه، ص 11.
9. المرجع نفسه، ص 12.
10. المرجع نفسه، ص 21.
11. المرجع نفسه، ص 13.
12. المرجع نفسه، ص 14.
13. ينظر: المرجع نفسه، ص 93-104.
14. ينظر: المرجع نفسه، ص 69-88.
15. ينظر: المرجع نفسه، ص 89-92.
16. المرجع نفسه، ص 08.
17. المرجع نفسه، ص 09.
18. المرجع نفسه، ص 12.
19. المرجع نفسه، ص 12-13.
20. المرجع نفسه، ص 14.

[21]. المرجع نفسه، ص 17–183.

[22]. المرجع نفسه، ص 185 – 342.

[23]. أبو زهرة هو: محمّد أحمد مصطفى أحمد (1898 – 1974م)، مفكر وباحث وكاتب مصري من كبار علماء الشّريعة الإسلاميّة والقانون في ق 20م، وأحد أفذاذ العلماء في عصره، صاحِب حضور قوي وكلمة مسموعة ورأيّ سديد، يلاحق الزّيف وينير طريق المسلمين، وظلّ هكذا حتى توفّي. ويروى أنّه بعدما تخرّج عمل مدرّسا للعربيّة في المدارس الثّانوية، ثم اختير سنة 1933م للتّدريس في كليّة أصول الدين التي كلِّف فيها بتدريس مادة الخطابة والجدل، ثمّ كتب مؤلفاً عدّ الأول من نوعه حيث لم تفرد الخطابة قبله بكتاب مستقل. ولما ذاع فضله وبراعته في مادّته اختارته كليّة الحقوق المصريّة لتدريس مادة الخطابة بها وكانت تعنى بها عناية فائقة وتمرّن طلابها على المرافعة البليغة الدّقيقة.

[24]. الدّكتور عبد الجليل شلبيّ (1915–1995م) عالم دين أزهري مصريّ، حاصل على درجة الدّكتوراه في الأديان المقارنة من جامعة لندن. أمين عامّ سابق لمجمع البحوث الإسلاميّة، وعميد سابق لمعهد إعداد الدّعاة، وكان مديراً للمركز الإسلاميّ في لندن في مطلع سبعينيات ق 20م. واشتهر بردوده على أصحاب الشبوهات حول الإسلام عبر بابه اليوميّ في جريدة الجمهوريّة بعنوان (قرآن وسنة) خلال ثمانينيات ق 20م.

[25]. أمحمّد صافي المستغانمي، مرجع سابق، ص 19.

[26]. المرجع نفسه، ص 19.

[27]. المرجع نفسه، ص 19–20.

[28]. المرجع نفسه، ص 19.

[29]. المرجع نفسه، ص 96.

[30]. المرجع نفسه، ص 94.

[31]. المرجع نفسه، ص 79.

[32]. المرجع نفسه، ص 70.

.33 المرجع نفسه، ص 72.

.34 المرجع نفسه، ص 20.

.35 ديل كارنيجي كاتب ومحاضر أمريكي ومطور للدّروس المشهورة في تحسين الذّات، ومدير معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية، ولد عام 1888م في مدينة ماريفال بولاية ميسوري الأمريكية، وقد التحق في شبابه بكليّة وارتسبرج للمعلمين، ثمّ عمل كمندوب مبيعات لدى شركة آرمو، ثمّ انتقل لتعليم رجال الأعمال فنّ الخطابة، وألف العديد من الكتب في مجال التنميّة البشريّة وتطوّير الذّات، التي تُرجمت إلى عدد كبير من اللغات، وبِيع منها الكثير من النّسخ حول العالم. وقد توفي في عام 1955 بعدما حقّق نجاحات مبهرة في مجالات التنميّة البشريّة، سواء عن طريق المعهد الذي أسّسه لهذا الغرض ولفنّ الخطابة أيضا، أو عن طريق كتبه التي لا زالت تطبع وتترجم إلى مختلف لغات العالم حتى اليوم.

.36 أمحمّد صافي المستغانمي، مرجع سابق، ص 101-104.

.37 ديل كارنيجي، فن الخطابة: اكتساب الثقة، الأهلية للنّشر والتّوزيع، لبنان، 1999م، ص 18-23.

.38 أمحمّد صافي المستغانمي، مرجع سابق، ص 164.

.39 ديل كارنيجي، مرجع سابق، ص 53-68.

.40 أمحمّد صافي المستغانمي، مرجع سابق، ص 79.

.41 محمد أبو زهرة، الخطابة: أصولها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، مصر الطبعة الثانية، 1980م، ص 145، 147، 151.

.42 عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1401ه/ 1981م، ص 31-33.

.43 أمحمّد صافي المستغانمي، مرجع سابق، ص 55.

.44 عبد الجليل عبده شلبي، مرجع سابق، 23-25.

.45 علي محفوظ، مرجع سابق، ص 14.

إستراتيجيّة العنونة في مؤلّفات (أمحمّد صافي المستغانميّ)

The title strategy in the writings of (Muhammad Safi Al Mosteghanemi)

د. مسكين حسنيّة

ج.عبد الحميد بن باديس، مستغانم

ملخص: لقد أوّلت الدّراسات الأدبيّة والنّظريّات النّقديّة المعاصرة أهميّة كبيرة للعتبات النّصيّة فصار درسها يندرج ضمن سياق نظريّ وتحليليّ يهدف إلى مقاربة النّصوص، من أجل فهم خصوصيّاتها وتحديد جوانب أساسيّة من مقاصدها الدّلاليّة.

وعلى أساس أنّ العنوان هو أقرب المداخل وأيسرها لمقاربة المدوّنات من خلال علاقات الاتّصال والانفصال التي يقيمها مع المتن، حاولت إنجاز هذه الورقة البحثيّة بغرض الكشف عن إستراتيجيّة العنونة في مؤلّفات (أمحمّد صافي المستغانميّ)، وفقا لمنهج وصفيّ تحليليّ.

متن الدّراسة: لقد أوّلت الدّراسات الأدبيّة والنّظريّات النّقديّة المعاصرة أهميّة كبيرة للعنوان باعتباره نصّا موازيّا يمتلك القدرة على قراءته من جوانب جماليّة وتركيبيّة ودلاليّة متعدّدة، من هنا جاء الوعيّ بأهميّة العنوان على الصّعيدين النّقديّ والإبداعيّ فصار درسه يندرج ضمن سياق نظريّ وتطبيقيّ يهدف إلى مقاربة

النّصوص من أجل فهم خصوصيّاتها وتحديد جوانب أساسيّة من مقاصدها الدّلاليّة.

وإذا كان رومان جاكبسون/ Roman Jakobson قد تساءل عن العناصر التي تجعل من نصّ ما نصّا أدبيّا من خلال طرحه لإشكاليّة: ما الذي يحقّق أدبيّة الأدب؟ فإنّ جيرار جينيت/ Gérard Genett أكّد على ضرورة التّساؤل (عن مجموع العناصر التي تجعل من النّص كتابا، أي (تلك) العناصر التي تساند النّص وتصاحبه في رحلة اكتساب الحضور والهويّة الثّقافيّة النّوعيّة)[1] وهذه العناصر هي ما تعرف بالعتبات النّصيّة.

ولم تُثر العتبات النّصيّة أيّ اهتمام قبل توسّع مفهوم النّص، ولم (يتوسّع مفهوم النّص إلاّ بعد أن تمّ الوعي والتّقدّم في التّعرّف على مختلف جزئيّاته وتفاصيله، ولقد أدّى هذا إلى تبلور مفهوم التّفاعل النّصيّ وتحقّق الإمساك بمجمّل العلاقات التي تصل النّصوص بعضها البعض، والتي صارت تحتلّ حيّزا هامّا في الفكر النّقديّ المعاصر)[2]، أي أنّ التّطوّر الذي لحق بمفهوم النّص وفضائه كان سببا في التّعرّف على مختلف جزئيّاته، ومن ثمّ كان الاهتمام بموضوع العتبات إضافة نوعيّة في مقاربة النّصوص وتحليلها.

وحتى (جيرار جينيت) المؤسّس الفعليّ لعلم العنونة من خلال كتابه (Seuils) جعل النّص الموازي عنصرا تابعا وخادما للنّص حينما قال: «النّص الموازي بشتّى أصنافه، يكون على نحو أساسيّ عنصرا تابعا إضافيّا، وخطابا مكرّسا لخدمة شيء

آخر، لهذا الشّيء الذي يشرّع حقّه في الوجود، أي النّص»[3] وربّما لـهذا السّـبب ظـلّ الـنّص الموازيّ خارج دائرة الشّعريّات النّقديّة إلى وقت متأخّر.

والحقيقة أنّه لا يمكن اعتبار النّص الموازيّ بديلا للنّص الأصـليّ، كـما لا يمكـن اعتباره عنصرا تابعا يمكن الاستغناء عنه، فلو كـان هـذا الأصـل مكتفيـا بذاتـه لما احتاج لعناصر خارجيّة تكسبه الهويّة والتّميّز، فهـذا (الأصـل لا ينجـز حضـوره في العالم إلاّ من خلال النّص الموازيّ، إذ به يكتسب الهويّـة والاخـتلاف، ويعلـن عـن كينونته... وهكذا يتموقع النّص الموازيّ في البؤرة مـن اشـتغالات القـراءة النّقديّـة ويسوغ للقراءة الرّاهنة اختيارها لمكوّن إستراتيجيّ مـن مكوّنـات الـنّص المـوازيّ: العنونة بوصفها المكوّن الأخطر في ترسانة النّص الموازيّ).[4]

ونظرا لكفاءة العنوان في استدراج المتلقّي من جهة وحمولته الدّلاليّة المتنوّعـة مـن جهة ثانيّة، فقد أولت الدّراسات النّقديّة الأدبيّة المعاصرة أهميّة بالغة لدراسة العنوان وتحليله، ولا تنحصر أهميّة العنوان في كونـه علامـة لغويّـة تتصـدّر الكتـاب لتسـمه وتصفه وتغري القارئ بقراءته فقط، بل قد تفوق ذلـك لأنّهـا تسـهّل عـلى القـارئ عمليّة الانتقاء والاختيار وتكسبه الوقت.

ويكفي لتحسّس هذه الأهميّة أن نتصوّر للحظة غياب فعل العنونة عـن الكتـب الموجودة في رفوف المكتبات، كم من الوقـت سيسـتغرق القـارئ ليبحـث عـمّا هـو بحاجة إليه، ربّما سيتعب وينهار قبل أن يجد مبتغاه، كـما أنّـه لـولا العنـاوين لظلّـت

الكثير من الكتب مكدّسة في المتاجر، فكم من كتاب كان عنوانه سببا في ذيوعه وانتشاره، وكم من كتاب كان عنوانه وبالا عليه وعلى صاحبه.

من هذا المنطلق تبنّت هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التّحليليّ للكشف عن إستراتيجيّة العنونة في مدوّنات (أمحمّد صافي المستغانميّ) الآتيّة:

1-كيف تصبح فصيح اللّسان؟

2-الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

3-هندسة السّورة القرآنيّة: رؤية تأصيليّة.

4-ديباج القرآن وعرائس الفرقان: وقفات تدبّريّة في ﴿آل حم﴾.

5-تصريف القول في القصص القرآنيّ: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام.

6-بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم.

7-مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة. رؤية تأصيليّة.

8-جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور: رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة.

يلاحظ على عناوين (أمحمّد صافي المستغانميّ) أنّ صاحبها توخّى فيها التّدقيق والتّمحيص لكي يجعلها مناسبة لإفادة محتوى مدوّناته، ونقول هنا أنّ هذه العناوين تقدّم للقارئ معرفة استطلاعيّة واستباقيّة لمضمون الكتاب، لأنّ مجملها ورد على شكل جمل اسميّة مرشدة لمحتوى المدوّنات ومحدّدة لها هويّتها وخصوصيّتها، ولم

تكن منفصلة عن محتوى العمل الذي عنونته، وهذا تماما ما تؤكّده بعض المنظومات العنوانيّة في مدوّنات (أمحمّد صافي المستغانميّ).

فعنوان (تصريف القول في القصص القرآنيّ: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام هو وسم لكتاب عالج فيه صاحبه قضيّة تصريف القول وتنوّعه في عرض مضامين قصّة موسى عليه السلام بأثواب وطرائق تعبيريّة متنوّعة في سور قرآنيّة شتّى مركّزا على تحليل مشاهد من القصّة وذاكراً جُملة من الفروق من زاوية علم المعاني حيث تعرّض في مباحث الكتاب إلى جماليّات التّوكيد وعدمه، وجماليّات الوصل والفصل، وعرض نماذج من الجمل الاسميّة والفعليّة والفروق بينها وجوانب من الإيجاز والمساواة والإطناب، معرّجاً على نماذج من الأساليب الإنشائيّة والخبريّة الواردة في بعض المشاهد من القصّة موضّحاً بعض جماليّات الاستئناف مع الإشارة إلى جملة من أغراضه البلاغيّة مركّزاً على إيضاح الفروق الدّلاليّة لكثير من الألفاظ المتقاربة والمترادفة، مبيّناً جماليّات انتقاء المفردة القرآنيّة موضّحاً تناسب المفردات والتّعابير بشكل عامّ مع جوّ السّورة والمشهد الذي جاءت فيه[5].

وقد خلص المؤلّف إلى أنّه لا تكرار في رسم المشاهد المتعلّقة بالقصص القرآنيّ وإنّما هو البيان القرآنيّ المتفرّد الذي يعرض القصّة الواحدة والمشهد الواحد في أثواب تعبيريّة متنوّعة وجذّابة، تتناغم وتتناسب مع السّياق الذي وردت فيه، وإنّ هذا الصّنيع هو ضرب من ضروب الإعجاز البيانيّ في نصوص القرآن الكريم.

والملاحظ في هذا العنوان أنّه يدخل ضمن العناوين التي تتّصل بنصوصها بأشكال مختلفة، ضمن الرّوابط الوصفيّة التّجنيسيّة لعناوينها الفرعيّة، فقد حدّد العنوان الفرعيّ (دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام) نصّه بثلاث مقوّمات الأوّل وصفيّ غرضيّ (دراسة بلاغيّة تحليليّة)، والثّاني تجنيسيّ (قصّة) والثّالث إحالة على اسم علم (موسى عليه السلام) وبحضور هذه المقوّمات ينفرد هذا الكتاب عن غيره من الكتب المؤلّفة في مثل هذا النّوع من الدّراسات البلاغيّة التّحليليّة.

ويأتي عنوان (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور: رؤّية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة) موجزا ومختزلا لما تمّ طرحه بالتّفصيل في متن الكتاب، الذي تناول فيه صاحبه رؤية تأصيليّة لعلم مقارنات السّور الذي يُعنى بإيضاح العلاقات والرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها الأُسر القرآنيّة.

ويتميّز هذا الفرع العلميّ من علوم القرآن بالبحث في الرّوابط الدّقيقة وبيان الهندسة اللّفظيّة الموزّعة في طيّات السّور المتشابهة المطالع، والسّور المتشابهة الفواصل، والسّور التي تبدأ بأنساق وأنماط تعبيريّة متشابهة من غير أن تتّحد مطالعها في الموادّ المعجميّة المستعملة.

كما تجيب هذه المقاربة التّفسيريّة عن جملة من الأسئلة القرآنيّة الخالدة، وتساعد في توجيه كثير من آيات المتشابه اللّفظيّ، وتثبت بما لا يدع مجالا للشّك جانبا من أسرار المجموعات القرآنيّة التي تتشابه مطالعها مثل أسرة سور الحمد، وسور

المُسبّحات، وأسرة تبارك وغيرها، وجوانب أخرى من العلاقات بين السّور المتشابهة الأنساق في مطالعها مثل أسرة الصّافات والذّاريات والمرسلات وأخواتها.[6]

أمّا عنوان (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة. رؤيّة تأصيليّة) فقد تناول فيه صاحبه أهمّ مفاتيح النّجاح وخطواته العمليّة التي تقودُ المرء إلى التألّق والإبداع وتجعله يجني ثمرات تفوّقه وسعادته، مستعرضا المبادئ والقوانين التي عملَ بها النّاجحون والأساليب التي اتَّبعوها، والمهارات التي اكتسبوها والإستراتيجيّات التي رسموها ونفَّذوها، والإجراءات العمليّة التي طبّقوها من هنا يمكن القول بأنّ هذا العنوان حمل رسالة النّص الكبير تبعا لحمولته الدّلاليّة الموازيّة لمضمون المتن، لأنّه اختزل ما طرحه الكاتب في مدوّنته من هنا يمكن القول بأنّ (العنوان للكتاب كالاسم للشّيء، به يعرف وبفضله يتداول، يشار به إليه، ويدلّ به عليه يحمل وسم كتابه، وفي الوقت نفسه يسمه، العنوان –بإيجاز يناسب البداية– علامة ليست من الكتاب جعلت لكي تدلّ عليه).[7]

أمّا (عنوان كيف تصبح فصيح اللّسان؟) فقد ورد على شكل سؤال مباشر تكفّل نصّ الكتاب بالإجابة عليه بالتّفصيل، وهذا دليل على أنّ دلالة العنوان لا تنفصل عن بنية ودلالة العمل الذي يعنونه، والعنوان بهذا الشّكل يعمل على مستويين، فهو رسالة مستقلة بذاتها ونصّ يحمل خطابا معيّنا من خلاله تتبيّن نوايا المبدع ومقاصده، وعلى مستوى ثان يوحي إمّا بجزئيّة تمثيله للنّص أو شموليّته، وهو

يختزل النّص مبنى ومعنى، لذلك وجب على القارئ مراعاة وظيفة العناوين في تشكيل دلالات المؤلّفات، ليس فقط من حيث هو مكمّل لها ودالّ عليها، ولكن من حيث هو علامة لها علاقات اتّصال وانفصال معا، اتّصال باعتباره وضع أصلا لأجل نصّ معيّن، وانفصال باعتباره يشتغل بوصفه علامة لها مقوّماتها الذّاتيّة كغيرها من العلامات المنتجة للمسار الدّلاليّ الذي نكوّنه ونحن نؤوّل العنوان والنّص معا.

ويظهر أنّ رغبة التّسجيع عند (أمحمّد صافي المستغانيّ) جعلت مجمل عناوين مدوّناته غير مشروطة بكمّ مفرداتيّ، وهو الأمر الذي جعلها عبارة عن جمل طويلة نسبيّا تجاوزت إطار المسند والمسند إليه، والسّجع هو أحد الفنّون البديعيّة اللّفظيّة التي تميّزت بها اللغة العربيّة، ويقصد به توافق فواصل الجمل في الحرف الأخير وأفضله ما كانت فقراته متساويّة في الطّول على نحو ما ورد في الجزء الأوّل من عنوان (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور: رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة) بين كلمتي (الدُّرر) و(السّور).

أوما ورد في الجزء الأخير من عنوان (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، في مقطع (عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، حيث حرص الكاتب على المساواة بين الوحدات اللّغويّة مع توافق في الحرف الأخير(عوامل/ وسائل)، (الإقناع/ الإمتاع).

ونحوهما أيضا ما جاء في الجزء الأوّل من عنوان (ديباج القرآن وعرائس الفرقان: وقفات تدبّريّة في ﴿آل حم﴾، بين (القرآن) و(الفرقان).

فهذه العناوين جاءت مركّبة من دوالّ بها توافق وتشابه في الحرف الأخير فكان لها الوقع والأثر الحسن في النّفس، وتلك خاصيّة من خصائص السّجع فهو يعطينا جرسا موسيقيّا وإيقاعا يجذب الانتباه، ويمنح التّعبير قوّة وتأثيرا ووضوحا، وهذا ما يساعد على ترسيخ المعنى.

وإذا كان النّقاد والدّارسون قد قسّموا العناوين من حيث دلالتها وعلاقتها بالنّصوص إلى مجموعتين، الأولى هي مجموعة العناوين الإخباريّة[8] والثّانيّة هي مجموعة العناوين الموضوعاتيّة، فإنّ جلّ عناوين (أمحمّد صافي المستغانميّ) تنتمي إلى المجموعة الثّانيّة، لأنّها تتعلّق بموضوع الكتاب وتصفه بعدّة طرق دون تمويه أو استخدام للمجاز، ومثل هذه العناوين عادة ما تبرز فيها العفويّة لأنّها تنشغل بالدّرجة الأساس في الاستجابة لموضوع المتن من دون الحاجة إلى الافتعال والتّكلّف في وضع عناوين جذّابة قد لا تتلاءم أحيانا مع محتوى المدوّنات.

وقد خضعت معظم العناوين عند (أمحمّد صافي المستغانميّ) من حيث الشّكل إلى المعادلة التّالية: (عنوان رئيسيّ) + (عنوان فرعيّ)، على النّحو التّالي:

- (الخطيب النّاجح) + (بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)؛
- (هندسة السّورة القرآنيّة) + (رؤية تأصيليّة)؛
- (ديباج القرآن وعرائس الفرقان) + (وقفات تدبّريّة في ﴿آل حم﴾)؛

- (تصريف القول في القصص القرآنيّ): + (دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام)؛
- (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة) + (رؤيّة تأصيليّة)؛
- (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور) + (رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة).

وما يهمّ في هذا التّقسيم هو العنوان الرئيسيّ لأنّه هو المؤسّس لنظام العنونة في ثقافتنا الحاليّة، ومع ذلك فقد وجدت بعض العناوين الرّئيسيّة التي وردت وحدها ولم تلحق بعناوين فرعيّة، نحو:

- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم؛
- كيف تصبح فصيح اللّسان؟

وقد كتبت العناوين الرّئيسيّة بأحرف كبيرة وبارزة دلالة على أهمّيتها وبعدها المركزيّ للعمل الذي تعنونه، أمّا العناوين الفرعيّة فقد كتبت بأحرف صغيرة باعتبارها تتمّة لحقت بالعنوان الرّئيسيّ لتؤدّي وظيفة تأويليّة له، فضلا عن أدائها لوظيفة إعلاميّة تخصّ مضمون النّص أيضا، ولذلك فقد اعتبرها (الجزّار محمّد فكريّ): «بنية موازية لبنية العنوان الرّئيسيّ، تكافؤها وتختلف عنها اختلافا يجعل الأولى ضروريّة للثّانيّة، على الرّغم من الدّائرة الدّلاليّة الواحدة التي تقع الاثنتان فيهما».[9]

ويظهر أنّ التّوجه الدّينيّ الإسلاميّ كان حاضرا بقوّة في مدوّنات (المستغانميّ) وهو ما انعكس على منظومة العناوين التي كانت حافلة بملفوظات ذات طابع دينيّ أشارت إمّا صراحة أو تلميحا للقرآن الكريم، نحو: السّورة القرآنيّة في عنوان (هندسة السّورة القرآنيّة: رؤية تأصيليّة)، والقرآن، الفرقان، ﴿آل حم﴾ من عنوان (ديباج القرآن وعرائس الفرقان: وقفات تدبّريّة في ﴿آل حم﴾)، والقصص القرآنيّ قصّة موسى عليه السلام، من عنوان (تصريف القول في القصص القرآنيّ: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام).

والملاحظ في هذه العناوين أنّ تعالقها مع القرآن الكريم تمّ عن طريق آليّة التّوازي والتي تعني أنّ «التّناص مع خطاب آخر عبر كلمة أو جملة أو فقرة شرط أن تكون من المكوّنات المؤسّسة لهويّة هذا الخطاب الآخر، وأن تمتلك أيّا من هذه المكوّنات القدرة على استدعاء خطابه، فضلا عن نصوص هذا الخطاب»[10] وبذلك فقد تولّد نصّان مختلفان، نصّ العنوان ونصّ القرآن الكريم، فهذا ليس ذاك إطلاقا وذاك ليس هذا، ومن التّعارض الكليّ بينهما تولّدت علاقات تناصّ وقعت حتى على مستوى الملفوظ الواحد، فاسم العلم (موسى) في عنوان (تصريف القول في القصص القرآنيّ: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام) له ظلال دينيّة قويّة، لأنّه يحيل إلى قصّة سيّدنا موسى عليه السلام التي فصّلت في القرآن الكريم في أكثر من مناسبة.

وإذا كانت إمكانات التّراكيب التي تقدّمها اللّغة كافّة قابلة لتشكيل بنية العنوان بدءا من الدّال المفرد وانتهاء بالجمل البسيطة فالمركّبة، فإنّ ما يلاحظ في بنيّة عناوين

(المستغانميّ) أنّها لم تضمّ بينها ما تألّف من مفردة واحدة، فهي تكوّنت إمّا من دالّين: (الخطيب النّاجح)، أو من ثلاثة دوالّ: (هندسة السّورة القرآنيّة) أو أربعة: (كيف تصبح فصيح اللّسان؟)، أو خمسة: (تصريف القول في القصص القرآنيّ)، أو ثمانيّة: (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم)، وأكثر من ذلك إذا نُظر إلى العنوان بشقّيه الرئيسيّ والفرعيّ.

ومعظم هذه العناوين وردت على شكل جمل اسميّة خبريّة، ما عدا عنوان (كيف تصبح فصيح اللّسان؟) الذي ورد على شكل جملة اسميّة طلبيّة استفهاميّة وكأنّ المؤلّف أراد التّحدّث عن أشياء ثابتة تتجاوز حدود الزّمن، وهذا راجع لطبيعة الاسم الثّابتة بخلاف الفعل الذي يدلّ على التّحوّل وعدم الثّبات، وفي ذلك تأكيد على أنّ تراكيب العنوان النّحويّة لا يحدّها أيّ شرط مسبق، وهذا ما يجعل من العنوان عبارة عن تسميّة من تسميّات كثيرة ممكنة، وهي وإن كانت من اختيار المؤلّف إلّا أنّها ليست ملزمة للقارئ الذي من حقّه اقتراح عنوان بديل قد يكون أكثر ملاءمة عمّا رغب المؤلّف في إبلاغه للمتلقّي، ولكنّ التّأكيد على أصالة العنوان أمر لابدّ منه، فشأن العنوان (شأن التّوقيع الشّخصيّ، لصاحب النّص وحده أحقيّة وضعه وتعديله).[11]

ويظهر أنّ معظم هذه الجمل الاسميّة بدأت باسم نكرة: (هندسة، ديباج تصريف، بلاغة، مفاتيح، جواهر)، ليتمّ تعريفها لاحقاً بالإضافة: (هندسة السّورة

ديباج القرآن، تصريف القول، بلاغة النّظم، مفاتيح النّجاح، جواهر الدّرر)، وكأنّ الإضافة حيلة تركيبيّة من حيل اللّغة لتعويض محدوديّة الدّلالة في الخبر.

أمّا حالة التّعريف فهي لم ترد في عناوين مدوّنات (المستغانميّ) -التي هي قيد الدّراسة- إلاّ مرّة واحدة، في مفردة (الخطيب) من عنوان (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع).

وإذا كان الاسم النّكرة قد تصدّر معظم هذه العناوين، فذلك راجع إلى أنّ الاسم إذا كان (سمّة لشيء ما فإنّه إلى التّنكير أقرب، إذ يدلّنا الاسم على شيء يكتنفه نوع من الإبهام، ثمّ يكون الكشف والتّعريف بعد ذلك بذكر الخصائص والسّمات ومن ثمّ كانت النّكرة أخفّ على الذّوق العربيّ السّليم من المعرفة)[12]، ولذلك مال إليها (المستغانميّ) في صياغة عناوين مدوّناته.

وكلّ هذه الأسماء التي تصدّرت بنية العناوين سواء التي وردت في حالة نكرة أم معرفة هي خبر لمبتدأ محذوف، ويجوز لنا ونحن نتأمّل بنية العناوين النّحوية أن نؤوّله باسمي الإشارة (هذا) و(هذه)، ما عدا اسم الاستفهام (كيف) في عنوان (كيف تصبح فصيح اللّسان؟) لأنّ ما يقتضيه المنطق النّحويّ في هذه التّرتيب يجعل من الجملة الاسميّة (تصبح فصيح اللّسان) خبرا للمبتدأ الظّاهر الذي مثّله اسم الاستفهام (كيف).

خلاصة: في الأخير يمكن القول بأنّ هذا البحث لا يزعم الإحاطة بكلّ الجوانب المتعلّقة بإستراتيجيّة العنونة عند (أمحمّد صافي المستغانميّ)، وإنّما هي مجرّد قراءة فيما توفّر لدينا من مؤلفات، يمكن إيجازها في النّقاط الآتية:

- غلبة الجمل ذات الطّول النّسبيّ على العناوين، فكانت مناسبة لإفادة محتوى المدوّنات، لأنّ العناوين ذات الجمل الطّويلة تساعد في توقّع المضمون إضافة إلى رغبة التّسجيع التي كان لها الوقع الحسن في النّفس؛

- تعدّد الخيارات التّركيبيّة لبنية العناوين ما بين عنوان رئيسيّ مستقلّ بذاته وآخر ملحق بعنوان فرعيّ، باعتباره تتمّة تلحق بالعنوان الرئيسيّ لتؤدّي وظيفة تأويليّة له فضلا عن أدائها لوظيفة إعلاميّة تخصّ مضمون النّص؛

- هيمنة الجملة الاسميّة على عناوين مؤلّفات (المستغانمي) بشكل مطلق مقارنة بالعناوين ذات الجمل الفعليّة، وذلك راجع إلى طبيعة الاسم الثابتة، فالوسم بالاسم خاصيّة في العنونة وذلك حتى يتطابق المسمّى مع المواضيع المطروحة في المدوّنات؛

- تصدّر معظم البنيات اللّغويّة للعناوين بأسماء نكرة، واعتماد صيغة الإضافة كحيلة تركيبيّة نحويّة من حيل اللّغة لتعويض محدوديّة الدّلالة في الخبر.

- غلبة البعد الدّلاليّ الدّينيّ على معظم العناوين، باعتبارها وسم لمدوّنات نظّمت في رسم المشاهد المتعلّقة بالقصص القرآنيّ، وضروب الإعجاز البيانيّ فيه.

الهوامش:

[1] – نبيل منصر: الخطاب الموازي للقصيدة العربيّة المعاصرة، دار توبقال للنّشر، المغرب ط1 2007، ص21.

[2] – عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النّص إلى المناص)، منشورات الاختلاف الجزائر ط1، 2008، ص 14.

[3] – جيرار جينيت (Introduction to the paratexte)، نقلا عن: خالد حسين حسين: في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤّون العتبة النّصية)، ص39.

[4] – خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية)، ص40.

[5] – ينظر: الموقع: https://www.noor-book.com/book/review/519733

[6] – ينظر: الموقع السّابق.

[7] – الجزار محمّد فكري: العنوان وسيميوطيقا الاتّصال الأدبيّ، الهيّئة المصريّة العامّة للكتاب د ط 1998، ص15.

[8] – تهدف العناوين الإخبارية إلى مساعدة القارئ على إيجاد العمل المطلوب وتمييزه عن الأعمال الأخرى، وعادة ما تكون هذه العناوين قصيرة بصورة عامّة، بحيث تتألّف من كلمة أو عبارة وتعرض الموضوع المعالج بشكل موضوعي وحيادي دون الإفصاح عن رسالة النّص.

[9] – الجزار محمّد فكري: العنوان وسيميوطيقا الاتّصال الأدبي، ص56.

[10] – الجزار محمّد فكري: لسانيات الاختلاف (الخصائص الجماليّة لمستويات بناء النّص في شعر الحداثة)، ايتراك للطّباعة والنّشر، مصر، ط1، 2001، 325.

[11] – ابن عبد الله الأخضر في البدء كان العنوان وكان... فهل في عند سيكون؟ مداخلة خاصّة بمؤّتمر النّقد الأدبيّ السّادس، جامعة اليرموك، الأردن.

[12] – محمّد عويس: العنوان في الأدب العربي (النّشأة والتّطور)، مكتبة الأنجلو المصريّة ط1 1984، ص26.

خطاب الإهداء في مؤلّفات أمحمّد صافي المستغانمي

كتابيّ (مفاتيح النّجاح، والخطيب النّاجح) نموذجًا.

د. مصطفى أحمد قنبر

وزارة التّعليم والتّعليم العاليّ، دولة قطر

الملخص: يحاول هذا البحث الوقوف بالدّراسة والتّحليل على خطاب الإهداء عند الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، من خلال كتابَيْه: مفاتيح النّجاح وسُنّن السّعادة والخطيب النّاجح، كاشفًا عن علاقة هذا الخطاب في المؤلّفين بالنّص الذي جاء بعده، وبالعتبات الأخرى التي سبقته، مبرزًا السّمات التي انطبع بها الخطاب في كلا المؤلّفين بُعدًا أو قُربًا من الأدبيات التي تحكم الأُطر العامّة لخطاب هذه العتبة في التّأليف العربيّ الحديث.

والله الموفّق والمستعان.

توطئة: يمثّل خطاب العتبات النّصية النّافذة الأولى التي يطل بها منشئ الخطاب على متلقّيه تحريضا لهم على الولوج إلى منجزه، وترويجًا لمولوده الذي أعمل فيه خلاصة رأيه، وصهر في بوتقته أخلاطًا من أفكار ما طالته أياديه من مؤلّفات سبقته. ولا مبالغة إن قلنا إنّ هذه العتبات تأخذ وقتًا وجهدًا من المؤلّف والقائم على

النّشر حتى تخرج على نحو مرضيّ عنه، أو يتصوّر أنّه مرضيّ عنه من القائمين على أمر المؤلّف، وكذا من جماهير المتلقّين.

ويستجيب لهذا التّحريض، ويقع في شباك ذلكم التّرويج المتلقّي فيقبل على هذه العتبات متفحصًا ما تقع عليه عيناه، فإن رأى منها ما يدعوه إلى المضي قدما طالع بقيّة العتبات، ثمّ مضي للولوج إلى عالم هذا النّص، وإلاّ كانت الأخرى.

أمّا عن المتلقّي الآخر الذي يقبل دارسًا ومحلّلا لأيّ منجز إبداعيّ أو علميّ، فإنّ الوقوف على عتبات هذا المنجز أو ذلك يمثّل مدخلا كاشفًا عن عوالم هذا المنجز ومعينا على سبر أغواره، ومبينًا للمسكوت عنه في ثناياه فضلا عن إلقاء بعض الضّوء الكاشف عن شخصيّة صاحب هذا الخطاب.

موقعيّة خطاب الإهداء: يقع هذا الخطاب ـ كما ذهب (جيرار جينيت/ Gérard Genette) (1930-2018)[1] – ضمن ما يسمى بـ النّص المحيط/ Peritexte): وهو ما يدور بفلك النّص من مصاحبات، من: اسم الكاتب، العنوان الفرعيّ، الإهداء الاستهلال... أي كلّ ما يتعلق بالمظهر الخارجيّ للكتاب[2].

غير أنّ هذا القول الأخير من(جيرارجينيت/ Gérard Genette) يحتاج إلى مراجعة، فالمظهر الخارجيّ للكتاب لا مكان فيه للإهداء ولا للتّقديم ولا للاستهلال، اللهم إن كان (جينيت) يرى أن كلّ ما يسبق نص الكتاب هو من قبيل المظهر الخارجيّ لذلكم الكتاب، وهذا قول فيه كثير من المبالغة.

ويرى صاحب كتاب (العتبات) أن هـذا الـنّص المحـيط تنـدرج تحتـه نصـوص ثوانٍ، بعضها يتعـلّق بالنّشر، والآخر يتعلّق بالتّألـيف.

فالغلاف، والجلادة وكلمة النّاشر، والسّلسلة، تدخل ضـمن النّـوع الأوّل. أمّـا اسـم الكاتـب، والعنـوان والعنـوان الفرعـيّ، والعنـاوين الدّاخليـة، الاسـتهلال التّصدير، التّمهيد، فتدخل ضمن النّوع الثّاني[3].

غير أنّ اعتبار كلمة النّاشر، التي تُعرِّف القارئ بموضوع الكتاب والقضايا التـي يطرحها، من موضوع النّص المحيط النشريّ، رأيّ لا يُؤخذ على إطلاقـه. وإن كـان هذا النّص يـدخل في بـاب الـتّرويج للمؤلّـف والمؤلّـف معـا، وكلاهمـا يسـتهدف المتلقّي، إلاّ أنّه قريب إلى الجانب التّأليفي وليس بعيدًا عن الجانب النّشـريّ، أو لِنقلْ إنّه ذو انتماء مزدوج نشريّ تأليفيّ[4].

والإهداء واحد من تلكم العتبات، التي يمـر بهـا المتلقّـي قبـل الولـوج إلى عـالم النّص شأنّه كشأن العنوان، واسم المؤلّـف، والمقدّمـة، وكلمـة النّـاشر. وقلـمّا يخلـو مؤلّف إبداعي أو بحثي من خطاب الإهداء في صفحاته الأولى.

ويلقى هذا الخطاب ــ لا شكّ ــ عناية فائقـة مـن المؤلّـف حـين يخلّـد إلى نفسـه مرّتين: الأولى: حين يفكر في الشّخصية أو الشّخصيات التي تستحق أن يوجه إليهـا الإهداء، والثّانية: عند انتقاء المفردات والتّراكيـب، ثـمّ نظّمهـا للتّعبـير عـما أراد، أو لنقلْ لتناسب الثّقل الذي تمثله شخصيّة المُهدَى إليه أو إليهم.

كما يلقى عناية يمكن أن تعدّ من قبيل الفضول عند المتلقّي العابر وكذا المتأنّي الفاحص، خاصّة إذا كان مرسل هذا الخطاب من الأسماء المعروفة في إبداعه أو في تخصّصه. إذ يحاول المتلقّي الفاحص أن يقف عند كلّ كلمة في هذا الإهداء، رابطًا بين هذا الخطاب وبين ما ظهر أو ما خفي من معالم شخصيّة هذا المؤلّف الشّهير.

ويقف محلّلو النّصوص أيضا عند هذا الخطاب، خاصّة إنّ كان العمل إبداعيًا لسبر أغوار النّصوص التي حملها هذا العمل، وما يمكن أن يقدمه من إضاءات تعين في عمليات القراءة بكلّ تعقيداتها.

وبين مجموعة من العتبات التي تحيط بالنّص، يتموّقع خطاب الإهداء مسبوقًا بعتبات نصيّة مجاورة، تمثّل الواجهة التي يطل منها وبواسطتها النّص وصاحبه والنّاشر على القارئ، والتي تتكون من: المؤلّف، والعنوان بنوعيّه، ودار الطّباعة والنّشر والتّوزيع، كما أنّه سابق لعتبة أخرى في غاية الأهميّة تُقدِّم للنّص وتدخل بالمتلقّي إلى عالمه، وهي عتبة المقدّمة.

والإهداء عتبة تواضع المؤلّفون حول اسمها، وليس كما حدث في عديد المصطلحات التي عبَّرت عن (العتبات النّصية)[5]. وليس كما حدث في عتبة (المقدّمة) التي باتت لها عدة مرادفات زخرت بها المؤلّفات خاصّة العربيّة[6]، اللهم إلاّ في تحلِّيها (أقصد عتبة الإهداء) بأداة التّعريف (الـــ) أو تجردها منها.

واصطلاح الإهداء ليس بجديد على الذّائقة العربيّة، فقد جاء في معجم (لسان العرب): (وأَهْدَيْتُ الهَدْيَ إِلى بيت الله إِهْداء. وعليه هَدْيةٌ أَي بَدَنة. الليث وغيّره: ما يُهْدى إِلى مكة من النَّعَم وغيره من مال أَو متاعٍ فهو هَدْيٌ وهَدِيٌّ، والعرب تسمي الإِبل هَدِيًّا، ويقولون: كم هَدِيُّ بني فلان؛ يعنون الإِبل، سميت هَدِياً لأَنّها تُهْدَى إِلى البيت)[7]. ولم يبتعد المعنى الاصطلاحي للإهداء كثيرا عما جاء في المعجم العربيّ، إلاّ في اتساع دائرة مشمولاته، إذ صار يقصد به – أيضا – كلّ: (ما يرسله الكاتب أو المبدع إلى الصّديق، أو الحبيب، أو القريب، أو الزّميل، أو المبدع، أو النّاقد، أو إلى شخصيّة هامّة، أو مؤسّسة خاصّة أو عامّة، وذلك في شكل هديَّة أو منحة أو عطيّة رمزيّة أو ماديّة. والهدف من ذلك هو تأكّيد علاقات الأخوة، وخلق صلات الموّدة وتقويّة عرى المحبة، وتمتين وشائج القربى، وعقد روابط الصداقة ونسج خيوط التّعارف، مع تبادل الهدايا الرّمزية والمشاعر الرّقيقة، سواء أكان المُهدى إليه شخصيّة أم جماعة، واقعيّة أم متخيّلة. وقد يقترن الإهداء بالهديّة من جهة، أو بلحظة البيع والتّوقيع من جهة أخرى[8]. والإهداء عتبة كغيره من العتبات النّصيّة التي تتجلّى في شكل بنيات لغويّة وأيقونيّة تتقدّم المتون وتعقبها لتنتج خطابات واصفة لها تعرِّف بمضامينها وأشكالها وأجناسها وتُقنع القراء باقتنائها. ومن أبرز مشمولاتها: اسم المؤلّف، والعنوان والأيقونة، ودار النّشر، والإهداء والمقتبسة، والمقدّمة... وهي بحكم موقعها الاستهلاليّ الموازي للنّص والملازم لمتنه ــ تحكمها بنيات ووظائف مغايرة له تركيبيًّا وأسلوبيًّا ومتفاعلة معه دلاليًّا وإيحائيًّا

فتلوِّح بمعناه دون أن تفصح عنه، وتظلّ مرتبطة به ارتباطًا وثيقًا على الرّغم من التّباعد الظّاهري الذي قد يبدو بينهما أحيانًا[9].

وهو واحد ضمن مجموعة كلّها تصب في نهر واحد، يتلخّص في مجموع النّصوص التي تخفر النّص، وتحيط به من: عناوين، وأسماء المؤلّفين، والمقدّمات والخاتمات، والفهارس، والحواشيّ، وكلّ بيانات النّشر التي توجد على صفحة غلاف الكتاب وعلى ظهره. [10]

أمّا عن زمن كتابته فهو ليس كغيّره من الخطابات، التي يكون ظهورها مرهون بالفراغ تمامًا من العمل، وقبل الدّفع بها للطّباعة كما في المقدّمة والفهارس، وإنّ كان ذلك ليس بدعًا أو خروجًا عن المألوف، إلاّ أنّه كفكرة تسيطر على ذهن المؤلّف، أو تخطر على قلبه، يمكن أن تسبق الشّروع في العمل أو أثناءه أو حتى قبيل الدّفع به إلى آلة الطّباعة أو أثناء طباعتها، وهذا بطبيعة الحال يختلف عن إهداء النّسخة، التي يكتبها المؤلّف لشخص ما بخطّ يده وتوقيعه في اللحظة التي يقدمها للمُهدَى إليه.

كما أنّه يتميّز كثيرًا بالثّبات حين يشرع المؤلّف في إعادة طباعة مؤلّفه، في حين يكون نظيره من العتبات عُرضة للتّغيير كما يقع أحيانا للعناوين الفرعيّة والعناوين الدّاخلية أو حتى للعنوان الرّئيسي، أو للفهارس. أو عرضة للإضافة كما في إلحاق مقدّمة ثانيّة أو ثالثة، أو فهارس أخرى، أو حتى في إضافة بعض تقاريظ الكتاب التي لا وجود لها الآن في أغلب المؤلّفات إن لم يكن كلّها، بل تظهر في أوعيّة أخرى مثل: المجلات أو الصّحف ورقيّة وإلكّترونيّة، أو التّغيير الذي يطرأ على صورة

الغلاف الأماميّ أو الخلفيّ، ونمط كتابة كلّ من: العنوان، واسم المؤلّف ووظيفته وكذا دار الطّباعة أو النّشر والتّوزيع، التي تستغل الغلاف الخلفيّ في كتابة ما يُسمى بـ (كلمة النّاشر) بهدف أن يُطرَى بها العمل، فتروِّج له، وتغري القارئ به شراءً.

ولكن هل الإهداء نوع واحد أم عدّة أنواع، وما دلالات كلّ منها، وهل من وظائف يمكن أن تؤديها هذه العتبة جعلت لها هذه الأهميّة عند المعنيين بالعمل التّأليفي؟ هذا ما نحاول أن نمر عليه سريعًا نظرًا لطبيعة البحث الذي نحن بصدده.

أنواع الإهداء: ليست الرّسالة التي يحملها خطاب الإهداء واحدة، إذا نظرنا إليها من جهة المخصوص بها (المرسل إليه)، بل هي أنواع يمكن تصنيفها إلى:

1ـ **إهداءات عائليّة**: وهي توجه من الكاتب إلى أهله وأقاربه.

2ـ **إهداءات إخوانيّة**: وهي موجهة للأصدقاء والأصحاب.

3ـ **إهداءات عامّة**: وهي التي تكون موجهة للهيّئات والمؤسّسات والمنظّمات والرّموز التّاريخيّة والثّقافيّة.

4ـ **إهداءات ذاتيّة**: وهو أن يهدي الكاتب لذاته الكاتبة، ويتميّز بأنّه من أصدق الإهداءات، كونّه إهداءً حميميًا وخاصًّا ونادر الوجود. ومن أظهر ذلك ما قام به (جويس) في أول أعماله الموسوم بـ "*Une brillante carrière*"، إذ صدَّره بقوله: (إلى خالص روحي أهدي أول أعمال حياتي)[11].

وهناك تقسيم آخر للإهداء، يميِّز بين نوعين منها: الأوّل: يُسمى إهداءَ الأثر والثّاني: يُسمى إهداءَ النّسخة.

فأمّا عن النّوع الأوّل، فهو ما ينصرف إلى المهدَى إليه بأنواعه التي سبق تناولها. وقد انحصر في الذّاتية أو الرّمزية.

وأما عن النّوع الثّاني، فيكون في معارض وحفلات البيع أو في زيارة المهدَى إليه للمؤلّف في منزله أو في مكتبه للتّوقيع.

ويُرجع البعض علّة ظهور هذا النّوع من التّوقيع إلى تراجع عدد القراء ممّا دفع بالنّاشرين إلى اختراع هذه الظّاهرة لجلب أكثر عدد منهم. كما ترجع أهميّة هذا النّوع من الإهداءات إلى إحداث نوع من التّرويج لدار النّشر ومعروضاتها، إذ تعلن عن ذلك خاصّة في المعارض الدّولية؛ الأمر الذي يجعل المريدين في تنافس من أجل أن يحظى أحدهم بنسخة، كُتِبَ الإهداء فيها بخط اليدّ وممهورة بتوقيع المؤلّف[12]. لاسيَّما إذا كان المشهد موثقًا بصور، أو مقاطع فيديو تُنشر في مواقع التّواصل الاجتماعيّ.

وظائف الإهداء: ليس خطاب الإهداء بوصفة تقليدًا درج عليه الكُتاب، يخلو من وظائف منوطة به. وإلاّ ما أخذ هذا الاهتمام والعنايّة من صاحبه أو مرسله ومن القارئ، والنّاقد. وما شكَّل غيابه هواجس ودلالات عُنيت باستنتاجها القراءات المختلفة التي غاصت في أعماق النّص، وحاولت استنطاق العتبات الأخرى علَّها تكشف عن سرّ هذا الغياب، وفي المقابل الوقوف على أسرار الحضور اللافت لهذا الخطاب شكلا ومضمونًا.

فمن وظائف الإهداء ما حصره (جينيت) في وظيفتين أساسيتين، همـا: الوظيفـة الدّلالية، والوظيفة التّداولية. حيث تعنى الأولى بالكشف عـن دلالـة هـذا الإهـداء وما يحمله من معنى للمُهدى إليه، والعلاقات التي سينسجها مـن خلالـه[13] خاصّـة إن كان المُهدى إليه من الشّخصيات ذات الحضور في الميادين الفكريّة أو السّياسيّة أو الاجتماعيّة أو التّاريخيّة... ومدى ما بـين المهـدي والمُهـدى إليـه مـن علاقـات عـلى المستوى الإيديولوجيّ أو الثّقافيّ أو الاجتماعيّ... أو ادِّعاء ذلك لأهـداف في نفـس صاحب المؤلّف أو القائم على النّشر والتّوزيع أو كليهما معا، لا يجهلها إلاّ القليل.

وفي خضم ذلك تولد الوظيفة التّداولية التي تقوم بتنشيط الحركة التّواصـلية بـين الكاتب وجمهوره الخاصّ والعامّ، محقّقـة قيمتهـا الاجتماعيّـة وقصـديتها النّفعيـة في تفاعل بين كلّ من المهدي والمُهدى إليه[14].

وقد عدَّد جميل حمداوي للإهداء وظائف سيميائيّة ودلاليّة وتداوليّة عدّة، يمكـن حصرها في وظيفة التّعيـين التـي تتكفّـل بوظيفـة تسـميّة العمـل وتثبيتـه. ووظيفـة التّوصيف التي تعني أنّ الإهداء يتحدث عن النّص وصفا وشرحًا وتفسيرا وتـأويلا وتوضيحا. ثمّ الوظيفة الإغرائيّة التي تكّمن في جـذب المتلقّـي واسـتمالته، وكسـب فضول القارئ لشراء الكتاب، أو قراءة العمل، أو تلقي النّص. كـما يـؤدي الإهـداء وظيفة التّلميح، والإيحـاء، والأدلجـة، والتّنـاص، والتّكنيـة، والمدلوليّـة، والتّعليـق والتّشاكل، والشّرح، والاختزال، والتّكثيف، وخلق المفارقة والانزياح، وذلك عـن طريق إرباك المتلقّي، ناهيك عن الوظيفة التّصديرية أو الافتتاحيّة... [15].

دلالات الإهداء: الإهداء عتبة نصيّة لا تخلو من قصديّة، فهي ليست تقليدًا روتينيا اعتاد عليه المؤلّفون وكفى، بل أضحى امتدادًا لظاهرة ثقافيّة وفكريّة قديمة قدّم الكتاب على أيّ شكل كان، مسودة أم مخطوطة أم مطبوعة أم مدوّنة رقميّة[16].

إنّه تقليد أدبيّ راسخ في الكتابة يوطّد العلاقة بين المهدِي والمهدَى إليه على اختلاف طبقاتهم؛ لما لَهم من حضور أو أدوار في الأوساط الثّقافيّة والسّياسيّة والدّينية[17]. كما أنّه أشبه بعقد ضمنيّ مع القارئ يعمل على كشف الاتّجاه الثّقافي وحتى السّياسيّ وكذا الاجتماعي للذّات المبدعة[18]. ومن ثمّ فلا يمكن تجاهل أو إغفال خطاب هذه العتبة عند أيّة مقاربة نصيّة.

كما أنّه يحمل مجموعة من الرّسائل أو الدّلالات في طبيعة العلاقة بين المؤلّف (المهدِي) والمهدَى إليه، فضلا عن القارئ أو المتلقّي العامّ. ولن تتكشف هذه العلاقة وتتضح جوانبها إلاّ بعد الوقوف على بنيّة الإهداء وعلاقتها بالنّص وبقيّة العتبات الأخرى التي تخفر هذا النّص.

فإذا وجه الإهداء لأستاذ ما، كان اعترافًا بأياديه على المؤلّف، ووفاءً من جانب المهدِي، وتأكيدًا على رمزية العطاء في شخصيّة المهدَى إليه. أمّا إن كان لرمز سياسي فجانب الدّلالة واضح، خاصّة إن كان الرّمز السّياسيّ قد عاصره المؤلّف وعرفه عن قرب، أو لم يلتقِ به لبعد الفترة الزّمنية بينهما. ونفس الدّلالة تنسحب على الرّموز الدّينيّة والقمّم العلميّة والفكريّة... وغيرهم. ولا ينبغي إغفال ما في الإهداءات العائليّة لأفراد الأسرة عبر امتداداتها الأفقيّة والرّأسية من تأكيد الانتماء العائليّ

والأسريّ، وتمتين وشائج التّواصل الثّقافيّ، فضلا عما في ذلك من التّباهي بأصالة المَحْتِد وعراقة النّسب.

وفي هذه الإهداءات شيء من التّباهي والتّفاخر كون صاحب هذا المؤلّف على تواصل مع هذه الشّخصيات التي قدَّم لها إهداءه، سواء كان على المستوى الشّخصي أو الفيزيائيّ، أو على المستوى الفكريّ والثّقافي، أو كانت الشّخصية أو الرّمز تحول بينه وبين المُهدِي حواجز زمانيّة أو مكانيّة لكنَّ إظهار صدق الإعجاب بها والافتتان بأعمالها كانت المحرك وراء تخصيص هذه الشّخصية بالإهداء دون غيرها.

هذا فضلا عما يكشفه الإهداء ببنيته اللفظيّة ومكوّناته الاتّصالية من انتماء إيديولوجيّ يَسِم صاحبه، كمن يهدي عمله لكاتب أو شاعر سبقه بألف عامّ أو مفكّر أو شخصيّة من الشّخصيّات الثّقافيّة أو السّياسيّة ما رمقته عيناه إلاّ عبر شاشة التّلفاز أو على صفحات المجلات.

وفي تخطي عتبة الإهداء والولوج مباشرة إلى عالم النّص؛ ما يجعل عمليّة القراءة تتوقّف قليلا لتبحث عن دلالات ذلك، إمّا في العنوان وما يحمله من أفكار أو في النّص ذاته وما يمكن أن يبوح به من أسرار.[19]

والآن نقف على خطاب عتبة الإهداء في كتابيَّ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي: (مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة ـ رؤية تأصيليّة) و(الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع) محاولين تقديم دراسة لخطاب هذه العتبة تستجلي ما تعهدنا به في ملخص هذه الدّراسة، والله الموفّق والمستعان.

الإهـداء في كتـاب مفـاتيح النّجـاح وسُـنن السّـعادة: حـرص المؤلّـف الـدّكتور المستغانمي على حضور عتبة الإهداء ضمن العتبات النّصية في كتابه (مفـاتيح النّجـاح وسنن السّعادة)، وجاء هـذا الإهـداء في الصّـفحة السّـابعة، وقـد سـبقته صـفحات الغلاف الخارجيّ، فصفحة تكفّلت بمعلومات الكتاب مـن اسـم المؤلّـف والعنـوان ودار النّشر ورقم الطّبعة، تلتها صفحة داخليّة للغلاف فصفحة للبسـملة وكـأنَّ نـصَّ الكتاب يبدأ من هنا، ثمّ جاءت عتبة الإهداء تلاها التّقديم ثمّ نص الكتاب.

صمّمت صفحة الإهداء بخلفيّة زرقاء فاتحة، واللون الأزرق من الألوان المريحة للعين، وهو يرمز إلى الشّوق، والليل الطّويل الذي يُنتظر شروقـه والسّـلام والجديّـة كما أنّه يوحى بالرّاحة والاسترخاء والسّلام والجديّة، ويعبّر عن البحر، والفسحة.[20] وقد زُخرفت الصّفحة يسارًا بإطار شجري ذي غصنين متشابكين، وقـد أخـذ كـلّ غصن لون المسطرة، أحد درجات اللـون الأصـفر، وهـو لـون الطّبيعـة في الزّهـور والجبال، وهو أيضًا لون التّنوير والحكمـة، والحماسـة، والتّفـاؤل، والأمـل، والمـرح والوضوح، والثّقة. كما أنّه لون يوحي بالقوّة، ويـدعم الثّقـة بـالنّفس، ويفيـد الحيـاة وعيش اللحظة ذهنيًا، وهو أيضا رمز للشّمس، والذّهب، ويثير في الإنسان انطباعًـا إيجابيا وسارًا[21].

ولم تكن هذه الألوان والزّخارف من تلك الأخرى التي تنفِّر المتلقّي من الوقوف عندها، أو مطالعتها على وجه السّرعة، بل كانت عـاملا مسـاعدًا وجاذبًـا للوقـوف

على عناصر هذا الخطاب، وتأمل دلالاتها المختلفة، التي بعضها يخصّ المؤلّف ويدل على شخصيّته، وبعضها الآخر ينصرف إلى النّص وما يحوي من قضايا ومعالجات.

ولا ريب أنّ هذا الاختيار لشكل صفحة الإهداء سواء أكان من المؤلّف أم كان من دار النّشر، أم كان بتوافق بينهما معًا، كان موفقًا. خاصّةً بعد أن وقفنا على دلالة الألوان والأشكال الشّجرية التي نسقت بها هذه الصّفحة وما قد تضفيه على نفسيّة المتلقّي من دلالات تصبّ جميعها في نهر واحد هو الارتياح والشّوق أو التّطلع لما تصدره هذا الخطاب من قضايا وقبلها إعادة قراءة هذا الخطاب وما يحيط بعناصره من دلالات، وعلاقته بما بعده. وقد قوَّى من هذا الشّعور ورفع درجات تلكم الرّغبة خطاب (العنوان)، الذي اختير وسمًا لنصوص هذا الكتاب، ممّا يدفع بالمتلقّي ويقويّ من درجات قناعاته بالعمل، وتشوقه إلى الولوج إلى عالم هذا النّص الذي تصدرته تلكم العتبات، هذا إذا لم ندخل في حسابنا اسم المؤلّف، فإذا أضفنا اسم المؤلّف ـ وهو هنا الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي ـ وما يتمتع به من مكانة علميّة وسمعة طيّبة عند المتلقّي، نستطيع القول إنّ عتبة الإهداء في هذا الكتاب بما سبقها من العتبات أضحت لدى المتلقّي خطابًا لا يمكن إغفاله سواءً أكان المتلقّي قارئًا أم باحثًا، يهدف إلى سبر أغوار هذا المؤلّف، واستكناه أسراره.

ولم تختلف عناصر هذا الخطاب عما جرت عليه أدبيّات التّأليف العربيّ، فقد صُدِّر الخطاب بالعنوان معرفًا بـ (الـ)، ثمّ قام المؤلّف بتحديد المهدى إليه وبيان سبب تخصيص المهدى إليهم دون غيرهم، وذُيِّل الإهداء باسم صاحب الإهداء

(المُهدي) بلون مغاير للون الأسود الذي كُتبت به عناصر الإهداء الأخرى وهو ما دأب المؤلّفون على إثباته في مؤلّفاتهم[22] وهذا يؤكّد على ذاتيّة هذا الخطاب فهو ليس كالمقدّمة التي قد تكون ذاتيّةً أو غيريّة.

وقد حرص المؤلّف على انتقاء مفردات إهدائه وصياغة جمله، واختيار الشّخصيات التي وُجِّه إليها، وجاء اسم المؤلّف في ذيلها مسبوقًا باللقب الأكاديمي (د) دون الإشارة إلى الرّتبة أو مؤسّسة الانتماء.

وقد تصدر الإهداء العنوان الذي جاء مُعرفًا وفي وسط الصّفحة هذا الخطاب بالخطّ الإسلاميّ( )، المغايّر للخطّ الذي جاءت عليه بقيّة عناصر هذا الخطاب؛ وذلك جذبًا لانتباه المتلقّي، على الرّغم من وجود بعض المؤلّفين ممن يتجاهلون هذا العنوان، وعلّتهم أن الخطاب بيِّن ولا يحتاج إلى وسم يتصدره ليَبين عنه، وهناك من يصدره بالبسملة ويجعلها قبل العنوان[23].

وأمّا عن تحديد المُهدى إليه أو إليهم، فهذا عنصر أساسي في هذا الخطاب وبدونه يفقد الخطاب وجوده، وقد جاء تحديده في هذا الخطاب بالصّفة وليس بالاسم ليكون المهدى إليهم عامًّا لكلّ من يندرج تحت هذه الصّفة، وقد خصّ المؤلّف طائفتين بهذا الإهداء: الأولى: **جميع طلاب العلم** والثّاني: **كلّ محبيّ النّجاح في العالم الإسلاميّ**. ومن الملاحظ أن كلاّ الطّائفتين قد صدرتا بعنصرين لغويين يدلان على العموم، هما (**جميع**)، و(**كلّ**)، ولو أنّ تحديد المهدى إليهم خلا من هذين العنصرين

لما انصرفت دلالة العموم عنهما. لكن هذا التّصدير، وقد عمد إليه المؤلّف، إصرار منه على إبراز سمة العموم ونفيّ التّخصيص، وتأكيد الإطلاق وعدم التّقييد.

بيد أنّ المؤلّف سارع إلى إلحاق عنصر ما، قلَّص من العامّ، وأتى بوصفٍ يحد من الإطلاق، حين خصّص الطّائفة الأولي بكونهم (**يتطلّعون إلى مستقبل مشرق وحياة هنيّة طيّبة عامرة بالخيّر والبركة والتّفوق**)، وهذا التّخصيص ـ كما نرى ـ يتصل بسمة من سمات الشّخصية لدى هؤلاء. أمّا الطّائفة الثّانية فقد خصّصهم صاحب الإهداء بكونهم (**في عالمنا الإسلاميّ الحبيب**) وهذا التّخصيص كما نرى يقيّد هذه الطّائفة بعنصر المكان، وجودًا أو انتماءً.

ولا شكّ أنّ الباعث وراء تخصّيص هاتين الطّائفتين كي تكون محلا لتوجيه إهداء الكاتب، هو ما يتسم به هؤلاء من صفات وما يقومون به من أعمال، فطلب العلم أشرف سعي يقوم به المرء، وهو السّعي الذي لا يرتبط بما يقيده من عمر، أو زمان، أو مكان. وكذا (محبي النّجاح). ولولا ما كان لهؤلاء من أثار في المجتمع وما يبذلونه من عمل يسهم في نهضته؛ ما خصَّهم المؤلّف بخطابه هذا.

والحقّ أنّه يصعب الفصل بين الطّائفتين، فكلّ من ينتمي إلى الطّائفة الأولى(**جميع طلاب العلم**) يصعب تجريده أو إخراجه من الطّائفة الثّانية (**محبيّ النّجاح**)، كما يصعب الفصل بين (**محبيّ النّجاح**) والطّائفة الأولى (**طلاب العلم**) فغالب محبّي النّجاح دائما هم من طلاب العلم.

ويمكن القول إنّ في هـذا التّحديـد للطّـائفتين شيء مـن المخاتلـة اللفظيّـة التـي سرعان ما يتبن أنها قُصد إليها لتحرِّض المتلقّي وتلقي به فيما ينفعه، فكـلّ مـن يقبـل على القراءة هو من طـلاب العلـم، ومـن أيضـا مـن محبّـي النّجـاح ذلكـم النّجـاح بمفهومه اللامحدود. إذن فالإهداء للجميع لمن يقبل على القراءة ولمن لم يقبـل عليهـا بعدُ، لكنّه يرغب في النّجاح، ويندر أو ينعدم أن يوجد في عالمنا من لا يحب النّجاح.

وقد جاءت صيغة الإهداء بالصّيغة المعروفة: شـبه جملـة (جـاء مجـرور) + فعـل مضارع. وقد علَّل المؤلّف لاختصاص الطّائفة الأولى بأن تكـون محـلا لإهدائـه بـل ولتصدرها هذا الإهداء، بالفعل المضارع (**يتطلّعون**) الذي يحمل معـاني الاسـتمرار والتّجدد والأمل وعدم اليأس والإيجابية، وقد تعدى الفعل بحرف الجر (**إلى**) ليـأتي التّركيب الوصفيّ (**مستقبل مشرق**)، ولم تقف الجملة عند هـذا التّركيـب، بـل تمتـد لتُدخِل في نطاقها تركيبًا وصفيًا آخر معطوفًا على الأوّل (**حياة هنيّة عامرة**)، ويسـتمر تمدّد التّركيب أيضا ليتصل بالصّفة الثّالثة(**عـامرة**) الجـارُ والمجـرور(**بـالخير**) الـذي يتبعه معطوفان آخران هما (**البركة والتّفوق**). وكلّها صـفات جعلـت المعنيـين بهـذا الخطـاب يـنمازون مـن غـيرهم، ولا شـكّ أنّ هـذه الصّـفات التـي انطبعـت بهـا شخصياتهم لا يعود نفعها أو خيرها عليهم وحدهم، بل إنّ أثرها ونفعها يمتدّ لـيعم المجتمع كلّه، بل والأمّة بأسرها.

أمّا الطّائفة الثّانية التي شملها الإهداء، فهم (**كلّ محبيّ النّجاح**)، وقد خُصصـت بالمكان، لكن هذا التّخصيص بالمكان من خلال الجار والمجـرور(**في عالمنـا**...) ربـما

يدخل آخرين ضمن هذه الطّائفة ويخرج غيّرهم، فماذا عن المسلمين في الـدّول غـير الإسلاميّة، وماذا عن غـير المسـلمين الـذين يعيشـون في ربـوع عالمنـا الإسـلاميّ؟ أحسب أن الأمر ليس بالعسير، فكلّ مـن ينتمـي إلى الإسـلام ومـن محبـيّ النّجـاح يخصّه هذا الخطاب، حتّى وإن كان يعيش في بلاد أخرى، وكلّ من يعـيش في الـبلاد الإسلاميّة لن يحرم من خير هذا الخطاب.

ويغلب على هذا الإهداء الطّبيعة التّربوية، والعلميّـة، فجانبهـا التّربـوي يكّمـن في التّغيير والأخذ بأسباب النّهوض، وجانبها العلميّ مـا كشـف عنـه الشّـق الثّـاني مـن الخطاب التي تتمثل في (تنظّـيم المعـارف، والتّخطـيط ...) وقـد انتظمـت كـلّ جمـل الخطاب في أسلوب خبريّ، خُلوًا من الخيال. وقد جاء في قالب نثريّ، ويمكن عدّه من الإهداءات ذات النّوع القصير، إذ لم يستغرق من المساحة إلاّ ربع صفحة أو يزيد[24].

وماذا عن علاقة خطاب هذه العتبة بالنّص الذي جاء بعـدها، أَيمكـن تلمُّسـها بوضوح أم عبر علاقات خفيّة؟ أو بمعنى آخر: هل مِنْ إهداء ما صِيغ عمدًا ليكـون عتبة لنص بعينه دون غيّره؟ وما الذي يترتب عليه نقل إهداء ما من كتاب إلى كتـاب آخر؟ وأيّة إضافة يمثّلها الإهداء والوقوف عليه من قيمة عنـد المتلقّـي؟ وكـم مـرّة يمكن أن يعود المتلقّي إلى الإهداء لإعادة قراءته؟

ربما كانت الإجابة عن هذه الأسئلة تجعلنا نقف على القيمة الحقيقيّة التـي يمثلهـا هذا الخطاب بالنّسبة للنّص، وربما نسلم ـ لبعض الوقت ـ بمقولة إنّه بنيّة شـكلية أو معماريّة تقليديّة دأب عليها الكُتّاب، لا تقدّم ولا تؤخّر في عمليّات القراءة في الوهلة

الأولى. لكن سرعان ما يظهر لنا أنّ هذه البنيّة لم تُصغْ على الوجه الذي رأيناه وبالكيفيّة المعماريّة التي بُني عليها عبثًا! أو أنّه مجرد لبنة تُوضع ليكتمل بناء العتبات الخاصّة بالكتاب... كلاّ إنّها عتبة نصيّة تكشف عن بعض مجاهيل النّص، كما أنّها تميط اللثام عن جوانب من شخصيّة المؤلّف التي قد تتشتّتُ معالها (الاجتماعيّة الثّقافيّة، الفكريّة...) بين مباحث الكتاب؛ ومن ثمّ فلا مبالغة إن قلنا: إنّ المتلقّي قد يعود إلى الإهداء أكثر من مرة لإعادة قراءته، واستمداد العون منه لفهم النّص وفكّ رموزه...

ويمكن القول إنّ خطاب الإهداء في هذا المؤلّف يرتبط ارتباطًا وثيقًا ليس بالنّص الذي جاء بعده وما حواه من مباحث فقط، بل إنّه وثيق الصّلة كذلك بالعنوان الذي يطل به هذا المؤلّف على جماهير المتلقّين. ولعل نظرة سريعة إلى مفردات هذا الخطاب نجد أنّها من نفس حقل مفردات العنوان الرّئيسيّ (النّجاح السّعادة) والعناوين الدّاخلية (التّخطيط، النّجاح، التّنظيم، الطّالب)، ناهيك عن ورودها في نصوص كلّ مبحث، فضلا عن مرادفاتها.

أمّا عن شخصيّة المؤلّف التي كشف عنها هذا الإهداء، فتبدو أنّها شخصيّة من نوع خاصّ إذ تجمع بين معارف الوحيّ، ومعارف الآلة، تُولي العلم وطلابه الأهميّة القصوى في النّهضة والتّغيير، وهو شخصيّة تنماز بنظرتها الشّمولية الاستشرافيّة في معالجة قضايا الأمّة، منطلقة من الواقع غير محلقة في خيالات خادعة، أو مهمومة بالجري خلف سراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماءً. ومن ثمَّ فهي شخصيّة تحثّ على

التّخطّيط والتّنظيم لأهميّته الكبري في تحقيق الأهداف، كما تولي أهميّة كبرى للعمل الجماعيّ، وتدعو إلى استثمار كافة الطّاقات من خلال بذل الوسع وتكثيف الجهود. وهي شخصيّة متفائلة تنتقي من معجم الإيجابيّة مفردات وتراكيب تشعُّ بأنوار الأمل ما يدفع اليأس عن النّفوس، والكلّل عن الأجساد، كما تستنجد بالحِكَم وتؤّمن بدورها في شحذ الهمّم، وتوظيفها في مقاماتها لشدّ العزائم وبلوغ الأهداف.

الإهداء في كتاب الخطيب النّاجح: لم يغب خطاب الإهداء في كتاب (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع)، مثلما وقع في خطاب العتبات عند آخرين، وكما حدث في بعض خطابات العتبات النّصية في كتب للمؤلّف[25]. ولم يختلف موقع هذا الخطاب عما كان عليه في كتاب (مفاتيح النّجاح) فقد جاء هذا الإهداء في الصّفحة السّابعة، عقب صفحات الغلاف الخارجيّ فصفحة تكفلت بمعلومات الكتاب من اسم المؤلّف والعنوان ودار النّشر ورقم الطّبعة، تلتها صفحة داخليّة للغلاف فصفحة للبسملة، ثمّ جاءت عتبة الإهداء تلاها التّقديم ثمّ نص الكتاب. ومرد ذلك أن الدّار التي تكفلت بنشر الكتابين واحدة وهي دار ابن كثير في دمشق وبيروت.

وخلا تصميم صفحة الإهداء من الخلفيّة الملوّنة، كما خلت من الزّخارف التي ظهرت في يسار صفحة الإهداء في كتاب (مفاتيح النّجاح)، ولعل ذلك من باب التّنويع، وعودة إلى ما جرت عليه أدبيّات الطّباعة والتّصميم في هذا النّوع من المؤلّفات، إذ الاعتناء بالألوان والزّخارف وإدراجها في صفحات المطبوع أقرب إلى

المؤلّفات ذات الطّابع التّربويّ أو التّعليميّ الذي يخاطب فئات عمريّة محدّدة من المتلقّين. ولا تعلة تُستجدى بمكن أن تضيف إلى طبيعة الإهداء من تساؤلنا: إن كان هذا الاختيار لشكل الصّفحة التي ظهر فيها، من المؤلّف أم من دار النّشر، أم بتوافق بينهما معًا.

لكن الصّفحة أُدرج في أعلاها من اليمين وبجوار العنوان، صورةٌ لمكبر صوت متنقلّ وعلامات تشير إلى خروج الأصوات منه، وهي الأداة التي يستخدمها الخطباء في السّاحات الخارجة أو في الشّوارع أو في التّجوال أثناء التّظاهرات. ويمكن القول إنّ هذا الإدراج لا يضيف شيئًا إلى دلالات الإهداء، وخلو الصّفحة منه لا ينتقص منه.

ولم تختلف عناصر هذا الخطاب عما جرت عليه أدبيّات التّأليف العربيّ، وعما ظهرت عليه في كتاب (مفاتيح النّجاح)، فقد صُدِّر الخطاب بالعنوان معرفًا بـ(الـ) ثمّ قام المؤلّف بتحديد المُهدى إليهم، وبيان سبب تخصّيص هؤلاء دون غيرهم وذُيِّل الإهداء باسم صاحب الإهداء (المهدي) بلون مغاير للون الأسود الذي كُتبت به عناصر الإهداء الأخرى. وقد جاء الاسم خلوًا من اللقب الأكاديميّ (د) دون الإشارة إلى الرّتبة أو مؤسّسة الانتماء، ربما لأنّ الرّجل لم يكن قد حصل على الدّكتوراه حين حرّر خطابه، أو تواضعا منه.

وقـد تصـــدر الإهداء العنوان الذي جاء معرفًا وفي وسـط الصّـفحة هـذا الخطاب بالخط الإسلاميّ ( )، المغايّر للخطّ الذي جـاءت عليـه بقيّـة عنـاصر هـذا الخطاب؛ وذلك جذبًا لانتباه المتلقّي، كما في كتاب (مفاتيح النّجاح).

وقد جاء هذا الإهداء في قالب نثريّ كسابقة، لكنّه اختلف عنه من ناحيّـة الكـمّ إذ جاء من النّوع الطّويل الـذي يسـتغرق صـفحة كاملـة. ويرجـع ذلـك إلى تعـدّد عنصـر رئيس من عناصر الإهداء، وهو المهدي إلـيهم، إذ لم يكـن طـائفيتين كـما في كتاب (مفاتيح النّجاح)، بل كان ستًا من الطّوائف. وقد جاء التّحديـد لكـلّ طائفـة بالصّفة وليس بالاسم، كما في الإهداء السّابق ليكون المهدى إلـيهم عامًّا لكـلّ مـن يندرج تحت هذه الصّفة. وقد جاء ترتيبهم على النّحو التّالي:

1. محبّو اللغة وعُشاقها...
2. محبّو الإبانة في التّعبير...
3. الغيورون الذين يسعون للمحافظة على لغة القرآن الكريم...
4. المبدعون الذين يستهويهم جمال العربيّة...
5. محبّو الإعراب والإبانة والتّبيين...
6. المعنيون باللغة العربيّة ...

وعلى الرّغم مـن تعـدّد فئـات المُهـدى إلـيهم، إلاّ أنّنـا نسـتطيع أن نجمعهـم في طائفتين: الأولى: طائفة (أهـل العربيّـة) الـذين يتسـمون بصـفات الحـبّ، والغـيرة والإبداع، والعنايّة باللغة وفنّونها المختلفة. والثّانية: الخطباء، الذين يتّسـمون بحـب

الإبانة في التّعبير، والإفصاح، وجودة الإبـلاغ ... والعلاقـة بـين الطـائفتين وثيقـة فكلاهما يحبون اللغة، ويتواصلون بها، ويحيون بها، كذا هم يعتنون بها حفاظًـا عليهـا وتحقيقًا لرسالتهم.

وينزع هذا الخطاب إلى الطّبيعة العلميّة، التـي تمـسّ جـوهر اللغـة، ووضـعها في الحقل الدّعوي، وأهميّتها بالنّسبة للخطيب كي يكـون ناجحًـا في أداء رسـالته. وقـد جاء في أسلوب خبريّ، مطعمًا ببعض الصّور البلاغيّة التي تضفي شـيئًا مـن الجـمال على هذا الخطاب.

وجاءت صيغة الإهداء ـ كما في الإهداء السّابق ـ بالصّـيغة المعروفـة: شـبه جملـة (جاء ومجرور)+ فعل مضارع. غير أنه أخَّر الفعل المضـارع إلى الفقـرة الأخـيرة كـما هي عادة المؤلّفين في إهداءاتهم. فبعد أن سمَّى كلّ فئة مـن الفئـات السّـتّ ... عـاد ليؤكّـد عـلى توجيـه إهدائـه للفئـات السّـتّ مجتمعـة بتوظيـف اسـم الإشـارة المجرور(**هؤلاء**) متبوعا بالحال(**جميعا**)، ولا ريب أن في تقـديم الجـار والمجـرور مـا يؤكّد الاهتمام، والعنايّـة، ناهيـك عـمّا في الفعـل المضـارع مـن دلالات الاسـتمرار والتّجدّد.

وقد حرص صاحب الخطاب على أن يعلّل لاختصاص كلّ طائفـة كانـت محـلا لإهدائه، من طريق غير مباشر، من خلال ما خلعه عليهم من صفات، مـازتهم مـن غيرهم، ففي توجيه الإهـداء للطّائفـة الأولى ـ مـثلا ــ جـاء تعريفـه لهـم بالعنـاصر الوصفيّة المشتقّة الآتية: **محبي، وعشاق، وحماة، والرّافعين**... وقد جاءت معمولاتها:

صروحها، وأمجادها، وراياتها، وما تبع الأخيرة من بيان لنوعها بالوصف الدّال على الثّبوت: **خفَّاقة، وعاليّة**.

أمّا عن علاقة هذه العتبة بالنّص الذي جاء بعدها، والعتبة التي قبلها وأظهرها العنوان الرّئيسي (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**)، ثمّ المباحث التي حملها الكتاب تحت قسميه الكبيرين: **مقوّمات الفنّ الخطابيّ، من روائع الخطب**، فهي لا تحتاج إلى كبير عناء في بيان عمق الصّلة بينهما. ففي مفردات وتراكيب الإهداء، والعنوان، والمباحث التي تضمنها الكتاب ما يؤكّد وحدة المعجم الذي اغترف من المؤلّف لبناء خطاب الإهداء.

أمّا عن أبعاد شخصيّة المؤلّف التي تدل عليها عتبة الإهداء في هذا الكتاب فتظهر جليّةً في شغفه الكبير بالعربيّة ووعيّه بطبيعتها بما لا يحتاج إلى بيان أو تأكّيد ثمّ في وعيه بالخطابة وأهميّتها، ودور الخطيب وما يعول عليه من مهام في المجتمع والأدوات التي يجب أن يتسلح بها حتى يؤدي رسالته وحرصه الشّديد على ذلك... ناهيك عمَّا يظهره هذا الخطاب من تمكن صاحبه من العربيّة وفنّونها واعتزازه بلسانها. ثمّ في حبه للمُهدى إليهم ودعائه لهم، ثمّ هناك أيضا ما يكشف عن عمق حبه الشّديد لأفصح من نطق بالضّاد نبينا محمّد ﷺ.

وختامًا، فقد كانت هذه السّطور عن خطاب الإهداء التي تصدَّر نص كتابيّ: (**مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة ـ رؤية تأصيليّة**) و(**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**)، حاولت من خلالها الوقوف على وظائف هذا الخطاب

ودلالاته وعلاقاته بما قبله من عتبات وبما جاء بعده من خطابات، وما كشف عنه هذا الخطاب من سمات انطبعت بها شخصيّة صاحبه... وذلك بعد أن عرَّفتُ بهذا الخطاب، وبينتُ أهميّته في عمليّات القراءات.

أسأل الله أن أكون قد وُفقت في تقديم شيء ولو يسيرًا، يلقي ضوءًا على بعض أعمال عالمِنا الجليل الأستاذ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي.[26]

الهوامش:

[1]–رحل ج. جينيت عن عالمنا في 11/ 5/ 2018 تاركاً أكثر من عشرين كتابًا نقديًا بـدأت رحلتـه في التّأليف بكتاب (أشكال) عامّ 1966، وانتهت مع كتابه (حاشيّة) عامّ 2016. انظر: العربيّ الجديـد في:

https://www.alaraby.co.uk/culture/2018/5/12

[2]– انظر: عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من الـنّص إلى المنـاص): الجزائـر، الـدّار العربيّـة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1 (2008) ص49.

[3]– المرجع السّابق، ص 49.

[4]– للمزيد حول خطاب العتبات النّصية، ينظـر: د. مصـطفى أحمـد قنـبر: الإِهْـدَاءُ ـــ دِرَاسَـةٌ فِي خِطَـابِ العَتَبَـاتِ النَّصِّـيَّةِ، المركـز الـدّيمقراطي العـربيّ للدّراسـات الاسـتراتيجيّة والسّياسـيّة والاقتصاديّة. برلين ـ ألمانيا، ط 1(2020) ص 22 وما بعدها.

[5]–انظر: عبد الرّازق بلال: مدخل إلى عتبـات الـنّص، إفريقيـا الشـّرق، الـدّار البيضـاء ـ بـيروت (2000) ص 21. وفيصل الأحمر: معجـم السّـيميائيات، الجزائـر/ لبنـان، الـدّار العربيّـة للعلـوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط1 (1431هـــ 2010م) ص223.

[6]– انظر: عبد الحق بلعابد: عتبات، ص112ـ113. وعبد الرّازق بلال: مدخل إلى عتبـات الـنّص ص 21. وفيصل الأحمر: معجم السّيميائيات، ص223.

[7]– ابن منظور (محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدّين ابـن منظـور الأنصـاري الرّويفعـى الإفريقيّ، ت 711): لسان العرب، دار صادر بيروت (د. ت)، مادة (هـــ د ـ ي)

[8]– د. جميل حمداوي: شعريّة الإهداء، ط 1 (2016) ص9.

[9]– انظر: يوسف الإدريسي: عتبات النّص، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1(1436هـــ 2015م) ص21.

[10]– انظر: عبد الرّازق بلال: مدخل إلى عتبات النّص، ص 21. وفيصل الأحمر: معجم السّيميائيات ص223.

[11]– انظر: عبد القادر بلعابد: عتبات، 49 و 98.

[12]– طبيش حنينة: النّص الموازي في الرّواية الجزائريّة ـ واسيني الأعرج أنموذجًا، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي، كليّة اللغة والأدب العربيّ والفنّون، جامعة باتنة 1(2015-2016) ص112.

[13]– انظر: عبد القادر بلعابد: عتبات، ص 99.

[14]– المرجع السّابق، نفس الصّفحة.

[15]– د. جميل حمداوي: شعريّة الإهداء، ص 22، وانظر: كريم عجيل الهاشميّ: سيميائيّة العتبات النّصية في شعر فاضل عزيز فرمان، في مجلة: لارك للفلسفة واللسانيّات والعلوم الاجتماعيّة (بحوث القرآن الكريم واللغة العربية)، العراق، ع 24(2017) ص 125.

[16]– د. جميل حمداوي: شعريّة النّص الموازي،، ط2(2019) ص85.

[17]– عواشة لعور وأمينة دكدوك: آليّات التّجريب في بناء العتبات النّصية ـ روايّة (نوار اللوز) لواسيني الأعرج ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر، كليّة الآداب واللغات، جامعة العربيّ بن مهيديّ (2017-2018) ص 65.

[18]– روفيّة بوغنوط: شعريّة النّصوص الموازية في دواوين عبد الله حمادي، جامعة الإخوة منتوري ـ قسنطينة، كليّة الآداب واللغات، (2006-2007) ص49.

[19]–انظر: د. محمّد قراش: صراع القديم والجديد في رواية (الخندق الغميق) لسهيل إدريس دراسة في الإشكال والبنى السّردية، في مجلة دراسات وأبحاث، الجزائر، جامعة زيان عاشور بالجلفة ، مج 7 ع20 (2015) ص161.

[20]– انظر: أمينة رقيق: بلاغة الخطاب المكتوب: رسالة دكتوراه، كليّة الآداب واللغات ، جامعة محمّد خيضر ـ بسكرة (2013-2014) ص234.

---

[21]–انظر: نجاح عبد الرّحمن المرازقة: اللون ودلالاته في القرآن الكـريم، رسـالة مقدّمـة لاسـتكمال متطلبات الحصول على الماجستير، جامعة مؤتة (2010) ص 52. و
https://www.dorar-aliraq.net/threads/673828

[22] –انظر: د. مصطفى أحمد قنبر: الإِهْدَاءُ، ص 52 وما بعدها.

[23]– انظر: المرجع السّابق، ص65.

[24]–من خطابات الإهداء ما يأتي في قالب شعريّ، ومن حيث الكـمّ فهنـاك مـن الإهـداءات مـا لا يتجاوز نصف السّطر، وهناك ما يصل إلى الصّـفحتين ... انظـر في ذلـك: د. مصـطفى أحمـد قنـبر: الإِهْدَاءُ ـــ دِرَاسَةٌ فِي خِطَابِ العَتَبَاتِ النَّصِّيَّةِ، ص 67.

[25]–انظر على سبيل المثال: أمحمّد صافي المستغانمي: تصريف القول في القصص القرآنيّ، دار ابن كثير دمشق، ط1(1439ـ 2018م). وأمحمّد صافي المستغانمي: جواهر الدّرر في علم مقاربة السّور، دار ابن كثير، دمشق، ط1(1439ـ 2018م) إذ جاء تحت عنوان (الإهداء) الآية رقم (31) مـن سـورة الرّعد، والآية (21) من سورة الحشر.

26


الإهداء

إلى جميع طلاب العلم الذين يتطلّعون إلى مستقبل مشرق ، وحياة هنيّة طيّبة عامرة بالخير والبركة والتّفوّق ، إلى كلّ مُحبّي النّجاح في عالمنا الإسلامي الحبيب.

أُهدي هذا الكتاب داعياً الجميع إلى بذل الوُسع ، وتكثيف الجهود ، وتنظيم المعارف ، والتّخطيط لحياة أفضل ، ولا جرم فالنّجاحُ مضمون لمن أخذ بالأسباب ، واتّبع الصّراط المستقيم المُؤدّي إلى النّجاح ، وكلّ من سار على الدّرب وصل.

مع أخلص التّحيّات

د. محمد صافي المستغانمي

ملحق رقم (1) صفحة الإهداء في كتاب (مفاتيح النّجاح)



إلى محبّي اللّغة العربيّة وعشّاقها ، وحماة صروحها وأمجادها ، والرّافعين راياتها خفّاقةً عاليةً بين لُغات العالمين.

إلى مُحبّي الإبانة في التّعبير ، والإفصاح في القول ، والجودة في الإبلاغ.

إلى الغيورين الذين يسعون للمحافظة على لغة القران الكريم ، وتذليل الصّعاب أمام المتحدّثين بها ، وتيسير سبل الإنشاء والكتابة بها.

إلى المبدعين الذين يستهويهم جمالُ العربيّة ، ويروقهم جزالة ألفاظها ، وإحكام نظمها ، وروعة تناسقها ، وسحر أصواتها ، وقوّة أساليبها وتراكيبها.

إلى مُحبّي الإعراب والإبانة والتّبيين ، الشّغوفين بقواعد العربيّة ، الذين يتغنّون بها في المحافل الدّوليّة والمجامع العالميّة.

إلى الذين يُتَعْتِون باللّغة العربيّة ، ويرومون الإفصاح بها ، وبلوغ درجات الإتقان والجودة في التّعبير.

إلى هؤلاء جميعاً أُهدي هذه الصّفحات سائلًا الكريم المنّان أن يحشرني وإيّاهم مع أفصح ناطق بلغة الضّاد محمّد بن عبد الله عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

محمد صافي المستغانمي

ملحق رقم (2) صفحة الإهداء في كتاب (الخطيب النّاجح)

حجاجيّة الفنّ الخطابيّ وآليّاته عند أمحمّد صافي المستغانمي

د. منتصر بلحاج
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

ملخّص: يعتبر فنّ الخطابة من الفنّون القديمة، التي كانت تعـدّ سـلاحا كلاميّـا الهدف منه إقناع النّاس والتّأثير فيهم، وقد استعملتها البشـريّة عبر تاريخهـا الطّويـل وكان لها شأن كبير في تاريخ البشريّة خاصّة، وقد وفق أستاذنا الفاضل أمحمّد صـافي المستغانمي في مؤلّفه (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسـائل الإمتـاع**) حيـث وقف على أهمّ الآليات الحجاجيّة في تحقيق الإقنـاع الخطـابيّ. وهـذا مـا ولّـد لـدينا إشكاليّة تجسّدت على النّحو التّالي.

ترى ما مظاهر وعوامل أساليب الإقناع ووسائل الإمتاع التي يراها الأستاذ أمحمّد صافي محقّقة نجاح الخطيب في خطبته، من خلال التّأثير في المتلقّي؟

الكلمات المفتاحيّة: الخطيب –الخطابة–الحجاج – البلاغة – الأسلوب.

1- مقدّمة: كانت الخطابة في أوّل أمرها تلتبس بالشّعر كما التبست بالفلسفة فسعى أرسطو إلى التّمييز بينهما فوضع كتابا في الخطابة وآخر في الشّعر. وفي الصّناعتين للعسكري (وأعلم أنّ الرّسائل والخطب متشاكلتان في أنّهما لا يلحقهم وزن ولا تقفيّة) وذلك في معرض تمييزهما عن الشّعر.[1]

فالخطبة: اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر،[2] ورجل خطيب حسن الخطبة وجمع الخطيب خطباء.

حاول ابن وهب في البرهان أن يبلور هذين المعنيين ويربط بينهما ربطا سببيّا في اتّجاه الارتفاع بالمعنى إلى مستوى الاصطلاح فقال: (إنّ الخطابة مأخوذة من خطبت أخطب خطابة واشتق ذلك من الخطب وهو الأمر الجليل ... والخطبة الكلام المخطوب به والخطابة والخطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة لأنّهما مسموعان).[3]

فما هي الآليّات الحجاجيّة الخطابيّة التي يجب توافرها في عمليّة التّأثير والإقناع عند أمحمّد صافي المستغانمي؟

2- الآليّات الحجاجيّة في نجاح الخطيب عند صافي المستغانمي: يتميّز الخطيب المفوّه بعدّة مواصفات نفسيّة وخطابيّة حيث إنّ (الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابيّة بناء على أنّه لا كلام بغير خطاب إذ حقل الحجاج هو الخطاب ... إذ الحجاج يوصف بأنّه طبيعة في كلّ خطاب)[4] ولذا كان لزاما على كلّ خطيب أن يراعي مقوّمات نجاح خطبته، واستمالة نفوس المتلقّين، فالخطابة أصبحت ذلك (العلم الذي يعرف الدّاعية الخطيب كيف يخاطب النّاس ويقنعهم ويجذبهم ويرغبهم ويرهبهم، وكيف يتكلم بتؤدة وتمهل حتى يفهم النّاس منه ويعقلوا عنه وكيف تكون خطبته لمستمعيه بما تتناسب مع عقليتهم وثقافتهم وما تتفق مع أعمارهم ولهجاتهم، حتّى يستحوذ على نفوس المخاطبين ومشاعرهم، ويكون له في المجتمع أثر وفي مجال الإصلاح تغيير).[5]

لقد اهتمّ الفلاسفة والبلاغيين الغربيّين المحدّثين ببلاغة الخطابة، وذلك راجع الى قناعاتهم بالدّور الخطير الذي تلعبه في توجيه الرّأي وبلورة الفكر المعاصر. وهو ما جعل أمحمّد صافي المستغانمي يتساءل عن ماهيّة الخطابة قائلا: «لماذا فنّ الخطابة»[6] الأمر نفسه يطرحه محمّد العمري عن الأساليب والمقوّمات التي ينبغي أن تبنى عليها الخطبة ويتّصف بها الخطيب، فيوجّه سؤالا لماذا البحث في بلاغة الخطاب الإقناعيّ، ويقدّم پيرلمان جوابا مبينا وظيفة الحجاج وهي (حمل المتلقّي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزّيادة في حجم هذا الاقتناع).[7]

ويجيب الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي عن تساؤله في مدخل الكتاب (لماذا فنّ الخطابة)، مبينا أنّها من آليّات تقويم سلوك الفرد والمجتمع فيقول في معرض الجواب أنّ (تحقيق هذه الغايات النّبيلة والأهداف السّامية وزحزحة جماهير النّاس عن معتقداتهم الباطلة، وتقويم سلوكيّاتهم الخاطئة، وصرفهم عمّا استحلوا من شهوات، وألفوا من ملذّات، كان لزاما على الدّاعية المسلم، أن يتسلّح بفنّ عظيم من فنّون التّواصل والإعلام، وألا وهو فنّ الخطابة).[8]

ولقد نوّه أمحمّد صافي المستغانمي بخطب النّبي ﷺ بما تحمله من أبعاد حجاجيّة تأثيريّة مؤيّدة بالوحيّ الإلهيّ، وهو كتاب الله تعالى الذي يعدّ من أوّل السّلالم الحجاجيّة في عمليّة الإقناع والتّأثير، فيقول أمحمّد صافي المستغانمي (أكرمه ربّه عزّ وجلّ) بقدرة خطابيّة فائقة، وموهبة بيانيّة شائقة رائقة،... تحدّث في جموعهم فأفحمهم، وصال وجال في أسواقهم ونواديهم فبهرهم، وأعجبهم قوله واستمالهم

بيانه، وأقنعهم الحقّ الذي يحمله، وأعجزهم القرآن الذي يفيض من جنبات نفسه المؤمنة ولسانه الصّادق).[9]

إنّ المتأمّل في وصف أمحمّد صافي المستغانمي للأبعاد الحجاجيّة الإقناعيّة في خطب الرّسول ﷺ يرى أنّه لامس حقيقة ما تقوم عليه أي خطبة، وهو قوله:

1- (وأقنعهم الحقّ الذي يحمله): وهذا البعد الحجاجيّ يعتبر خاصيّة وميزة تفرّد بها الدّكتور صافي وهي خاصيّة التحلّي بالحقّ الذي يجب أن يتحلّى بها كلّ خطيب، لئلا يثار حول خطبته الشّبهات التي تنقص من قيمة الخطبة ويجد المغرضون منفذا للطّعن فيها أو دحضها بغيرها. إذ يجب أن (يظهر الخطيب مخلصا فيما يدعو إليه، وحريصا على الحقّيقة، فإنّه إن ظهر كذلك وثق النّاس به، وصدقوه فيما يدعو إليه، وأحسوا بأنّه شريف تجب إجابته؛ لشرفه وشرف ما يدعو إليه، ومن أجل أن يكون الإخلاص باديا، يجب أن يكون من حاله ما يطابق مقاله، فلا يتجافى عمله عن قوله، بل يكون أكثر النّاس أخذا بقوله).[10]

2- (وأعجزهم القرآن الذي يفيض من جنبات نفسه...): فالقرآن الكريم يتميّز ببعد حجاجيّ إقناعيّ بلا منازع، يشير أمحمّد صافي إلى عظمة كتاب الله تعالى وأثره البيّن على الخطابة في عصر الإسلام قائلا (ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر القرآن الكريم في الارتقاء بفنّ الخطابة إلى أعلى ذرى البلاغة والبيان، حيث حفظه الخطباء والأمراء، ونهلوا من معينه الذي لا ينضب وتأثّروا بقوّة بيانه، ورفيع أسلوبه في

حسن التّأليف، ورصف الكلمات وصوغ العبارات، ومراعاة مواضع الفصل والوصل).[11]

لقد عمل أمحمّد صافي المستغانمي على تتبع الآيات القرآنيّة الواردة في أنّ الرّقي بفنّ الخطابة، والوقوف على أبعادها الحجاجيّة الي ترقى بها إلى مستوى التّأثير والإقناع ومن هذه الآيات التي أوردها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾(النّساء:63) وقوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ (طه: 44) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ (البقرة:83).

بالنّظر إلى هاته الآيات يتبيّن أنّ الدّكتور أمحمّد صافي ركّز في الاستشهاد بهذه الآيات على التّسلح بسلاح البلاغة في القول والقضاء والمعاملة بين أفراد المجتمع ومن هذا المنطلق تكمن أهميّة الخطاب البليغ في استدراج المتلقّي وجعله ينصاع ويتقبل خطاب المرسل، كون ذلك أنّ الموجّه للمجتمعات والجماهير هم الخطباء والقرآن الكريم إلاّ خطاب إلهيّ موجّه، أخرج الله به النّاس من دائرة الشّرك إلى دائرة الإيمان، فكان هو النّموذج الأسمى لكلّ الخطابات التي جاءت بعده.

وممّا يزيد من حجاجيّته هو ما ذهب إليه الدّكتور أمحمّد صافي كون هذا القرآن ينبع من شخصيّة عظيمة تحلّت بالحقّ وبالصّدق وبالأخلاق. تجلّى هذا الوصف في

قوله تعالى﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:4] إذ يعتبر حسن الخلق والصّدق فيما يدعو إليه الخطيب هو من صميم الإخلاص الذي هو (هو روح الأعمال وسرّ قبولها وبه يجمع الله سبحانه وتعالى القلوب، فالإخلاص عامل هامّ في النّجاح والتّأثير وينبغى على الخطيب أن يحذر من أمراض القلوب، وأن يبتعد عن الغرور والرّياء وحبّ الظّهور... ينبغي على الخطيب أن يكون قدوة حسنة، وأن يكون سلوكه قويما، وأن يعمل بما يقول وأن يكون إماما فيما يدعو إليه)[12] لأنّ المتلقّي عادة ما يتأثّر بخطبة ما ثمّ يتراجع عن ما اقتنع به إذا وجد الخطيب يخالف فعله قوله وهو عامل من عوامل الضّعف الخطابيّ في القرون المتأخّرة، بل جعل أمحمّد صافي الإخلاص مقوّما من مقوّمات الخطيب النّاجح إذ يقول: (الإخلاص قوّة فعالة في توجيه النّفس البشريّة وقيادة زمامها، والخطيب المخلص هو الذي يتسرب كلامه على قلوب السّامعين بدون استئذان، وما خرج من القلب دخل إلى القلب وما خرج من الفمّ لا يتجاوز الأذنين، والخطيب المخلص يجري الله الحكمة على لسانه)[13] وعكس ذلك ما ذمّه الله تعالى في كتابه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصّف:02] لأنّ الهدف من الخطابة هو توجيه النّاس وإرشادهم وحثّهم على فعل الخيرات وترك المنكرات وهو هدف إسلاميّ محض، فعلى الخطيب (أن يخاطب المستمعين إلى طريق الله أي منهج الله الذي رسمه لهداية النّاس حتّى يحسنوا العبادة لله وحده ويحسنوا التّعامل مع بعضهم البعض).[14]

إذ لم تجد القوانين البشريّة بديلا عنه في بناء حضارتها والرّقي بمجتمعاتها إلاّ بالنّهج على منوال التّوجيه الإسلاميّ الرّشيد الذي جاءت به الحنفية السّمحة. وبهذا اتصفت خطب السّابقين من السّلف على منوال خطب النّبي ﷺ، كونهم (علموا أنّ ذلك من ثمّرة الحكّمة ونتاج التّوفيق، وإنّ تلك الحكّمة من ثمّرة التّقوى. ونتاج الإخلاص. وللسّلف الطّيب حكم وخطب كثيرة، صحيحة ومدخولة، لا يخفى شأنها على نقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني متميّزة عند الرّواة الخلّص وما بلغنا عن أحد من جميع النّاس أنّ أحدا ولد لرسول الله ﷺخطبة واحدة. فهذا وما قبله حجة في تأّويل ذلك إن كان حقّا).[15]

وعليه يعتبر الخلق القويم، وحسن السّلوك، والتّحلي بالقيّم الفاضلة من أهمّ عوامل الإقناع والتّأثير، إضافة للملكة اللغويّة والقدرة على القول بالبلاغة.

3- الأبعاد الحجاجيّة في تألّيف الخطبة عند أمحمّد صافي المستغانمي: إنّ بلاغة أي خطاب لا يمكن لها أن تتحقق وتكون ذا بعد حجاجيّ تأثيري عند أمحمّد صافي المستغانمي إلاّ بتأّليفها وتحبيرها وفق العناصر التّالية:

3.1- التّمكن من اللغة: إنّ اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم بها نزل الخطيب ولقد (تعدّدت الآليات اللغويّة والبلاغيّة للخطاب القرآني، فتجلت انعكاساتها الأولى على تطوير اللغة العربيّة وبعثها بعثا جديدا هذبها وسلك بها مسلكا متزنا اجتمعت عليه كلّ القبائل النّاطقة بالعربيّة إبان نزوله، فكان نزولا مهمته الأولى بيان الفصيح من اللفظ والابتعاد عن موحشه وغريبه فأخذ الخطاب

الإلهي من جميع وجوه البيان أكثر قوّة وبلاغة وحجّة وإقناعا)[16] قال سبحانه:
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[17].

ولقد نطق العرب القدامى وأبدعوا في خطبهم ومواعظهم، نظير تمكنهم من ناصيّة اللغة العربيّة، ولذا اعتبرها أمحمّد صافي كآلية حجاجيّة في صناعة الخطبة وعاملا أساسيا في نجاح أي خطاب، فقال: (تعدّ اللغة بشكل عامّ المورد العذب والمنهل الصّافي الذي يستقي منه الخطيب والمتحدّث مادته وعليه أن يكون محيطا بأصولها ملمّا بفروعها، على معرفة دقيقة ودرايّة عميقة بأسمائها وأفعالها وحروفها وطرائق استعمالها ووضعها في مواضعها اللائقة بها. ولأنّ المعاني غير متناهية والأقضية مستجدّة، كان لزاما على الخطيب الفصيح أن يستمرّ في توسيع مداركه العلميّة بألفاظ اللغة ومفرداتها ليكسو معانيه وأفكاره ثيابا لائقا ولباسا رائقا).[18]

2.3- **إتّقان علم النّحو والتّمكن فيه:** يعتبر علم النّحو من العلوم الأولى في نشأة تدوّين اللغة العربيّة حفظها من اللحن والزّلل، يقول ابن خلدون في المقدّمة (فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمّم والدّول وخالطوا العجم، تغيّرت تلك الملكة بما ألقي إليها السّمع من المخالفات التي للمتعربين، والسّمع أبو الملكات اللسانيّة، ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السّمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليّات والقواعد يقيسون عليها سائر

أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه ... فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، اصطلحوا على تسميّتها بعلم النّحو).[19]

وتكمن حجاجيّة النّحو العربي كما يراها أمحمّد صافي في قدرة الخطيب وإتّقانه لهذا العلم كي يصل إلى بيان المراد من كلامه، وبه يكون فصل الخطاب، الذي عبر عنه الزّمخشري بقوله: (إنّه البين من الكلام الملخّص الذي يتبيّنه من يخاطب به ولا يلتبس عليه).[20]

وبذا يكون أمحمّد صافي قد ركّز على أهمّ ما به تقوم حجاجيّة الخطبة وهو التّمكن من علم النّحو العربي، وتصريف أفانين القول وفّق مقتضيّاته وأساسيّاته التي لولاها ما استقام أي خطاب.

3.3- التّمكن من علم البلاغة: يرى صافي المستغانمي أنّ أهميّة البلاغة العربيّة تكمن في صناعة الخطبة وتجميلها بعبارات راقيّة تصل لقلوب السّامعين وتهز وجدانهم وكيانهم، (ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة؛ منها أنّ صاحب العربيّة إذا أخل بطلبه، وفرط فى التماسه، ففاتته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله؛ لأنّه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر ردى؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه. وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشيء رسالة- وقد فاته هذا العلم- مزج الصّفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل)[21] وهذا الأمر جعل صافي المستغانمي

يجزم أنّه لا يمكن للخطيب أن يؤلّف خطبته بصورة رائعة يستطيع بها أن يؤثّر على قلوب سامعيه، أو يحاججهم بغية الإقناع أو إثبات البرهان وإقامة الحجة، و(من هنا أجمع العلماء على أنّه لا سبيل إلى الإبداع في الكتابة الأدبيّة أو الخطابة إلاّ بالتّضلع في علوم البلاغة الثّلاثة، واتّقان مباحثها وفروعها وحسن تطبيقها)[22] ومن هنا نستنبط أنّ علم البلاغة هو أساس نجاح الخطيب ، ووصوله لمستوى الخطاب الرّاقي الذي يلامس الأرواح ويوجه الجمهور.

4- خاتمة البحث: بعد هذه الجولة السّريعة في كتاب (**الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) لـ أمحمّد صافي المستغانمي نرى أنّه ركز على مجموعة من الآليّات الحجاجيّة التي تنهض بالخطبة وتساهم في نجاح الخطيب باستعماله لهذه الآليّات التي ارتأينا أن نركز على أهمّها، بالنّظر إلى ما ركز عليه صاحب الكتاب ومن ذلك توصلنا إلى ما يأتي:

- ضرورة التّحلي بالصّدق، وحسن الخلق وتتبع سير الخطباء المخلصين، كون ذلك مدعاة للقبول، وأسهل طريق للوصول، وأقصر طريق لإقامة الحجة وبلوغ قلوب المستمعين؛

- استعمال الحجج الجاهزة كالقرآن الكريم والحديث النّبوي وكلام السّلف الصّالح، لأنّ ذلك يعد من سرّ الصّناعة اللفظيّة كون الخطيب قادر على استحضار الآيات والأحاديث والشّواهد التي تناسب موضوع الخطبة؛

- ضرورة التّحلي باللغة العربيّة والتّمكن منها ومن علومها كالنّحو والبلاغة وحفظ الأشعار والحكم؛

- تحلّي الخطيب بالفضائل والقيّم الدّينية والإنسانية المثلى، وأن يراعي المقامات والأحوال عملا بقول: (أنّ لكلّ مقام مقال)؛

- دعوة أمحمّد صافي الخطباء والمشتغلين بهذا الفنّ، أن يصنعوا لأنفسهم طريقتهم الخطابيّة، وأن يبتعدوا عن تقليد الغير، حتى لا تضعف حجتهم وتتكون لهم الملكة الخطابيّة الخاصّة بهم؛

- عدم التّكلف في استعمال الألفاظ والعبارات، والتّنزه عن الاستشهاد بضعيف الأقوال وما اختلف في صحته، فهذا من قبيل إضعاف حجيّة الخطبة والانتقاص من كفاءة الخطيب.

قائمة الإحالات:

[1]- أبو هلال العسكريّ .الصّناعتين. دار الكتب العلميّة .1981، 158.

[2]- ابن منظور. لسان العرب: مادة خطب.

[3]- ابن وهب. البرهان في وجوه البيان تح: حنفي محمّد شرف الرّسالة 1969 – ص153.

[4]- طه عبد الرّحمن في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربيّ، الرّباط ،ط1 ،1998، ص 213.

[5]- مناهج جامعة المدينة العالميّة: الخطابة، كود المادة: LARB4224،النّاشر: جامعة المدينة العالميّة ص9.

[6]- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، النّاشر دار ابن كثير، دمشق سوريا ، ط1، سنة: 1483هـ/ 2018م، ص11.

[7]- سامية الدّريدي، الحجاج في الشّعر العربيّ القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني للهجرة، بنياته وأساليبه،عالم الكتب الحديث، ط1،2001 ،ص21

[8]- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص11

[9]- المصدر نفسه: ص13.

[10]- عبد العاطي محمّد شلبي، عبد المعطي عبد المقصود: الخطابة الإسلاميّة، النّاشر: المكتب الجامعيّ الحديث، الطّبعة: سنة م، ص2006م، ص14.

[11]- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص28.

[12]- عبد العاطي محمّد شلبي، عبد المعطي عبد المقصود: الخطابة الإسلاميّة: ص15.

[13]- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، ص76.

[14]- محمّد آدم عيسى هلال. (الخطابة ودورها في الدّعوة إلى الله ومقوّمات الخطيب النّاجح) مجلة فصليّة محكّمة، تصدر عن كليّة الدّعوة الإسلاميّة، جامعة أمّ درمان الإسلاميّة).45.

[15]– عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشّهير بالجاحظ (ت: 255هـ): البيان والتّبيين، النّاشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عامّ النّشر: 1423 هـ، ج3.ص265.

[16]– منتصر بلحاج: أثر الخطاب القرآنيّ في بعث وتطوّير اللغة العربيّة، واقع اللغة العربيّة محليا ودوليا منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، سنة2019م. ص317.

[17]– سورة الإسراء آية 89.

[18]– أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

[19]– عبد الرّحمن بن محمّد بن محمّد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدّين الحضرمي الإشبيلي (ت: 808هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، تح: خليل شحادة. النّاشر: دار الفكر، بيروت، الطّبعة: الثّانية، 1408 هـ – 1988 م.ص754.

[20]– الزّمخشري، الكشاف، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1977م، ص 90.

[21]– أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ): الصّناعتين، تح: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، النّاشر: المكتبة العنصرية بيروت، عامّ النّشر: 1419 هـ، ص2.

جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في خدمة اللغة العربيّة.

د. مهديّة بن عيسى، وحدة البحث تلمسان
أ. أمال حمزاوي، المجلس الأعلى للّغة العربيّة

إنّ المستقرئ لكتابات وأعمال الشّيخ أمحمّد الصّافي المستغانمي[1]، وكـذلك المتتبّـع لنشاطاته وإنجازاته يلاحظ حبّه الكبير للّغة العربيّة ويلمح بوضـوح سـعيه ورغبتـه في تطوّير هذه اللغة وجعلها مواكبة للتّطوّرات المتسارعة التي يشهدها العالم في شتّى المجالات. وهو ما أكّـده الصّـافي وصرّح بـه في كثـير مـن اللّقـاءات والمحـاضرات والنّدوات والمناسبات العلميّة والثّقافيّة داخـل دولـة الإمـارات العربيّـة المتّحـدة أو خارجها. وسوف نحاول من خلال هذه المداخلة عـرض مجموعـة مـن جهـوده في مجالات وأنشطة عدّة.

1- جهوده من خلال مجمع اللغـة العربيّـة بالشّـارقة: مجمـع اللغـة العربيّـة بالشّارقة مؤسّسة حكوميّة أكاديميّة تابعة لإمارة الشّارقة، تُعنى بقضايا اللغة العربيّـة ودعم المجامع اللغويّة والعلميّة في العالَمَينِ العربيّ والإسـلاميّ، وهـي همـزة وصـل للحوار الثّقافي والبحث اللّغوي والمعجميّ بين الباحثين في شتّى دول العالم.

ومجمع اللغة العربيّة بالشّارقة ليس كبقيّة المجامع، يُعنى ببعض أقسام البحـث في اللغة وفروعها وأنشطتها، وإنّما تمّ إنشاؤه لخدمـة المجـامع اللّغويّـة جميعهـا، يـدعم

أعمالها وأنشطتها ويدفعها إلى الأمام، من أجل جمع الجهود وتسخيرها لخدمة للّغة العربيّة ومن أجل الارتقاء بها والإسهام في حسن استعمالها، كما يروم تحقيق جملة من الأهداف نذكر منها مايلي:

- رعاية الأعمال البحثيّة والمشاريع العلميّة المتعلّقة باللغة العربيّة؛
- رعاية برامج تسهيل تعلّم اللغة العربيّة، وتحفيز النّشء على التّعامل بها والإبداع في فنونها وأجناسها الأدبيّة؛
- الإشراف والتّخطيط والرّعاية الماديّة لإنجاز المعجم التّاريخي للّغة العربيّة؛
- النّهضة بالجانب المصطلحي وتهذيبه، والإشراف على إصدار قواميس ومعاجم لغويّة عصريّة تلبّي حاجيات المتحدّث باللغة الفصيحة والكاتب بها في العصر الحديث؛
- مدّ جسور التّعاون، وتنسيق الجهود مع المجامع اللّغويّة والعلميّة في العالَمِين العربيّ والإسلاميّ للوصول إلى مخرجات معرفيّة هادفة وواعدة؛
- التّواصل مع رجالات الفكر واللغة والثّقافة والآداب والعلوم الإنسانيّة في شتّى دول العالم؛
- المشاركة الفاعلة في إعداد وإنشاء برامج إدماج اللغة العربيّة في البحث التّكنولوجي المعاصر؛ والإفادة من مفرزات الانفجار المعلوماتي لخدمة اللغة العربيّة، وتعميم التّخاطب بها مشافهة وكتابة؛

- رعاية الدّراسات العلميّة التي تتناول تاريخ الأمّة العربيّة وحضارتها وصلتها بالحضارات العالميّة الأخرى؛
- رعاية المشاريع العلميّة المتعلّقة بتحقيق المخطوطات اللغويّة والتّراثيّة؛
- رعاية جوائز دوليّة في خدمة اللغة العربيّة[2].

ويسعى الدّكتور صافي الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة جاهدا لإيقاد شمعة للّغة العربيّة في كلّ بقاع العالم، بروعة وسرعة. ويرمي لتحقيق مجموعة من الأهداف أهمّها:

1. مدّ جسور التّعاون مع المؤسّسات لخدمة اللّسان العربيّ.
2. الارتقاء بمهارات تعليم اللغة العربيّة لغير النّاطقين بها.
3. بيان عظمة اللغة العربيّة وثرائها وسعتها، والعودة بها إلى مجيد عهودها وزاهر أيّامها.

ومن بين الأعمال التي يسعى لتحقيقها دعم المشاريع اللّغويّة المتعثّرة، من ذلك تمويل مشروع مدوّنة اللغة العربيّة وفق اللّفظ القرآني التي يعدّها فريق من الباحثين في مجمع الخرطوم. يقول الشّيخ المستغانمي: "كما أسهمنا بترجمة الجزء التّاسع والعشرين من القرآن الكريم إلى بعض اللغات الأفريقيّة، وهذا تدعيم لما ما يقوم به مركز خليفة اليوسف لخدمة الحرف العربي بالسّودان".

من ناحية أخرى، تمَّ بتوفيّق الله تعالى، ثمّ بإشراف مباشر لصاحب السّموّ حاكم الشّارقة – إنشاء مجلس للّسان العربي بنواكشوط، وهو المجلس الأعلى للّغة العربيّة

في موريتانيا التي تزخر بملايين الشّعراء والكتّاب والباحثين وهذا تتويج لجهودهم الرّائعة في خدمة اللسان العربي.

كما أنّنا في المجمع اشتركنا مع مكتب تنسيق التّعريب في إنشاء جائزة الألكسو–الشّارقة في اللغويّات والمعجميّات".[3]

2- **تعليم اللغة العربيّة لغير النّاطقين بها:** حِرص الأستاذ صافي المستغانمي كبير على تعليم اللغة العربيّة لغير النّاطقين بها، وهذا ما تؤكّده جهوده الحثيثة في هذا المجال، حيث وقّع الحاج أمحمّد صافي اتفاقيّة في مقرّ المجمع بالشّارقة مع أكاديميّة الشّارقة للفنون الأدائيّة والتي يديرها البروفيسور بيتر بارلو[4]. وأكّد المستغانمي أنّ الهدف من هذه الاتفاقيّة هو تعزيز استعمال اللغة العربيّة، والعمل على التّمسّك بها إذ يستفيد مجموعة من طلّاب وإطارات الفنّون المسرحيّة والأدائيّة غير العرب من مهارات أساسيّة في اللغة العربيّة، والتّدرب على استخدام قواعدها الصّحيحة في أعمالهم للإسهام في تعزيز الوعيّ تجاه هذه اللغة التي يسعون إلى تعلّمها وفق قواعدها المضبوطة السّليمة وهذا من أجل دعم وتعزيز مكتبة المسرح العربيّ بنصوص باللغة العربيّة الفصيحة الأمر الذي ينعكس ايجاباً على جوّدة الأعمال الفنيّة الهادفة التي ينتجونها ويجعلها مسهمة في نشر جماليّات العربيّة لدى الجمهور وذلك لما للفنّ من تأثير خاصّ ومقدرة على التّخاطب مع المجتمع، كما يمتلك المشتغلون به قدرة على إيصال الرّسائل الإيجابيّة بلغة سليمة سلسة وجاذبة للمتلقّي[5].

وقد أطلق مركز اللّسان العربي بمجمع اللغـة العربيّـة بالشّـارقة عـدّة دورات في اللغة العربيّة لهذه الفئة وتخرّج منها 16 منتسبا من 8 دول[6]. وبهـذا الحـدث العلمـيّ يؤكّد الدّكتور أمحمّد صافي على دور المجمع في القيام باللغة العربيّة وقضـاياها، وأنّـه يُعتبر مؤسّسة حكوميّة تُعنى بقضايا اللغة العربيّة في العالمين العربيّ والإسلاميّ.

3 – المعجم التّاريخي للّغة العربيّة:

3–1 تعريفه: يعرّف المعجم التّاريخي بأنّه كتاب موسوعي كبير يفـترض فيـه أن يكون حاويا لمسيرة اللغة عبر رحلتها الطّويلة منذ بداية تاريخهـا المعـروف والمسـجّل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها وهذا يعني أنّ العمـل فيـه سـيبقى متواصـلا وإن لحظة القول بالانتهاء من إعداده تعني بدايّة لتسجيل إضافات جديدة في اللغة.[7]

ويرى علي القاسمي أنّ المعاجم التّاريخيّة تسعى إلى تزويد القارئ بتاريخ الألفـاظ ومعانيها من خلال تتبّع تطوّرها منذ أقدم ظهور مسجّل لها حتّى يومنا هـذا، وهـذا يقتضي:

1 – أن يضمّ المعجم التّاريخيّ كلّ لفظ استعمل في اللغة سواء لازال يسـتعمل في الوقت الحاضر أم لا.

2 – أن يوثّق تاريخ كلّ لفظ في شكله ومعناه واستعماله ممثّلا لهذا اللفظ بعدد مـن الشّواهد ابتداءً من أوّل ظهور معروف لذلك حتى آخر استعمال له[8].

فالمعجم التّاريخيّ يتتبّع نشأة الألفاظ وتطوّرها ويبحـث في أصـالتّها ومـا يتّصـل بذلك من اختلاف اللّهجات، ولذلك يسمّيه عبد الله العلايلي: المعجم النّشوئي[9].

إذن فالمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة ديوانٌ يضمّ جميع ألفاظ اللغة العربيّة، ويبيّن أساليبها، ويوضّح تاريخ استعمالها أو إهمالها، وتطوّر دلالاتها ومبانيها عبرَ العصور ويُعنى بذكر الشّواهد ومصادرها مع التّوثيق العلميّ لكلّ مصدر؛ فهو معجم لغويّ موسّع يكشف عن تاريخ اللغة العربيّة، وعن تاريخ الأمّة العربيّة وحضارتها ويهتمّ بـ:

- بيان التّناول التّاريخيّ والتّغيّر الدّلالي للّغة العربيّة عبر كلّ العصور وفي مختلف الثّقافات؛

- حفظ جميع الكلمات المتداولة في اللغة العربيّة؛ ذلك أنّ العرب القدامى لم يجمعوا كلّ مفردات اللغة[10]، كما لم يسجّلوا المعاني المستحدثة، فقد اهتمّوا بالمعنى الحقيقي للكلمة، أمّا معانيها المجازيّة فظلّت مشتّتة ومتناثرة، والمعجم التّاريخيّ بإمكانه لمّ شتات اللغة كما بإمكانه الكشف عن كنوز دفينة وعن معارف لم تكن متاحة من قبل[11]؛

- معرفة أصول الكلمات المقترضة قديما وحديثا، ذلك أنّ اللغة العربيّة في تاريخها الطّويل اتّصلت بلغات كثيرة[12]؛

- وبهذا سيكون المعجم التّاريخيّ ديوانا لتاريخ العرب والمسلمين، ديوانا للأحداث الكبرى من فتوح وحروب وهجرات وكوارث، ديوانا لحياتهم الاجتماعيّة بنظمها وبمظاهرها الماديّة والرّوحيّة، ديوانا لأفكارهم ومشاعرهم ديوانا

لعلومهم ومعارفهم وخبراتهم، ديوانا لعلاقاتهم بالشّعوب الأخرى ولتأثيرهم فيها وتأثّرهم بها[13].

3-2 مدوّنة المعجم التّاريخيّ: تشتمل مدوّنة المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة على كلّ كلمة استعملت في اللغة العربيّة بدون استثناء في النّصوص والسّياقات التي وردت فيها، بجميع صيغها وتقلّباتها، وأبنيّتها، والتّراكيب التي وردت فيها، مع بيان جذرها، وكيفيّة استعمالاتها، وتاريخ استعمالها والتّطوّر الذي حصل للكلمة عبر الزّمن، وصولا إلى دلالاتها المعاصرة.

3-3 مصادر مدوّنة المعجم التّاريخيّ: النّقوش القديمة، اللهجات الجاهليّة القديمة مثل الثّموديّة وغيرها، ولغات القبائل مثل عاد وطسم وغيرها، والألواح والنّقود، ومصادر الشّعر الجاهلي مثل: المعلّقات، والأصمعيّات وغيرها، وما كتب في التّفسير، وعلوم القرآن، والحديث والسّنن وشروحها، والفقه الإسلاميّ وأصوله، والسّيرة النّبويّة، وكتب التّاريخ، وغيرها من المدوّنات الإسلاميّة، وما كتب في الحقل المعجميّ واللساني، وأمّهات كتب التّراث العربيّ في الأدب والنّقد وغيرها.ويُعنى المعجم التّاريخي للّغة العربيّة بإيضاح:

- ✓ **تاريخ الألفاظ العربيّة:** تاريخ الكلمة من حيث جذرها وصرفها في اللغة العربيّة، ويقوم بتقسيم البحث للكلمة الواحدة تاريخياً؛
- ✓ **التّأثيل للجذور العربيّة:** الرّجوع للأصول والجذور لتأثيل الكلمة في اللغة العربيّة، ويقوم بتقسيم البحث للكلمة الواحدة حسب جذر الكلمة؛

✓ **معاني الألفاظ وتطوّر دلالاتها:** حيث يؤرّخ لكلّ معاني الألفاظ بجميع صيغها وتقلّباتها، وأبنيتها، والتّراكيب التي وردت فيها، وتاريخ استعمالها، والتّطوّر الذي حصل للكلمة عبر الزّمن، وصولًا إلى دلالاتها المعاصرة؛

✓ **تطوّر المصطلحات عبر العصور: حيث** يبحث في تطوّر الكلمة ومصطلحاتها عبر الزّمان وعلى السّن العرب منذ الجاهليّة إلى يومنا هذا، ويقوم بتقسيم البحث للكلمة الواحدة زمنياً [14].

والآن نعرض ما قاله الدّكتور صافي المستغانمي واصفا المشروع بالحلم الذي سعى بكلّ ما أوتي من قوّة على انجازه بمباركة من سموّ الشّيخ سلطان بن محمّد القاسمي:"يعدّ مشروع المعجم التّاريخي للّغة العربيّة أعظم تحدٍّ أمام مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وجميع المجامع اللغويّة والعلميّة الاخرى، ولا أكون مبالغًا إذا قلت إنَّ مشروع المعجم التّاريخي هو بؤّرة رؤية صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي حاكم الشّارقة، ولبّ لباب اهتماماته. لقد رفع صوته عاليًا منذ 2006 لإنشاء هذا المشروع وتعجيل تنفيذه، لما رأى من تعثّر خطواته منذ 1957، حيث إنَّ اتّحاد المجامع منذ تأسيسه 1957 أخذ على عاتقه تنفيذ هذا المشروع العظيم، ولكن شاءت الأقدار أن تتعثّر الخطوات، وتقف عوائق ومزالق في طريق تنفيذه.

والآن بتأسيس مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، عاد مشروع المعجم التّاريخيّ ليطفو إلى السّطح، وأقول: إنَّ همّة صاحب السّمو لإنجازه متوثّبة ومشرئبّة، ولقد وجهني

شخصيًّا لاتّخاذ جميع الخطوات التي من شأنّها تيسير إنجاز المشروع، ولقد قمنا في هذا الإطار بخطوات حثيثة وأهمّها دراسات وورشات عمليّة خاصّة بكتابة المدوَّنة الحاسوبيّة، والحمد لله تمَّ الاستقرار على اختيار مؤسّسة حاسوبيّة متميّزة في إنشاء المنصّات الرقميّة، ولدينا خطّة لتسهيل أعمال اللجنة الخماسيّة المنبثقة عن المجلس العلميّ لمشروع المعجم التّاريخيّ.

وأتوقّع بتوفّيق الله تعالى، أنّنا لا نصل إلى منتصف العامّ 2018م إلّا والمدوَّنة اللغويّة الحاسوبيّة للمعجم التّاريخيّ منجزة وجاهزة للبحث، وسوف ننتقل بعدها إلى توزيع الأعمال اللغويّة على الباحثين اللغويّين في شتّى المجامع، وسيرى مشروع المعجم التّاريخيّ العملاق النّور ولو بعد حين، وإذا صحَّ العزم وَضُحَ السّبيل.[15]

وفعلا وبعد اجتماعات كثيرة لأعضاء اتّحاد المجامع العربيّة وأعضاء المجلسين العلمي والتّنفيذي للمعجم التّاريخيّ وتحديدا في سنة 2019انطلقت مجموعة كبيرة من الباحثين العرب من مختلف الأقطار العربيّة بالتّحرير المعجميّ والعمل على منصّة المعجم المجهّزة بمدوّنة حاسوبيّة تدرّب عليها هؤلاء الجهابذة في عشرة مجامع لغويّة على يدي مهندس خبير هو:(المهندس باسل الحايك) حفظه الله.

وفي مطلع شهر أوت 2020م شرع المجمع العربيّ بالشّارقة بطباعة الأجزاء الثّمانية الأولى التّجريبيّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة تحت إشراف الدّكتور صافي المستغانمي الذي رافق هذه النّسخ في معرض الشّارقة الدّولي للكتاب سنة 2020م أين تمّ عرضه للمرّة الأولى على الجمهور العربيّ المنتظر بشغف لهذا الحدث الجليل

منذ سنوات عديدة. وواصل فريق المحرّرين العمل على الأجزاء المتبقيّة من المعجم في انتظار الانتهاء منه بعد سنوات بحول الله .وفي هذا الصّدد قال الدّكتور صافي: ما نقوم به الآن في مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، برعاية صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي، عضو المجلس الأعلى، حاكم الشّارقة، وبتعاون مع المجامع العربيّة، من إنتاج المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، هو مشروع جبّار، وقد استطعنا تذليل الكثير من الصّعوبات وتجاوز العوائق، وأبشرّكم، بعد أن قمنا بعرض الأجزاء الثّمانيّة منه في معرض الكتاب السّابق، بأنّنا الآن بصدد تحرير الحروف الأولى، وسوف تتوالى مجلّدات وأسفار تليق بهذا المعجم المنتظر، ونؤكّد أنّنا اجتهدنا ونستمرّ في الاجتهاد لتضمينه أصحّ الموادّ المعجميّة، والتّأريخ لاستعمالها من اللغة الحيّة، وفي الوقت نفسه لا ندّعي لأنفسنا الكمال، ولسنا بمعزل عن الخطأ والذي لا يخطئ هو الذي لا يتحرّك، ونحن نتحرّك ونستقبل من جميع الجهات المقترحات والملحوظات التي توجّه العمل وتُسدّده، كما أوجّه المشتغلين بالصّناعة المعجميّة إلى ضرورة التّبسيط والإيضاح في صوغ التّعاريف، ومعالجة المداخل وترتيبها، وحسن اختيار المواد والأمثلة.[16]

3-4 حوسبة المعاجم العربيّة: أكّد الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي على ضرورة حوسبة المعاجم، واعتماد التّبسيط والوضوح في التّعريب واختيار الأمثلة المعبّرة والبسيطة، خصوصاً المعاجم الموضوعيّة، داعياً مجامع اللغة العربيّة والمراكز اللّغويّة الكبرى الحديثة المعنيّة بالصّناعة المعجميّة إلى ضرورة تضمين المعاجم مفردات

الحضارة، وإدخال التّعابير التي تجود بها اللغة العصـــريّة وهـذا خـلال مشـاركته في مؤتمرٍ «اللغة العربيّة أمانة قوميّة وضرورة عالميّة» فقـال : العـرب هـم السّـبّاقون إلى علم المعاجم، وإنشاء المعاجم العامّة، لكن العرب المعاصرين بحاجـة إلى أن يقومـوا بتجديد المعاجم، وإتقان الصّناعة المعجميّة المعاصرة... دعوتي من خلال هذا المـؤتمر المهمّ أنْ تُعنى المجـامع والمراكـز الكـبرى والأكاديميّـات بعلـم الصّـناعة المعجميّـة الحديثة، فبعض المعـاجم القديمـة لا يوجـد بهـا ترتيـب للأفعـال، ولا للمشـتقّات والمصادر، والأسماء وغيرها، لهذا نحن في عصرنا الحديث بحاجة إلى أن نخدم اللغة العربيّة بما يتوافق مع روح العصر، وأن نجـدّد في عرضـها، والمـأمول مـن المجـامع اللغويّة أن تعنى بعصرنة المعاجم، وإخضاعها للمنهجيّة الحديثة، وهذا ليس تنصّـلاً من تراثنا، بل هو نهل من معينه الزّاهي، وإضـافة إلى مـا جـادت بـه قـرائح الأدبـاء واللغويّين والفلاسـفة المعـاصرين. وأكمـل المسـتغانمي: «نحـن اليـوم بحاجـة إلى تحديث المعاجم اللغويّة المعاصرة لتلبّـي حاجـة القـارئ والمبـدع المعـاصر، وتسـهّل التّواصل مع الآخر، وأن نُدخِل لها مفردات، وألفاظ الحضارة والتّعابير التي جادت بها قرائح العلماء المعاصرين، كما يجب الاهتمام بحوسـبة المعـاجم، وتبسـيط الكتـب التي صنّفت في المعاجم الموضوعيّة، وإعادة فهرستها وتقديمها بأمثلـة شـائقة رائقـة للجمهور العربيّ، الذي ينتظر الكثـير مـن مثقّفيـه وعلمائـه في ميـدان إظهـار أسرار العربيّة وإضافة ما نستسيغه ونصطفيه لأبنائنا من ألفاظ الحضارة، كما نحـن بحاجـة

إلى حسن عرض هذه الموادّ المعجميّة عرضاً جميلاً بهيّاً يجذب أبناء العصر الرّقميّ ويخاطبهم من خلال اهتماماتهم». [17].

4- **جهوده من خلال أعماله ومؤلّفاته:** مؤلّفات الأستاذ صافي كثيرة ومتنوّعة منها العديد من المقالات المنشورة في المجلّات والجرائد، وكما له العديد من الحصص التّلفزيونيّة التي تتسابق الفضائيّات والقنوات على اليوتيوب لعرضها ولعلّ أشهرها في رحاب سورة، سلسلة البيان القرآني.

ومن الكتب المطبوعة نذكر:

1- مفاتيح النّجاح وسُنن السّعادة.

2- جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور.

3- تصريف القول في القصص القرآني.

4- الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع.

5- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم.

وجهود أمحمّد صافي المستغانمي لا تنحصر في الأعمال التي يقوم بها ضمن عمله بمجمع اللغة العربيّة، و إنّما يتعدّاه إلى التّعريف بأعلام اللغة العربيّة والتّشجيع على الاطلاع على الحضارة العربيّة، يقول: وبعد تفكير وتدبير وإعمال للذّهن الكليل ساقني موضوع بعض أعلام العربيّة الفطاحل الذين كتبوا أسماءهم بحروف ذهبيّة في جبهة التّاريخ، وسطرت أناملهم الزّكيّة صفحات مشرقة في الفنّون اللغويّة

والأدبيّة المتنوّعة، لعلّ بعض عبارات هذا المقال تفتح عقولا وتُحرِّك أنفسا، وتهزّ ضمائر في بناتنا وأبنائنا الذين استهوتهم الحضارة الغربيّة المعاصرة ببريقها"[18].

فإتّقان العربيّة وممارستها ممارسة صحيحة سليمة لا يكون فقط بإتقان قواعدها وإنّما أيضا بالاطلاع على تاريخها وعلى عطاءات علمائها قديما وحديثا، والانصراف عن هذا الأمر جعل مستوى أبنائنا في اللغة العربيّة يتدنّى فهل عقِمت أرحام الأمّهات اليوم أن تنجب بنات وبنين يحسنون العربيّة ويرفعون راياتها خفّاقة في دنيا اللّغات والآداب؟ يقول أمحمّد صافي المستغانمي[19].

وقد حاول الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي من خلال مؤلّفاته الكثيرة العمل على تقديم مجموعة من التّقويمات في حسن استعمال اللغة العربيّة ولعلّ المطلع على هذه الدّرر يكتشف أنّ أستاذنا يسعى دوما لتقديم حلول لإصلاح اللّسان العربي إذ حاول معالجة القصور الحالي في فصاحة المتكلّمين بها.

خاتمة: وختاما نقول بأنّ ما تقدّم ذكره لم يستوف كل الجهود والأعمال التي قام بها الحاج أمحمّد صافي المستغانمي في سبيل النّهوض باللغة العربيّة وتعميم استعمالها في كافّة المجالات، وإنّما كان مجرّد إشارة، الهدف منها تقدير جهوده ومساعيه وكذا تحفيز النّاشئة على السّير في هذا الدّرب. فاللغة العربيّة لها أبناء بارّون بها، عكست أعمالهم وجهودهم وكتاباتهم جمالها وقوّتها ومرونتها والحاج صافي المستغانمي خير مثال على هذا فدُمتَ سيدي الكريم؛ نبراسا منيرا درب اللغة العربيّة.

الهوامش والإحالات:

[1]- البروفيسور أمحمّد صافي المستغانمي الجزائريّ يحمل دكتوراه في اللغة العربيّة تخصّص بلاغة عربيّة، تقلّد عدّة وظائف في ميدان التّربيّة والتّعليم في الجزائر، وفي دولة الإمارات المتّحدة، يشغل حاليا منصب الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، عضو اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة العربيّة، المدير التّنفيذيّ للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة. له العديد من المؤلّفات والحصص التّلفزيونيّة التي تعنى باللغة العربيّة وقضاياها وبإعجاز القرآن الكريم.

[2]- ينظر: نبذة حول مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة منشور بموقع مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة: https://www.alashj.ae اطلع عليه يوم 15 أوت 2021م، على السّاعة 22.00.

[3]- كلمة الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة منشور بموقع مجمع: https://www.alashj.ae اطلع عليه يوم 15 أوت 2021م، على السّاعة 22.30.

[4]- ينظر: مجمع اللغة العربيّة، العربيّة لساني، مجلّة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة السّنة الثّانيّة العدد5، مارس 2021م، ص: 14.

[5]- ينظر: نفسه الصّفحة :15.

[6]- ينظر: مقال حول مركز اللّسان العربي منشور بموقع مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة: https://www.alashj.ae اطلع عليه يوم 16 أوت 2021م، على السّاعة 16.00.

[7]-الموادّ والمداخل في المعجم التّاريخيّ، مصطفى يوسف عبد الحبي، عالم الكتب، القاهرة، ط1 2014م، ص 35.

[8]-علم المصطلح أسّسه النّظريّة وتطبيقاته العمليّة، ص 705.

[9]- مقدّمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد، عبد الله العلايلي، دار الحديد، بيروت لبنان، ط2 1997، ص 174.

[10]-المعجم اللغويّ التّاريخي، فيشر، مجمع اللغة العربيّة، القاهرة، ط1، 1967م، ص 07.

[11]-الموادّ والمداخل في المعجم التّاريخي، ص 45.

[12]- نفسه، ص 45.

[13]- المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، وثائق ونماذج، محمّد حسن عبد العزيز، دار السّلام، القـاهرة، ط1 2008م، ص 42.

[14]- ينظر: موقع مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة:

[15]- كلمة الدّكتور أمحمّد الصّافي المستغانمي الأمين العـامّ لمجمـع اللغـة العربيّـة بالشّـارقة منشـور بموقع مجمع: https://www.alashj.ae اطلع عليه يوم 15 أوت 2021م، على السّاعة 22.30.

[16]- مقال: حاكم الشّارقة يطلق الأجزاء الثّمانيّة الأولى من المعجم التّاريخي للّغة العربيّة يؤرّخ لــ17 قرناً مقال منشور يوم الجمعة 6 نوفمبر 2020م، اطلع عليه في 20أوت 2021م، عـلى موقـع جريـدة الشّرق الأوسط. https://aawsat.com/

[17]- مقال: أمحمّد المستغانمي: علينا الاهتمام بحوسبة المعاجم نشـر يوم 23 مارس 2021م، منشـور بموقع https://www.alkhaleej.ae/

[18]- أمحمّد صافي المستغانمي: محمّد إسعاف النّشاشبي، مجلّة العربيّة لساني، عدد 5: ص: 8.

[19]- ينظر نفسه الصّفحة نفسها.

القول الرّاجح في صناعة الخطيب النّاجح

رؤية تأصيليّة لجهود أمحمّد صافي المستغانمي
في صناعة الخطيب والخطبة من خلال ثنائيّة الارتداد والامتداد

د.مولاي علي سليماني
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
ج. السّلطان مولايّ سليمان بني ملال، المغرب

مقدمة: للباحث الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي جهود مشكورة في الدّراسات القرآنيّة مشفوعة برؤى تأصيليّة غايّة في الدّقة والعمق يشهد برسوخها أهل الاختصاص، وليس الأمر بدعا من القول على رجل تشرّب لغة القرآن الكريم، واستظلّ بظلالها الوارفة، وعشق الأدب، وتذوّق رضاب لغة العرب، أن يتحف أهل التّخصّص بأسفار تفنّى في صناعة أمثالها الأعمار.

والمتأمّل في إصدارات الباحث يدرك بيسر ميله الجارف إلى القرآن الكريم حيث تشهد له مؤلّفاته بذلك، أذكر منها على سبيل التّمثيل، كتاب (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور: رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة) وكتاب (تصريف القول في القصص القرآني: دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام).

وإلى جانب هذا الشّغف بالدّراسات القرآنيّة التي بلغ بها الأرب، لما حوتّه من علوم الوحيّ وعلوم الأدب، نجد له اهتمامات بحثيّة أخرى يعود نفعها على

الإنسان لبحثها في أسرار سعادته ونجاحه، كما يظهر ذلـك جليّـا في كتابـه (مفـاتيح النّجاح وسنن السّعادة: رؤيّة تأصيلية) وكتابه (الخطيب النّاجح بين عوامل الإقنـاع ووسائل الإمتاع).

ولقد أثار اهتمامنا الكتاب الأخير، لمركزيّة الخطيب فيه، ولخطر مهمتـه في ثقافتنـا العربيّة الإسلاميّة، فضلا عن رغبتنا الأكيدة في التّأصيل لهـذا العمـل الجـاد، لـذلك اقترحنا لهذا البحث العنوان التّالي: (**القول الرّاجح في صناعة الخطيب النّـاجح رؤيّـة تأصيليّة لجهود أمحمّد صـافي المسـتغانمي في صـناعة الخطيـب مـن خـلال الارتـداد والامتداد**).

فكرة البحث وتصميمه: تقوم فكرة البحث على بيان جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في صناعة الخطيب، وبيان مواصفاته ومقوّماته؛ لأنّ صناعته ليست بـالأمر السّهل لجمعها بين عدّة صنائع، تتعاضد فيهـا مصـادر ثقافـة الخطيـب وهـي صـناعة ترتبط ببناء معارفه وفق ما تقتضيه تعـاليم ديننـا وضـوابط لغتنـا ومقصـديّة الخطيـب نفسه، ومنها ما يرتبط بصناعة الذّات وتنسيق المظهر لبلوغ النّجاح.

فضلا عن مقدّمة أشرنا فيها اختصارا إلى رسوخ الباحث وأصالة أبحاثه، وخاتمة أجملنا فيها عصـارة بحـث رتّبنـاه في محـورين: الأوّل ناقشـنا مـن خلالـه مقوّمـات الخطيب النّاجح، بعدما جمعنا عناصرها من كتـاب الـدّكتور المسـتغانمي (**الخطيـب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع**) وقد توقّفنا عند أكثرها أهميّة لبلوغ هـذه

الصّناعة، مثل: حسن الإعداد، والتّهيؤ النّفسي، وطول التّفكر في موضوع الخطبة وحسن الإلقاء، وقوّة الملاحظة...

أمّا المحور الثّاني، فلا ينفكّ عن الأوّل، بينا من خلاله بعض مقوّمات صناعة الخطبة، وألمحنا إلى أهميّة الإقناع والاستمالة فيها، وكذا شرطا الصّدق والواقعيّة والقرب من حياة النّاس ومشاغلهم الدّينية والدّنيويّة، ثمّ انتقلنا إلى رصد بعض خصائص الأسلوب الخطابيّ انطلاقا ممّا ذكره الكاتب.

والأهمّ في تقديرنا، ونحن نناقش المحورين معا، تركيزنا على تأصيل جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي من خلال ثنائيّة الامتداد الواعيّ والمنضبط والارتداد النّاجع المرتبط بالمدوّنة التّراثيّة والبلاغيّة العربيّة، فعن تلك الثّنائية السّؤال ومدار الاشتغال.

1. في مقوّمات الخطيب والخطبة:

1.2 مقوّمات الخطيب النّاجح.

1.1.2 حسن الإعداد والتّهيؤ النّفسيّ: لقد خصّ الباحث المبحث الخامس من كتابه لبيان مواصفات الخطيب النّاجح، وقد استمدّ أغلب هذه المواصفات من تراثنا البلاغيّ وخاصّة من الجاحظ والعسكريّ، لذلك سعيا منا إلى تأصيل جهود الدّكتور المستغانمي وبيان ارتداده النّافع للمدوّنة البلاغيّة العربيّة سنجتهد في انتقاء أهمّ النّصوص الجامعة لما ذكره الباحث في كتابه.

فضلا عما يجب في الخطيب من صلاح، وحسن خلق، وتقرّب إلى الله سبحانه وفراسة، وسداد رأيّ، ونفاذ بصيرة[1]، فقد نص الباحث على مواصفات تخصّ صناعة الخطيب، نذكر منها: الاستعداد النّفسي، والتّهيؤ القبليّ، وطلاقة اللسان ورباطة الجأش، والجرأة، والثّقة بالنّفس، ونبّه إلى سبل مجانبّة الإرتاج مستدلّا ببعض من أرتج عليهم فوق المنابر، ومنبها إلى أهميّة القدرة على مراعاة مقتضى الحال[2].

لو رجعنا إلى الجاحظ لوجدناه يجعل المتكلّم الافتراضيّ هو الخطيب باعتبار الخطابة مناط البلاغة، لذلك – وكما أشرنا سلفا– فقد ركّز الجاحظ على أن يكون الخطيب رابط الجأش (**ساكن النّفس جدا؛ لأن الحيرة والدّهش يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والإجبال**)[3]فرباطة الجأش أو بتعبيرنا الثّقة في النّفس تجعل المتكلّم بمنأى عن استغلاق الكلام وصعوبة القول؛ لأنّ من شأن الاهتزاز النّفسيّ أن يحصر اللسان ويحبسه، ويولد الوعيّ في النّطق، (**ومن علامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهله في منطقه**).ّ[4].

وممّا حكاه العسكري في هذا الباب (**ما أصاب عثمان بن عفان ﵁ عنه أوّل ما صعد المنبر فأرتج عليه، فقال: إنّ اللذين كانا قبلي كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها، ثمّ نزل**)[5].

ومن أدلة وجوب الاستعداد النّفسيّ لنجاح التّواصل ما أورده الجاحظ حكاية عن عبيد الله بن زياد، قوله– وكان خطيبا– على لكنة فيه: (**نعم الشّيء الإمارة، لولا**

قعقعة البرد، والتّشرن للخطب)[6]؛ فإذا لم يتشرن (يستعد ويتهيأ) الخطيب، فلا شكّ اعترته هزّة وارتجاف، وربما تصبب عرقه، واحمرت وجنتاه حرجا، فاستغلق عنه الكلام، فقد (**تكلّم صعصعة عند معاويّة فعرق، فقال معاوية بهرك القول**)[7]، وفي هذا شاهد على عدم استعداد صعصعة قبل التّكلّم بين يدي معاوية.

ولنا كذلك في قصّة موسى بن عمران عليه السلام مع فرعون دليل آخر على رغبة المتكلّم في زوال عقد لسانه، ليتواصل مع مخاطبه، بل ليحمله على الإقناع بفحوى رسالته فقد سأل الله عز وجل موسى عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحبسة التي كانت في بيانه (واحلل عقدة من لساني)؛ فلا تواصل إلاّ بتمام آلة البيان[8].

والمستفاد من هذه الشّواهد السّالفة، أن أبا بكر وعمر كانا لا يخطبان في النّاس إلاّ وقد أعدا للخطبة عدّتها سواء على المستوى النّفسيّ ـ أم على مستوى إعداد موضوعها. فقد خطب داود بن علي فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وصلى على النّبي ﷺ فلما قال: (أمّا بعد) امتنع عليه الكلام، ثمّ قال: (**أما بعد فقد يجد المعسر ويعسر الموسر، ويفل الحديد، ويقطع الكليل، وإنّما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الظّلام، وقد يعزب البيان، ويعتقم الصّواب... ألاّ وإنا لا ننطق بطرا ولا نسكت حصرا، بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعد أمراء القول فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدلت ثمرته، فنتخير منه ما احلولى**

وعذب، ونطرح منه ما املولح وخبث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام يعرف فيها فضل البيان وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان. ثمّ نزل)[9].

إنّ هذا الشّاهد يكشف أمورا أساسيّة في التواصل بين الخطيب وجمهوره تتجلى فيما يلي:

- إذا لم يكن المتكلّم (الخطيب) قد تهيأ نفسيا واستعد بما يكفي قبل الإرسال فلا نستبعد أن يحتبس عليه الكلام ويتعسّر، وهذا الأمر ليس يخصّ المعسّر فحسب بل الموسّر أيضا عرضة لهذه الآفة، فإذا انحبس لسانه أرتج وأجبل وغاب بيانه واعتقم صوابه؛
- إنّ سكوت الخطيب في أثناء الخطبة ليس عيبا تواصليّا، بل إنّه الأساس الذي عليه ينبني البيان، فالسّكوت ليس عن جهل ولكنه صمت اعتبار وتفكّر، ليعقبه نطق بالرّشد والتّبصر، ثمّ إنّ ذلك الصّمت فترة لانتقاء حلو الألفاظ واطراح خبيثها، لتستوي الخطبة على سوقها، وتكّتمل العمليّة التّواصلية في بنائها[10] لأنّ؛ **(البيان يحتاج إلى تمييّز وسياسة، وإلى ترتّيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصّنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة النّطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذاك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق)**[11]. فإذا بلغ المتكلّم بأن تثنى أعناق الرّجال واستمال قلوبهم فتلك قمّة التّواصل وسنامه؛

- مواتاة المتكلّم بين اللفظ والمعنى: بمعنى أن يلبس المتكلّم معانيه ألفاظا بقدر المعاني، فليست تقصر عنها ولا تفضل، وإذا ما نطق المتكلّم انطلق اللفظ بمعيّة المعنى من غير أن يسابق أحدهما الآخر فلا (يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك)[12]؛

ومن ذلك أيضا أن يجعل المتكلّم الألفاظ بإزاء المعاني، فيجعل اللفظ الشّريف للمعنى الشّريف والعكس بالعكس صحيح.

2.1.2 **طول التّفكّر في موضوع الخطبة:** من عوامل نجاح الخطيب في مهمّته أن يديم التّفكّر في الفكّرة التي يود إيصالها لجمهوره، لأنّ (**التّفكير المسّتمر في موضوع الخطبة سوف يساعد الخطيب على توليد الكثير من الأفكار والمعانيّ التي تخدم موضوعه؛ لذا ينصح جهابذة الفنّ الخطابيّ أن يعيش الخطيب خطبته، ويتأثّر بها ويؤّمن بأفكارها، فإنّه سوف يجد سهولة أثناء إلقائها، ويشعر بقوّة لا نظير لها خلال تقديمها**) [13] ورأي المستغانمي هذا، قريب ممّا ذهب إليه كريك/ Gregg حين قال: (**هناك ثلاثة أشياء ينبغي تحقيقها في التّواصل الجماهيريّ: أوّلا أن تفكّر من داخل موضوعك، ثمّ أن تجعل موضوعك بداخلك وفي الأخير أن تجعل موضوعك في قلب مستمعيك**). [14]

لن يكون الخطيب ناجحا ولا بليغا إن هو لم يؤّمن أوّلا بما يخطب به في النّاس فأصل النّجاح كامن في إيمانه بموضوع خطبته، فإن كان ممتثلا ومقتنعا ومؤّمنا

برسـالته وبجزيئاتهـا، حملـه ذلـك لأن يسـتخدم كـلّ مهاراتـه الخطابيّـة واللغويّـة والجسديّة لإيصالها للنّاس، في أصدق عبارة، وألطف إشارة، فيريح ويسـتريح، وإن كان غير ذلك تكلّف وتمحل، فتَعِب وأَتْعَب.

3.1.2 **حسن الإلقاء:** وأمّا حسـن الإلقـاء فقـد ذكـر الباحـث بعـض أسراره[15] واعتبره شرطا أساسا في نجاح الخطيب، وكـون الخطبـة قـرين المشـافهة دليـل عـلى خطرها، لما يكون في المشافهة من رفع الصّوت وخفضه، وذلك مفتـاح عظـيم لشـدّ انتباه السّامعين، كما هو مقرّر في التّواصل الشّفهي، (النّبرة هي المفتاح)،[16] ولا غرابـة في الأمر، فالخطيب النّبيه يلفت الانتباه برفع الصّوت تـارة لمـا هـو أهـمّ، وبخفضـه أخرى حتى يشدّ الأسماع لما سيذكر بعد، أو ربما أعاد المذكور بنبرة مخالفـة لسـابقتها. إنّ الصّوت بمثابة الوتر الذي يغـير بـه الـنّغم تبعـا للمقامـات الموسـيقيّة، ومعـادل المقامات في الخطبة أفكارها وعناصر موضوعها، فقد كان (**العرب يمدحون الجهـير الصّوت، ويذمون الضّئيل الصّـوت، ولـذلك تشـادقوا في الكـلام، ومـدحوا سـعة الفم**)[17]، لذلك كان التّحكم في الصّوت وحسن توظيفه وسـيلة ناجعـة لشـدّ انتبـاه السّامعين، وهذا ما تؤكده واحدة من أعلام التّواصل الجماهيريّ من خلالهـا قولهـا: (**حافظ على اهتمام الجمهور من خلال توظيف صوتك**).[18]

ولا بدّ في حسن الإلقاء من جودة المنطق، وإخراج الحروف من مخارجها من غير تقعير، فعن عمر رحمه الله أنّه قال: (**أحبكم إلينا أحسـنكم وجهـا حتـى نسـتنطقكم**

فإذا استنطقناكم كان أحبكم إلينا أحسنكم منطقا حتى نختبركم، فإذا اختبرناكم كان أحبكم إلينا أحسنكم مخبرا).[19]

ومن حسن الإلقاء أيضا التّمهل في الإلقاء، ومجانبة اللّحن الذي يذهب ببهاء الإلقاء ويشينه، ولله در العوتبي الصّحاري لما أورده في إبانته من فداحة اللّحن حين قال: (**كان سابق الأعمى يقرأ (الخالقُ البارئُ المصوِّر) بفتح الواو، وكان ابن جابان يقول له إذا لقيه: ما فعل الحرف الذي تكفر بالله فيه؟).**[20]

وسوء الإلقاء، كما نبّه عليه الدّكتور المستغانمي، معوّق كبير يحول دون تحقيق التّواصل مع السّامعين والتّأثير فيهم، وما أكثر ما نراه في زماننا (**فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته، ونفهم عن السّنور كثيرا من إرادته، وكذلك الكلب والحمار والصّبي والرّضيع)**[21] فكيف لا نفهم عن خطيب ناطق عاقل؟

ومن حسن الإلقاء استعانة المنطق بحسن الإشارة؛ وقد تعرض الجاحظ لهذا الأمر بالتّفصيل والبيان. فأمّا افتقار الخطيب للإبانة بالإشارة فقد استدل عليه بقوله: (**كان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديّه ولا منكبيّه، ولم يقلب عينيّه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنّما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، والعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول ليس من حقّ المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلّمه إبراهيم بن سيار النّظام عند أيوب بن جعفر فاضطرّه بالحجّة وبالزّيادة في المسألة حتى حرّك يديه، وحلّ حبوته)**[22]

فقد جعل الجاحظ الإشارة ثاني أنواع البيان، وهي كلّ ما يقوم به الإنسان من حركات باليد أو الرّأس أو الحاجب أو بالعين للتّعبير عن مكنونات نفسه وهذا النّوع من الدّلالات على المعاني يندرج ضمن التّواصل غير اللفظيّ أو التّواصل الصّامت، فالإشارة قد جعلها الجاحظ بعد اللفظ لأنّها متمّمة له ومكملة للبيان به وقد تستغني عنه كما جاز استغناء اللفظ عنها[23]، يقول الجاحظ: "**والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخطّ**"[24]، ليس هذا فحسب بل إنّه جعل حسن الإشارة من تمام حسن البيان (**وحسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدّل والشّكل**)[25]، ولأنّ جودة المنطق لا تغني عن الإشارة، فقد (**كان جعفر بن يحيى أنطق النّاس، قد جمع الهدوء والتّمهل، والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة**).[26]

وليست صناعة الخطيب متوقّفة فقط عما ذكرنا سلفا، بل إنّ لمظهره الخارجيّ تأثيرا كبيرا في نجاحه، وقد نبّه الباحث الدّكتور المستغانمي[27] إلى ما لوقار الخطيب وجمال مظهره، واعتدال وقفته، وحسن إشارته، واتزان حركاته، من أثر فعال في نجاح خطبته، فقد يفهم الخطيب النّاس بإشارة يده أو بتقطيم حاجبيه أو بنظرة عينيه من غير أن ينبس ببنت شفة، وعلى المستمع أن يركز على الإشارات تركيزه على العبارات، فيحسن فهم الإشارات مثل فهمه للعبارات، كما تقول الكاتبة الأمريكيّة

ميلودي تمبلتـون/ MelodyTempleton : **(عنـد الاسـتماع، تأكّـد مـن الانتبـاه إلى الإشارات غير اللفظية مثل انتباهك للكلمات)**.[28]

لقد جرت العادة أن يخطب الخطيب واقفا، منتصـبا لا مـائلا، ولا متكئـا عـلى جنب، وقد علّل الدّكتور المستغانمي ذلك قـائلا: **(ووقفـة الخطيـب المعتدلـة المتزنـة تضفي عليه مهابة وجلالا، وتعطيه ارتياحا نفسيا، يتمكن من خلاله أن يلقي خطبتـه على أحسن وجه وأكمل حال)**[29] والوقوف أصـل في الخطابـة، وقـد يعـدل عنـه إلى القعود لماما **(إذ لم تكن الخطباء تخطب قعودا إلاّ في خطبة النّكاح)**،[30] أمّـا مـا سـواها فالأصل في مخاطبة الجموع الاستواء قياما، مع الحفاظ على حركة اليدين طليقة، لأنّ تحريكها رفعا أو وضعا، أو يمينا أو شمالا لا شكّ يسهم في الإفهام، لـذلك حـذرت ميلودي تمبلتون من إدخالها في الجيوب قائلة: **(لا تضع أبدًا يديك في جيوب لباسـك عند الوقوف أمام الجمهور)**،[31] لما في ذلك من وأد لطرف صالح في الإبانـة والإفهـام وحسن التّواصل.

ومن مقوّمات صناعة الخطيب الاهتمام بهيئته، يقول المستغانمي شـارحا حـدود الاهتمام بالهيئة: **(وغايّة ما نعنيه أن يهتم الخطيب بمظهره وتناسق لباسه، فـلا يخـالف مألوف النّاس ليستثير عجبهم، ولا يرتدي من الثّيـاب مـا يـزري بـه)**،[32] وعليـه أن يتجمّل قبل الوقوف أمام مخاطبيه، وتلك سنة رسولنا الكـريم ﷺ، **(وقـد حكـى لنـا التّاريخ أنّ الإمـام مالـك بـن أنـس كـان إذا أراد أن يحـدث النّـاس دخـل مغتسـله**

فاغتسل، ثمّ تطيّب، ولبس لباسا جديدة، ووضع رداءه فوق رأسه. ولما سئل عن ذلك قال: إني أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ). [33]

والمهمّ في ما ذكره الكاتب، هو اهتمام الخطيب بجمال منظره، من غير مخالفة للذّائقة الجمعية التي يتعارف النّاس عليها، خصوصا في مثل هذه المقامات، سواء في ما نسميه خطبة في ثقافتنا العربيّة الإسلاميّة، أو ما يسمى تواصلا جماهيريا في ثقافة الآخر... فقد تكون العباءة أو الجلباب هو الأليق بالنّسبة لهيئة الخطيب في ثقافتنا في المغرب مثلا، وقد تكون غير ذلك في المشرق، وإذا سلمنا بالاختلاف في تحديد هيئة الخطيب والإجماع عليها في ثقافتنا الإسلاميّة، فطبيعي جدا أن نختلف مع الغرب في تحديد الهيئة الأليق للخطيب عندما يتحدث لجمهوره، ولكن على ما بيننا من الاختلاف في تحديد هيئة الخطيب، تبقى الوسطية علامة بارزة في تحديد تلك الهيئة إذ ليس يشترط فيها أن تحمل علامة تجاريّة مخصوصة، ولا أن تنزل إلى درك الأطمار والأثواب الباليّة، بل يكفي في ثقافتنا، أن تكون ناصعة البياض، لما للبياض من رمزيّة سميائيّة أقل ما يقال فيها إنّها تعادل النّقاء والصّفاء والوقار، حتى يطابق المظهر المخبر، وإلى مثل هذه التّوجيهات تشير Melody Templeton، حيث تأمر الخطيب قائلة: (**ارتدِ ملابس تناسب الموقف. إذا كنت رسميًا جدًا، فقد يُنظر إليك على أنك مخيف. أما إذا كنت ترتدي ملابس غير رسميّة، فقد تفقد مصداقيّتك".** [34]

3.1.2 **قوّة الملاحظة:** وممّا يدخل في صناعة الخطيب أيضا، امتلاكه قوّة الملاحظة، فلا يغفل عن النّظر إلى جمهوره، مقبلا عليهم بوجهه إقبال السّامعين

عليه، فقوّة ملاحظته تجعله على السّكة الصّحيحة في التّواصل، فيدرك مدى ارتباطهم به أو انصراف اهتمامهم عنه من خلال حركاتهم، وتقاسيم وجوههم وطريقة جلستهم؛ ولله در الجاحظ حين قال: (**حدث النّاس ما حدجوك بأبصارهم، فإنّ رأيت منهم فترة فأمسك**)؛[35] إذ ليس من اللياقة أن تتحدث إلى إنسان وقد أدبر عنك، فولاك قفاه عوضا عن وجهه، وذلك ما يولد النّفور ويقيم حاجزا نفسيّا بين المتواصلين، وإلى هذا المعنى أشار مطرف بن عبد الله بقوله: (**لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليه بوجهه**).[36]

3.2 مقوّمات صناعة الخطبة:

3.2.1 الإقناع والاستمالة: إنّ أهمّ ما تقوم عليه هذه الصّناعة هو الإقناع، بما هو إنفاع للسّامعين، والاستمالة، بما هي إمتاع وتسليّة للنّفوس، وتطرية لها بجمال اللغة وجلالها، فبالإقناع فاقت الخطبة الرّسالة وغيرها من أنواع النّثر الفنيّ، كما يقرّر ذلك الباحث في قوله: (**وجملة القول إنّ الخطابة نوع من النّثر يختلف بخصائصه ومميّزاته عن الأنواع الأدبيّة الأخرى، ولا يمكن اعتبار الخطابة نثرا فنيّا أدبيّا وإن كانت تحتوي على الكثير من خصائصه البيانيّة... لأنّ النّثر الفنيّ يقوم على إظهار المقدرة البيانيّة في الحديث عن موضوع ما... بينما الخطبة وإن تضمّنت الكثير مما يشتمل عليه النّثر الفنيّ الأدبيّ إلاّ أنّها ترتكز على ركنيّ الإقناع والاستمالة**).[37]

وقد ارتد الدّكتور المستغانمي إلى المدوّنة البلاغيّة العربيّة ارتدادا ناجعا فعالا فاستدعى آراء المتقدمين في بيان الفروق بين الخطبة وغيرها من أنواع النّثر الفنيّ

الذي يحتفي أكثر ببلاغة الإنشاء، بيانا وبديعا وتركيبا، فجعل الخطبة هي الأقدر على الاستمالة والإخضاع، كما يبدو ذلك جليا في قوله: **وتقوم على عنصريّ الإقناع والاستمالة للتّأثير في السّامعين وإخراجهم من آرائهم ووجهات نظرهم إلى التّصديق برؤيّة الخطيب الذي أمامهم، والاقتناع بها والتّحول من مواقفهم بما جاء في كلامه ونصائحه)**،[38] وقد اعتبرت ما ذكره الباحث في خصوصيّة الخطبة يتجاوز الاستمالة إلى **الإخضاع**، وذلك وجه من وجوه خطر الخطبة؛ لأنّها تحمل السّامع على الانسلاخ من قناعاته، والتّلبس بقناعات الخطيب ووجهة نظره، فهي والحالة هذه نِعمة إذا كان الخطيب على بصيرة من دينه، وواقعه، ولغته. ونقمة إذا كان متسطحا في فهم الدّين، متعاليا عن واقعه، جاهلا بلغته، غير قادر على التّوفيق بين فقه الدّين وفقه الواقع، وفقه التّنزيل.

وقد سبق أبو هلال العسكريّ إلى مقارنة الخطبة بالرّسالة حين قال:(**واعلم أنّ الرّسائل والخطب متشاكلتان في أنّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيّة، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السّهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرّسائل، ولا فرق بينهما إلاّ أنّ الخطبة يشافه بها، والرّسالة يكتب بها)**[39].

لقد ركّز العسكري مقارنته على بيان أوجه المشاكلة والمشابهة بين الرّسالة والخطبة، أي إنّه حدّد عناصر صناعة الخطبة والرّسالة على حدّ سواء، بما يجعلهما

متشابهتين إلى أبعد الحدود، إلاّ أنّ الفرق الأساس بينهما هو صلاحيّة الخطبة للمشافهة، وصلاحية الرّسالة للكتابة.

ومن تمام التّقارب في الصّناعة بين الرّسالة والخطبة من جهة، ومن تمام التّباعد بينهما والشّعر من جهة أخرى (**أنّ الرّسالة تُجعلُ خطبة، والخطبة تُجعل رسالة، في أيسر كلفة؛ ولا يتهيأ مثل ذلك في الشّعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرّسائل إلا بكلفة؛ وكذلك الرّسالة والخطبة لا يُجعلان شعرا إلاّ بمشقّة**)[40].

ولأمر ما عظم أمر الخطابة والكتابة؛ (**لأنّهما مختصتان بأمر الدّين والسّلطان وعليهما مدار الدّار، وليس للشّعر بهما اختصاص، أمّا الكتابة فعليها مدار السّلطان. والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدّين؛ لأنّ الخطبة شطر الصّلاة التي هي عماد الدّين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهّد بها الإمام رعيته، لئلا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله ﷻ من ذلك في كتابه**)[41].

لم تقتصر مقارنة الباحث بين الخطابة وغيرها من أنواع النّثر الفنيّ بل امتدت لتشمل الشّعر، يقول عنها: (**وهي تختلف عن الشّعر. فالشّعر كلام موزون مقفى يعمد فيه الشّاعر إلى استجاشة العواطف...وعموده وذروة سنامه الخيال والعاطفة. أمّا الخطبة فهي أبعد ما تكون عن الخيال، بل من أخص خصائصها الصّدق والواقعيّة، وجدية المواضيع التي تطرحها وتناقشها**)[42].

2.2.3 **الصّدق والواقعيّة:** لقد نبّه الباحث لأسباب ضعف الخطبة الدّينيّة وأرجعها إلى بعد موضوعها عن حياة النّاس في وقتنا المعاصر، فضلا عن تعدد

أغراضها، وتشتّت أفكارها، وكذا ما يعتريها من تكرار مملّ، نبّه الجاحظ على خطره لأنّ النّفوس إذا كلت ملت، فعلى المتكلّم ألّا يطيل لئلا يمل، وألاّ يقطع وبالنّفوس ظمأ إلى المزيد، فالإيجاز عين البلاغة.

إنّ رجوع الباحث لمناهل البلاغيين القدماء ليس معناه نقلا حرفيا، لما وجده في مصنّفاتهم من أمثال الجاحظ والعسكريّ، خاصّة في الجانب الشّكلي في صناعة الخطبة، بل إنّ الباحث جعل الصّدق والواقعيّة ركنا من أركانها، وهو ما يجعل لكلّ عصر خطبُه وخطباؤُه، وليس يكفي حفظ ما سطره المتقدمون من خطب، وإعادة استظهارها من جديد، بل لا بدّ أن يمتح الخطيب مادة خطبته من الواقع الذي يعيش فيه، ومن مستجداته وأحداثه، فيصوغ موضوعها صياغة صادقة بعيدة عن الخيال والكذب، لتكون الخطبة حقا ابنة شرعيّة تنسب لزمنها ولمنشئها.

3.2.3 **خصائص أسلوب الخطبة**: خصّ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي المبحث الرّابع من كتابه للأسلوب الخطابيّ، مبيّنا، بطريقة مفصلة، ضوابط صناعة الخطبة، وما عليه تقوم من وضوح في اللفظ، والعبارة، والتزام للجمل القصار وتنوّيع في الأساليب، وتخيّر للفظ وحذف لفضول الكلام، ومهارة في استعمال المترادفات، ومراعاة مقتضى الحال وحسن سوق للشّواهد، مع توشيح الكلام بالحكم والأمثال وروائع الأشعار ومراعاة التّوافق بين طبائع الألفاظ والموضوعات الخطابيّة[43].

إنّ أهمّ ما أثار انتباهنا في هذا المبحث، ما قام عليه من الارتـداد والامتـداد، فأمّـا الارتداد فظاهر لا يخفى، أشرنا إلى كثير منه سابقا، وسنشير إلى بعضه الآخـر لاحقـا من خلال رجوعنا للمدوّنة البلاغيّة العربيّة وكذلك نفعل مع بيان وجه الامتداد.

إنّ حسن الانتقاء والتّخير، ومراعاة مقتضى ـ الحـال، ظـاهر في كـلام العسـكريّ رحمه الله، حين قال: (**وأعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال، ومـا يجـب لكـلّ مقـام مـن المقال، فإن كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح لـه الخطـب... فتخطّ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعَرَض والكون والتّأليف والجوهر، فـإنّ ذلـك هجنة**)[44]، وعلى هذا وجب على الخطيب أن يحسن اختيار الألفاظ التي تيسـر الفهـم وتعين على التّمثل، وإلى هذا ذهبت الكاتبة الأمريكية ميلـودي تمبلتـون/ Melody Templeton عندما جعلت من مهام الخطيب اختيار (**الكلمات التي تساعد المسـتمع على تصوّر المشهد أو الموقف الذي يصفه. إذ معظم النّاس يفكّـر بالصّـور**)[45]. وقـد زاد العسكريّ بيانا في نصّ آخر أهميّة تخير الألفاظ، والمعرفة بالعربيّة، والمناسـبة بـين المقال والمقام، حين قال: (**إذ من تمام آلات البلاغة التّوسع في معرفة العربيّة، ووجـوه الاستعمال لهـا، والعلـم بفـاخر الألفـاظ وسـاقطها، ومتخيرهـا ورديئهـا، ومعرفـة المقامات وما يصلح في كلّ واحد منها من الكلام**)[46]، وقد سبقه إلى مثل هذا الجاحظ حين جعل القدرة على بلوغ قلوب المستمعين قائمة على حسن اختيار الألفاظ، ومن أُوتيها فقد أوتي فصل الخطاب، قال رحمه الله: (**إنّ أوتيت تقريـر حجـة الله في عقـول المكلّفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتـزيين تلـك المعـاني في قلـوب المريـدين**

بالألفاظ المستحسنة في الآذان، رغبة في سرعة استجابتهم ... كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[47]، وليس يكون تقرير الحجة في عقول المكلفين إلاّ بحسن سوق الشّواهد، وتوشيح الكلام بالأمثال والحكم، وما يكون هذا التّزيين إلاّ بالألفاظ المستحسنة في الآذان، ولا تستحسن تلك الألفاظ إلاّ بحسن اختيارها.

ومن مظاهر الامتداد أيضا في ما عرضه الدّكتور المستغانمي في المطلب الأوّل وهو يتحدّث عن خصائص الأسلوب الخطابيّ، نذكر ما يصطلح عليه ب: (the seven Cs of communication)[48]، ويمكن بيانها على النّحو التّالي:

- الوضوح/ clear؛
- الإيجاز/ concise؛
- مراعاة مقتضى الحال/ consideration؛
- صواب الخطبة وصحّة تراكيبها/ correct؛
- تمام الخطبة واكتمال أركانها/ complete؛
- أن تكون الخطبة ممّا يمسّ واقع المستمعين في الدّين والدّنيا، غير موغلة في التّجريد والبعد عن حياتهم/ concrete؛
- حسن استعمال المترادفات/ courteous.

ومن لطيف ما مثّل به الدّكتور المستغانمي في حسن استعمال المترادفات، قوله: **(ودخل المأمون ديوان الخراج، فمر بغلام جميل، على أذنه قلم، فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، النّاشئ في دولتك، وخريج**

أدبك، والمتقلّب في نعمتك، الحسن بن رجاء. بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثمّ أمر أن يرفع عن مرتبة الدّيوان، ويعطى مائة ألف درهم)[49].

ولعمري لقد جمع هذا الشّاهد مقوّمات التّواصل المذكورة أعلاه من وضوح وإيجاز ومراعاة لمقتضى الحال بأن خاطب أمير المؤّمنين بما هو أهله من الأدب، فأتمّ الجواب وأحسن تخيّر الألفاظ.

والخطيب البليغ هو الذي يحبر خطبته، ويصطفي لها ويختار، ويناسب ويرتب... وتلك علامات حسن الصّناعة، وبها تصير الخطبة فنا يعنى بالجزئيّات والتّفاصيل عنايته بالكليّات، وليس يجيده إلا خطيب ماهر حاذق. لا يخوض فيما لا يعلم، ولا يخاطب النّاس إلاّ على قدر أفهامهم، مراعيا في ذلك مقتضى الحال، ومنوّعا في أساليبه الخطابيّة، ومستدرجا، وسائقا القصص في حسن مساق، ومستميلا جمهوره ومشاركا إيّاه مشاركة وجدانيّة تمكّنه من شدهم إليه[50]، من غير إثقال بتكّرار **(فقد جعل ابن السّماك يوما يتكلّم، وجاريّة له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلاميّ؟ قالت: ما أحسنه لولا أنّك تكّثر ترداده. قال: أردّده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهمه)**[51]، لذلك كان حريا بالخطيب تجنّب التّكرار وتفادي إعادة الكلام وكثّرة ترداده لأنّ؛ **(إعادة الحديث أشدّ من نقل الصّخر)**[52].

خاتمة:

يظهر من عنوان بحثنا (**القول الرّاجح في صناعة الخطيب النّاجح**: رؤية تأصيليّة لجهود أمحمّد صافي المستغانمي في صناعة الخطيب والخطبة من خلال ثنائيّة الارتداد والامتداد) أنّنا لم نزعم الخوض في تفاصيل الكتاب كله، والوقوف عند تفاصيله وجزئياته، بتتبع فصوله ومباحثه، ولكن الذي شغل بالنا هو البحث في ثنايا الكتاب عن مقوّمات الخطيب النّاجح ومواصفاته، والتّأصيل لها من خلال جهود أساطين البلاغة والتّواصل في الثّقافتين العربيّة الإسلاميّة والغربيّة. لذلك كنا دائما محكومين في هذا البحث بالتّأصيل لجهود الدّكتور المستغانمي في صناعة الخطيب من خلال ثنائيتين: الأولى تقوم على الارتداد والرّجوع إلى البلاغة العربيّة رجوع تأصيل لخلفيّة الكاتب المعرفيّة، والثّانية تقوم على الامتداد المؤسَّس على الانفتاح على الثّقافة الغربيّة، والعودة إلى بعض أعلام التّواصل الجماهيريّ وبيان رأيّهم فيه، فعلى الرّغم من أنّ الكاتب لم يعتمد كُتّابا غربيين في صناعة كتابه، كما يظهر ذلك في قائمة مصادره ومراجعه، لغنى المدوّنة التّراثية العربيّة الإسلاميّة وإحاطتها بموضوع الخطابة، إلاّ أنّنا من خلال الرّجوع إلى بعض الأعلام الغربيّين وجدنا الكتاب قادرا لأن يكون مرجعا يعتمده المهتمون بالتّواصل الجماهيريّ للتّقاطع الكبير بين كتاب الدّكتور قيّد الدّرس، وكتابات الغربيين، في حدود ما اطلعنا عليه من كتب، مثل التّواصل الجماهيريّ الموجز/ A concise public speaking ، لصاحبه ستيفن/ Steven A، ومعجم الأفكار/ DICTIONARY OF THOUGHTS لصاحبه تريون

إدوارد/ TRYON EDWARDS، وكتـاب عُـروض التّواصـل الجماهـيريّ/ Public Presentations Speaking لصـاحبته Melody Templeton، وهـذا مـا يؤكّـد انفتـاح الكتاب على ثقافة الآخر، وصلاحيّته لأن يكون مرجعا في فـنّ الخطابـة والتّواصـل على حدّ سواء.

لم يكن القصد، إذن، من بحثنا هذا إخضاع الكتاب للمقارنة بين ثقافتين والحكم له أو عليه، بقدر ما كان هدفنا البحث في امتدادات الكتـاب وانفتـاح آفاقـه المعرفيّـة الرّحبة.

إنّ ثقافة الكاتب الإسلاميّة، كما يظهر ذلك من مادة الكتاب وذخـائره المعرفيّـة وشواهده من القرآن والحديث والشّعر، ومادته الثّريّة من روائع الخطب في العصـور الذّهبية، وكذا توافق بعض ما في الكتاب مع بعض ما كتبـه مـن مثلنـا بـأقوالهم مـن أعلام التّواصل الجماهيريّ، لدليل قويّ على انفتاحه وامتداده، وهـذا مـا جعـل منـه مرجعا فريدا في بابه، وعلامة يهتدى بها في صناعة الخطيب النّـاجح إنفاعـا وإمتاعـا مهما كان نوع الخطيب[53].

المصادر والمراجع:

1- العربيّة:

- البيان والتّبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل بيروت؛

- الجاحظ من البلاغة والبيان إلى التّواصل، نحو تواصل معياريّ، مولاي على سليماني مطبعة أركو برانت الرّشيدية الطّبعة الأولى: 2013م؛

- الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت لبنان، ط3/ 1969م؛

- الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، أمحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، ط1/ 2017م؛

- كتاب الإبانة في اللغة العربيّة، سلمة بن مسلم العوتبي الصّحاري، تحقيق: عبد الكريم خليفة، وصلاح جرار، ونصرت عبد الرّحمن، ومحمّد حسن عواد، وجاسر أبو صفيّة، ط1/ 1999م؛

- كتاب الصّناعتين في الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: علي محمّد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1986م.

2- الإنكليزيّة:

- A concise public speaking handbook / Steven A. Beebe, Texas State University, Susan J. Beebe, Texas State University. Fourth Edition.

- DICTIONARY OF THOUGHTS A Cyclopedia of Quotations From the Best Authors of the World, Both Ancient and Modern, Alphabetically Arranged by Subjects ORIGINALLY COMPILED BY TRYON EDWARDS, D. D. REVISED AND ENLARGED, 1927.

- public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies

الهوامش:

[1]- ينظر: الخطيب النّاجح، أمحمّد صافي المستغانمي ص 74-79.

[2]- ينظر: الخطيب النّاجح، ص69-72.

[3]- الإرتاج والإجبال: استغلاق الكلام وصعوبة القول. ينظر: كتاب الصناعتين، ص21.

[4]- كتاب الصّناعتين في الكتابة والشّعر، أبوهلال العسكري ص22.

[5]- كتاب الصّناعتين، ص22.

[6] - التّشرن: هو التّأهب والتّهيؤ والاستعداد. ينظر: البيان والتّبيين، ج1، ص135.

[7]- البيان والتّبيين، ج 1، ص133.

[8]- الجاحظ من البلاغة والبيان إلى التّواصل، مولاي على سليماني، ص117.

[9]- كتاب الصّناعتين، ص22.

[10]- الجاحظ من البلاغة والبيان إلى التّواصل، ص117.

[11]- البيان والتّبيين، الجاحظ ج 1، ص14.

[12]- المرجع نفسه، ج1، ص115.

[13]- الخطيب النّاجح، ص53.

[14]–There are three things to aim at in public speaking ; first to get into your subj ect , then to get your subject into yourself, and lastly, to get your subject into your hearers—Bp . Gregg. The NEW DICTIONARY OF THOUGHTS A Cyclopedia of Quotations From the Best Authors of the World, Both Ancient and Modern, Alphabetically Arranged by Subjects ORIGINALLY COMPILED BY TRYON EDWARDS, D. D. REVISED AND ENLARGED, 1927 p 121

[15]- الخطيب النّاجح، ص83.

[16]- أقصد قولهم The tone is the key

[17]- البيان والتبّيين، ج1، ص120-121.

[18]–" Keep the Audience Interested by Using Your Voice"public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies P143

[19]– كتاب الإبانة في اللغة العربيّة، سلمة بن مسلم العوتبي الصّحاري، ج1، ص15.

[20]– المرجع نفسه، ج1، ص19.

[17]– الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، ج5، ص543 .

[22]– البيان والتّبيين، ج1، ص93.

[23]– الجاحظ من البلاغة والبيان إلى التّواصل ص48.

[24]– البيان والتّبيين، ج1، ص78.

[21]– الشّكل بتضعيف الشّين وفتحها أو كسرها دل المرأة وغنجها وغزلها– التّقتل: الاختيال والتّثني والتّكسر في المشي.

[26]– البيان والتّبيين، ج 1، ص105 – 106.

[27]– ينظر: الخطيب النّاجح، ص89–91.

[28]– "When listening, make sure to pay attention to nonverbal cues as well as the words being said"
public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies P.139

[29]– الخطيب النّاجح، ص90.

[30]– البيان والتّبيين، ج1، ص118.

[31]–“Never put your hands in both pants pockets when standing before an audience”
public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies P.158

[32]– الخطيب النّاجح، ص90.

[33]– الخطيب النّاجح، ص90. (لعل الكاتب يقصد أحد الأحاديث التي أوردها في كتابه في هذا السّياق، ص89، مثل حديث رسول الله (**إنّ الله جميل يحب الجمال**) أو حديثه (**إنّكم قادمون على**

إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في النّاس) أو حديثه ﷺ (إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)

[34]–"Dress to match the situation. If you are too formal, you can be perceived as intimidating. If you dress too casually, you can lose credibility ". public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies P.159

[35]– البيان والتّبيين، ج1، ص104.

[36]– نفسه، ج1، ص104.

[37]– الخطيب النّاجح، ص20.

[38]– الخطيب النّاجح، ص21.

[39]– كتاب الصّناعتين، ص136.

[40]–المرجع نفسه، ص136.

[41]– كتاب الصّناعتين، ص136.

[42]– الخطيب النّاجح، ص21.

[43]– ينظر: المبحث الرّابع من كتاب الخطيب النّاجع، ص55-60.

[44]– كتاب الصّناعتين، ص135.

[45] – "When you're telling a story, choose words that help the listener visualize the scene or situation you're describing. Most people think in pictures". public speaking presentations DeMYSTiFieD and Melody Templeton 2010 by The McGraw-Hill Companies P147

[46]– كتاب الصّناعتين، ص21.

[47]– البيان والتّبيين، ج1، ص114.

[48]– According to the seven Cs, communication needs to be: **clear, concise, consideration, correct, complete, concrete and courteous**.

[49]– الخطيب النّاجح، ص59.

[50]–ينظر: الخطيب النّاجح، ص93-100.

[51]– البيان والتّبيين، ج1، ص104.

[52]- المرجع نفسه، ج1ص104.

[53]– قصدنا هنا تقسيم الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي الخطباء إلى ثلاثة أقسام: الخطيب القارئ والخطيب الحافظ والخطيب المرتجل، وقريب من هذا التّقسيم وجدناه في كتاب الخطابة الموجزة أو التّواصل الجماهيريّ الموجز: A Concise Public Speakingحيث يقول:

"There are four basic methods of delivery from which a speaker can choose: manuscript speaking, memo┐rized speaking, impromptu speaking, and extemporaneous speaking "A concise public speaking handbook / Steven A. Beebe, Texas State University, Susan J. Beebe, Texas State University. — Fourth Edition. P.139

كتاب تصريف القول في القصص القرآني للدّكتور أحمّد المستغانمي

(قراءة نقديّة جماليّة)

د. ميَّادة محمّد رشدي مكانسي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ،ج. حلب، سوريّة

المقدمة: إنَّ تصريف القول قضيّة بلاغيّة تتّصل اتّصالاً مباشراً بنظريّة النّظم التي احتفى بها العلّامة عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز).

وتصريف القول: مصطلح حداثي « دقيق ومغمور ... دقيق لأنّ آيات القرآن الكريم نطقت به في مواطن عديدة، ومغمور لأنّه لم يأت ذكره في كتابات الأقدمين، ولم ينل حظّه من الاستعمال كبقيّة المصطلحات ... إلاّ ما كان من العالمين الجليلين:

أبي الحسن علي بن عيسى الرّماني (386 هـ) في كتابه: النّكت في إعجاز القرآن.
والقاضي أبي بكر الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن، حيث ذكراه باختصار شديد».[1]

وتصريف القول فنن من علم شريف من علوم البلاغة، وهو علم المعاني اختاره الباحث لمعرفة أسراره والوقوف على إيحاءته الجماليّة في القرآن الكريم.

وهذا بحث يروم استجلاء جماليّات رؤيّة الدّكتور أحمّد المستغانمي المعرفيّة ومنهجيّته العلميّة على نحو يعكس فلسفته الإسلاميّة وأسلوبه الذي ينم على قدر

رفيع من الفهم والتّحليل والاستقصاء والغوص على معاني القرآن الكـريم البلاغيّـة في بنائيّته القصصيّة المعجزة التي رامت تحقيق مراداتها السّـرديّة واللغويّـة عـلى حـدّ سواء ضمن جوهر الأساليب الجماليّة لعلم المعاني في قصّة موسى عليه السلام خاصّة، فهـو دراسة بلاغيّة للأسلوب القرآني الذي انتظم تلك القصّة على نحو جمع بين الأصـالة والمعاصرة.

وقد ارتاحت الرّوح لذاك الكتاب لما لمست فيه من أطيـاف الجـمال القائمـة عـلى أركان علم المعاني ودلالاته وأحواله، من حذف وذكر وإنشاء وخبر وفصل ووصـل وتقديم وتأخير... وهذا البحث يميط اللثام عـن الوجـه البلاغـي لعلـم المعـاني في دراسة مستفيضة تنطلق من رؤيّة الكاتب وتصب فيها.

وكان سبب اختياري لهذا الكتاب متصلاً بشغفي بعلم المعاني الـذي دارت عليـه دراستي في الماجستير حينما تناولت الحكم العطائيّـة بالتّحليـل الجـمالي وفـق المـنهج التّكاملي وقد جذبني عنوان الكتاب لأنّ فيه من الجدّة والطّرافة ما يلفت نظـر الهمّـة النّقديّة البلاغيّة (تصـريف القول) على نحو يوحي بائتلاف الأصـالة والمعـاصرة في آن معاً ائتلافاً جمالياً يُنبي عن غنى روح مؤلّفه واعتزازه بأصالته الفكريّـة وفروسـيّته التّراثيّة، إلى جانب حرصه على التّقدّم والتّطوّر العلمي.

وقد قسّمت بحثي هذا إلى مقدّمة تحدّثت فيها عـن أهمّيّـة هـذا الكتـاب وقيمتـه الفنيّة، وعن دواعي اختياري له. ولبلوغ المبتغى العلمي من هذه الدّراسة كان لا بـدّ من الوقوف على مضمون الكتاب وشرح أهمّ النّقاط التي تناولها بـدءً مـن العنـوان

وانتهاء بالخاتمة، ولأنّ المقام ههنا لا يتّسع فإنّني اخترت أن أتناول بـبعض التّفصـيل بعض القواعد البلاغيّة المهمّة فتحدّثت عن مصطلح تصريف القول ثمّ عن القصّـة التي اختارها ميداناً لتطبيقاته البلاغيّة فيه ثمّ تحدّثت عن توظيفه الجمالي للتّكرار.

وقد وقفت عند الفصول المهمّة لاستجلاء فنّيته الرّفيعة في تناولها مثل الفصـل الثّاني الذي تحدّثت فيه عن التّقديم والتّأخير مبيّنة براعته في تسميّته بتصـريف القول في موقعيّة الكلمة.

ثمّ تناولت الفصل الرّابـع الـذي يتحـدّث عـن الأسـاليب الخبريّـة والإنشـائيّة لأهميّته محاولة بيان قيمته لأنّه واحد من أهم أساليب علم المعاني.

وقد قادني مضمون الكتاب إلى الحديث عن أهميّته التـي أتـت في وجـوه عديـدة بدءاً من أنّه دراسة في إعجاز القرآن الكريم وانتهاء بأنه دار حول علـم شريـف مـن علوم البلاغة لم يأخذ حقه اللائق به من الدّراسة إذ انصرفت همم الدّارسين والنّقـاد إلى علم البيان والبديع.

ثمّ انتقلت إلى الحديث عن منهجيّة المؤلّف التي كان لها الأثر البالغ في إنجاح هذا الكتاب، فقد انتظمت الكتابَ منهجيّة علميّة رصـينة تـنم عـلى تمكنـه العلمـي مـن أصول البحث.

ثمّ ختمت الدّراسة بما توصّلت إليه مـن نتـائج لخّصـت أهـمّ مـا امتـاز بـه هـذا الكتاب العلمي الذي كان إضافة للمكتبة العربيّة.

وبعدُ، فإنّي أرجو أن أكون قد وفّقت في هذا المقام الجليل، وما توفيقي إلّا بالله وإني لأبرأ من حولي وقوّتي لائذة بحوّله وقوّته.

راجية من ربي أن يجعلني من حملة راية هذه اللغة الشّريفة وهذا العلم الجليل.

مضمون الكتاب: إنّ كتاب (تصريف القول في القصص القرآني) دراسة بلاغيّة تحليليّة تستند في مضامينها إلى علم البلاغة، فمن شجرة البلاغة الوارفة نجد الباحث قد اختار فنن علم المعاني ليكون المحور الجمالي الذي تدور عليه مضامين كتابه بدءاً من اختياره عنواناً جمالياًّ له (تصريف القول)، وهو مصطلح بلاغي جمالي تفوح منه رائحة علم المعاني الذي تتعاضد فيه الأساليب البلاغيّة لجلاء خصائص التّعبير القرآني التي بلغت حدّ الإعجاز في نظّمها البديع؛ وهو علم يتّصل اتّصالاً وثيقاً بنظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجاني الذي خصص كتابه دلائل الإعجاز لتفصيل القول فيها، مبيّناً أسباب إعجاز النّظم القرآني، (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورةً سورة، وعُشراً عشرا وآيّة آيّة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتّساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور ونظاماً والتّئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ يافوخه السّماء

موضع طمع، وحتى خرست الالسّن عن أن تدّعيَ وتقول، وخزيـت القُـروم فلـم تملك أن تصول).[2]

والجـرجاني يذهب إلى (أنّ النّظم هو ضمّ الشّـيء إلى شيءٍ آخـر بنظـام، أو ضـمّ الكلام بعضه إلى بعض على سبيل المجاز، فاستطاع بذلك أن يضمن لنفسه الوقـوف على علاقات المفردات بعضها بـبعض في الجمـل، وعـلى علاقـات الجمـل بعضـها ببعض، أو بمعنى آخر استطاع بذلك أن يقف على العلاقات الأسلوبيّة بعامّة، ومـن ثمّ فقد نفذ من مادة الألفاظ إلى معانيها، فأبرز قيمة تـوخّي معـاني النّحـو، وعـرض لحروف المعاني، وأدواتِ الرّبط وقيمتها في تجاوب النّظم، كما أنّه وقف عـلى دلالات التّعريف، وإيحاءات التّنكير، وفضل القول في سبيل اتّحاد الجمل والتئامهـا، وهـو في ذلك كلّه ينطلق من فلسفة جماليّة تؤكّد بأنّ أجمل الكلام وأحسنه المـتلاحم المتناسـق أو ما كان نظمه متجاوباً مع حسن تخير لفظه).[3]

وتراه يخصّص المدخل ليقف فيه عـلى مـدلولات المصـطلحات البلاغيّـة التـي يعـدها منطلقـات معرفيّـة جماليّـة لا بـد منهـا في بيـان المعـاني المـرادة، وبتحريـر المصطلحات يمكن للقارئ الغوص على المضامين البلاغيّة لـذلك المصـطلح، فقـد تحدّث عن مصطلحات مهمّة، وهي: (التّفنن، والتّكرار، والتّشابه، والتّنويـع، التـي اسـتعملها المفسّـرون والبـاحثون في علـوم القـرآن).[4] مبـدياً إعجابـه بمصـطلح (تصريف القـول)، وإلحـاح رغبتـه في تسـليط الضّـوء عليـه، والغـوص عـلى دُرره

البلاغيّة في مضامينها القرآنيّة التي اتخذت من قصّة موسى ﷺ مرآة لتجليّاتها المتنوّعة.

و ((هو مصطلح دقيق لأنّ آيات القرآن الكريم نطقت به في مواطن عديدة ومغمور لأنّه لم يأت ذكره في كتابات الأقدمين، ولم ينل حظه من الاستعمال كبقيّة المصطلحات الآنفة الذّكر إلاّ ما كان من العالمين.

الجليلين: أبي الحسن علي بن عيسى الرّماني (386 هـ) في كتابه: النّكت في إعجاز القرآن. والقاضي أبي بكر الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن حيث ذكره باختصار شديد ... والأمر عينه تكرر لدى الباحثين المحدّثين حيث لم يُعرج على ذكره إلّا صاحب مناهل الفرقان[5]، والدّكتور عبدالله محمّد النّقراط الذي انتصر له في أطروحته التي نال بها درجة الدّكتوراه في التّفسير)).[6]

ويبيّن الدّكتور المستغانمي بروح الباحث الأصيل أنّ أوّل ((باحث صدع في بحثه بمصطلح: تصريف القول، ودافع عن استعماله، ورجحه على بقيّة المصطلحات المستعملة في هذا الشّأن)).[7] هو الدّكتور عبد الله محمّد النّقراط صاحب كتاب بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم الذي ((تحدث عن تصريف القول في مضامين القرآن المتنوّعة من عقيدة وبعث ونبوءات ومشاهد قيامة وقصص وأمثال وغيرها)).[8] فجاءت دراسته أقرب إلى التّفسير منها إلى البلاغة، ويذكر باحثنا الفذّ أنّ عنوان تلك الدّراسة هو الذي حفّزه أن يتناول جزئيّة من تصريف القول يوظّفها في دراسة قصّة موسى عليه السّلام ((عبر مشاهدها الموزعة في القرآن كله)).

وقد أَخُذ الدّكتور، المستغانمي بهذا المصطلح إذ وجده أقدر المصطلحات على الوصول به إلى مبتغاه البلاغي الجمالي فهو ((أدق المصطلحات وأدلّها على ما نحن بصدده من تنويع طرق العرض اللغوي، والتّفنن البياني في توصيل المضمون للقارئ)).[9]، ويعضد ما ذهب إليه بأدلة قرآنيّة تؤكّد أنّ مصطلح تصريف القول هو مصطلح قرآني ورد في مواطن عديدة في القرآن الكريم، من مثل قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾[10].

ثمّ يتتبّع مصطلحه ليجلي معناه اللغوي والبلاغي في بطون كتب التّفسير التي تحدّثت عن مادة (صرَّف) مبيناً أن معناه يلتقي ((بالمعاني المقصودة من التّفنن والتّنويع والتّشابه في العرض اللغوي، والإبداع البياني المتنوّع في عرض المضامين القرآنيّة)).[11]

وجاء في كتاب إرشاد العقل السّليم: ((انظر كيف نصرف الآيات: تعجيب لرسول الله ﷺ من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أي انظر كيف نكرّرها ونقرّرها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارةً بتقديم المقدّمات العقليّة، وتارة بطريق التّرغيب والتّرهيب، وتارةً بالتّنبيه والتّذكير)).[12]

وجاء في كشاف الزّمخشري تفسير لمعنى صرّف: ((ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التّصريف فيه، وجعلناه مكاناً للتّكرير)).[13]

وأهمّ أسباب اعتناء المؤلّف بمصطلح تصريف القول هو أنّه قد وصل إلى يقين بأنّ تصريف القول هو أوّل الأسباب في إعجاز القرآن، وهذا قد فصل القول فيه في

كلّ الكتاب، بعد أن أجمله يقوله: ((ولولا أنّ المقصود بالتّصريف هو المغايرة في طرائق العرض، والتّنويع في أساليب الصّياغة والتّعبير، وهو مظهر إعجاز البيان القرآني المتفرد لما أعقب تصريف الآيات بقوله تعالى: ﴿وليقولوا درست﴾ فإعجازه في تصريفه حقاً، وصدوره من أمّي ما كان يتلو من قبلُ، ولا خطّت يداه كلمة من قبل أن يأتي بكلام عظيم في معناه معجز في ألفاظه وأساليبه وفصاحته)).[14]

وما أملح ما يطمئن إليه من تحرير مصطلح (تصريف القول) مبيّناً مكانته البلاغيّة الجماليّة، يقول: ((تصريف القول فضلاً عن كونه مصطلحاً قرآنيّاً – هو أدقّ المصطلحات للتّعبير عن المعنى الواحد بطرق شتّى، وأساليب متنوّعة، وصياغات لغويّة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء على حدّ تعبير صاحب مناهل العرفان)).[15]، وتجده في كلّ صفحات كتابه المتفرّد تفنّن في تأكيد كيف صرف الله تعالى: ((القول بشتى الأساليب وطرائق العرض)).[16]

وتراه في كلّ ما رمى إليه في كتابه يتماهى مع إشراقات الكلمة، وتوهّج المعنى البلاغي على نحو يشي بشوقه الرّاقي إلى فنّون البلاغة التي تجلّي إعجاز البيان القرآني القائم على تصريف القول بكلّ وجوهه، وهو أمر امتاز به الباحث الجزائريّ من غيره ممّن تناول هذا المصطلح وبخاصة (النّقراط)، فقد اعتنى عنايّة فائقة ((ببيان الوجوه الدّقيقة والفروق الرّائعة التي تكمن في تنوّع التّعابير القرآنيّة)).[17].

وراح يبسط القول في المقوّمات البلاغيّة التي حقّقت للقصّة المختارة فنيّتها الرّفيعة وجعلتها آسرة للبّ القارئ على الرّغم من تكرارها في أكثر من سورة مبيّناً

بلاغة التّكرار الذي جاذبته أيدي الخواطر الجماليّة فراح يحقّق بمقتضى الحال أبلغ مقال وأبهى مقام، ثمّ يوضّح علاقة التّكرار بتصريف القول، وتراه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة تتّصل بهذا العنوان إلّا وأشبعها درساً وبين مقاصد البيان ومرادات النّظم القرآني الذي يبدي الوحدة والتّلاؤم فيما قد يبدو متنافراً متبايناً، إذ راح يضيء جوانب مهمّة من هذا المنطلق البلاغي الرّئيس في القرآن الذي يشي بمضامينه الجماليّة وإرشاداته البلاغيّة المتّصلة اتّصالاً وثيقاً بعلم المعاني، على نحو يتحقّق فيه البوح ببعض أسرار القرآن وإشاراته التّأويليّة مخصّصاً عناصر السّرد القصصي الذي حكت أحداثه قصّة موسى ﵇، وهو في منهجيّته الرّفيعة التي تجلّت على أبهى ما يكون في مقدّمته التي يفصل فيها سبب وقوع اختياره على تلك القصّة التي كانت أكثر قصص الأنبياء تكراراً في القرآن الكريم، وإذن فهي المضمار الأنسب والأمثل لتجليّات تصريف القول الجماليّة والفنيّة، وما أليق هذا الصّهيل بجامحات علم المعاني التي هي كُميت البلاغة والمندل الرّطب الذي يشبّ وقود الحرف في بناء السّياق القرآني حيث إنّ «كلّ كلمة بل كل حرف وضع وضعاً فنيّاً مقصوداً في غايّة الدّقة والجمال».[18]، بل إنّنا لا نذهب عن هذا المقام بعيداً إذا ما قلنا إن اختيار قصّة موسى ليست إلّا اختياراً حكيماً له مراماته البلاغيّة التي حاول مؤلّفنا أن يعكسها في صفحات فصوله المتراميّة على بساط المنهجيّة الرّفيعة التي تبدت في مواطن كثيرة أهمّها أنّه عقد المدخل على بيان الفروق الدّقيقة بين مصطلحات متواشجة مع مصطلحه الأساسي الذي هو (تصريف القول) مبيّناً وثيق الصّلة بينها.

ولعلّنا إذا ما تلبثنا مليّاً عند مصطلح التّكرار وصلنا إلى مراده البلاغي الذي يندغ ماندغاماً جمالياً مع مصطلح (تصريف القول)، فالتّصريف له علاقة بالتّكرار بوجه خفي جليّ من وجوه البلاغة الدّائرة على مراعاة مقتضى الحال، لأنّ معنى نصرف الآيات هي أن نكرّرها ونقرّرها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب كما ذكرنا آنفاً وهذا أمر وعاه المؤلّف وعياً تاماً فائقاً، لذا قرن تصريف القول بالتّكرار ضمن سياق وقوفه على تحرير مصطلحاته في المدخل، وقصّة موسى عليه السلام هي القصّة الأكثر ذكراً في القرآن الكريم وهي «أشدّ القصص في القرآن تكراراً، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة عن هذا التّكرار .. وردت هذه القصّة في حوالي الثّلاثين موضعاً».[19]

لذا أتى اختياره اختياراً واعياً دقيقاً، يذكر أسبابه كاملة في المقدّمة وعلى رأسها التّكرار، الذي هو مضمار لبيان تجليّات تصريف القول، يقول: «قصّة موسى عليه السلام أكثر قصص الأنبياء تكريراً في القرآن الكريم، حيث وردت أبرز مشاهدها في السّور الآتيّة مع اختلاف في الطّول والإيجاز: البقرة، والمائدة، والأعراف، يونس، الكهف طه، الشّعراء، النّمل، القصص، غافر، الزخرف، الدّخان، والنّازعات ... ووردت مشاهد من قصّة موسى عليه السلام في السّور السّابقة الذّكر في أثواب فنيّة متنوّعة آسرة لب قارئها روعةَ جمال، وبهاءَ عرض، وإبداع نظم، وعذوبة ألفاظ، وسحر أسلوب».[20]

ولا يخفى إذن ما لهذا التّكرار من مرادات جماليّة بلاغيّة تتحقق مراعيّة مقتضى الحال فيتصرف القول فيها تصريفاً فنياً بارعاً، وهو باب شريف من أبواب البلاغة فائق الأهميّة، فالتّكرار أسلوب متناه في الدّقة، إذا لم يحسن التّصرف به كان مؤاده التّعبيري باهتاً لا يحقق المبتغى الجمالي المراد منه، وههنا يبرز الالتّحام ما بين (التّكرار) و (تصريف القول) فيه ((فأنت ترى أنّ القصّة في القرآن كأنّها تتكرّر في أكثر من موطن، والحقيقة أنّها لا تتكرّر، ولكن يُعرض في كلّ موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السّياق، وبحسب ما يُراد من موطن العبرة والاستشهاد)).[21]

وإذن فإنّ العمدة في التّكرار هي حسن توظيفه فنيّاً ((ولذا تراه لا يذكر القصّة على صورة واحدة بل نراه يذكر في موطن ما يطوى ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدّم في موطن ما يؤخّره في موطن آخر، بل تراه أحياناً يغيّر في التّعبيرات، ونظم الكلام تعبيراً لا يخل بالمعنى، كلّ ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السّياق، ويتطلّبه المقام، وذلك في حشد فني عظيم)).[22]، إذن فإنّ تصريف القول هو محلّ للتّكرار الموظّف فنيّاً، لذا فهو مدعاة للتفنّن والتّنويع والتّشابه.

ذاك الاختلاف في بناء القصّة تابع للغرض البلاغي الذي يراعي مقتضى الحال في سياقات قصّة موسى عليه السلام تختلف اختلافاً بنياً ما بين سورة وأخرى لاختلاف السّياق البلاغي طولاً وإيجازاً بحسب المشهد المتوخّى منه توصيل مغزى ديني وعبرة ترجى على الدّوام من قصص الأقدمين، فالمقام هو الذي يتحكّم بالمقال القصصي البلاغي من سورة لسورة لتوصيل المراد الإلهي عبر بناء سردي فنّي معجز

((القصص القرآني من المتشابه، وفي التّشابه عجائب لا تنقضي إلى يوم القيامة، فهي نوافذ للعقول المؤمنة القادرة على اعتماد المنطق في البحث والمحاكمة المرتكزة إلى قاعدة لغويّة متينة والمزوّدة بقدر من المعارف)).[23]

وقد قسّم كتابه تقسيماً منهجيّاً دقيقاً رفيع المستوى، يخدم غرضه البلاغي الجمالي ((في استجلاء مظاهر تصريف القول في قصّة موسى عليه السلام، متوسّلاً بمباحث علم المعاني، مسلّطاً أضواءها على النّصوص التي استوقفته، مبيّناً مواضع الجمال فيها شارحاً طوراً ومقارناً بين النّصوص المشابهة تارة، ومعلّلاً تارة أخرى للوقوف على أهمّ الفروق والأسرار والنّكت التي تحملها حلقات القصّة في مواضعها المتنوّعة فإنّه لا يخفى على كلّ باحث يريد استكناه جواهر النّص القرآني والوقوف على أسرار تأليفه ونظمه ضرورة التّسلح بعلمي المعاني والبيان لما لهما من فضلٍ في تجليّة مواطن الإعجاز في البيان القرآني)).[24]

وتتفاوت المرامات السّرديّة لتطابق المرادات البلاغيّة إنشاءً وخبراً وتخصيصاً وقصراً وتقديماً وتأخيراً عبر اختيار اللفظة والبناء التّركيبي وصياغات الجمل، فكلّ لفظة وكل عبارة إنما قصد من ورائها أن تكون لبنة في البناء اللغوي، لتخدم المقاصد الفنيّة على نحو يحقق أكمل الصّور وأدق المعاني الجماليّة.ولبلوغ الغايّة المرجوة من هذا البحث، قسمه إلى مقدّمة ومدخل وسبعة فصول وخاتمة.

المقدّمة: تحدث فيها عن دواعي اختيار البحث، والدّراسات السّابقة، والمنهجيّة المتّبعة فيه.

خصّص المدخل لدراسة المصطلحات المتداولة من مثل: التّكرار، والتّفنّن والتّنويع والتّشابه، ثمّ بيّن المرجحات التي سوغت لديه اختيار مصطلح (تصريف القول).

وتناول في الفصل الأوّل تصريف القول في الكمّ، مبيّناً مواضع الإيجاز بنوعيه: إيجاز الحذف، وإيجاز القِصَر، وأفرد مبحثاً للإطناب وبلاغته، ونماذج منه في قصّة موسى عليه السّلام، ثم ختمه بمبحث موجز عن بلاغة المساواة، ويلوح من تلك التّسميّة (تصريف القول في الكم) قدرته على وضع بصمته الإبداعيّة التي تشي بتمكّنه البلاغي.

وخصّص الفصل الثّاني لدراسة تصريف القول في موقعيّة الكلمة، ودواعي تأخيرها وتقديمها، مع ذكر نماذج من المعاني المنبثقة عن هذا التّقديم أو ذاك التّأخير.

وهو فصل مهمّ تظهر فيه براعة المؤلّف في المزج ما بين الأصالة والمعاصرة عبر فنيّة رفيعة تجلو ما في القصّة من إعجاز، وعند التّدبر في مشاهد قصّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم نجد أنّ عدداً من جملها جاء تصريف القول فيه مبنيّاً على أساس من التّقديم والتّأخير في موقعيّة الألفاظ.

وما يلفت النّظر في التّقسيم المنهجي الذي اعتمده المؤلّف في دراسته البلاغيّة أنّه قسّم الكتاب بحسب معنى المصطلح الذي كان عنوان كتابه، والذي جعله أساساً تنبني عليه كل التّقسيمات، وقد أضفى عليه من التّلوين ما جعله أقرب ما يكون إلى الحداثة، فألبس مضامين علم المعاني بذلك ثوباً جديداً، فهو حينما يريد أن يتحدّث

عن التّقديم والتّأخير يسميه: (تصريف القول في موقعيّة الكلمة) لأنّ موقع الكلمة من الجملة من أهمّ العناصر المساهمة في تجليّة معناها، وتوضيح دلالاتها، وبيان مدى الاهتمام بها، وقد عُني المفسّرون والبلاغيّون منذ زمن بعيد بدراسة فنّ التّقديم والتّأخير في كتبهم وأبحاثهم وتفسيرهم لآيات القرآن الكريم وهو موضوع شائق رائق تتفرّع عنه دلالات لطيفة بديعة، أفرد لها العلّامة عبد القاهر الجرجاني حيّزاً كبيراً من كتابه دلائل الإعجاز.

وعند التّدبر في مشاهد قصّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم نجد أنّ عدداً من جملها جاء تصريف القول فيه مبنياً على أساس من التّقديم والتّأخير في موقعيّة الألفاظ. ونجده دقيقاً في بيان ألوان هذا التّقديم والتّأخير بحيث يقسمه إلى قسمين لتسهيل دراسته، والإحاطة بدقائق أسراره، ولطائف سحره، فيجعل القسم الأوّل في تقديم اللفظ على عامله، والقسم الثّاني في تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير عامل. وهذا التّقسيم يبدو لي أنّه لم يكن له فيه السّبق بقدر ما كان له من الإشارة إلى لطائفه والإحاطة بدقائقه، والدّخول في تفصيلاته لفظاً وتركيباً وانزياحاً جماليّاً في الموقع والتّعبير، على نحو ما يتّضح في قوله مبيّناً الغرض أو الأغراض النّاجمة عن زحزحة الكلمة عن موقعها المعهود، وما يحمله ذلك التّقديم من إشارات ولطائف لا تدرك لو أنّ الجملة صيغت بشكل آخر.[25]

وهذا الفصل من كتابه فصل مهمّ في تجليّة الفنيّة البلاغيّة المعجزة للقرآن الكريم استطاع فيه أن يحيط بالطّف إشاراتها الجماليّة، ‹‹إنّ القرآن الكريم دقيق في وضع

الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقّة عجيبة، فقد تكون له خطوط عامّة في التّقديم والتّأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتّساق العامّ في التّعبير على أكمل وجه وأبهى صورة)).[26]

ويتحدّث في الفصل الثّالثّ عن أنواع أساليب التّوكيد التي وردت في قصّة موسى ﷺ، ويقسّمه إلى ثلاثة مباحث، خصّص المبحث الأوّل منها للتّوكيد عن طريق الأدوات، والثّاني للتّوكيد عن طريق التّكرار، والثّالثّ للتّوكيد عن طريق القصر وطُرقه.

وتناول في الفصل الرّابع تصريف القول في نوع الجملة، مبيّناً بعض الأحوال البلاغيّة الفنيّة لبناء الجملتين الفعليّة والإسميّة، وكيف تصرف الأسلوب القرآنيّ في توظيف الأساليب الخبريّة والإنشائيّة.

وتنبع قيمة هذا الفصل من أنّ الخبر والإنشاء واحد من أهم أساليب علم المعاني، حرص المؤلّف على استجلاء ملامحه وبيان قيمته البلاغيّة وفق منهجيّة فنيّة راحت تحيط بظلاله الوارفة ضمن السّياق السّردي لقصّة موسى ﷺ.[27]

((فأسلوب الخبر والإنشاء لا يكتفي بأنّه يجسم ظلال الجمال الأخّاذ، ويمتح من فضاء النّور رونقه، ويأخذ من وسط العقد جوهرته ودرته وفريدته فقط، وإنّما يحقّق للفكر عطشه إلى المعرفة وإدراك أسرارها ... ويتقدّم أسلوب الخبر والإنشاء ليحتلّ المكانة الأولى في جماليّة علم المعاني، ولهذا كان الانحياز إليه.

إنّ أسلوب الخبر والإنشاء بكلّ إيحاءاته يوضّح لنا أنّ البلاغيّين العرب امتلكوا حسّاً جمالياًّ راقياً لمفهوم التّشكيل والصّيغ قارب ما عرفه الشّكلانيّون المحدّثون)).[28]

ويخصّص مؤلّفنا الفصل الخامس لدراسة نماذج من مواطن الفصل والوصل موضّحاً بلاغة بعض الجمل الاستئنافيّة والأغراض المتوخّاة من الفصل والوصل في الأمثلة المقرّرة.

ويرصد في الفصل السّادس ظاهرة التّناسب في النّسيج اللغوي لآيات قصّة موسى عليه السلام، ضارباً أمثلة للتّناسب على مستوى الكلمات، والجمل والمشاهد مع السّور التي تُعرض فيها.

ويبيّن في الفصل السّابع والأخير روعة توزيع حلقات قصّة موسى عليه السلام من خلال السّور القرآنيّة المتعدّدة، مستعرضاً فيه لذكر جوانب من حكم هذا التّوزيع ومبيناً تكامل هذه المشاهد المتفرّقة راسماً المعالم المتتاليّة للقصّة.

ثمّ أتت الخاتمة ليلخص الكتاب فيها أهم النّتائج التي انتهى إليها.[29]

لقد آمن الدّكتور المستغانمي بأنّ القرآن الكريم بناء جمالي كامل متكامل ودهش لعلو سياقاته، ورفعة مضامينه وإشاراته، ففي كلّ لبنة فيه ضرب من السّحر، ودفْق من السّر.

ولا بدّ لمن يقارب ذاك النّص السّامق من أن تكون مقاربته أثراً فنياً يتساوق مع رفعته الفنيّة، وكماله الجمالي.

أهميّة الكتاب: تأتي أهميّة الكتاب مـن وجـوه عديـدة، أهمّهـا أنّـه دراسـة جماليّـة بلاغيّة احتفت بالقرآن الكريم لاستجلاء سموّ هـذا الخطـاب الإلهـي المعجـز عـلى المستوى اللغوي البلاغي الجمالي وفـق علميّـة مدروسـة تجلـو أسرار ذاك التّعبـير في نسقه القصصـي.

وممّا زاد في أهميّة هذا الكتاب أنّ مداره كان حول علم شريف من علـوم البلاغـة لم يأخذ حقّه اللائق به من الدّراسة والبحث إذا ما قيس بعلم البيـان والبـديع، وهـو علم المعاني الذي احتفى بالدّيباجة الفنيّة التي تنسج بخيوط النّحو واللغـة والبلاغـة على نحو جمالي فريد.

إنّها دراسة تتّكئ على جوهر الأساليب الجماليّـة لعلـم المعـاني لاسـتجلاء أسرار القرآن العظيمة التي لا يذوي سحرها ولا يبهت ألقها.

وتتجلّى أهميّته أيضاً في أنّه من الكتب البلاغيّـة التـي اختصّـت بجـانبين مهمّـين جانب بلاغي يتعلّق بعلم المعاني، وجانب إبداعي يتعلّق بالسّـرد القصصـي وبنائيته الجماليّة المعجزة على نحو يعمل على توجيه الدّارسين والنّقاد توجيهاً بلاغيّاً جماليّاً لـه جدّة فكر الباحث وأصالته.

فقد خصّ قصّة موسى عليه السلام وهي أهمّ قصّة في القرآن الكريم بالتّحليل البلاغـي الجمالي على نحو جـلّي مضـامينها المعرفيّـة والجماليّـة، وأبعادهـا الحقيقيّـة والمجازيّـة ووقف عند أسرارها مطولّاً مشيراً إلى مخزونها الدّلالي وتجلياتها السّرديّة بحسّ جمـالي راقٍ يعي مفهوم التّشكيل اللغوي والبناء الفنّي الجماليّ للإيحـاءات البلاغيّـة للكلمـة

والجمل، لافتاً إلى أهميّة الخطاب البلاغي في مكوناته وعناصره الفنيّة التي تحتفي بالشّكل في قدرته التّكثيفيّة المدهشة على تجليّة المضمون عبر توخي معاني النّحو والعنايّة بالدّال والمدلول، وهذا يرتقي إلى مستوى مفاهيم الأساليب الغربيّة الحديثة بل يفوقها من خلال تمسك الباحث بأصالتّه التي يزركشها بخيوط الحداثة مشيراً بذلك إلى مقدرة تراثنا وتمكنه وسبقه في هذا الميدان الذي يدعي الآخرون ان لهم فيه قصب السّبق.

فقرب البلاغة من قواعد النّقد المعاصر، إذ أضفى عليها رونقاً جعلها مكوناً ثقافياً أصيلاً ومعاصراً في آنٍ معاً، فرد بذلك على من يعتقد أن البلاغة قوانين ثابتة جامدة لا يمكن تنشيطها أو تقديمها بقالب حداثي ذي إطار منهجي جديد، فقد أتى كتابه تأصيلاً وتنظيماً وترتيباً لأبواب علم المعاني ضمن السّياق القصصي، في مزاوجة جماليّة بينهما وفقت إلى حد كبير، وضع الكتاب في خدمة القرآن الكريم وطلبة العلم على تنوّع اختصاصاتهم.

وغني عن البيان أنّ منهجيّة الكتاب العاليّة، وشموليته الباديّة قد زادت من أهميته المعرفيّة الجماليّة، فقد توخى فيه صاحبه أن يخرج في أكمل صورة من النّاحيّة العلميّة التي اعتمدت الدّقة والإحاطة والعمق على نحو جمالي جعله يُشب مصطلح (تصريف القول) فيجعله متوهجاً.

وقد انعكست ثقافة الباحث في كتابه هذا لترسم ملامح شخصيته وتجلي مدى الثّقافة التّراثيّة الأصيلة التي استوعبها وقدم بذلك للقارئ العربي ولا سيما

الأكاديمي من خلال دقة منهجه وتعريفاته وتحديد مصطلحاته، وتنسيق تفريعاته فلسفة وثقافة ووعياً جمالياً ومثالاً لغوياً فنياً يحقق الانسجام الكلي لمقاصد مبحثه عبر مواءمة جماليّة ما بين الشّكل والمضمون يتمثل بها جماليّة القرآن المعجزة.

و((العرب أدركوا في وقت مبكر الوحدة الفنيّة، ودورها في تحقيق جماليّة القول)).[30]

منهجيّته:امتاز باحثنا بمنهجيّة علميّة رفيعة تجلت في عنايته الفائقة ببيان خطته البحثيّة التي انتظمت دراسته من قدم مقدمتها إلى مفرق نتائجها واعياً تميزه من غيره من الباحثين الذين تناولوا موضوعات تدنو من موضوع بحثه بشكل أو بآخر معلقاً على كلّ واحد منها تعليقاً نقدياً رصيناً ينم على درايّة بها، وتغلغل في عمقها مشيراً إلى أنّ عنايته من بحثه واضحة يمشي إليها بخطا واثقة موقناً بمراداته الجماليّة البعيدة الشّأو التي اختارت جماليّة علم المعاني مضماراً يحرص فيه على أن يكون فارساً ينطلق من دراسات غيره ليبلغ ما هو أبعد مؤمناً بأن العلم إضافات فنيّة مدروسة، لا نسخ متكررة تودي بالمرء إلى سراب، فذكر الدّراسات التي سبقته بعلميّة متناهيّة بيّن فيها أدق الفروق بينها وما يميز كلاً منها على نحو عَكس دقّة ملاحظته وعمق ذائقته النّقديّة.

وكان همّه في مؤلّفه هذا أن يبني بناء جمالياً سامقاً يمتد إلى آفاق رحبة تشي بولعه بحسن القرآن الكريم في أساليبه الفنيّة والبلاغيّة المعجزة، وقد اختار لذلك علم المعاني ليجلي بالبهاء البلاغي مواطنه الجماليّة في أنماطه المختلفة، ومواضعه المتنوّعة

ودلالاته الفنيّة وأحواله الرّفيعة التي تعكس مخزونه الدّلالي المعرفي البلاغي الذي لا ينفد حسنه ولا ينقطع مدده.

وهو في كلّ ذلك يمتلك حساً جمالياً راقياً واعياً لمفاهيم التّشكيل الجماليّ البلاغيّ في القرآن الكريم، وهذا ما يلوح من اختياره لعلم المعاني مضماراً جمالياً لدراسته الفارسة.

وتراه يأخذ من عقد القصص القرآني دانته، وهي قصّة موسى عليه السلام، لأنّه أدرك أهميتها في الخطاب البلاغي اللغوي الفني الذي ضمه السّرد القصصي المعجز في عناصره اللغويّة، ومكوّناته البلاغيّة، على نحو يتغير فيه أسلوب الخطاب تبعاً للسّياق الوارد في الآيات الحاملة للمفهوم الجمالي المثير للانفعال الجمالي والإدراك المعرفي.

وقد كانت دراسته العلميّة دراسة بلاغيّة تطبيقيّة، استعملت الأساليب البلاغيّة والأدوات الفنيّة الأنسب لعلم المعاني، وهذا قد استدعى أن يكون منهج باحثنا المختار هو المنهج التّكاملي الذي يتيح له جانباً كبيراً من تأصيل مفاهيم علم المعاني وتحليلها، مبيناً جماليّة أسلوبه ومجلياً ماهيته ووظائفه وخصائصه الجماليّة التي تعكس الرّونق الجمالي والألق الفني للنص القرآني فتؤكد إعجازه.

وما يؤكد منهجيته العلميّة الرّفيعة أنك تجده يرسم للمتلقي بدقة متناهيّة ملامح علميّة واضحة لكل خطوة خطاها في طريق بحثه العلمي، فيذكر منهجه المنتقى وفق أصول البحث العلمي، قائلاً: « ولما كانت هذه الرّسالة العلميّة دراسة بلاغيّة تُعنى بتطبيق كثيرٍ من الأدوات والأساليب البلاغيّة التي تُدرس في علم المعاني على

الآيات المتحدثة عن قصّة موسى عليه السلام في جميع حلقاتها في القرآن الكريم فإنّ المنهج الأسلم والمهيعَ الأليق بالإتباع في هذا التّحليل البلاغي هو المنهج التّكاملي بمعنى أنني سأتناول النّصوص القرآنيّة التي تدخل ضمن دائرة البحث، وأحللها تحليلاً بلاغياً مبتدئاً بدراسة تركيب الجملة وتحليل نظمِها، مشيراً إلى وجوه تفرد كل حلقة من حلقات قصّة موسى عليه السلام واختصاصها بما ذكر فيها، والمعاني الجديدة التي تضمنتها الحلقة باستخدامها بعضَ أدوات علم المعاني البلاغيّة)).[31]

فما يميزه إذاً الدّقة العلميّة المتناهيّة التي لم تشط ولم تستطرد، بل دارت ببراعة فائقة حول نقطة المركز، فهو يقيم كتابه على أساس من التّبويب والتّنظيم، حيث وضع في كل قسم منها ما يتصل به من شواهد منتقاة بعنايّة فائقة، وذوق بالغ الرّفعة.

وغني عن البيان أنّ تقسيماته المنهجيّة وتفريعاته العلميّة قد وضعت لخدمة النّاحيّة الفنيّة في أدق تفاصيلها وأكمل صورها، فبلغت بذلك ذروة التّنسيق ومنتهى الإحاطة، فقد التّزم التّبويب والتّفريع على نحو معجب من أوّل الكتاب إلى منتهاه فامتاز بدقّة وعمق وشموليّة في سرد مضامينه وتأصيل خطواته.

فرسم دائرة جعلت الكتاب مرتباً ترتيباً منطقياً علمياً ينتقل فيه الباحث بثقة واقتدار من فقرة إلى فقرة ببراعة فائقة، وكأن كلّ فقرة منها يأخذ بعضها برقاب بعض من دون استطراد، ولا اقتضاب، بل إنّك تراه قد حرص على إيفاء المضمون البلاغي حقه من الغوص على شكله تحليلاً واستنباطاً واستجلاء لمكنون الشّكل

القصصي المجلّي لما استكن فيه وتوارى وراءه، في وحدة تأليفيّة تشي بتمكن راسخ وغوص على لطائف الإشارات.

وعلى هذا الأساس المنهجي الواضح قام البحث وأتى كلّ ما في الكتاب عرضاً لقاعدة بلاغيّة مهمة، وتشريحاً لظواهرها وكشفاً عن خصائصها الأصيلة التي أقامت هذا البنيان الفني المتكامل المعجز الذي جعلها في غايّة التّناسق الفني في إخراج القصّة إخراجاً جمالياً سامقاً عبر سرد بلاغي متكامل.

ثمّ إنّك لتراه يعنى عنايّة فائقة بالتّعريفات في أوّل كلّ مبحث، ليكون المتلقي على بينة من المعنى تبعده عن اللبس والتّشتت، وتراه يأتي بالفكرة ويعضدها بالأدلة بعد تحليلها، ثم يستشهد بآراء الدّارسين على نحو ينم على ثقافة رفيعة والتّزام بأصول البحث العلمي الذي جعل دائرة الموضوع مكتملة ناضجة.

إنّ هذه الدّراسة وإن كانت أصيلة تستند في مرجعيّاتها إلى منهجيّة علميّة تختزن آراء السّابقين وتنطلق منها، بَيدَ أنها لم تكن دراسة تقوم على التّقليد والتّبعيّة لكلّ ما قاله القدماء والمحدثون، بل أتت على وجه التّحليل والتّوليد والاستنباط والفهم والموازنة في رداء جمالي يشف عن اتكائه على المذاهب النّقديّة الحديثة فكانت أصالتّه حيّة فاعلة تناسب روح الإحاطة العلميّة.

ويمكن لنا أن نخلص إلى القول: إنّه ألّف هذا العمل بروح علميّة تتحرى الدّقة وتحرص على الإحاطة والعمق على نحو يشي بعلو الهمة وصفاء الرّؤى ولا غرو في ذلك فالباحث يتصدى لنص مهيب فيه حشد لغوي فني جمالي يقتضي إحاطة

بقواعد اللغة وأسرارها، وقدرة على التّحليل العلميّ، واقتناص مـواطن الفـنّ التـي تجلو جماليّة التّعبير وإعجازيّة البناء، والمراد هو استجلاء روعة البيان الإلهي الذي لـه في الرّوح دويٌّ دافق، لا بد معه من أن يتسـلح الباحـث بـأدوات تليـق بمثـل تلـك المقاربة المهيبة.

الخاتمة: وبعدُ، فبعدَ هذه الرّحلة الماتعة في رِحاب هذا الكتاب المهمّ الشّائق يمكن تلخيص نتائج هذه الدّراسة في النّقاط الآتيّة:

1 إنّ كتاب ((تصريف القول في القصص القرآني)) يشتمل على فيض من الذّوق الفني والتّناول اللطيف والأسلوب الطّريف في المعالجة الجماليّة التي تعكس قدرة المؤلّف على ربط فنّون علم المعاني وأساليبها ببعضها عبر ضبط حدود البلاغة ضبطاً علمياً يتفق مع جماليّة التّعبير اللغوي والفني للنّص القرآني المعجز على نحو يجعله قادراً على استثارة الذّوق الجمالي لدى المتلقي.

2 إنّ تناوله البلاغي لمصطلح (تصريف القول) لم يكن معياراً يقدم أحكاماً جاهزة جامدة وإن كانت من طلقاته قواعديّة تأصيليّة، إنّماكان استقرائياً يضع الأصل البلاغي ثمّ يدور حول معانيه وفصوله استخلاصاً لمواصفاته التّركيبيّة ومقاصده المعرفيّة الدّينيّة وبذلك استطاع أن يخرج بهذا المصطلح البلاغي عن جموده المعياري إلى فنيته الاستقرائيّة التّحليليّة واختار لذلك منهجاً مناسباً هو المنهج التّكاملي الذي يناسب طبيعة البحث العاموديّة الإحاطيّة.

3 ما جاء في هذا الكتاب هو صورة حيّة لتطبيق أصول البحث العلميّ، لما امتاز به من منهجيّة علميّة رفيعة،وتنسيق فنيّ جمالي متقن، يضم في صفحاته مادة علميّة ثريّة تجعله مرجعاً مهماً في الدّراسات التّفسيريّة القرآنيّة الجماليّة والبلاغيّة ولاسيما علم المعاني، وكذلك في دراسة فنّ القصص القرآني سرداً ولغة وأسلوباً ودلالة.

وممّا زاد في أهميته أن المؤلّف حرص فيه على أن يوفـق مـا بـين الأصـالة الفاعلـة والحداثة المتزنة المنتميّة.

4 جاء الكتاب صورة صادقة لمؤلّفه الذي كان فيـه واضـح الشّخصـيّة، عميـق الرّؤية،يتمتع بعقليّة علميّة تأمليّة وذائقة نقديّـة جماليّـة مرهفـة تعـبر في مجملهـا عـن نضجه الثّقافي وتطوّره المعرفي وحجته القويّة، كلّ هذا ضمن دائرة تعظيمـه وعشـقه للنص القرآني المدهش في إعجازه.

5 لقد كان المؤلّف صورة لثقافته العربيّـة الإسـلاميّة الأصـيلة عكسـت تطـوّر الوعيّ الجماليّ العربي الإسلامي.

فتح نوافذ أصالتّه لرياح المعاصرة وتمايل على إيقاعها الفنـي مـن دون أن تقتلعـه من جذوره الرّاسخة. وبهذا قدم خدمة نبيلة للغتنا الشّـريفة التي شرفهـا الله بتنزيـل كتابه بلسان عربي مبين.

6 هذا الكتاب مبحث مهم يومئ إلى الوعيّ الجمالي الفنـي في التّـأثير في المتلقـي استبطاناً للنص وتأويلاً لمحاسنه، وهو إضافة مهمة للمكتبة العربيّة، فقد خدم علـم المعاني على نحو يُجلي الدّور المعرفي العلمي للبلاغة العربيّة، فيشدها إلى حيز العلميّـة عبر الخطاب البرهاني المستند إلى التّحليل الجمالي والتّأويل الفني فيرد بذلك على مـن يدعون جمودها.

وجاءت لغته في كلّ ذلك سنيّة خلاقة تراعي مقتضى حال فصوله ومباحثه.

7 يلمس المتلقي في هذا الكتاب موفقيّة عاليّة في اختيار العنـوان، وربطـه بعلـم المعاني من جهة، وبقصّة موسى ﵇ من جهة أخرى، وبه استطاع الـرّبط بـذكاء مـا بين الأصالة والمعاصرة.

بيد أنّ الجزء الثّاني من العنوان بدا عامّا (في القصص القـرآني)، وحبـذا لـو جـاء أكثر عمقًا وتحت عنوان: تصريف القول القرآني في قصّة موسى ﵇، لأنّ المضمون أتى خاصّا لا يتساوق مع ما جاء في العنوان من تعميم للقصص القرآني.

وأخيراً أحيي تلك اللفتة الكريمة من جامعة مسـتغانم بإدارتهـا الرّشـيدة الوفيّـة التي دعت إلى ذلك التّكريم العلميّ الألـق النّبيـل الـذي يحتفـي بعلـم مـن أبنائهـا اختصه الله بعلم وافر فأجرى الخير والنّفع على يديه لطلبة العلـم في الجزائـر الحبيبـة وفي كلّ العالم، وأفخر بأني كنت واحدة ممّن شاركوا في هذا التّكريم العلمـيّ الرّفيـع والحمد لله أولاً وآخراً، فهو المنعم المتفضل الموفق لكلّ خير.

المصادر والمراجع

1- أبو السّعود، محمّد بن محمّد العمادي: إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم تحقيق عبد اللطيف عبد الرّحمن، بيروت دار الكتب العلميّة، 1419 هـ - 1999 م، ج.2

2- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني جدة،ط3 1413 هـ - 1992 م.

3- جمعة، حسين: جماليّة الخبر والإنشاء، دمشق 2005 م ، اتّحاد كتاب العرب.

4- الزّمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، بيروت دار الكتب العلميّة، 1995 م، ج.2

5- السّامرائي، فاضل: التّعبير القرآني، دار عمار عمّان الأردن، 1427 هـ - 2006 م الطّبعة الرّابعة.

6- قطب، سيد: التّصوير الفني في القرآن، دار المعارف مصر د.ت.

7- الكبيسي، أحمد عُبيد: من أنباء القرى مؤسّسة الرّسالة بيروت، 1428 هـ - 2007 م ، ط.1

8- المستغانمي، محمّد محمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني، دار ابن كثير.

9- الهبيل، عبد الرّحيم محمّد: فلسفة الجمال في البلاغة العربيّة، الدّار العربيّة للنّشر 2004 ط1.

الهوامش

[1]- المستغانمي، أمحمّد صافي، تصريف القول في القصص القرآني، دار ابن كثير، ص20.

[2]- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني جـده، ط3 1413 هـ - 1992 م. ص39.

[3]- الهبيل، عبد الرّحيم محمّد: فلسفة الجمال في البلاغة العربيّـة، الـدّار العربيّـة للنّشـر، 2004 ط1 ، ص 171 – 172.

[4]- المستغانمي، أمحمّد صافي: تصـريف القول في القصص القرآني، دار ابن كثير، ص8.

[5]- الشّيخ محمّد عبد العظيم الزرقاني.

[6]- المستغانمي، أمحمّد صافي: تصـريف القول في القصص القرآني، ص21.

[7]- المصدر نفسه، ص6.

[8]- المصدر نفسه، ص35.

[9]- المستغانمي، أمحمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني، ص 35 – 36.

[10]- القرآن الكريم: سورة الأنعام/ 46.

[11]المستغانمي، أمحمّد صافي: تصـريف القول في القصص القرآني، ص37.

[12]أبو السّعود، محمّد بن محمّد العمادي: إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، تحقيق عبـد اللطيـف عبد الرّحمن، بيروت دار الكتب العلميّة، 1419 هـ - 1999 م. ج2 ص383.

[13]الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيـون الأقاويـل في وجـوه التّأويل، بيروت دار الكتب العلميّة، 1995 م، ج2 ص642.

[14] –المستغانمي، أمحمّد صافي: تصـريف القول في القصص القرآني، ص39.

[15] –المصدر نفسه ، ص39.

[16]–المصدر نفسه، ص6.

[17]– يُنظر: في المستغانمي، أمحمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني، ص6.

[18]– السّامرائي، فاضل: التّعبير القـرآني، دار عـمار عـمّان الأردن، 1427 هــ – 2006 م الطّبعـة الرّابعـة ص252.

[19]– قطب، سيد: التّصوير الفني في القرآن، دار المعارف مصر د.ت ، ص129 .

[20]– المستغانمي، أمحمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني، ص9 .

[21]- السّامرائي، فاضل: التّعبير القـرآني، دار عـمار عـمّان الأردن، 1427 هــ – 2006 م الطّبعـة الرّابعـة ص283.

[22]– المرجع نفسه ، ص284.

[23]– الكبيسي، أحمد عُبيد: من أنباء القرى مؤسسة الرّسالة بيروت، 1428 هــ – 2007 م ، ط1 ص61.

[24]– يُنظر: المستغانمي، أمحمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني، ص12 .

[25]– يُنظر: تصـريف القول في القصص القرآني، أمحمّد صـافي المسـتغانمي، ص14 و ص83 و ص84 و ص86.

السّامرائي، فاضل: التّعبير القرآني، ص53 [26]

[27]– يُنظر: تصـريف القول في القصص القرآني، أمحمّد صافي المستغانمي، ص15 .

[28]– جمعة، حسين: جماليّة الخبر والإنشاء، دمشق 2005 م ، اتّحاد كتاب العرب، ص8.

[29]–يُنظر: تصريف القول في القصص القرآني، أمحمّد صافي المستغانمي، ص15 .

[30]– الهبيل، عبد الرّحيم محمّد: فلسفة الجمال في البلاغة العربيّة، ص 54 – 55.

[31]– المستغانمي، أمحمّد صافي: تصريف القول في القصص القرآني،ص13 .

فنّ الخطابة عند أحمّد صافي المستغانمي

وجهة نظر مفكّر وتجارب خطيب

- من خلال كتابه -الخطيب النّاجح

د.نورة قطوش

ج. محمّد بوضياف، المسيلة

مقدمة: تعدّ الخطابة من الأجناس الأدبيّة النّثريّة التي عرفها العرب منذ العصر الجاهليّ، وقد عرفت ازدهارا إلى جانب الشّعر خلال هذا العصر، وذكر (محمّد مرتاض) في كتابه (قراءة جديدة للنّثر العربي القديم) أنّ الشّعر في العصر الجاهليّ لم يكن لوحده فارس الميدان، بل كان إلى جانبه النّثر وخاصّة الخطابة وأنّ العصر الجاهلي قد حفل بعدد من الخطباء لكن التّاريخ الأدبي لم يذكر إلاّ خطبة (قس بن ساعدة)، وخطبة (أكثم بن صيفي)، ثمّ قدّم (مرتاض) نموذجين من خطب العصر الجاهلي وقام بتحليلها[1].

إذن كان للخطابة في العصر الجاهليّ شأن عظيم، إذ كانوا يستخدمونها في مناقراتهم ومفاخراتهم، وفي النّصح والإرشاد وفي الحثّ على قتال الأعداء، وفي الدّعوة إلى السّلم وحقن الدّماء، وفي مناسباتهم الاجتماعيّة المختلفة، وكانوا يخطبون في الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء[2].

ومن خصائص الخطابة في هذا العصر: الإيجاز، كثّرة السّجع أحيانا، تكون الخطبة حافلة بالحكم والأمثال، سيطرة العاطفة عليها، دعوتها إلى سمو الأخلاق

والتّبصر، وتحكيم العقل، سهولة ألفاظها، قصر جملها، ندرة الصّور البيانيّة فيها عدم استشهادها بالشّعر، وفرّة المحسنات البديعيّة، اشتمالها على إشارات مثيرة للعصبيّة القبليّة[3]، إذن يمكن القول أنّ الخطابة تأتي على رأس الأجناس ذات الصّبغة الشّفهيّة في الخطاب النّثري الممثل للبداوة بسماته التي تترع إلى لهجة المخاصمة وتأخذ فيه الكلمة المنطوقة قوّة الفعل[4] ولا بأس هنا من إشارة موجزة حول تعريف الخطابة لغة واصطلاحا، وذلك عند عدد من النّقاد والأدباء: حيث عرّفها (الشّيخ علي محفوظ) بقوله: "الخطابة في اللغة كالخطاب، توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، وفي اصطلاح الحكماء مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يُراد، والإقناع حمل السّامع على التّسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو التّرك"[5] ويضيف قائلا: "ويصح أن يُراد من الخطابة ملكة الاقتدار على الإقناع واستمالة القلوب وحمل الغير على ما يراد منه[6]".

ويعرفها (محمّد الطّاهر بن عاشور) في كتابه (أصول الإنشاء والخطابة) بقوله: «الخطابة ضرب من ضروب القياس وهي: القياس المؤلّف من أو مقبولة والأقوال المظنونة ما يؤخذ فيها بالمحتمل الرّاجح، والأقوال ما تتلقّى ممّن يُعتقد صدقه وسداد رأيّه[7]".

أمّا (أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي) فيرى في كتابه (إحكام صنعة الكلام): أنّ "الخطابة عند العرب تقوم على كلام منظوم له بال وهي أوّل ما استفتح بالتّحميد وأُعلم غفلة بالتّمجيد[8]". ويستحبّ في الخطب: التّقصير والإيجاز لاسيما

في خطب الجمعة. وقد أشار (أبو حيان التّوحيدي) إلى الخصائص الأسلوبيّة للخطابة، حيث يقول: " وأمّا بلاغة الخطابة فأن يكون اللفظ قريبا والإشارة فيها غالبة والسّجع عليها مستوليا والوهم في أضعافها سابحا وتكون فقرها قصارا "[9].

ولبيان أهميّة الخطابة، تكلّم البعض عن أهميّة الكلمة المعبّرة فيها ، حيث يرى(عثمان بوغانمي) في كتابه (الخطبة كنثر فنّي) أنّ: "وسائل التّعبير معروفة ومنها الكلمة والحركة، الصّوت واللون، والشّكل وكلّ ما ينتمي لذلك من وسائل أخرى ولكن المهمّ منها هي الوسائل الصّوتيّة والتي أكثر منها أهميّة ونركن إليها أكثر من غيرها هي الكلمة المعبّرة، ونوعها ووظيفتها، وحالتها إلى غير ذلك كيفيّة التّصرّف فيها بالنّظر إلى المخاطب"[10] ثمّ ركّز الكاتب على إفادة الغير أو الذّات من الخطبة وذلك في فصل بعنوان: نوعيّة الوشيجة بين المتكلّم والمستمع، حيث أكّد على إفادة الغير كهدف رئيسي للخطبة[11].

-**الخطابة في صدر الإسلام:** يفتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ النّثر العربي هي صفحة دين قويم (ولا يمضي نحو عشرين سنة حتى يجمع محمّد عليه الصّلاة والسّلام العرب على هذا الدّين الحنيف... لم يعدّ العرب قبائل متنابذة كما كانوا في الجاهليّة يقاتل بعضهم بعضا مفاخرين بالأحساب والأنساب بل أصبحوا جماعة واحدة رحماء فيما بينهم) [12]. ويعدّ النّبي ﷺ أخطب العرب، وقد كان يخطب في قريش كثيرا يدعوها إلى دينه الحنيف، وهذا ما يؤكّده (أبو القاسم محمّد بن عبد

الغفور الكلاعي) وذلـك في قولـه: " وأخطـب الخطبـاء الرّسـول ﷺ لأنّـه أفصـح العرب لسانا، لا بيان كبيانه، ولا كلام يعدل كلامه"[13] .

ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة في صلاة الجمعة والعيدين وبـذلك عرف العرب ضربا منظّما من الخطابة الدّينيّة لم يكونوا يعرفونه في الجاهليّـة إذ كانـت خطاباتهم اجتماعيّة وكانت تدور غالبا على المنافرات والمفاخرات، وقد دعا الإسـلام إلى نبذ التّفاخر والتّكاثر بالأحساب والأنساب، ومن ثمّة اختفـى مـن حيـاتهم هـذا اللون من الخطابة[14].

الخطابة في العصر الأمويّ: ازدهرت الخطابة في العصـر الأمـويّ وقـد عملـت في هذا الازدهار وهيّأت له أسباب مختلفـة منهـا السّـياسي، ومنهـا الـدّيني، ومنهـا العقلي أمّا من حيث السّياسة فقد كثرت الأحـزاب السّياسـيّة المعارضـة لبنـي أميّـة وكثر مشعّلوا الفتن والحروب الدّاخليّة وهذه الأحزاب والثّـورات لم تكـن تسـتعين في مواجهتها للأمويّين بالسّيوف فقط بل كانت تستعين بالخطـب والخطبـاء يـدعون لها ويحمّسون النّاس على الانفضاض عن الأمويين، وهذه الخطب السّياسـيّة كانـت تقترن بالدّين لسبب بسيط وهو أنّ الخليفة عند المسلمين يعدّ إمامهم.

فكان موضوع الخطابة دينيا ثمّ ارتبط الدّين بالسّياسة لتعدّد موضـوعاتها، حيـث ربط (أبو هـلال العسـكري) بـين الـدّين والسّـلطان ورأى بـأنّ الخطابـة والكتابـة (مختصّان بأمر الدّين والسّلطان).[15]

وبما أنّ الخطابة جنس نثري شفهي إلقائي بالأساس يعتمد على مواجهة الجماهير ويهدف الخطيب إلى إثارة مشاعرهم لإقناعهم فقد حظي الخطيب هو الآخر بعنايّة النّقاد واشترطوا فيه شروطا لتحقيق غايته منها الثّقافة الواسعة إضافة إلى الموهبة الفطريّة، كما اشترطوا في الخطيب أن تكون له مقدرة على معرفة نفسيّة المتلقّين حتّى يستطيع أن يصل إلى مواضع التّأثير في نفوسهم. كذلك من الشّروط جهارة الصّوت.

- **خصائص فنّ الخطابة عند أمحمّد صافي المستغانمي**: قدّم لنا الدّكتور (أمحمّد صافي المستغانمي) وجهة نظره في فنّ الخطابة، من حيث التّعريف والنّشأة والخصائص، وكذلك قدّم خلاصة تجاربه في هذا الميدان، كلّ ذلك ضمن كتابه المميّز (الخطيب النّاجح)، حيث تناول الكاتب في مقدّمة كتابه المنزلة السّاميّة التي تبوّأها الشّعر والخطابة عند العرب منذ القدم، ثمّ بيّن الأهميّة الكبرى التي كان يوليها العرب للغتهم، ثمّ تطرّق لمنزلة اللغة العربيّة اليوم عند أهلها، وهو يرى أنّها أصبحت غريبة في دارها منكّسة أعلامها، كاد لها أعداؤها قديما وحديثا. ثمّ يذكر أنّ (ما حرّك أشجانه ودفعه للكتابة حول الخطابة هو أنّ السّواد الأعظم من خطباء المساجد والمحافل اليوم خلوا من زاد فنّ الخطابة).[16]

ثمّ طرح الكاتب إشكاليّة محدّدة: ما هي الخطابة؟ وما مقوّمات الخطيب النّاجح وما الزّاد الذي عليه أن يتشبّع به؟ وما العوامل المساعدة على نجاح الخطبة في العصر الحديث؟

-قسّم الكاتب كتابه إلى مدخل وفصلين، الفصل الأوّل في مقوّمات فنّ الخطابة والفصل الثّاني ذكر فيه نماذج من روائع الخطب.

الملاحظ أنّ مقدّمة الكتاب موجزة، ومركّزة جدّا، قدّم فيها الكاتب إنارة للقارئ حول فنّ الخطابة والشّعر ومكانتهما عند العرب قديما، كما أشار إلى الأهميّة الفائقة للعرب قديما بلغتهم، وذكر أنّ اللغة العربيّة اليوم أصبحت غريبة.

فالمقدّمة فيها تشجيع للقارئ للإقبال بكلّ حماس على قراءة هذا الكتاب والاهتداء إلى السّبيل المثل ليكون خطيبا ناجحا.

-**منهجيّة الكاتب**: أمّا منهجيّا فقد قسّم كتابه إلى مدخل وفصلين، ويندرج ضمن كلّ فصل مجموعة من المباحث والمطالب تساعد المتلقّي على ترتيب أفكاره وفهم الموضوع بطريقة سلسة، حيث أنّه جمع زبدة ما قيل حول هذا الفنّ النّثري وقدّمه بطريقة مبسّطة، وفي الوقت نفسه أفكارها مركّزة. وبذلك أماط اللّثام عن بعض النّقاط الغامضة التي استعصى على بعض الدّارسين فهمها من كتب التّراث المتخصّصة، فقدّمها لنا الكاتب في قالب حداثي وأسلوب بسيط مشوّق.

-الفصل الأوّل من الكتاب نظري، قدّم الكاتب من خلاله تعريف الخطابة لغة واصطلاحا، وهو يرى أنّ علماء البيان والنّقد الأدبي قد عرّفوا الخطابة تعريفات متقاربة، تدور كلّها حول العناصر التاليّة: مخاطبة الجماهير، الإلقاء والمشافهة الإقناع والاستمالة.

ثمّ ذكر العوامل المساعدة على نشأة الخطابة عند العرب، كما تطرّق فيه إلى أنواع الخطب[17].

ولعلّ أهمّ نقطة أشار إليها د. أمحمّد صافي المستغانمي في هذا الفصل هي ضعف الخطبة الدّينيّة، ثم قدّم لنا وسائل النّهوض بها.

-كيفيّة إعداد الخطبة من وجهة نظر أمحمّد صافي المستغانمي: يرى الكاتب أنّ الخطيب يمرّ بمراحل في إنشاء أو إعداد خطبته:

-المرحلة الأولى: اختيار الموضوع، والمرحلة الثّانيّة تركيب العناصر وتنسيقها والمرحلة الثّالثة اختيار الشّواهد والأدلة، والمرحلة الرّابعة الصّياغة النّهائيّة[18]. وأشار الكاتب إلى ضرورة إعداد الخطيب نفسه، ومدى قناعته بالرّسالة الدّعويّة التي يحملها وعليه أن يعي أنّه يحمل على عاتقه مهمّة الأنبياء والمرسلين وهي مهمّة شاقّة تتطلّب قوّة نفسيّة وشجاعة أدبيّة ومراسا ودُربة وصبرا، وهنا نلاحظ أنّ الكاتب يدلّ الخطيب على الطّريق الصّحيح لتكوين نفسه، وينصحه بأن يكون النّبي عليه الصّلاة والسّلام قدوته.

-اختيار الموضوع: يرى (أمحمّد صافي المستغانمي) أنّ الخطيب البارع هو الذي يُحسن اختيار موضوع خطبته، لذا كان لزاما على الخطيب النّاجح أن يُحسن اختيار المواضيع التي تهمّ أبناء مجتمعه، من حيث اهتماماتهم ومشاكلهم، وهي نقطة مهمّة يُشكر الأستاذ عليها، ويضيف قائلا: "وإذا استطاع أن يختار المواضيع الحساسة التي تؤرّق جمهور النّاس في بلدته فغن كلامه سوف يقع من قلوبهم موقع الدّواء

الشّافي" [19]ثم قدّم لنا مثالا على ذلك من خلال تقديم دعوة للقارئ ليقوم بمقارنة بين خطيب في القرن الواحد والعشرين، يتحدّث إلى جمهوره في موضوع الرّق والجواري والعبيد والأحكام الخاصّة بهم في الفقه الإسلاميّ، وبين خطيب يتحدّث لجمهوره عن المعجزة القرآنيّة وخلودها وصلاحيّة الشّريعة الإسلاميّة لأن تطبق في كلّ زمان ومكان. ثمّ يتساءل عن أيّهما ستتّجه الأنظار إليه، وترك الجواب للقارئ وأكيد ستتجه الأنظار إلى ذلك الخطيب الذي يتكلّم عن المعجزة القرآنيّة وخلودها. وهذه نقطة إضافيّة أنار بها الدّكتور درب كلّ من يريد خوض غمار الخطابة، وطبعا هذا بناء على تجربته الشّخصيّة، كما حرص الكاتب على أن يختار الخطيب موضوعا محدّدا ولا يشتّت أذهان السّامعين.[20]

-**تنسيق عناصر الخطبة**: حيث يقول في ذلك: "وهو أن تُبنى أجزاء الخطبة بعضها على بعض بناء منطقيّا حيث تمهّد المقدّمة للموضوع وتتسلسل العناصر في منطقيّة وسلاسة جذّابة تقود إلى الخاتمة الموجزة الملخصّة التي يرمي إليها الخطيب".[21]

-**مرتكزات فنّ تحضير الخطبة**: وهي نقطة محوريّة تطرّق الكاتب إليها حيث يرى أنّ " كلّ النّاس يشعرون بجاذبيّة ساحرة تجاه الخطيب الذي يملك رسالة محدّدة يريد أن يوصلها إليهم" [22] ورأى أنّ الخطيب يكون أكثر تأثير وقبولا لدى جمهوره إذا أتقن تحضير خطبته، وأكّد أنّ التّحضير الجيّد للخطبة من أهمّ أسباب نجاحها ورأى أنّه لا مانع أن يطالع الخطيب الكثير حول موضوعه ولا مانع من

حفظ العبارات والفقرات لكنّ الأهمّ من ذلـك أن يقتنـع هـو بأفكارهـا، ويعـيش مضـمونها ويـنفخ فيهـا مـن روحـه، وأن يرفـدها بتجاربـه وهنـا تظهـر براعتـه[23] وباختصار فهو يرى أن يعيش الخطيب خطبتـه ويـؤمن بأفكارهـا فيجـد سـهولة في إلقائها.

-**الأسلوب الخطابيّ**: قدّم من خلال هذا العنصر السّمات والخصائص التي تميّـز الخطبة عن بقيّة الفنّون الأدبيّة الأخرى، ومنها: وضوح الألفاظ والعبارات والتـزام الجمل القصيرة وحسن استعمال المترادفات، ومراعاة مقتضـى الحال وحسن سـوق الشّواهد، والتّوشيح بالحكم والأمثـال وروائـع الشّـعار، والتّناسـب التّـوافقي بـين طبائع الألفاظ والموضوعات الخطابيّة حيـث يقـول: "الكلمـة صـورة حيّـة لـنفس قائلها ومرآة عاكسة لروحه منها تستمدّ قوّتها أو ضعفها ولكـي يـوفي الخطيـب كـلّ مقام حقّه من التّعبير، فإنّه يحسن به أن يتخيّر ألفاظ خطبته[24]"

وبإيجاز فإنّ الكاتـب يـرى أنّ الألفـاظ التـي يسـتعملها الخطيـب تحمـل نفسـه وتعكس روحه، وتتناسب مع الموضـوع الـذي يتحـدث فيـه قـوّة وضـعفا، ورقـة وسلاسة، وتخضع للمقولة النّقديّة الصّائبة (لكلّ مقام مقال)[25].

كما رأى أنّه لا بدّ للخطيب من خطة يسير وفقهـا، فثمّـة خطبـاء يسـتهويهم فـنّ القول –حسب رأيه –فيطرقون مواضـيع شـتّى في آن واحـد، ويسـتطردون فـيما لا طائل من ورائه وتكون النّتيجة أن يضيع حـبّ التّفكـير لـدى السّـامعين، مـن هنـا

وجب أن تكون للخطيب خطة يهتدي بها، وبداية ينطلق منها ونهاية يأوي إليها وعندما تتّضح معالم خطبته فإنّه يستطيع أن يؤدّي رسالته التي ينشدها.

-وأكّد (أمحمّد صافي المستغانمي) على أنّ التّحضير الكتابي وسيلة فعّالة لإتقان فنّ الخطابة[26].

-**مواصفات الخطيب النّاجح حسب رأي (أمحمّد صافي المستغانمي)**: ذكر (أمحمّد صافي المستغانمي) مجموعة من الصّفات يجب توفّرها في الخطيب النّاجح منها ما هو متعلّق بذات الخطيب ومنها متعلّق بمظهره:

- **الصّفات التي تتعلق بذات الخطيب**: وذكر منها الاستعداد الفطري فالخطيب الحقّ هو من يتمتّع باستعداد فطري ويجيئه الكلام عفو الخاطر وتزيده الدّربة والمراس ارتقاء وتفنّنا في ميدان الخطابة. بالإضافة إلى طلاقة اللسان ورباطة الجأش والقدرة على مراعاة مقتضى الحال، كما ذكر منها الجرأة والشّجاعة والثّقة بالنّفس ثمّ قدّم لنا نصائح كيف ينمّي شجاعته وثقته بنفسه، وقال بأنّ التّدريب والممارسة كفيلان بأن يزرعا لدى الخطيب الشّجاعة والثّقة بالنّفس.

-**صلاح الخطيب**: حيث رأى أنّ الخطيب النّاجح هو من يتّصف بالورع والتّقوى، وهذا الرّأي يتوافق مع ما قال به (أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي) وذلك في قوله: "وممّا يُستحب للخطيب أن يجمع ذهنه ويحضر تخشعه ويخلص لله سبحانه نيّته، ويشغل بذكره حواسه فإنّه إن فعل ذلك اشتغل عن

المخلوق بالخالق فلم تلحقه هيبة ولم يخامره دهش ولم ينحل عقد نظامه ولم تنضب أوديّة كلامه".[27]

وأضاف (د. أمحمّد صافي المستغانمي) حسن الخلق وسداد الرّأي وحسن البصيرة. وأهمّ هذه الصّفات، حسن الإلقاء، حيث قدّم توجيهات خاصّة بسر الإلقاء الجيّد[28].

-أمّا الصّفات المتعلّقة بالمظهر الخارجي فمنها: وقار لبسه، وجمال مظهره، وقفته حال أداء الخطبة، مع حسن الإشارة واتزان حركاته. كما قدّم الكاتب مجموعة من الوصايا لا يستغني عنها أيّ خطيب.

-وفي الأخير لابدّ من الإشارة إلى أربع نصائح ضروريّة للخطيب النّاجح يمكن القول أنّها وجهة نظر الكاتب وخلاصة تجاربه حيث يقول:

-ابدأ برغبة قويّة: إذا كانت لدى الخطيب رغبة قويّة وهمّة عاليّة للنّبوغ في فنّ الخطابة فإنّه سيحرز تقدّما هائلا في زمن قصير جدّا؛

- اعرف ما الذي ستتحدّث عنه، بالإضافة إلى التّصرّف بثقة تامّة؛

-وذكر الكاتب أنّه لا شيء يوقد شعلة الخطابة ويلهبها مثل تصرّف الخطيب بثقّة وشعوره بأنّه يمتلك قدرة فائقة على الخطابة؛

-ثمّ أكّد على نقطة أخيرة وهي حسن التّدريب والممارسة حيث يقول: "تدرّب ثمّ تدرّب، ثمّ تدرّب مهما كانت النّصائح مجديّة فإنّك لن تكون خطيبا مفوها إلاّ بالتّدريب والممارسة".[29]

خاتمة: ما يمكن قوله في الأخير هو أنّ (د. أمحمّد صافي المستغانمي) قد جمع لنا كلّ ما يتعلّق بالخطابة، حيث أشار إلى نشأتها ومفهومها وخصائصها منذ العصور الأولى وأحاط بكلّ ما قدّمه العلماء في كتب التّراث العربي، ثمّ قام بتصنيف مادّة كتابه بطريقة دقيقة وممنهجة.

تقريبا جمع الكاتب في بحثه هذا كلّ ما يتعلّق بفنّ الخطابة من مهارات وتقنيّات، فالكاتب بحث في الكتب المتخصّصة التي تناولت فنّ الخطابة وأضاف عليه ما توصّل إليه من آراء من خلال تجربته الشّخصيّة. وبذلك يكون الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي قد قدّم للقارئ زبدة ما كُتب حول هذا الموضوع.

وقدّمه بطريقة اتّسمت بالبساطة والوضوح لكنّ أفكاره مركّزة. وبذلك يكون قد أحاط –ولو نسبيا–بكلّ ما يحتاجه الخطيب في هذا العصر ليؤدّي رسالته الدّعويّة على أكمل وجه، وليكون حقّا خطيبا ناجحا.

وفي الأخير لا يسعنا إلّا أن نتقدّم بجزيل الشّكر ووافر الامتنان إلى الدّكتور (أمحمّد صافي المستغانمي) على كلّ ما قدّمه من أفكار بنّاءة، وآراء سديدة للارتقاء بفنّ الخطابة في هذا العصر، وعلى توجيهاته الصّائبة التي يستعين بها كلّ خطيب انبرى للدّعوة وتقديم النّصح والإرشاد لأفراد مجتمعه، وهي نصائح بمثابة دُرر نفيسة قدّمها لنا علاّمة وخطيب مفوّه، وهي خلاصة آرائه وتجاربه في هذا المجال.

المراجع:

1 - أبو حيان التّوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين، أحمد الزّين، منشورات دار مكتبة الحياة، ج2، د.ت.

2 - شوقي ضيف: الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ، دار المعارف، ط15، 2009م.

3 - الشّيخ علي محفوظ: فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام-دار النّصر للطّباعة الإسلاميّة، مصر، 1984م.

4 -عثمان بوغانمي: الخطبة كنثر فنّي، الشّركة التّونسيّة لفنّون الرّسم، تونس 1978م.

5 - محمّد الطّاهر بن عاشور: أصول الإنشاء والخطابة، تح: ياسر بن حامد المطيري مكتبة دار المنهاج للنّشر والتّوزيع، الرّياض، د ت.

6 - محمّد مرتاض: قراءة جديدة للنّثر العربي القديم (من العصر الجاهليّ إلى نهايّة العصر الأمويّ)، ديوان المطبوعات الجامعيّة ـ الجزائر، 2012م.

7 -أ محمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح –بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع- دار ابن كثير، ط1، 2017م.

8 - أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، تح: محمّد لرضوان الدّايّة، دار الثّقافة بيروت، لبنان، 1966م.

9 -مصطفى البشير قط: مفهوم النّثر الفنّي وأجناسه في النّقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2010م.

10 -أبو هلال العسكريّ: الصّناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة بيروت ط، 1981م.

الهوامش والإحالات:

[1]- ينظر: محمّد مرتاض: قراءة جديدة للنّثر العربي القديم (من العصر الجاهلي إلى نهايّة العصر الأمويّ) ديوان المطبوعات الجامعيّة ـالجزائر، 2012م.

[2]- شوقي ضيف: الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي، دار المعارف، ط15، 2009م، ص27

[3]- محمّد مرتاض: قراءة جديدة للنّثر العربي القديم، ص32.

[4]-مصطفى البشير قط: مفهوم النّثر الفنّي وأجناسه في النّقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2010م، ص89.[4]

[5]-الشّيخ علي محفوظ: فنّ الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام-دار النّصر للطّباعة الإسلاميّة مصر، 1984م، ص13.

[6]- نفسه، ص14.

[7]- محمّد الطّاهر بن عاشور: أصول الإنشاء والخطابة، تح: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنّشر والتّوزيع، الرّياض، د ت، ص173.

[8]- أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، ص166.

[9]- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين، أحمد الزّين، منشورات دار مكتبة الحياة ج2، د.ت، ص141.

[10]- عثمان بوغانمي: الخطبة كنثر فنّي، الشّركة التونسيّة لفنّون الرّسم، تونس، 1978م، ص20

[11]- المرجع نفسه، ص24.

[12]- شوقي ضيف: الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ، ص42.

[13] -أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، تح: محمّد رضوان الدّايّة، دار الثّقافة بيروت، لبنان، 1966، ص166. [13]

[14]- شوقي ضيف: الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ، ص52

[15]- أبو هلال العسكري: الصّناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلميّـة، بـيروت، ط، 1981م ص151.

[16]- أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح – بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع- دار ابـن كثـير ط1، 2017م، ص.9.

[17]-ينظر: أمحمّد صافي المستغانمي: الخطيب النّاجح، ص23 وما بعدها.

[18]- المرجع نفسه، ص41.

[19]-المرجع نفسه، ص43.

[20]- المرجع نفسه.

[21]-المرجع نفسه، ص44.وما بعدها.

[22]- المرجع نفسه، ص52.

[23]- المرجع نفسه، ص ن

[24]-المرجع نفسه، ص60.

[25]-المرجع نفسه، ص 61.

[26]- المرجع نفسه، ص54.

[27]- أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، ص167.

[28]- ينظر ص83، وما بعدها.

[29]-المرجع نفسه، ص 103.

الإخبار بما وصل شنقيط من أخبار حَبْر مستغانم (الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي)

الشّيخ ولد الزّين ولد الامام
عضو المجلس الاسلاميّ الأعلى سابقا
عضو مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا

مقدمة: الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله وبعد؛

فإنّ ابن خلدون[1] قد قال مرّة عن ابن هشام النّحوي: (ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنّه ظهر بمصر عالم بالعربيّة يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه).

هذه المقولة لو أردنا تنزيلها على ما نحن بصدده لقلنا:

ما زلنا ونحن ببلاد بشنقيط نسمع أنّه ظهر بالشّارقة وأصله من مستغانم عالم ضليع مفسر خبير باللسان العربيّ يسير سير الجاحظ[2] وابن المعتز[3] والزّمخشري[4] والسّكاكي[5] والخطيب القزويني[6] وابن سنان الخفاجي[7] يدعى الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي.

ولأنّنا وصلتنا دعوة للمشاركة في ندوة تكريميّة لهذا العلامة الفاضل، فقد أردنا أن نشارك بورقة تحت عنوان (الإخبار بما وصل شنقيط من أخبار حَبْر مستغانم).

والعنوان معبّر عن واقع فلم نعرف العلامة الدّكتور عن قرب وأظنّنا التقينا مرّة واحدة في ندوة انعقدت بنواكشوط قبل سنوات ... لكن أخباره ومؤلّفاته وصلت

إلينا كما وصلت إلى غيرنا ... كانت محادثة الرّكبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر حتى التقينا فو الله ما سمعت أذني بأحسن ممّا رأى بصريّ، أهلنا بشنقيط يجلون العربيّة ويبجلون علماء اللغة بل يعتبرون الإعراب عنوان الفتوة حتّى إنّهم يحرمون الضّحك على من لا يعرف الإعراب ...

عجبت من ضحك من لا يعربن به
وليس له من ضحك إلاّ قول هه

وأهلنا بشنقيط يعتبرون أنفسهم أهل هذه اللغة لذا يحتفلون بكلّ عالم ضليع ينتمي لنادي العربيّة وقد قال قائلهم:

"لنا العربيّة الفصحى وإنّا أعم العالمين بها انتفاعا
فمرضعنا الصّغير بها يناغى ومرضعه تكورها قناعا
فنأخذها من الكتب اعتمادا بما فيها ونأخذها ارتضاعا"

وأهل شنقيط لا يعطون لأحدّ السّبق فى العروبة ودليلهم على ذلك هو سلاقتهم وشاعريتهم:

"لنا العربيّة الفصحى وإنا
أعم العالمين بها انتفاعا
فمرضعنا الصّغير بها يناغى
ومرضعه تكورها قناعا
فنأخذها من الكتب اعتمادا
بما فيها ونأخذها ارتضاعا"

تلك عارضة جئت بها لا عن سهو أو بلاهة إنّما هي للتّدليل على مكانة وأيّ مكانة لعالم الضّليع بلغة القرآن عند أهلنا بشنقيط ...

ولدواع منهجيّة صرفه قسمت الموضوع وفق المنهجيّة التّالية:

1- مدخل في أهميّة علم التّراجم.

2- التّعريف بالعلّامة الدّكتور وبأهمّ أعماله العلميّة المنشورة ومظاهر الجدّة والتّجديد فيها.

3- خاتمة.

-1-مدخل في أهميّة تراجم الرّجال: يدخل هذا البحث ضمن علم التّراجم وهو (العلم الذي يعنى ببيان سير الأعلام عامّة وذكر حياتهم الشّخصية ومواقفهم وأثرهم في الحياة وتأثيرهم الرّيس.[8]

ويعرف أيضا بأنّه العلم الذي يتناول سير حياة الأعلام من النّاس عبر العصور المختلفة، وهو علم دقيق يبحث في أحوال الشّخصيات والأفراد من النّاس، الذين تركوا آثاراً في المجتمع.

ويتناول هذا العلم طبقات النّاس كافة من الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والقادة والعلماء ـ في شتّى المجالات ـ والفقهاء والأدباء والشّعراء والفلاسفة وغيرهم، ويهتمّ بذكر حياتهم الشّخصية، ومواقفهم وأثرهم في الحياة وتأثيرهم فيها. عدنان كاتبي.[9]

وعلم التّراجم قديم قدم الإنسان، ومن أقدم ما وصلنا هو كتاب (العظماء: عظماء اليونان والرّومان والموازنة بينهم) للمؤرّخ والفيلسوف اليوناني (بلوتارك) وكتابه أيضا (تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق) لكن هذا العلم بلغ مع المسلمين مرحلة النّضج والاكتمال، سيما أنّ ظهوره في الثّقافة الإسلاميّة ارتبط بالرّغبة في حماية الحديث النّبوي الشّريف من الكذب والتّدليس والتّلفيق.

ومن هنا تُفسر تلك العناية اللافتة بهذا العلم، إذ أنّه، من جهة، انخراط في سلك حماية الشّريعة والذّب عنها، خاصّة أنّه اعتنى بالحديث النّبوي الشّريف من حيث رواته، ومن جهة أخرى يعتبر هذا العلم، إن جاز التّعبير، نوعا من الوفاء والمحبّة لمن نذر عمره للدّين القويم، خدمة وجهادا ودفاعا وعلما والرّجوع إلى مقدّمات كتب التّراجم سيؤكّد ذلك، كلّ هذا جعل التّفنن في هذا العلم عند المسلمين علامة فارقة عما عند سواهم .

وأخبار الأعلام المراد ترجمتهم تستقى من حديث الأعلام عن أنفسهم بأنفسهم حيث يكون ذلك مبثوثا في بعض مذكّراتهم، أو ما يكتبونه عن الأحداث المرتبطة بهم أو المواقف التي عرضت لهم، وقد يكون كلّ ذلك منقولا عنهم مشافهة أو مدوّنا في تصانيف غيرهم، ومن تلك المصادر أيضا، ما كتب عن الأعلام من طرف أهله أو تلاميذه أو من مقربيه أمّا نقل عنهم بسند من طلابهم ومعاصريهم، ولعل هذه هي المصادر التى مكّنتنا من التّعرف على الجهبذ العلاّمة الدّكتور أمحمّد صافي

المستغانمي ... فما وصلنا من أحاديث منسوبة إليه من طرف الثّقة وكذلك مؤلّفاته التي أضحت أحاديث الرّكبان، هي مصادر هذا المكتوب ...

3-التّعريف بحَبْر مستغانم وأهمّ أعماله المنشورة: عرفت مستغانم قديما بمينائها الفينيقي المسمى (موريستاقا) والذي أعاد بناءه الرّومان في زمن الإمبراطور غالينوس ودخلها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين سنة 1082م وقام ببناء القلعة القديمة بها المعروفة بـ(برج المحال)، وقد ذكرت في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر للمؤرّخ ابن خلدون المعروف بتاريخ ابن خلدون.

وتشتهر مستغانم بجمع من الصّلحاء والعلماء الذين ولدوا بها أو عاشوا بها ودفنوا بها. ومن هؤلاء سيدي لخضر بن خلوف وغيره من الأولياء والعلماء والصّلحاء المشهورين ...

ولد صاحبنا الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي فى هذه البلدة الطّيبة وترعّرع فيها، ولا نستفيض في ذكر مشواره العلميّ ونحيل الى مؤلّفاته موضوع المناقشة[10] وإذا كان في مستغانم يعتبر واحدا فإنّه خارجها جمع ولقد أحسن الشّافعي:

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدب

مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ

سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقهُ

وَانْصِبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيــــــتُ وقـــــوفَ المـــــاء يفســــــدهُ
إِنْ سَـــال طَـــابَ وَإِنْ لَمْ يَجْـــرِ لَمْ يَطِـــبِ

والأسـدُ لــولا فــراقُ الأرض مــا افترســت
والسَّــهمُ لــولا فــراقُ القــوسِ لم يصــب

والشّـــمس لـــو وقفـــت في الفلـــكِ دائمـــة
لَمَلَّهَـــا النّـــاسُ مِـــنْ عُجْـــمٍ وَمِـــنَ عَـــرَبِ

والبــدر لــولا أفــول منــه مــا نظــرت
إليــه في كــل حــين عــين مرتقــب

والتَّـــبْرَ كـــالتُّرْبَ مُلْقَـــى في أَمَاكِنِـــه
والعـــودُ في أرضـــه نـــوعٌ مـــن الحطـــب

فـــإن تغـــرَّب هـــذا عـــزَّ مطلبـــهُ
وإنْ تَغَـــرَّبَ ذَاكَ عَـــزَّ كالـــذَّهَبِ

ولعلّنا هنا نريد التّنويه بعملين متميّزين من أعماله المنشورة والمتداولة بين النّاس في المشرق والمغرب ...

2-1-كتابه الموسوم بلاغة النّظم في لغة الجسم: يدخل الكتاب ضمن الدّراسات القرآنيّة وتصل صفحاته 579 صفحة ويناقش التّعابير والترّاكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء جسم الانسان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

ومن المعروف أنّ القرآن الكريم، هو معجزة النّبيّ ﷺ الخالدة، التي تحدّى الله تعالى بها العرب وغيرهم على الإتيان بمثله، وما يزال هذا التّحدّي قائماً إلى قيام السّاعة، فالقرآن الكريم هو كلام الله المعجِز في ألفاظه وتراكيبه ونظمه ومضمونه وقد ثبت عجز أهل اللغة عن الإتيان بمثل آياته، وينقسم الإعجاز في القرآن الكريم إلى عدّة أنواعٍ، منها: الإعجاز الغيبيّ والتّشريعي والعلميّ، والبيانيّ الذي يُظهر جمال نظم الكلمات القرآنيّة، بحيث تُوصل هذه الكلمات المعنى بأدقّ أبدع تعبيرٍ ووصف؛ بحيث لو وضعت كلمةٌ عربيّةٌ أخرى لتؤدّي ذات المعنى في التّركيب القرآني لم يوجد أفصح وأدقّ من اللفظ القرآني المختار، وقد أدرك العرب القدامى دقّة الكلمات القرآنيّة في سياقها، وأقرّوا بفصاحته التي عجزوا عن بلوغها، حتى أنّ منهم من قال عند سماعه: (والله إنّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثّمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول بشر) وفي ذلك شهادةٌ من الذين عادوا النّبيّ ﷺ ورفضوا دعوته على عظمة هذا الكتاب وتفوّقه في الفصاحة والبلاغة والبيان عليهم، وهمّ أهل فصاحةٍ وبيانٍ.[١]

وقد قسّم الباحث كتابه الى جملة من الابواب والفصول.

في الباب الأوّل، ثلاثة فصول.

الفصل الأوّل: التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالرّأس والنّاصية.

وفى **الفصل الثّاني**: التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالعنق والرّقبة والجيد وفي **الفصل الثّالث** التّراكيب المتعلّقة بأعضاء الجسم الأخرى.

وفي **الباب الثّاني**: بلاغة النّظم في التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالوجه وما حوى وفيه فصول.

الفصل الأوّل: التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالوجه وفيه مطالب كثيرة.

الفصل الثّاني: التّراكيب المتعلّقة بالعين وفيه أيضا مطالب كثيرة.

الفصل الثّالث: التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالأذن والأنف وفيه مباحث ومطالب كثيرة؛ **الفصل الرّابع**: التّراكيب المتعلّقة بالفمّ واللسان والحلقوم والحنجرة وفيه مباحث كثيرة أيضا.

الباب الثّالث بلاغة النّظم في التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالأيدي والأرجل وما حوت وفيه فصول ومباحث كثيرة.

الباب الرّابع: بلاغة النّظم في التّراكيب اللغويّة المتعلّقة بالقلب والصّدر وما جاورهما وفيه فصول ومباحث كثيرة.

- وخاتمة.

-وفهارس.

وتبرز أهميّة الكتاب من حيث أنّه كان فاتحة لمبحث علميّ لم يسبق له. فالحديث عن أعضاء الإنسان، وأوجه الترّاكيب والتّعابير القرآنية بشأنها يعتبر مشغلا علميّا وأدبيا مستجدا على الدّراسات البلاغيّة ...

2-2- **كتابه الموسوم تصريف القول في القصص القرآنيّ**: يُعرَّف القَصص القرآني بأنّه: حكايةُ الأنباء، وممّا تنبغي الإشارة إليه ما يدخل في تلك الحكايا من

قَصصٍ، كقَصص الأنبياء -عليهم السّلام- وما أُخبِر عنهم، أو ما حدث لقومٍ كفروا أو كذّبوا بالله، أو ما جاء في ذِكْر المؤمنين من إكرام الله -تعالى- لهم، أو ما جاء من أخبار الدُّنيا والآخرة؛ إذ إنّ كُلّ ما ورد في ذلك قَصَصٌ قرآنيٌ بالإضافة إلى ما ورد في تحريم الله -تعالى- بعض الأمور على السَّابقين من الأقوام الماضيّة، كقول الله ﷻ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٧].

ويتمتّع القَصص القرآني بعدّة خصائصٍ يناقشها هذا الكتاب وبالخصوص خاصيّة تصريف القول في النّظم القرآني بشكل عامّ، وفي القصص القرآني بشكل خاصّ ويركّز على قصّة موسى عليه السلام بصفة أخصّ لما شغلته من حيز ضمن القصص القرآني عامّة.

ويقع الكتاب فى 335 صفحة وقد فصله منهجيا الى:

- **مدخل** في مصطلح التّفنن. التّكرار. التّنويع. التّشابه. تصريف القول؛
- **الفصل الأول**: تصريف القول في الكمّ الايجاز والاطناب والمساواة وفيه مباحث؛
- **الفصل الثّاني**: تصريف القول في موقعيّة الكلمة وفيه مباحث؛
- **الفصل الثّالث**: تصريف القول في قوة التّركيب وفيه مباحث؛
- **الفصل الرّابع**: تصريف القول في نوع الجملة وفيه مباحث؛
- **الفصل الخامس**: تصريف القول في الرّبط الفصل والوصل؛
- **الفصل السّادس**: تصريف القول بالتّناسب وفيه مباحث؛

- **الفصل السّابع**: تصـريف القول بالتّكامل وفيه مباحث؛
- **الخاتمة**.

وتنبع أهميّة هذا الكتاب بكوّنه كان إسهاما علميّا رصينا في تحليل ظاهرة بلاغيّـة وإظهار مستوى الاعجاز القرآنيّ لأرباب وسدنة هذه اللغة.

خاتمة: تنبع أهميّة هذا البحث بكونه، إسهاما في تخليد مآثر شخصيّة علميّة ولقد أدرك أسلافنا العلماء أهميّة علم التّراجم وسير الأفراد، ومن ذلك نذكر قول الشّيخ محمّد عبد الحيّ اللكنوي[11] حيث يقول: (وأجلها فنّ تراجم الكبار، وأخبار الأخيار، ففيه غير ما مضى فوائد جمّة، ومنافع مهمّة منها: الاطلاع على مناقبهم وأوصافهم ونباهتهم وجلالتهم، ليحصل التّأدب بآدابهم، والتّخلق بأخلاقهم فيحشر في زمرتهم، ويدخل فيهم، وإن لم يكن منهم، ومنها: الاطلاع على مراتبهم ومدارجهم، فيؤمن به من تنزيل أعلى الرّتبة إلى الأدنى، وتعريج أدنى الرّتبة إلى الأعلى، واختيار قول أدناهم على أعلاهم عند تعارض أقوالهم وإفاداتهم، ومنها: الاطلاع على مواليدهم، وأعصارهم ووفياتهم وأزمانهم، فيحصل الأمن من جعل القديم حديثا، والحديث قديما، والمتقدّم متأخراً والمتأخر متقدّماً، ومنها: الاطلاع على آثارهم وحكاياتهم وتصنيفاتهم، فيتحرك عرق الشّوق إلى الاهتداء بهديهم والاقتداء بسيرهم).

ولقد أعجبت كثيرا بعصامية هذا الفحل وهذا الحَبْر الذى خرج للآفاق من بلدة وادعة بالمغرب الاسلاميّ ليطلع نجما بازغا بشارقة الأنوار وليكون علما من أعلام الأمّة وهو ما زال في ربيع عمره، ورج الفتى للخير ما إنّ رأيته * على السّن خيرا لا يزال يزيد إنّ دراسة حضوره العلميّ ومساهماته الفكريّة نموذج للشّباب وللعلماء أيضا ...

أَسِـــيرِ خَلْـــفَ رِكَـــابِ النّجْـــبِ ذَا عَـــرَجٍ
مُـــؤَمَّلاً جَـــبْرَ مَـــا لاقَيْـــتُ مِـــنْ عِـــوَجِ

فَـــإِنَّ لَحِقْـــتُ بِهِـــمْ مِـــنْ بَعـــدِ مَـــا سَـــبَقُوا
فَكَـــمْ لِـــرَب السَّـــمَا فِي النّـــاسِ مِـــنْ فَـــرجِ

وَإِنْ ظَلَلْـــــتُ بقَفْـــــرِ الأرضِ مُنْقَطِعًـــــا
فَـــمَا عَـــلَى عَـــرَجٍ فِي ذَاكَ مِـــنْ حَـــرَجِ

إنّ العلامة الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي نموذج فى عصاميته وجدّه واجتهاده لهذا فإنّ العمل على تكريمه تكريم للأمّة والبلدة والبلد الذي أنجبه بـل هـو تكـريم لهذه الأمّة قاطبة ...

الهوامش

[1]- ابن خَلدون.

[2]- هو عبد الرّحمن بن محمّد ابن خَلدون أبو زيد ولي الدّين الحضـرمي الإشـبيلي(1332 – 1406) ولد في تونس وشبَّ وترعّرع فيها وتخرّج من جامعة الزّيتونة، وليَ الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس، ثمّ انتقل إلى مصر، حيث قلّده السّلطان برقوق قضاء المالكيّة .ثمّ استقال من منصبه وانقطع إلى التّدريس والتّصنيف فكانت مصنفاته من مصادر الفكر العالميّ، ومن أشهرها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، تاريخ ابن خلدون.

[3]- عبد الله بن المعتز بالله وهو أحد خلفاء الدّولة العباسيّة، وكنيته أبو العباس، ولد عامّ (247 هـ 861م)، في بغداد، وكان أديبا وشاعرا ويسمى خليفة يوم وليلة، حيث آلت الخلافة العباسية إليه ولقب بالمرتضى بالله، ولم يلبث يوما واحدا حتى هجم عليه غلمان المقتدر بالله وقتلوه في عامّ (296 هـ،909م) وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله. ولقد رثاه الكثير من شعراء العرب. وهو مؤسّس علم البديع.

[4]- جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الخوارزمي الزّمخشري. من أئمة العلم بالدّين والتّفسير واللغة والآداب. ولد في زَمَخْشَر يوم الأربعاء السّابع والعشرين من شهر رجب سنة 467 هـ– 1074 م في تركمانستان، وسافر إلى مكّة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله، وتوفي ليلة عرفة سنة 538 هـ – 1143 م في جرجانيّة خوارزم، بعد رجوعه من مكة. يقول السّمعاني في ترجمته: (برع في الآداب، وصنف التّصانيف، وَرَدَ العراق وخراسان، ما دخل بلدا إلاّ واجتمعوا عليه وتتلمذوا له وكان علامة نسابة).

[5]- يوسف بن أبي بكر السَّكّاكي، (555 – 626هـ/ 1160 – 1229 م) هو عالم بالعربيّة والأدب من أهل خوارزم. هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي السَّكّاكي الخوارزمي

الحنفي. ولد سنة 555 هـ - 1169 م في خوارزم، وتوفى في قرية الكندي مـن قـرى المـاليع في سـنة 626 هـ - 1229م.

[6]- الخطيب القزويني هو محمّد بن عبد الرّحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدّين القزوينـي الشّـافعي المعروف بخطيب دمشق، ولد بالموصل لكن أصله من مدينة قزوين، هو كاتب ومؤلّـف عـربيّ مـن مؤلّفاته الإيضاح في علوم البلاغة، وهو يتحدث في هذا الكتاب عن نشأة علم البلاغة العربيّـة. وليّ القضاء في ناحية بالرّوم، ثمّ قضاء دمشق سنة 724 هـ، فقضاء القضـاة بمصـر (سـنة 727) ونفـاه السّلطان الملك النّاصر إلى دمشق سنة 738 ثمّ ولاه القضاء بها، فاستمر إلى أن توفّي.

[7]- ابن سنان الخفاجي (423-466 هـ) - (1023-1073 م) الموسوعة العربيّة ابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ الحلبيّ أبو محمّد، ينتسب إلى بني خفاجة من بني حَـزْن وهم أولاد خفاجة بن عمرو بن عقيل، وهي قبيلة عربيّة تنتمي إلى عدنان. ولد في قلعة عزاز، وهـي من القلاع المحيطة بمدينة حلب، وكان أبوه أحد وجهاء هـذه القلعـة. وقـد عرفـت أسرتـه بـالعلم والأدب. ابن سنان الخفاجي مدينة حلب وأخذ عن علمائها، ومنهم أبو نصـر المنـازي، وقـد حظـي بصحبة أبي العلاء المعري فتلقى علومه على يديه، وتتلّمذ له، وانتفع به كثيراً.

[8]- ابراهيم حماد الرّيس الجبرتي عجائب الآثار في التّراجم والأخبار، لعبد الرّحمن بن حسن الجـبرتي. تحقيق الدّكتور عبد الرّحيم عبد الرّحمن عبد الرّحيم. مطبعة دار الكتب المصريّة.

[9] – محمّد عدنان كاتبي، علم التراجم ومكانته في حياتنا. دراسة منشورة بالموقع محمّد عدنان كاتبيّ.

[10]- بلاغة النّظم في لغة الجسم، للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي.

[11]- في مقدّمة كتابه (الفوائد البهية في تراجم الحنفية) الشّيخ محمّد عبد الحي اللكنوي.

بلاغــة النّظــم في لغة الجســم في القرآن الكَريــم للعلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي

-دراسة وصفيّة تحليليّة موازنة-

أ.د. يوسف بن نافلة

ج. حسيبة بن بوعلي، الشّلف

الملخص: تتناول هذه الورقة العلميّة الحديث عن عَلم من أعلام الجزائر ونجم من نجوم القمّة، وحارس من حراس صاحبة الجلالة اللغة العربيّة العاليّة الأنيقة من خلال سفره النّفيس الموسوم بـ (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) وهو الشّيخ الأستاذ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، وذلك بالإشارة إلى رحلته إلى بلاد شنقيط، ثمّ أهمّ مؤلّفاته المطبوعة، ثمّ دراسة تحليليّة لكتاب (بلاغة النّظم في لغة الجسد في القرآن الكريم) للشّيخ صافي المستغانمي مع ربط مضمون الكتاب بنظريّة النّظم التي تزعمها الشّيخ عبد القاهر الجرجاني وكذا موضوع علم الدّلالة والحقول الدّلاليّة، ولا سيما الدّلالة البلاغيّة، وأختم ورقتي البحثيّة، بخاتمة أُجمل فيها أهمّ النّتائج وأجيب فيها عن الإشكال المطروح في المقدّمة.

المقدّمة: لا جرم أنّ بلادنا الحبيبة الجزائر تزخر بعلماء أجلاء، وباحثين كبار وصفوة خيّرة من الجهابذة والعباقرة الكبار في مختلف الميادين، والعلوم اللغويّة والأدبيّة، والبلاغيّة، والأسلوبيّة، والشّرعيّة، والمعارف الأساسيّة لنهضة الأمّة حتى

تلتحق بركب الدّول المتقدّمة، ومسايرة التّكنولوجيات الحديثة. وممّن برعوا في مجـال الدّراسات اللغويّة، نجد العلاّمـة الجزائـريّ أمحمّـد صّـافي المسـتغانمي الـذي فـاق أقرانه، وشأى مَن تقدّمه وأعيا مَن يأتي بعده، وذلـك مـن خـلال سـفره النّفـيس في علوم البلاغــة العربيّـة (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريـم).

أمّا الإشكال الذي أرغب في طرحه فيتمثّل في الآتي:

1-ما الجوانب الجماليّة في حديث الباحث عن الحقول الدّلالية في كتابه؟

2-ما علاقة نظريّة النّظم لـ أمحمّد صافي بالشّيخ عبد القاهر الجرجاني؟

3-ما الجديد الذي تفرّد به الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي؟

4-ما الجامع المشترك بـين كتـاب الباحـث صـافي المسـتغانمي بموضـوع علـم الدّلالة، والحقول الدّلالية؟

الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي في رِحاب الشّناقطة، موريتانيـا : يـذكر الأسـتاذ أمحمّد صافي المستغانمي، جانباً من سيرته الذّاتيـة، وولوعـه باللغـة العربيّـة العاليّـة والبيئة الجميلة التي تربّى فيها، فسـافر إلى مـوطن، ومنبـع وحضـيرة مـن حـواضر العلم، وأخذ اللغة من أفواه الرّجال العرب الأقحاح لدى بني شنقيط (موريتانيـا) قائلاً: (منذ ترعرعّتُ في كليّة اللغة العربيّة والآداب بجامعـة وهـران، وتـدرّجتُ بين أعوامها الدّراسية في مرحلة الليسـانس، تعلّمـتُ كـما تعلّـم أتـرابي في درس اللسانيّات، أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضـهم عـلى حـدّ تعبير ابن جنيّ. تعلّمتُ أنّ اللغة تُكتبُ، وتنطقُ، وعلى قـدر عمـق ثقافـة المتحـدّث

بها، وعلمه بأساليبها، وأسرارها يـزداد بيانـه جمالا، وإشراقا، وعلى مقدار كثرة مطالعاته تنوّع في قراءاته يترقّى في مدارج الإبانة، والتّبيين، والفصاحة والإفصاح).

وظلّ هـذا الفهـم يصحبني في حلّي، وترحالي في شبابي، وكهولتي، إلى أن يمّمتُ نحو شنقيط رحلي، وأنختُ بها عنسي، فإذا بي أمام ثلّة من الكرام تسـري العربيّة في دمائهم، تجري في عروقهم، كنت أسمع قبل السّفـر إلى موريتانيا أنّ أهلها قوم محافظون، يحافظون على التّقاليد العربيّة الأصيلة، يلبس أهلها الثّوب العربيّ التّقليدي المُوشّى يتدرّعون به من حرّ الصّيف، و قرّ الشّتاء، فيهم دماثة خُلق، وطيب نحيزة، وسلامة قطرة، وصفاء قريحة، ونُبل شيم، وطُهر خصال ورثوها كابرا عن كابر، ورثوها عن المسلمين الذين فتحوا ديارهم بالحبّ والإيمان، والخُلق الحسن.

تشرّبت نفوس آبائهم، وأجدادهم الأقدمين حُبّ العربية، تعلّموها مع القرآن الكريم فأقامت بديارهم وضربت بجرائها في ترابهم، ساعدهم صفاء العيشة الصّحراوية الهادئة المطمئنّة البعيدة عن صخب المدينة، وغوغائها على الحفاظ على لغة الضّاد نقيّة، شفافة، غضّة، طريّة، يخطب بها العالم الفقيه بفصاحة، وبيان ويتغنّى بها الشّاعر المُحبّ الولهان، ويُلهج بها الصّبي مقتفيا آثار والديه فيحس الإبانة والتّبيين)[1].

ثمّ يواصل قائلاً :(صحيح إني كنتُ على علم بهذا قبل سفريّ إلى بلاد شنقيط المباركة، ولكن الذي راعني، وراقني وشدّني، وأسرّني، وهزّني أني التقيتُ على

هامش لقاء علمـيّ تـدريبيّ ينـدرج في إعـداد المحـرّرين المعجبـين المشـاركين في مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، قلت: الذي شدّني أنّ عدداً كبيراً من الـذين حضروا ذلك اللقاء إن لم أقل كلّهم، كانوا شعراء فصحاء، يرتجلون الشّـعر بداهـة تجـود قـرائحهم بالأشـعار الجميلـة الأخّـاذة السّـاحة في الـدّقائق، واللحظـات يهتبلون الفرص للتّنفيس عمّا يغلي في مراجل صدورهم مـن شـعر سـاخن حـارّ فيّاض. لا أكون مبالغاً إذا قلت: إنّ بني شـنقيط لا يتكلّمـون اللغـة، بـل يتنفسـونها يستنشقونها، ويخرج الزّفير أشـعاراً جميلـة ذات إيقـاع موسـيقي شـجيّ مـؤثّر بليـغ يتذوّقونه الذي يحسنون اللغة ويعشقونها. لستُ في هذا القول مبالغـا، ولا مجـاملاً وما كنتُ ممّن يُجامل على حساب الحقّ الأبلج، الواضح الجليّ، أحداً تحدّثتُ معهم حديث الأخ مع إخوتـه حـول بعـض أسـاليب التّحريـر المعجمـيّ وموجّهاتـه وعرّجنا على نماذج من الأمثلة سقتها بين أيديهم على وجـه التّمثيـل والإيضـاح وما أنا بالذي يسوق اللغة إلى أصحابها، وإذا كان التّاجر الماهر الحـاذق، الخِريـت العارف، بمسلك التّجارة، والرّبح والخسران لا يستطيع أن يبيـع التّمـر في بـلاد العراق التي تفيض مناكبها وواحتها بكلّ أنواعه، فكذلك المـتكلّم الفصـيح مهـما كان حاذقاً بلسان العرب، متّقنا لمعارفه اللغويّـة والأدبيّـة فإنّـه لا يسـتطيع، ومـا بقادر أن يروّج لبضاعته اللغوية المُزجاة أمـام أهـل شـنقيط الفصـحاء، وأبنائهـا الشّعراء الأبْيِنَـــاء. قلت: تحدثتُ أمامهم، وفي جميعهم في الشّأن الـذي كنـتُ أريـد وآثار ذلك اللقاء العلميّ مشاعر، وأحاسيس، وإذا بقرائح عدد منهم تفيض شـعراً

مقفّى موزونا، وإذا بالبداهة تتحدّث، وإذا بالحناجر تعلو، وإذا بالأصابع ترتفع للمشاركة، والمداخلة. الكلّ يريد أن يدلي بدلوه ويرغب أن يُشنّف الحاضرين بما جادت به قريحته وسأل به قلمه في تلك اللحظات القليلة الممتعة)[2].

(وتنافس المتحدّثون، وتناهز المتدخّلون، وتسابقوا في محراب أخذ الكلمة. هذا ينشد على الطّويل وذاك يغرّد على الرّجز، وآخر امتطى الوافر الجميل، وتوالت الأشعار ترتفع، وتتابعت نشوة الشّعر ترقص على الشّفاه، ويهتزّ لها الوجدان وعاش محبّو الشّعر، وعشّاق القريض من الحاضرين في القاعة أحسن الأوقات بل أجملها، وأمتعها، حتى أنّ الدّكتور العلامة الخليل النّحوي-أطال الله عمره في خدمة العربيّة والدّين- كان يطلب من المتحدثين عدم الإطالة، ويدعوهم إلى إسقاط كلمات الشّكر بل إلى تجاوز إنشاد الشّعر إلى الأهّم، وهو المقترحات والأسئلة المتعلقة بالمعجم التّاريخيّ.

ولكنه كان ينفخ في رماد، وجانبه الصّواب أن يسكتهم، وهل يستطيع أحد أن يُسكت لسان الشّعر إذا غنّى، وهل بمُكنة أحد أن يمنع العواطف المتأجّجة والمشاعر المتأجّجة أن تسيل على ألسنة أصحابها؟ لقد تعلّمتُ من هذه المرحلة العلميّة دروساً، وعِبراً، ولكن الدّرس الكبير الذي حفرته في ذاكرتي، وتشرّبته مُخيّلتي، وتجذّرت آثاره في يوم آثاره في بؤرة تفكيري وهو أنّ الحفاظ على اللغة يحتاج إلى جهد، ورؤية، وقناعة، وبيّنة.

يحتاج تعلّم اللغة العربيّة إلى جهد جهيد، وعمل جادّ رشيد، وسلوك مهيع علميّ صحيح لغرس اللغة السّليمة في نفوس أبنائنا، وعقولهم، فليس تعلّم اللغات ضرباً من اللعب أو لوناً من ألوان التّرويح عن النّفس، بل لا بدّ على علماء الجيل، ولزام على الآباء، والأمّهات، وحتّم على المعلّمين والمعلّمات، وفرض على حرّاس التّربية، والتّعليم في بلادنا العربيّة أن يُجهدوا، ينصبوا ويستفرغوا الوسع في رسم خطط علميّة، تعليميّة صحيحة، وقويّة تنهض بتعليم اللغة العربيّة لأبناء هذا الجيل الذي تتخطّفه أحابيل التّكنولوجيا من كلّ حدب وصوب، وتعصف به أعاصير التّغريب والتّمييع من شرق، وغرب. ليس تعلّم اللغة العربيّة نافلة أو ضرباً من التّرفيه، حتى يُعنى الآباء، والأمّهات، والمنظّرون في التّربية الحديثة بالمواد العلميّة ذات الطّابع التّقني، والعمليّ مستهلين أمر اللغة ادّعاء منهم أنّها سهلة ميسورة، ويحكم نشأة الطّالب في بيئة عربيّة فإنّه سيسهل عليه تعلّمها بل إنّ تعلّمها تحصيل حاصل، وضربة لازب)[3].

(هذا اللّون من التّفكير السّاذج سبّب لنا متاعب، وأردانا في مهالك العربيّة تحتاج بذل جهد ليس بالهيّن لتعلّم حروفها، والكيفيّة السّليمة للنّطق بها يحتاج نحوها، وصرفها عقلا منطقيا، وفكّراً شافياً ألمعيّا، تحتاج بلاغتها إلى ذاكرة قويّة وحافظة واسعة يُخزّن فيها المتعلّم أنماطاً من الأساليب الجميلة. وضروبها من الأنساق التّعبيرية الرّائعة يحتاج متعلّموها إلى التّفريق بين مترادفاتها وأضدادها بين مشتقات الجذر الواحد ومصادره، والتّمييز بين دلالات أبنيّتها الكثيرة.

وإذا كان المشهور المعروف المتداول من أبنيّة العربيّة يربو على خمسمائة وزن وصيغة، تُرى ما السّبيل إلى تعلّمها بل وحفظها وإجادة التّعبير بها؟ ومتى يتعلّمها أبناء مدارسنا؟ من ناحية أخرى، أسلفتُ أنّ المحافظة على اللغة العربيّة تقتضي رؤية واضحة لدى كلّ الأُسر، والمدارس، وأبناء المجتمع، وساسته، وقادته، إذ لا يستقيم الفرع، ولا يربو، ولا ينمو على حبّ العربيّة، وتشرّبها والشّغف بها ولا يستوي على سوقه إذا كان القائمون على المجتمع، وحراس التّربية فيه والآباء والأمّهات خِلواً من الرّؤية الواضحة، والقناعة القويّة الرّاسخة لأجل تعليم اللغة السّليمة، والمحافظة عليها.

كيف يستقيم لسان الابن، وأبوه، وأمّه يخاطبانه بالعاميّة البعيدة عن كلّ فصيح؟ أو كيف يفصح لسان النّاشئ فينا، وأبواه يخطبانه بلغة أجنبيّة لا علاقة لها بدينه وقومه، ووطنه؟ أم كيف تستقيم ألسنة أبناء الجيل، وكلّ ما في المجتمع يدعو إلى التّغريب والعيش في فلك الممنوعات؟

إنّ القائمين على قطاع التّربية، والتّعليم، وإنّ الآباء، والأمّهات في المجتمعات العربيّة المعاصرة بحاجة إلى وقفة مراجعة شاملة، وقفة مع أنفسهم ليدركوا ماذا يريدون؟ وقفة مع الله ليعرفوا إلى أيّ وجهة يتوجّهون، ويوجّهون أبناءهم وبناتهم؟ وقفة تحاوريّة، وتشاوريّة مع الخلّص من أبناء المجتمع، ويكون المحور الأساس الذي يدور في هذه الجلسات الحواريّة التّشاوريّة: ماذا نريد حقّاً لأبنائنا)؟[4] (وأخيرا، وليس آخراً يحتاج غرس العربيّة في نفوس أبنائنا أن نيسر لهم العيش

في بيئة سليمة صافيّة تحافظ على العربيّة، وتحرص على سلامة التّواصل فيها بلسان عربي مبين تحبّ العربيّة، وتمجّد ذكراها، وترفع رايتها خفّاقة عاليّة، تحفّز على تعلّمها، ودراسة علومها، وفنّونها تكافئ المبدعين بها تعمل على تفتيق أكمام الإبداع في نفوس أبناء المجتمع، تحثّ على القراءة والمطالعة بالعربيّة تشجع على التّواصل، والتّحاور في المحافل المجامع باللغة السّليمة الفصيحة تكتب المقالات، وتشارك في النّدوات والمناظرات، وتقيم اللقاءات بالعربيّة السّليمة.

نريد أن يشرب الأبناء الاستماع إلى العربيّة، أن نغذّي عقولهم بألفاظها الجزلة والعذبة، وأن نروي غليلهم بأنساقها التّعبيريّة الجميلة، وأشعارها الموزونة العذبة النّديّة، الشّجيّة، حتى يشبّ ناشئ الفتيان فينا، وهو يفصح ويبيّن، ويعبّر عن حاجاته، ومشاعره بلسان عربيّ فصيح، متى يتحقّق هذا الرّجاء؟

وأقول في نهايّة هذه الأسطر حول بني شنقيط الذين أذاقوني مودّتهم وسكن فؤادي حبّهم وأعجبت بمثقفيهم، ولغوييهم أيّما إعجاب: هنيئا لكم هذه اللغة السّليمة الفصيحة التي تتفيّؤون ظلالها وتتنسّمون عبريها وأريجها، هنيئا لكم حسن تربيتكم أبناءكم. إنّ العربيّة في دياركم بخير وأنّ بشائر النّجاح، والتّألّق تتغشّاكم، وتحفّ بكم، لأنّ العربيّة وعاء القرآن، فلا خشيّة على أبنائكم من عواصف التّغريب، ولا من أعاصير الإيديولوجيّات التي تحاول أن تزعّزع، أن تقتلع جذور الإسلام من هنا وهناك، فلا خوف على أبناء شنقيط من هذا كلّه ما دمتم، وما دام أبناؤكم يتكلّمون ويفصحون، ويبينون بهذه اللغة العظيمة

العصماء التي هي جسر لفهم الوحيّ السّماوي، فحيثما ثبّتت العربيّة، وسكنت وقرّت، ورسّخت، تجذّرت معها دوحة الإسلام، وطالت فروعها، وبسقت أفنّانها واستقام الدّين القويم لا يريم، ولا يبرح، ولا يزول، ولا يتزحزح).[5]

كتب الأستاذ أحمّد صافي المستغانمي: من أهمّ كتبه ما يأتي:

1 -مفاتيح النّجاح وسُنن السّعادة رؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللفظيّة لمجموعات الأسر القرآنيّة، دار ابن كثير، تاريخ الإصدار: 19 يناير 2018م.

2 - تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة لقصّة موسى، دار ابن كثير، 01 يناير 2018م.

3 -الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير الصّادر في 20 يناير 2017م.

4 - جواهر الدُّرر في علم مقارنات السُّور، دار ابن كثير، 01 يناير 2018م.

5 - كيف تصبح فصيح اللسان؟

6 - هندسة السّورة القرآنية رؤية ـ تأصيلية.

7 -ديباج القرآن وعرائس الفرقان وقفات تدبريّة في ﴿آل حم﴾.

8 -بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم.[6]

كتاب (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) للعلامة أحمّد صافي المستغانمي دراسة تحليليّة في ضوء نظريّة النّظم، وعلم الدّلالة:

كتاب (**بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم**).

تأّليف: أمحمّد صافي المستغانمي؛

النّاشر: دبيّ جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريـم؛

سنة النّشر: 2020م؛

عدد الّصفحات: 592؛

السّلسلة: الدّراسات القرآنيـّـة.

في دبيّ 16 نوفمبر 2021م، صدر حديثاً عن جائزة دبيّ للقرآن الكـريم وحـدة البحوث والدّراسات القرآنيّة كتاب (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القـرآن الكـريم) للأستاذ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي الذي يقدّم دراسة تحليليّة لـما ورد ذكـره في القرآن الكريم من التّعابير، والتّراكيب اللغويّة المتعلّقة بأعضاء جسـم الإنسـان في محاولة لفهم الدّلالات البلاغيّة الخاصّة بأعضاء الجسم، والتي جاءت في مواضـع كثيرة من الذّكر الحكيم. ويتوزّع الكتاب الصّادر في 592 صفحة على أربعـة أبـواب الباب الأوّل يعنى بتوضيح الرّأس، والعنق، ويتناول الباب الثّاني الوجه ومـا حـوى ويركز الباب الثّالث على الأيدي، والأرجل، وما حوت، أمّا الباب الرّابـع والأخـير فموضوعه القلب، والصّدر، وما يحتويه وثمّ يختم المؤلّف كتابه بتلخيص لأهمّ مـا جاء فيه، وبمجموعة من الفهارس، والدّلائل المفتاحيّة .

ويستهدف المستغانمي في كتابه تبيان التّعابير اللغويّـة القرآنيّـة، والمعـانيّ المتعلّقـة بأعضاء جسم الإنسان، وكيف تصرّف البيان القرآني في عرضه، وتوظّيفهـا، ويُحلّـل

المؤلّف ذلك بلاغيّاً، مشتغلاً ضمن حقل معرفيّ، وعلميّ يعنى بعلم الاتّصال غير اللفظيّ الذي ينتمي لفصيلة العلوم الإنسانيّة.[7]

والمتأمّل في عنوان كتاب الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي الموسوم بـ(بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) يجد أنّ الفكرة أشار إليها الشّيخ عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ).

أمّا عن مفهوم الجرجاني لفكرة لإعجاز القرآنيّ (فمردّها جميعاً هو **النّظم** لذلك فهو يطلب من الباحث عن حقيقة وكنه هذا الإعجاز، أن يُعمل عقله، وأن يكدّ فكّره، ليصل عن طريق ذلك إلى المزايا، والخصائص، التي امتاز به **نظم القرآن** ليقف عليها بنفسه، ونتيجة لإحساسه وذوقه، لا يقلّد غيره، ويسير مع السّائرين. وبعد أن يمهل، ويسترسل، وينتقل من موضوع إلى موضوع لإبراز وجه الإعجاز القرآنيّ، الذي اختاره ، **وهو النّظم**، يعقد الجرجاني فصلاً خاصّا للحديث عن ماهيّة النّظم يتحدّث فيه عن الفرق بين نظم الحروف الذي يأتي بحسب تواليها في النّطق، وبين النّظم الذي يأتي من اقتضاء لمعنى[8] وفي ذلك يقرّر: (أنّ نظم الألفاظ يجب أن يقترن بترتيب المعاني لأنّ المعانيّ هي الأساس الذي يجب أن يُراعى عند نظم الكلام، ثمّ تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني لأنّك إذا فرغت من ترتيب المعانيّ في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنّها خدم للمعاني، وتابعة لها ولاصقة بها، وأنّ العلم بمواقع المعانيّ في النّفس علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق، وأعلم أنّك إذا كنت

نفسك علمت علما لا يعترضه الشّك في الكلم، ولا ترتيب حتى يغلق بعضها بعض ويبين بعضها على بعض، ولا تجعل هذه بسبب تلك).[9]

ويؤكّد عبد القاهر الجرجاني هذا المعنى قائلاً:

(وأعلم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت، وفلا تخلّ بشيء منها)[10].

(هذا هو المحور الأساس في بحث عبد القاهر الجرجاني قصد إبراز وجه الإعجاز القرآنيّ كما بيّم ذلك في دلائل الإعجاز، وهو الموضوع نفسه الذي أكّد على وقوعه في (رسالته الشّافيّة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).[11]

أمّا عن مفهوم فكرة النّظم في بحوث عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) فقد أكّد د. أحمد جمال العمريّ على أنّ (الـمُطّلِع على تاريخ قضيّة الإعجاز القرآنيّ يجد أنّ **فكرة النّظم** قد شغلت طائفة كبيرة من العلماء على اختلاف مذاهبهم مآربهم فقد تحدّث عنها علماء كثيرون، متكلّمون، وغير متكلّمون.

تحدّث عنها بشر بن المعتمر، المتكلّم المعتزل الكبير(ت 210هـ) في صحيفته كما التفت إليها الجاحظ (ت 255هـ) وابن قتيبة المتكلّم السّنّي (ت 276ه) والرّماني (ت 384ه) والقاضي عبد الجبار (ت 415ه) كما أشار إليها علماء غير متكلّمين مثل أبي سعيد السّيرافي النّحوي (ت 358ه) وأبي هلال العسكريّ (ت 395ه). وحسب رأيّه فمن هنا نعلم أنّ فكرة النّظم ليست من ابتكار القاضي عبد القاهر

الجرجاني، وليست من بنات أفكاره، وإنّما هو مسبوق إليها من كثير من العلماء متأثّر بما وصل إليه من آراء حولها، حيث وضعت في صرحها لبنات عديدة أرساها مَن سبقوه فالفضل مشترك بينهم، وبينه، وإنّ كان الفضل يعزى إليهم لسبقهم، فالفضل يرجع إليه أيضا في وضع القواعد العامّة لفنّ النّظم. ولقد اعترف عبد القاهر الجرجاني بهذا الأمر صراحة، فلم يدّع أنه أوّل مَن التفت إلى النّظم، وحدّد قيمته، بل نسمعه يقول: (وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النّظم، وتفخيم قدره، والتّنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل من عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم به، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ.[12]

حدّد عبد القاهر الجرجاني مفهومه للنّظم في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) فكلا الكتابين يدوران حول نظريّة النّظم، جعل اهتمامه في دلائل الإعجاز موجّهاً إلى بناء الكلام وتراكيبه، أمّا أسرار البلاغة فقد جعل عنايته التّامة موجّهة إلى البواعث النّفسية للمعاني، وموقعها في الفؤاد لذلك نسمعه يقول: (إنّ الألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضرباً خاصا من التّأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التّراكيب، والتّرتيب).[13]

والحقيقة إنّ عبد القاهر لم يسر على نهج مَن سبقوه ممّن تأثّر بهم، ونقل عنهم وإنّما وضح في مصنفاته عمق فكّره، ورجاحة عقله، ودقّة منهجه، وبعده عن التّبعيّة، وإنّه يعرض لأفكاره عرضا هادئا، ويقلب الأمر كيفما أراد، ليصل إلى

الغرض الذي يهدف إليه. والظّاهر أنّه قد تـأثّر في بعـض نـواحي تفكـيره البلاغـيّ والنّقديّ بالثّقافة الإغريقيّة، ولاسيما بحوث أرسطو.[14]

(والباحث المتتبّع لدراسة عبد القاهر الجرجاني لنّظريـة الـنّظم، يـرى أنّـه جعـل النّظم أساسا للنّقد ومرجعا في بيان القيمة الفنيّة، من حيث الحسن أو القبح، كما أنّـه جعل من النّظم قوانين ترشد الذّوق العربيّ إلى الكشف عن مرتبة الكـلام. وقـد بذل عبد القاهر أقصى جهده لتستقرّ فكرته في العقول، وتطمـئن إليهـا النّفـوس وبمرور الزّمن خمـد الـذّوق الأدبيّ، أو كـاد، وأسـدل السّـتار عـلى هـذه النّظريـة العظيمة، **نظريـّة النّظم**. وظلّ الحـال عـلى ذلـك إلى أن بـزغ فجـر النّهضـة الأدبيّـة الحديثة، فدبت الحياة من جديد في هذه النّظرية، وأقبل النّقـاد، ومدرسـة الـدّيوان (العقاد والمازنيّ) واتخذوها أساسا يرجعون إليه في تناولهم للأعمال الأدبيّة بالنّقـد والتّحليل.[15]

نستنتج ممّا سبق أن الأستاذ أمحّمد صافي المستغانمي قد تأثّر أيمّا تأثّر بنظريّة النّظم للشّيخ عبد القاهر الجرجاني، وذلك من خلال عنوان كتابه النّفيس (بلاغـة الـنّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) ذلك أنّه يروم من جهده في هذا الكتـاب إلى إبـراز التّعابير اللغويّة الجميلة، والمعانيّ المسبوكة بإحكام وفق نظم محكم تتعلّـق بأعضـاء جسم الإنسان (الرّأس، والعنق، والوجه، وما حـوى، والأيـدي، والأرجـل، ومـا حوت، ثمّ القلـب، والصـدر ومـا يحتويـه) وكـذا البيـان القـرآني في عـرض هـذه

الأعضاء، وتوظّيفها ومع تحليل الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي لذلك كلّه تحليلا بلاغيا، مع الاشتغال بما يعرف بالحقول المعرفيّة أو الدّلالية، والعلميّة.

وحين قسّم الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي كتابه إلى أربعة أبواب رئيسة فقد قصد بذلك موضوع الحقول الدّلالية أو الموضوعاتيّة التي هي فرع من فروع علم اللسان البشريّ، إذ يمكن أن نقول أنّ أبواب مدوّنته تنقسم إلى أربعة حقول دلاليّة يمكن إجمالها فيما يأتي:

1 -الحقل الدّلاليّ الأوّل خاصّ بالرّأس والعنق.

2 -الحقل الدّلالي الثّاني خاصّ بالوجه وما حوى.

3 -الحقل الدّلالي الثّالث خاصّ بالأيدي والأرجل وما حوت.

4 -الحقل الدّلالي الرّابع خاصّ بالقلب والصّدر وما يحتويه.

ويتناول علم الدّلالة Semantics لدى أهل الاختصاص (المعنى بالشّرح والتّفسير، ويهتمّ بمسائل الدّلالة، وقضاياها، ويدخل فيه كلّ رمز يؤدي معنى سواء أكان الرّمز لغويا أو غير لغوي (مثل الحركات، والإشارات، الهيئات الصّور، والألوان، والأصوات غير اللغويّة، وغير ذلك من الرّموز التي تؤدي دلالة في التّواصل الاجتماعيّ.[16]

(ويعدّ علم الدّلالة أهمّ فرع من فروع علم اللغة، فاللغة موضوع علم اللغة وضعت للتّعبير أو للدّلالة عما في نفس متكلّمه، و كلّ الجوانب اللغويّة الأخرى هدفها تبيين المعنى على نسق واضح سهل الفهم وجميع فروع اللغة تشارك في

الدّلالة، و لا يمكن الفصل بينها وبين علم الدّلالة، فكلّ فرع منها يساهم بدوره في الدّلالة في إطار مجاله).[17]

(فمجال) **علم الأصوات** (دراسة الصّوت اللغويّ، والصّوت جزء من بنيّة الكلمة، واختلاف صوت واحد في كلمتين متشابهتين يؤثّر في اختلاف المعنى فالكلمات اللائي يقع بينهن اختلاف في صوت واحد تختلف دلالتهن مثل: حارّ سارّ، ضارّ، واختلاف النّبر في كلمة واحدة يؤّثر في معناها، وكذلك اختلاف التّنغيم. ويشارك كذلك (**علم الصّرف**) في الدّلالة فمعنى الكلمة يتأثّر بصيغتها الصّرفيّة مثل: قاتل ومقتول. الصّيغة الأولى صيغة اسم الفاعل الذي قام به الحدث، والصّيغة الثّانية اسم مفعول الذي وقع عليه الحدث، فكلّ صيغة صرفيّة تدل على معنى خاصّ بها، ويتبيّن هذا من صيغ الأفعال، والمشتقات، والمصادر.

ويشارك (**النّحو**) بدور كبير في الدّلالة، فكلّ جملة تؤدي معنى أو دلالة تتأثّر بالعلاقة التي تربط بين أجزاء تركيبها، وترتيبها، فاختلاف الكلمات، واختلاف التّرتيب يؤّثران في دلالة الجملة مثل (دخل محمّد المنزل) وقولنا: (دخل محمّد القبر) وقولنا: (دخل محمّد عشّ الزّوجيّة) فمعنى التّركيب الأوّل معلوم، ومعنى الثّاني: مات، ومعنى الثّالث: تزوّج، واختلاف التّرتيب في مثل: قتل محمّد عليّاً وقولنا: قتل عليّ محمّد أثر دلالة الجملتين. ويشارك (**المعجم**) بنصيب كبير في الدّلالة، فوضع الكلمة في التّركيب يتوقّف على معناها المعجميّ، فنحن نختار الألفاظ التي تناسب دلالتها السّياق الذي ترد فيه فكلّ كلمة تتعلّق بسياقها

التّركيبي، وتدلّ على معنى فيه يرتبط بعلاقتها مع ما جاورها، ويختلف معناهـا في سياق آخر مخالف له.[18]

أمّا عن أهمّ نظريّات دراسة المعنى في العصر الحديث فنجد الآتي:

أوّلاً: نظريّة السّياق: وتعود لفظة/ Context إلى اللفظة اللاتينيّة، وتعنـى ربـط رباطاً وثيقا، وهي في الاصطلاح اللغويّ تعني علاقة لغويّة، أو خارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلاميّ.

وفي هذا التّعريف إشارة إلى نوعين من السّياق هما:

أ-السّياق اللغويّ؛

ب- سياق الموقف (الحـال).

وتهتم هذه النّظرية بدراسة المعنى طبقا للمنهج السّياقي، ويعد الأسـتاذ فريـث Firth مؤسّس المدرسة الإنكليزيّة في علم اللغة الحديث، زعيم هذا الاتّجاه حيـث أعطى أهميّة كـبرى للوظيفـة الاجتماعيّـة للّغـة، ويـؤّمن بـأنّ معنـى الكلمـة لا ينكشف إلاّ من خلال وضعها في سياقات مختلفة، كـما أنّ أصـحاب هـذا المـنهج يؤّمنون بأنّ معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة أو دورها الـذي تؤديـه في اللغـة. وعلى هذا فأصحاب هذا الاتّجاه يدرسون الكلمات يدرسون الكلمات مـن خـلال تحليل السّياقات، والمواقف التي ترد فيها، ومعنى ذلك أنّ الكلمـة تعطـى دلالات متعدّدة بتعدّد السّياقات التي تدخل فيها، أو تبعا لتوزّعها اللغويّ.

ويتم تقسيم السّياق لدى اللسانيين على النّحو الآتي:

-السّياق اللغويّ؛

-السّياق العاطفيّ؛

-سياق الموقف (الحال)؛

- السّياق الثّقافيّ.[19]

وقد أدرك المفسّرون من العلماء المسلمين أهميّة السّياق، وهذا يبدو من الشّروط التي وضعوها فيمن يقوم بتفسير القرآن العظيم: هذه الشّروط تتمثّل في إتقانه لمجموعة من العلوم أشبه ما تكون بمراحل التّحليل في نظرية السّياق.

1 -**على المستوى الصّوتي**: يجب أن يكون المفسر عالما بالقراءات وهو العلم الذي يعرف به كيفيّة النّطق بالقرآن الكريم، وبها يترجّح بعض الوجوه المحتملة على بعض، فالوقف والوصل وطرق الأداء الصّوتي للقرآن الكريم لها تأثير في تحديد المعنى.

2 -**وعلى المستوى الصّرفي**: اشترطوا في المفسر أن يكون متقنا للتّصريف لأنّ به تعرف الأبنيّة، وأوجه الاشتقاق.

3 -**وعلى مستوى التّراكيب**: اشترطوا فيه إتقان علوم النّحو، والمعاني والبيان والبديع .

4 -**وعلى مستوى المعجم**: اشترطوا فيه أن يعرف شرح مفردات الألفاظ ودلالتها بحسب الوضع.

5ـ–**وعلى مستوى سياق الحال**: اشترطوا معرفته بأسباب النّزول، وهي الأحداث، والوقائع الملابسة لنزول النّص القرآنيّ، وهذه الأحداث لها أهميّة في فهم معاني الآيات، وما تشير إليه من دلالات، كما أنّ معرفة المكّي، والمدنيّ والتّرتيب الزّمني لنزول الآيات من الأمور التي تتّصل بسياق الحال، وتفيد دلالتها على تعيين الأحكام الشّرعيّة المرادة من النّص القرآنيّ.

6 – **وعلى مستوى السّياق اللغويّ**: اشترطوا استحضار النّص القرآنيّ جميعه عند تفسير بعضه، لأنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، كما أنّ معرفة السّنة قوليّة أو عمليّة تعدّ شرطا في المفسّر نظرا لأنّ السّنة شارحة للقرآن.[20]

ثانيا: نظريّة الحقول الدلاليّة: وتعدّ هذه النّظريّة من أهمّ النّظريّات التي اعتمت بدراسة المستوى الدّلالي للغة، وتقوم دراستها لمفردات اللغة طبقا لما أودع الله العقل البشريّ من قدرة على تداعي المعانيّ، إذن فالحقل الدّلالي يتكوّن من مجموعة من مفردات اللغة تخضع في مجمعها لمعنى واحد هامّ، تدور في فلكه هذه المفردات فما أشبه مفردات اللغة –عند خضوعها للدّراسة طبقاً لهذه النّظرية– مجموعة النّبات التي تنتمي كلّ مجموعة منها إلى فصيلة نباتيّة يشترك أفرادها في سمات مشتركة، وتجمعها صفات قرابة تربط بينها.[21] والمتأمل في أبواب كتاب الأستاذ أحمّد صافي المستغانمي يجد أنّه رتّبها وفّق هذه الحقول الدّلالية، أو مجموعة من مفردات اللغة تربطها علاقات دلاليّة، وتشترك جميعا في التّعبير عن معاني هامّة تعدّ قاسماً مشتركا بينها جميعا في الكلمات الدّالة على أعضاء جسم

الإنسان التي جعلها لغة خاصّة من خلال العنوان (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم).

إضافة إلى أنّ الأستاذ أمحمّد صافي قد فقه فعلاً نظريّة السّياق كما فهمه العلماء المسلمون الأوائل ولاسيما ما تعلّق منها بالمستوى المعجميّ. وهو بذلك كان بحق حاذق في صناعة معجم خاصّ بأعضاء الجسم من خلال تتبعه لآيات الذّكر الحكيم.

الخاتمة: بعد هذه الورقة البحثيّة يمكن أن نخلص إلى جملة من النّتائج أجملها فيما يأتي:

1-إنّ الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي ليعدّ بحقّ نجما من نجوم القمّة، وقامة كبيرة من قامات العلم والمعرفة، وشخصيّة فذّة حاذقة عالميّة مهاجرة عشقت الوطن، والهُوية، واللغة العاليّة الجميلة، والدّين الإسلاميّ، شعارها ما عرفته جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين: (الإسلام ديننا، والعربيّة لغتنا، والجزائر وطننا).

2-كان الأوائل من العلماء العرب يجمعون اللغة من مصادرها الأصليّة المعروفة، وهي: القرآن الكريم والحديث الشّريف، والشّعر العربيّ باعتباره ديوان العرب، ومشافهة الأعراب بالبادية. والشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي شافه علماء بني شنقيط، حيث رحل إلى الشّناقطة فإذا به أمام ثلّة من الكرام تسري اللغة العربيّة في دمائهم، وتجري في عروقهم، وتعلموها مع القرآن الكريم فأقامت بديارهم، وضربت بجرائها في ترابهم، وقد ساعدهم صفاء العيشة الصّحراوية الهادئة المطمئنة البعيدة عن ضوضاء المدينة على الحفاظ على لغة الضّاد نقيّة صافيّة غضّة طريّة.

3-المتأمّل في كتاب الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي الموسوم بـــ(بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) يجد أنّ الأستاذ تأثّر أيّما تأثّر بنظريّة النّظم التي تزعمها الشّيخ عبد القاهر الجرجاني (ت471ه) ذلك أنّه يروم من خلال جهده في هذا السِّفر النّفيس إلى إبراز التّعابير اللغويّة الجميلة والمعاني المسبوكة بإحكام

وفق نظم مُحكم تتعلّق بأعضاء جسم الإنسان التي ذكرها في كتابه (الرّأس والعنق والوجه وما حوى، والأيدي والأرجل وما حوت، ثمّ القلب والصّدر وما يحتويه) وكذا البيان القرآنيّ في عرض هذه الأعضاء، وتوظيفها مع تحليل للأستاذ أمحمّد صافي لذلك كلّه تحليلا بلاغيّاً.

4-حين قسّم الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي كتابه إلى أربعة أبواب رئيسة فقد قصد بذلك ما هو متداول لدى علماء اللسانيات بالحقول الدّلاليّة.

5-أدرك الأستاذ أمحمّد صافي المستغانمي كأسلافه من العلماء المسلمين أهميّة السّياق في تحليله لبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، ولاسيما ما تعلّق بالمستوى المعجميّ، وهذا في اعتقاديّ ليس بالعمل السّهل واليسير، بل هو جهد مضني، ويتطلّب التّحليل، والتّمحيص، والتّدقيق، ولاسيما إذا تعلّق الأمر بالنّصّ القرآني المقدّس.

مكتبة البحث:

1 -كتاب عن (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) أمحمّد صافي المستغانمي (على الشّابكة) عمّان .Google.com /Search .oman

2 -بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم. Deen square.con (على الشّابكة).

3 - بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم/ (على الشابكة) Yayin Dagitin

4 - لغة الجسم في القرآن الكريم/ An-najah national university (على الشّابكة).

5 - النّظم القرآني وعلاقته باللفظ عند الباقلاني (على الشّابكة).

6 - حركة اليد في القرآن الكريم ودلالاتها البلاغيّة (على الشّابكة).

7 -القصديّة في الدّرس البلاغيّ للنّظم القرآني، د. يوسف بن عبد الله العليويّ جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة.

8 - المباحث البلاغيّة في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطوّرها حتى القرن السّابع الهجري، د. أحمد جمال. العمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1410-1990م.

9 -إعجاز القرآن للبقلاني، تحقيق: السّيد صقر، دار المعارف، مصر.

10 -البيان والتّبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، طبعة مصر.

11 -أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح الشّيخ محمّد عبده، طبعة المنار القاهرة.

12 -دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني.موقع للنّشر 1991م.

13-البلاغة تطوّر وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصـر، 1965.

14-مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصّالح، دار العلم للملايين، بيروت.

15-أثر النّحاة في البحث البلاغيّ، د.عبد القادر حسين، القاهرة.

16-تاريخ البلاغة العربية، د/ عبد العزيز عتيق، دار النّهضة العربيّة، مصـر.

17-التّحليـل اللغـويّ في ضـوء علـم الدّلالـة، د. محمـود عكاشـة، دارالنّـشر للجامعات، مصـر.

18-علم الدّلالة دراسة نظريّة وتطبيقيّة، أ.د. فريد عوض حيـدر، مكتبـة الآداب القاهرة.

19-علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التّراث العربيّ، د. عبد الجليل منقور، ديـوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر.2010م.

20-دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط2، 1972.

21-الخصائص لابن جنيّ، تحقيق: محمّد علي النّجار، دار الكتاب العـربيّ بـيروت 1955م.

22- علم الدّلالة ، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب ، بيروت ، ط2، 1988م.

23- علـم الدلّالـة العـربيّ، د. فـايز الدّايـة، دار الفكّـر، دمشـق، الطّبعـة الأولى 1985م.

الهوامش والإحالات:

1-ينظر صحيفة (الصّدى) الموريتانيّة، 7 ماي 2019م، (في رِحاب شنقيط) أحمّد صافي المستغانمي، على الشّابكة essada.info.

2-المقال نفسه (في رِحاب شنقيط) لـ أحمّد صافي المستغانمي، صحيفة (الصّدى) موريتانيا، على الشّابكة.

3- المقال نفسه للأستاذ أحمّد صافي المستغانميّ، والصّحيفة نفسها، على الشّابكـــة.

4- المقال نفسه.

5- ينظر: المقال نفسه للأستاذ أحمّد صافي المستغانمي على الشّابكة.

6 - كتب أحمّد صافي المستغانمي، مكتبة نور، على الشّابكة: noor.book. com.

7- ينظر: الموضوع في الشّابكة على الموقع: altibrah.ae/book /28836.

8-المباحث البلاغيّة في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطوّرها حتى القرن السّابع الهجريّ د. أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1410-1990م، ص230-231.

9- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، ص38.

10- المصدر نفسه، ص55.

11- المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآني، د. أحمد جمال العمريّ، ص231.

12- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، ص63، تعليق محمّد رشيد رضا.

13- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانيّ، ص2.

14-المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآنيّ، د. أحمد جمال العمري، ص233- 234.

15- المصدر نفسه، ص247.

[16]ينظر: الدّلالة اللفظية، د. محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصريّة، الطّبعة 1، 2000م، ص4-5

17- التّحليل اللغويّ في ضوء علم الدّلالة دراسة في الدّلالة الصّوتية والصّرفيّة، والنّحوية ولمعجميّة، د. محمود عكاشة دار النّشر للجامعات، مصر، 1426هـ-2005م، ص 9.

[18]-المصدر نفسه، ص9-10.

[19]-علم الدّلالة دراسة نظريّة وتطبيقية، أ.د فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، 175 وما بعدها.

[20]- المصدر نفسه، ص 187 وما بعدها.

[21]- المصدر نفسه، ص194.

فنّ الاحتباك في القرآن الكريم من منظور (الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي)

أ. اللوط بدرة
ج. عبد الحميد بن باديس، مستغانم

الملخص: راعت هذه الدّراسة أسلوب جمالي من الأساليب البلاغيّة، وكون العربيّة بطبعها لغة إيجاز كان أقرب طريق إلى الإيجاز هو الحذف والأسلوب الذي يرومه هذا البحث مستخرج من صلب الحذف؛ وهو فنّ الاحتباك الذي اتسم بالجماليّة بالأخص عند حضوره في النّص القرآني، وقد عرف بتسميّات عدّة وذاع صيته أكثر في كتابات علمائنا المحدّثين، ومنه ما تمّت الإشارة إليه في كتاب (**تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى** عليه السلام) لـ **أمحمّد صافي المستغانمي**؛ بشكل موجز ومنه أردنا الغوص في عماق هذا الأسلوب البلاغيّ من خلال أمثلة وشواهد من كتاب الله عزّ وجلّ.

الكلمات المفتاحيّة: البلاغة، أسلوب الحذف، أسلوب الاحتباك، أمحمّد صافي المستغانمي.

Summary :This study dealt with an aesthetic style of rhetorical methods,Arabic is by nature an abbreviated language,The closest path to brevity was deletion,The method intended by this research is extracted from the essence of deletion; It is the art of, which was characterized by aesthetics, especially when it was present in the Qur’anic text.It was known by several names and became more popular in the writings of our modern scholars.It was mentioned in the

book:**Conjugation of saying in Quranic stories.An analytical rhetorical study of the story of Moses, peace be upon him.Dr. Muhammed Muhammad Safi Al Mosteghanemi**; Briefly we wanted to dive into the depth of this rhetorical method through evidence from the Book of God Almighty.
Key words: Rhetoric,delete method,knitting method,Muhammed Muhammad Safi Al Mosteghanemi

التّقديم: عرفت البلاغة العربيّة على أنّها إيصال معنى الخطاب كاملا الى المتلقّـي بأيّ أسلوب سواءً كان سامعا أم قارئاً، فالإنسان حيـنما يمتلـك البلاغـة وفصـاحة اللسان يستطيع أن يوصل المعنى إلى المستمع فيحقّق منه غايّة بـالأخصّ إذا اقترنـت بفصاحة القول، وقد امتازت العربيّة عن كثير من اللغات الأخرى من حيث الـوفرة اللغويّة، وقوّة الأساليب البلاغيّة والبيانيّة ووضوح الدلالة و تنـوّع طرائـق التّعبـير فكانت الكلمة منذ القدم حرفة ومكسب عيش الكثير من العـرب وقـد وصـل بهـا الحال لأن تكون السّبب في حتفهم، ومن جماليّات فصاحتهم ما رُوي عن أمـير رأى في منامه رؤيّة أنّ أسنانه قد سقطت فلم يبقى إلاّ سنّ أو ضرس واحد فقـام مفزوعـا من مخدعه واستدعى حاشيّته والمفسـرين ليفسـروا لـه هاتـه الرّؤيّـة فلـما اجتمعـوا دخل الأوّل فقص عليـه الأمـير الرّؤيّـة، فقـال الرّجـل: "تمـوت أيّهـا الأمـير آخـر قومك"، فأمر بقتله، ثمّ دخل الثّاني فقص عليه الرّؤيّـة، فقـال: "أصـلح الله حالـك أيّها الأمير، يطيل الله عمرك حتى يكون أخر قومه، فأعطـاه جـائزة وأطلـق سراحـه هنـا نـرى لا فـرق بـين تفسـير الأوّل والثّـاني المعنـى هـو نفسـه، الفـرق الـرّجلين (المفسرين) أنّ الأوّل صريح والثّاني رجل فصيح، وفرق بين الصّراحة والفصـاحة

هنا فرق بين الحياة والموت، هؤلاء النّاس كانوا يدركون أنّ الكلمة صنعة، وأن تبدأ كلامك بما يدل على التّفاؤل أو تبدأه بما يدلّ على التّشاؤم).

كان العرب في الفصاحة والبلاغة في أعلى درجات البيان حتى قال عنهم الجاحظ في كتابه البيان والتّبيين "إنّ البيان عند العرب أصل وطبع وسليقة، كما أنّهم فيهم بديهة وارتجال وكأنّه إلهام، قال وإنّما يصرف القائل همّه إلى الكلام وإلى الغرض الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الفاظ انثيالا"[1]، من أجل ذلك نشير إلى ظاهرة من ظواهر البلاغة في القرآن الكريم الذي تحدى الله ﷻ به الانس والجنّ، هذه الظاهرة تسمّى الاحتباك في القرآن الكريم وقد تردّدت في (أكثر من 200 موضع)[2]، والاحتباك يدخل في باب الحذف هذا الأخير يسميه عبد القاهر الجرجاني؛ دليل من دلائل الإعجاز حيث قال في باب الحذف: (هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسّحر فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن)[3] ومنه جاء أسلوب الاحتباك بطبعه الجمالي.

1- **الاحتباك في أصله اللغويّ:** (حَبْك): من الحبك ومأخوذ من (الشّد بكلّ إتقان إحكام، وهو شدّ الإزار)[4]، وقيل الحبكة: الحنجرة بعينها ومنها أخذ الاحتباك بالباء وهو شدّ الإزار ومما جاء بهذا المعنى ما روي عن عائشة رضي الله عنها: (أنّها كانت تحتبك تحت الدّرع في الصّلاة)[5]، أي تشدّ الإزار وتحكمه، (والمحبوك: ما

أجيد عمله، فكلّ شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته)[6]. معناه الشّد بإحكام.

2- **الاحتباك في الاصطلاح:** عند سماع لفظ الاحتباك -وممّا استنتجناه من التّعريف اللغويّ- يتراءى للذّهن تلك الصّورة من تداخل خيوط نسج الثّوب أو قطع القصب مع بعضها وتفاوتها عن بعضها، كما توحي اللفظة بتراص الخيوط مع بعضها بحيث تندثر بينها الفرج التي تبدو عند عمليّة النّسج البدائيّة، من خلال سحب هذه الخيوط بأصابع اليد، فهو عمليّة نسج من غير ترك فراغ بين الخيوط أو قطع القصب أو مما ينتج منه، وقد عرف عند البلاغيين على أنّه؛ (القول المركب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالثّ كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أو ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجترئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك. وقولنا: في الفاعل أو ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، لنحوي به ما كان نسبة الأوّل فيه إلى الثّاني كنسبة الثّالثّ والرّابع، كما في بعض صور هذا النّوع أقل ذلك، والأوّل أكثره وأعمه)[7]؛ أي أن يذكر الخطيب كلمة في الجملة الأوّلى ويعني معناها الآخر في الجملة الثّانيّة، وأن يذكر في الثّانيّة مالم يذكر في الأولى بمعنى آخر.

3- **أسلوب الاحتباك عند العرب قديما:** إنّ الاشارة إلى هذا النّوع من الحذف قديمة في تراثنا قدّم البحث في تراكيب اللغة شعرا ونثرا، فهي ترجع إلى سيبويه (ت180ه)، في تقديره أصل المعنى، حين قال: (وإنّما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل النّاعق والمنعوق به الذي لا يسمع)[8]، يعتبر قول سيبويه المنطلق

الأوّل الذي أشار لتعريف الاحتباك، كونّه كما أوردنا أنّه تحذف من الأوّل ما أثبت في الثّاني، ومن الثّاني ما أثبت في الأوّل، لغرض بلاغي.كما عرف هذا الأسلوب عند أهل المنطق والفلاسفة العرب بمصطلح (القياس المضمر) فراحوا لتعريفه بأنّه: (القياس المركّب من قضيّتين شرطيتين، تشمل كلّ واحدة منها على جزأين: مقدم وتال، فيحذف بعض المقدّمات في المخاطبات الجدليّة، أو جريا على قواعد البلاغة لمطابقة الكلام لمقتضى الحال)[9]، ويعدّ أبو حيّان الأندلسي(ت745هـ) من الأوائل الذين تحدثوا عن الاحتباك بشكل مبين وشرحه بالتّفصيل إلاّ أنّه لم يسمه بمصطلح الاحتباك، واتضح هذا من خلال تفسيره لأيّة قرآنيّة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[10]سورة البقرة-الآية 228 فقال: "هذا من بديع الكلام، إذ حذف نظيره في الآخر، وأصل التّركيب ولهن على أزواجهن مثل الذي لأزواجهن عليهن، فحذفت على أزواجهن لإثبات: عليهن وحذف لأزواجهن لإثبات لهن"[11]. هذه من بين الأثار التي ذكر فيها هذا الفنّ البلاغي.

4- **أسلوب الاحتباك عند المحدثين:** من خلال إشارات وجهود علمائنا العرب قديما لموضوع الاحتباك أبانوا المسار للمحدثين والمشتغلي في الأراضي البلاغيّة من التّماس هذا الفنّ البلاغي خصوصا ما ظهر منه في القرآن الكريم، أمّا عن ماذا أضافوا فلم نجد أي إضافة على ما ذكره العلماء سلفا في موضوع الاحتباك على الرّغم من عدم ضبطهم للمصطلح، فاكتفى المحدثين غالبا بذكر الأمثلة عنه واخراجه إلى السّاحة اللغويّة عبر الإشارة إليه في كتاباتهم أو تحليلهم للنّص القرآني

فعرف على أنّه ذاك الذي (يأتي المتكلّم بأمرين كلّ أمر فيه عنصران المتكلّم يريد أن يربي الفائدة بإيجاز دقيق فيجيء من العنصر الأوّل عنصر ويحذف مقابلة الأوّل)[12] فلم يختلف تعريفهم عن ما جاء به السّابقون، إلاّ إنّهم رتبوا أنواع الاحتباك الى: **الاحتباك الضّدي، الاحتباك المتشابه، الاحتباك بالمتناظر، الاحتباك المنفي المثبت الاحتباك المشترك.**

إشارات أمحمّد صافي المستغانمي لأسلوب الاحتباك في كتابه (تصريف القول في القصص القرآني) وفي لقاءاته التّلفزيونيّة: قد أشار صافي المستغانمي إلى هذا الفنّ بشكل موجز في المبحث الثّاني من كتابه (**تصريف القول في القصص القرآني**) الذي عنونه بـ: **التّكامل والتّوزيع** حيث قال: «ومن النّظرة التّكامليّة للنّصوص القرآنيّة المتشابهة ما يسمّيه الشّيخ رشيد رضا بالاحتباك، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾13 **سورة الأعراف الآية117**،حيث أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يلقي عصاه، و لم يذكر فيها أنّ موسى لبى الامر و ألقى عصاه، بل مباشرة انتقل السّياق إلى تلقفها ما جاء به السّحرة من الإفك، والتّقدير و أوحينا إلى موسى أن ألق عصاك، فألقاها فإذا هي تلفق...»[14]، وقد توقف اللغويون كثيرا في هذه المسألة خصوصا ما تعلّق بالنّص القرآني فكان لابد من ايضاحها و أكثر مثال قرآني يذكر عن أسلوب الاحتباك في القرآن قوله ﷻ: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾[15] آل عمران الآية13

والتّقدير إذا كانت الفئة الثّانيّة كافرة فالأوّلى تقابلها في الإيمان، وإذا كانت الفئة

الأوّلى تقاتل في سبيل الله فحري أن تقاتل في سبيل غير الله، و هنا تتبين جماليّة هذا الفنّ البلاغيّ.

وشاهد قرأني أخر في قصّة موسى عليه السلام لما أقبل على أخيه لائما، وقال: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾سورة طه الآية(93-92)، هنا السّؤال القائم: هل موسى يريد على أخيه أن يتبعه أو يريد ألا يتّبعه، على حسب المنطق العقلي فإنّه يقصد ما منعك أن لا تتّبعني، وجاء بالنّفي للتّوكيد والقصد من قوله ذاك ما منعك أن تتبعني وما اضطرك أن لا تتّبعني فتكمل الآية في﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ الآية (93) بمعنى رجعت فيما تقدّمت إليك.

نتذوّق فنّ بلاغة الاحتباك من خلال هذه الآية ونتلذّذ بعظمة هذا الإعجاز كما ذكر على أنّ هذا الأسلوب هو ذكر كلمة في الجملة الأولى تعني معناها الأخر في الجملة الثّانيّة، وأن تذكر في الثّانيّة مالم يذكر في الأوّلى بمعنى أخر، وفي الآية لم يكتفي بقول ما منعك والتي أصلها ما منعك أن تتّبعني محذوفة وما اضطرك ألا تتّبعني والتّقدير كلمة ما منعك دلت على أن تتّبعني وعبارة لا تتبعني دلت على المحذوف ما اضطرك.

مثال آخر بنفس السّياق في سورة الأعراف في قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾الآية (12)، التّحليل والتّقدير هو ما منعك ألاّ تسجد وما حملك على ألاّ تسجد، القرآن الكريم مبني بطريقة عجيبة زادته الأساليب البلاغيّة كالاختيار رونقا وجماليّة.

الخاتمة: حاول البحث إبراز بلاغة الاحتباك والغايّة التي يصل إليها الكلام منطلقا من القيم البلاغيّة لأسلوب الحذف ونوعه فنّ الاحتباك، من خلال القرآن الكريم.

- بما أنّ الاحتباك فنّ بلاغي تحتم إيضاح معالمه وإبرازه على السّاحة البلاغيّة فكشفنّا جوانبه التّراثيّة وامتداداته في الدّرس اللغويّ العربي، واستنتجنا بعض النّقاط هي:

- كون أسلوب الحذف أعتبر دليل بلاغيّ إعجازيّ فالحبك أو الاحتباك يعدّ في نفس المرتبة مثله بما أنّه خريج صلب الحذف، ويتقاطع معه في الكثير من الأحيان؛

-الاحتباك هدفه تعميق المعاني وتكثيفها في أصل ألفاظها لتثبيت القيم في النّفوس، والأخذ بأيدي النّاس إلى مقام الطّاعة والقرب من ربّ العالمين؛

-أسلوب الاحتباك أنواع: الاحتباك المشترك، الاحتباك المتشابه، الاحتباك الضّدي، الاحتباك بالمتناظر، والاحتباك المنفي المثبت؛

-يُعدّ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي أحد أقطاب الدّراسات البلاغيّة في العصر الحديث، وفي مجال الدّراسات القرآنيّة، ويعدّ كتابه تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام، من أهمّ الكتب التي ألفها في هذا المجال.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم مُصحَف المدينة النّبويّة، مُجَمع المَلِكِ فهد لطباعة المصحف الشّريف، المدينة المنورَة.

1. البحر المحيط في التّفسير، أبي حيان التّوحيدي، تحقيق صدقي محمّد جميل، ج2.
2. الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
3. الرّوض المريع في صناعة البديع، ابن البناء المراكشي العددي، تحقيق رضوان بن شقرون، الرّباط، 1406هـ-1985م.
4. الكتاب، بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح، عبد السّلام هارون القاهرة، الهيئة المصريّة للكتاب، ط2، سنة 1338هـ-1977م.
5. المنتخب من تفسير القرآن الكريم، محمّد متولي الشّعراوي، ج3.
6. المنزع البديع في تجنيس البديع، أبي القاسم السّجلماسي، تحقيق علال الغازي الرّباط سنة 1406هـ-1980م.
7. تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام أحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير.
8. دلائل الاعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق أبو فهر محمود محمّد شاكر الطّبعة الثّالثة مطبعة المدني القاهرة.
9. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري بيروت، دار صادر، الطّبعة السّادسة، (1417هـ-1997م)، مادة: (ح، ب ك).

*السّيرة الذّاتيّة للدكتور أحمّد صافي المستغانمي مستلة من كتابه تصريف القول في القصص القرآني دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام.

الهوامش

[1]–الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، ج2 ص20.

[2]–قالها: د.فاضل السّامرائي في حصّة تلفزيونيّة (أهل القرآن).

[3]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز في علم المعاني، تحقيق أبو فهر محمود محمّد شاكر، الطّبعة الثّالثّة مطبعة المدني القاهرة، ص 106.

[4]–لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الافريقيّ المصريّ، بيروت، دار صادر، الطّبعة السّادسة، (1417هـ–1997م)، مادة: (ح، ب، ك)، 10/ 407.

[5]–أخرجه البيهقي في سننه2/ 235، رقم (3083)، إسناده ضعيف؛ لأنّ فيه راويا مجهولا، وهو أم شبيب، قال الألباني: (وأم شبيب هذه لم أجد من ذكرها)3/ 67، وبقيّة رجالة ثقاة. ينظر: سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة (الرّيا، مكتبة المعارف، الطّبعة الأوّلى، 1412هـ–1992م.

[6]–لسان العرب، ابن منظور، مادة (ح، ب، ك)، 10/ 408.

[7]–المنزع البديع في تجنيس البديع، أبي القاسم السّجلماسي، تحقيق علال الغازي، الرّباط، سنة 1406هـ–1980م، ص195.

[8]–الكتاب، بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح، عبد السّلام هارون، القاهرة، الهيئة المصريّة للكتاب، ط2، سنة 1338هـ–1977م، ص212.

[9]–الرّوض المريع في صناعة البديع، ابن البناء المراكشي العددي، تحقيق رضوان بن شقرون، الرّباط سنة 1406هـ–1985م، سنة 143.

[10]–سورة البقرة، الآية 228.

[11]–البحر المحيط في التّفسير، أبي حيان التّوحيدي، تحقيق صدقي محمّد جميل، ج2، ص200.

[12]-المنتخب من تفسير القرآن الكريم، محمّد متولي الشّعراوي، ج3، ص100/ 101.

* الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، يحمل شهادة الدّكتوراه في اللغة العربيّة، في تخصّص البلاغة العربيّة تقلب عدد من الوظائف في ميدان التّربيّة والتّعليم في الجزائر، وفي دولة الامارات العربيّة المتّحدة، يشتغل الآن منصب الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وهو عضو اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة، وعضو بالمجلس العلميّ للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة. معدّ ومقدّم برامج تلفزيونيّة مثل (البيان القرآني) في قناة المجد العلميّة وبرنامج (في رِحاب سورة) في قناة الشّارقة الفضائيّة، له عدّة مؤلّفات منها تصريف القول في القصص القرآني دراسة مقارنة لقصّة موسى عليه السلام والخطيب النّاجح بين عوامل الاقناع وسائل الامتاع، وكيف تصبح فصيح اللسان، ومفاتيح النّجاح وسنن السّعادة، رؤية تأصيليّة، وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، والأسوار المرصّعة في أسرار الأحرف المقطعة، وجواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور وأخرى تحت الطبع.

[13]-سورة الأعراف، الآية117.

[14]-تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصّة موسى عليه السلام، أمحمّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، ص269-270.

[15]-سورة آل عمران، الآية13.

ملامح تطوّر الدّرس التّفسيريّ المعاصر

قراءة في المنجز التّفسيري للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي

د.إلياس قويسم
أستاذ علوم القرآن والتّفسير، نائب رئيس ج. الزّيتونة

1-أسئلة الورقة العلميّة المقترحة:

- ما خصوصيّة التّفاسير المعاصرة بالمقارنة مع المنجز السّلفي؟
- هل يمكن اعتبار القراءات المقترحة بديلا عن التّفاسير المنجزة؟
- لماذا نحن بحاجة إلى تطوّير الدّرس التّفسيري في العصر الرّاهن؟
- هل يتسنّى لنا تجسير العلاقة بين التّفاسير المنجزة والقراءات المقترحة قصد تحقيق التّواصليّة المنهجيّة ومن ثمّ استمراريّة دفق المعنى القرآني بدل روايّة المنجز؟
- أين يتسنّى لنا تنزيل القراءات التّفسيريّة للدّكتور المستغانمي: هل هي استعادة للمنجز السّلفي أم محاولة لاستئناف البعد الخلفي للمفسّر قصد الإبقاء على حيويّة النّصّ دلالة ومعنى انطلاقا من مقولة أحد المتصوّفة المغاربة: قد اكتمل تنجيم القرآن نصًّا ولن يكتمل تنجيمه معنى؟

2-الأهداف: نرمي إلى أن تكشف معالجة الأسئلة عن أفق المفسر وتحدّد آفاق التّفسير وإمكاناته الغدويّة، وتبيّن مسار الاستفادة من الإمكانيّات المتاحة ومصيرها، وتوضح كيفيّة مواجهة الإشكاليّات التّفسيريّة الرّاهنة. وهو ما يحيلنا إلى

الحديث عن الثّابت والمتحوّل في العمليّة التّفسيريّة المعاصرة، لأنّ المطلوب من الدّارس القرآني العمل على رسم معالم التّعامل مع مفردات النّصّ القرآني تفسيرا وقراءة، وعلى إبانة أساليب تكييف مضامينه مع الواقع المتحرّك ضمانا لفعاليّة الإنسان المستخلف وحيويّة الوحيّ المنزّل.

3-زوايا الرّؤية:

- **الزّاوية الأولى: نعيش خلفا ونفكّر سلفا**: علينا تجاوز هذه الزّاوية لضيق مشهدها وعدم استيعابها لمستلزمات العصر الحديث. فقد تحوّلت التّفاسير في السّياق التّراثي ـ على تنوّعها المذهبيّ ـ إلى ضرب من التّرديد داخل إطار معرفيّ قارّ لتقدِّم المدلولات القرآنيّة في محاورها الكبرى على نفس البناء ونفس الرّؤية وكأنّه وقع التّوصّل بهذا البناء وهذه الرّؤية إلى الصّيغة المثلى في معنى كلام الله. وهذه المنهجيّة ظلّت قائمة فاعلة إلى اليوم منتجة تفاسير كثيرة ينتمي أغلبها إلى ما يمكن تَسميتُه بـ(المدرسة التّراثيّة) التي يكون المفسر فيها متحرّكا ضمن الموروث اللغويّ والفقهيّ والعقائديّ وخاضعًا لمنهج يعيد إنتاج نفس المعرفة ونفس الفهم للنصّ ويحبس اللغة في ذلك الموروث عوض أن تكون اللغة وسيلة لنقد التّفسير التّراثي وأداة للتّفكير والإبداع في سبيل فهم جديد للنّص القرآني.
- **الزّاوية الثّانية: استطالة الماضي إلى الحاضر**: لا بدّ من رؤية تعضد بين الماضي بالحاضر في ريّة شموليّة تتناول جوهر القضايا. فإنّ التّجربة التّفسيريّة لعدد كبير من المفسرين لم تتجاوز مستوى البحث في بعض التّفاصيل والجزئيّات

والتّرجيحات. أمّا على مستوى الجوهر فإنّها بقيت تجترّ الموروث من دون بحث مستقلّ يكشف به كلّ مفسر عن فاعليته الذّاتيّة ومساهمته العلميّة الفارقة، ومن دون وعيّ شامل بمقتضيّات الواقع المنويّ دراسته. ولذا فإنّه من الضّرورة الخروج من دائرة التّقليد إلى البحث عن نماذج منهجيّة جديدة في تفسير النّص القرآني تتجاوز مستوى الحكايّة إلى مستوى الكشف والإبداع.

4-الموجّهات الأوليّة:

- **ضرورة التّخلّص من ضغط النّزعة الاستصحابيّة**: ينبغي ألّا يغيب عن أفق منظورنا أنّ بعض المعاصرين المارسين للتّفسير القرآني لا يزالون يعانون من ماضويّة منهجيّة بحفاظهم على النّسق التّفسيري التّحليلي التّرتيبي للحظة ابن سلاّم (200هـ). ولذلك نراهم تحت قيد نزعة استصحابيّة من أهمّ مظاهرها امتداد الرّؤية الماضويّة التي باتت عندهم المنهج الرّئيسي الذي يحدّد خطاباتهم ويرسم اتّجاهاتهم فيما يعتمدونه من المفاهيم والأفكار. والحاصل أنّنا نجد جهودهم عَمَلا لا يختلف عن المارسة التّفسيريّة التّراثيّة وحركةً تحوم على الحافّة تلك الدّائرة. بل إنّ هذه النّزعة الاستصحابيّة للتّفسير التّراثي تبدو لنا شبه ذهنيّة جمعيّة تؤطّر تفكيرهم وممارستهم وتأتي بمنتوج هو أقرب إلى تكرارٍ لمارسة قديمة منه إلى بحث جديد.

- ضرورة التّأسيس لمنهج جديد يستعيد براءة النّص القرني؟

لا بدّ من ابتكار منهج في تفسير النّص القرآني لا يكون مجرّد آلة تقليديّة يحلّل بها المفسّر جسم النّصّ بل جهازا تأطيريّا يحمل جملة من المفاهيم الأساسيّة التي توجّه

النّصّ من حيث طبيعته وحركته ووظيفته ويمكّن المفسر من تطويق النّصّ وإدراك دلالاته العامّة والخاصّة ويخلع عن التّفسير التّراثي للنّص المؤسّس سلطته شبه التّقديسيّة التي جعلته بمثابة نصٍّ ثانٍ.

إنّ مثل هذا التّمشّي يفرض بداهة سوق إشكاليّة التّفسير المعاصر، من خلال تمثّل راهنيّته عبر الإجابة عن السّؤال التّالي: هل المعاصرة المقصودة في ذاتيّتها الزّمنيّة- مرحليّتها التّاريخيّة- تكون من دون مقتضيات سابقة سواء من حيث المنهج أو المضمون أو الأسلوب أو الأدوات، قصد استعادة براءة القرآن الأصليّة وتتبّع مكامن الإضافة وفق منظور خلفيّ دافع نحو المغايرة الإيجابيّة لا الاستئصاليّة أو النّافيّة لجهود من سبق؟

في الحقيقة، تقتضي معالجة هذه المسألة نظرا في ما هو منجز من التّفاسير المعاصرة التي تهدف إلى أفق جديد في مجال التّعامل مع تفسير القرآن وإظهار بيانه وتنهي العلاقة مع (ثقافة الفرقة النّاجيّة) منهجيّا وتسعى إلى تقويم التّراث التّفسيري قصد تتبّع ملامح الجدّة والطّرافة والإضافة التي تعكس روح العصر وهامش الزّمن المقطوع من السّلف وإثبات حدث الختم وإعجازيّة القرآن وإمكانات امتداده في التّاريخ لتحقيق الغايّة من نزوله.

ومن أهمّ الأعمال المعاصرة التي اهتمّت بمعالجة النّص القرآني المنجز التّفسيري للدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي. فهذا المنجز يمثّل تجربة بحثيّة معاصرة وخطوة تجديديّة في مجال علم التّفسير. فأين تكمن إذن ملامح التّجديد في جهود الممارسة

التّفسيريّة للمستغانمي؟ هل هي استعادة معاصرة للدّرس التّفسيريّ التّراثيّ لا تتجاوز مستوى التّجديد العبارة والثّوب اللغويّ؟ أم هي استئناف خلفي لفعل القراءة يسعى إلى تطوير الدّرس التّفسيري منهجا ومعنى؟

- تجربة المستغانمي في كتابه (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور) معطى أولي وخطوة أساسيّة نحو تأسيس منهج جديد:

منطلقنا في دراسة تجربة الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي هو كتابه (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور) الصّادر عن دار ابن كثير، بيروت، 2018.

هذا اكتاب هو نشأة لتعبير نقدي صارم للمدرسة التّراثيّة التي ظلّت منجذبة نحو تراث يحتويها، معتمدة بناء ذهنيّا يفكر فيه أصحابه من خلال التّراث لا من خلال ما يتيح التّحرّر منه. من هذا التّقابل بين وحدة التّاريخ وحضور الماضي في الحاضر في كتب التّفسير التّراثيّة وبين مثاقفة العصر وبناء الذّات في كتاب (جواهر الدُّرر) يعتبر أحمّد صافي المستغانمي مؤسّسا لوعي مختلف ولتفسير حديث مستوعب لمكوّنات العصر ودافع لصياغة إجابات جديدة تضفي فاعليّته في مناهج التّفسير.

وأهمّ معطى علمي يطرحه الدّكتور المستغانمي للانتقال إلى وضع القراءات العلميّة المقترحة هو تقدير المنجز واستشراف المقترح. ومفاد هذا المعطى هو أنّ أيّ دراسة حول القرآن لا تستوعب التّراكم العلمي التّاريخيّ حول تفسير القرآن وكذلك الأطروحات الحديثة حوله وتبني عليه نقدًا وإضافة لن تقدّم جديدًا

وستبقى هامشيّة. وعليه، فإنّ تطوّر النّقد العلمي، النّسبة إلى أمحمّد صافي المستغانمي، هو ما يمكّن من فهمٍ أفضل للتّراث التّفسيري والتّعامل معه من منظور مختلف لا يقف عند نهاياته وما استقرّ فيه. ولذا يرى المستغانمي أنّه على الباحث المتقن أن يفهم كلّ مرحلة من تاريخ علم التّفسير في ضوء سياقها ومعطيات علمائها وما توفّر لدى هؤلاء العلماء مِن معارفِ مَن سبقهم. فالقراءة السّياقيّة لجهود المفسّرين والإفادة من آثارهم كفيلة بفهم أفضل ومِن ثمّ البناء الجديد لتحقيق البعد المفقود من نصّ التّفسير والمرافقة المحيّنة للقرآن وصياغة التّصوّر المطلوب للقراءته وبيان معانيه. هذه المقاربة هي التي نستشفّها من جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي. وهي عنده أساس النّظرة التّجديديّة في كتاباته حول علم التّفسير عموما، وفي كتابه (جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور) خصوصا والتي ننطلق منها في تقييم منجزه التّفسيري. وإنّ المدخل المصطلحي الذي نلحظه في مؤلّفاته هو من أهمّ الأدوات في قراءتنا لما رأيناه طرحا تجديديّا في منجزه العلميّ.

5-تحليل المقاربة التّفسيريّة للدّكتور المستغانمي:

5-1 المشروعيّة الحضاريّة لاستعادة سؤال التّفسير في اللحظة المعاصرة من منظور أمحمّد صافي المستغانمي: يمكن أن ننطلق في تحليلنا لملامح المقاربة التّفسيريّة المعاصرة من نصّ شديد الدّلالة وهو (لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله والكشف عن معانيه ومراميه... إذ أنّهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذي جمع بين سعادة الدّنيا والآخرة... والذي يقرأ كتب التّفسير على

اختلاف ألوانها لا يدخله شكّ في أنّ ما يتعلّق بالتّفسير من الدّراسات المختلفة قد وفّاه هؤلاء المفسّرون الأقدمون حقّه من البحث والتّحقيق. فالنّاحية اللغويّة والنّاحية البلاغيّة والنّاحية الأدبيّة والنّاحية النّحويّة والنّاحية الفقهيّة والنّاحية المذهبيّة والنّاحية الكونيّة الفلسفيّة، كلّ هذه النّواحي وغيرها تناولها المفسرون الأوَّلُ بتوسّع ظاهر ملموس لم يترك لمن جاء بعدهم إلى ما قبل عصرنا بقليل، من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألّفوها، اللّهم إلاّ عملا ضئيلا لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدّمين أو شرحا لغامضها أو نقدًا وتفنيدا لما يعتَوِرُه الضّعف منها أو ترجيحا لرأي على رأي مما جعل التّفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالرّكود خاليّة من التّجديد والابتكار)[1] . هذه المقاربة تتجه نحو سكون الحاضر أمام حيويّة الماضي ومن ثمّ مشروعيّة استطالتّه فيه منهجا ومضامين وأساليب قصد الإقرار بثبات الدّلالة والمفهوم ومحاولة الدّفاع عن الموروث وفق صيغ معيّنة. ولكن في مقابل هذا التّوجّه الذي ينحو منحى مديونيّة الحاضر للماضي في كلّ ما يتعلّق بالمفاهيم والشّروح والدّلالات وغيرها نجد مقاربة تجديديّة تسعى إلى جعل الحاضر لحظة فارقة قائمة على نسقيّة الاستقلال عبر جعله لحظة حيويّة على مستوى المنهج والدّلالات، بالنّظر إلى إيمانها أنّ تفعيل اللحظة هو تفعيل للنصّ القرآني على مستوى استمراريّة دفق الدّلالات والمعاني، لا البقاء حبيس لحظة تاريخيّة دون غيرها، وفي هذا يصرّح الدّكتور صافي المستغانمي بما يلي: "وهذا النّهج الذي انتهجه علماء التّفسير السّابقون هو نهج سليم وصحيح ولا غبار عليه، حيث

إنّه ساعد قديما، وهو يساعد حديثا على فهم نصوص التّنزيل. إلاّ أنّ الدّراسة الفاحصة لنصوص التّنزيل والباحثة عن أسرار إعجاز النّصّ القرآني تثبت أنّ ثمّة جوانب أخرى تحتاج إلى بيان وتجليّة، إذ إنّ جماليّات النّصّ القرآني لا تنحصر في شرح المفردات المستعملة وإعرابها وبيان أبنيتها الصّرفيّة وفهم كلّ جملة على حدة واستنباط الأحكام فقط وإنّما ثمّة جوانب أخرى كانت تقضّ مضاجع كثير من العلماء وتُبعد الكرى عن أجفانهم وهم يتدبّرون هذا النّصّ المعجز..."[2].

وفق هذا التّمشّي يمكن التّأكيد بداية على أنّ المسار الذي انتهجه المستغانمي يقوم على أساس مقاربة تصحيحيّة تتجه نحو التّموقع في حقل الفهم الصّحيح لسيرورة التّاريخ بناء على:

- أهميّة الموروث التّفسيري من حيث كونه مجالا اجتهاديّا لنصوص ثوان لبيان نصّ الوحيّ وفق حدود الطّاقة البشريّة؛
- أهميّة تنضيد مقاربات معضّدة للمجهود التّفسيري التّراثي دون الرّكون داخله، على اعتبار أنّ ذلك معطّل لنصّ الختم الذي هو موجّه للعالمين دون تحيّز زمنيّ ومكانيّ؛
- الاستفادة من المستجدّ المنهجيّ والدّلاليّ في مجال تطوير فعل التّفسير وتمكين اللحظة المعاصرة من الإسهام في إنتاج مناويل جديدة للكشف عن المسكوت عنه أو المستتر أو الممكن بيانه في اللحظة المعاصرة دون الماضيّة.

واستتباعا لهذه المنطلقات يمكن القول بأنّ قراءة المستغانمي هي في وضع وسط بين التّفاسير المنجزة والقراءات المقترحة، فلا تعطّل السّابق ولا تقطّع معه، ولا تجعل من المقترح سابقة تنطلق من لحظة الصّفر دون أن تكون سلسلة تراث ماض.

إنّ مثل هذا التّمشّي يفرض بداهة سوق إشكاليّة التّفسير المعاصر من خلال تمثّل راهنيّته في السّؤال التّالي: هل المقصود بالمعاصرةِ المعاصرةَ في ذاتيّتها التّاريخيّة المجسّمة في المرحليّة-الزّمنيّة دون مقتضيات لاحقة سواء من حيث المنهج أو المضمون أو الأسلوب قصد استعادة براءة القرآن الأصليّة وتتبّع مكامن الإضافة وفق منظور خليفي دافع نحو المغايرة الإيجابيّة لا الاستئصاليّة والنّافيّة لجهود من سبق؟

إنّ معالجة هذه القضيّة تقتضي وضعا مقارنا قصد تحديد ملامح الجدّة والطّرافة والإضافة في التّفسير المعاصر التي من شأنها تحرير ملامحه من قيود الماضي فلا يكون مجرّد انسكاب لفظي لمقولات من سبق في وعاء معاصر يقتفي أثر السّابقين. فإنّ التّكليف الإلهي يقتضي استفراغ الجهد قصد إثبات حدث الختم وإعجازيّة القرآن وممكنات امتداده في التّاريخ لتحقيق غرض الدّعوة والهداية.

مثل هذا التّصوّر يطرح مسار التّعدّد المنهجيّ والفكريّ في مجال التّعامل مع القرآن من ناحيّة فسّره وبيانه. وهذا التّعدّد لا نجده متوقّفا عند حدود التّكثّر العددي لأسفار التّفسير بل نلفاه متجاوزا ذلك إلى تنوّع فيه خصوصيّة واستقلاليّة وعاكسا لروح العصر وهامش الزّمن المقطوع من السّالف إلى المعاصر دون منازعة للسّالف أو انفصال عنه أو فكّ ارتباط به. ذلك أنّ الغرض من الانكباب نحو

التّقويم المعاصر للتّراث التّفسيري هو الانجذاب نحو أفق جديد ينهي العلاقة المنهجيّة مع (ثقافة الفرقة النّاجيّة) التي هيمنت على مجتمعاتنا بمختلف فصائلها ومشاربها، ونشوء لتعبير نقدي صارم للمدرسة التّراثيّة التي ظلّت منجذبة نحو تراث يحتويها معتمدة بناء ذهنيّا رهين التّراث غير قادر على التّحرّر منه.

من هذا التّشابك بين (وحدة التّاريخ) -أو استطالة الماضي بحلوله في الحاضر- والمثاقفة والرّغبة في بناء الذّات من جديد، تضحى ثقافة التّعدّد أساسا لوعي مختلف، ولتفسير معاصر مستوعب لمكوّنات الحاضر وإحراجاته، ولصياغة إجابات جديدة تنخل الموروث وتثير فاعليّته الكامنة. ولذا فإنّ التّحدّي الكبير للتّفسير الموسوم بالحداثة والمعاصرة يكمن في الوعي، ضمن وحدة الزّمن التّاريخي بما يتيح لنخب المفسرين من البحث التّفسيري ضمن دائرة الفكر العالمي قصد الانفلات من نسق الإلفة الماضويّة بقيمها وأفكارها القبليّة إلى مفاهيم عالميّة ونتاجٍ إنسانيّ من زاويّة وعي كوني لدعوة العالمين وفق هويّة الرّسالة: (العالمين) – (رسول الله إليكم جميعا) (مهيمنا عليه) ...[3]

هذا يحيلنا إلى الحديث عن الثّابت والمتحوّل في العمليّة التّفسيريّة المعاصرة: ويبدو أنّ المطلوب في ذلك من الدّارس القرآني العمل على رسم معالم التّعامل مع مفردات النّصّ القرآني تفسيرا وقراءة وتكييفا لأساليب مضامينه مع الواقع المتحرّك ضمانا لفعاليّة الإنسان المستخلف لحيويّة الوحي المنزّل. وهو ما عبّر عنه المستغانمي بأساليب مختلفة وفقا لسياقات الحديث من ذلك:

- سياق خطّه الهووي-التّفسيري، عبر تجسير العلاقة مع الخطّ التّفسيري السّلفي، دون استلاب أو تبعيّة سلبيّة؛
- الإقرار بالجهود التّفسيريّة السّابقة في سياقاتها التّاريخيّة الحضاريّة وخدمتها لنصّ الوحي دون أن تكون مستوعبة له، على اعتبار أنّ نصّ الوحيّ يتجاوز الحدود الزّمانيّة وقيود التّاريخ والجغرافيا؛
- الإفصاح عن أنّ جهود القراءة والكشف والإبانة تأخذ أشكالا مختلفة وليست رابضة عند حدود التّفسير التّحليلي التّرتيبي؛
- تصالح مساره الخليفي المقترح بالمقاربة التّحديثيّة التي تتّجه نحو تطوير مناويل السّابقين في التّعامل مع مفردة من مفردات علوم القرآن وهي مقارنات السّور، إضافة إلى توظيف علم المصطلح وفق الصّيغ الحديثة قصد تناول أوضح للمفردة في السّياق القرآني أو ما يصطلح عليه بمعهود استعمال القرآن للمفردة[4].

والمستفاد من ذلك إقرار المستغانمي بما يلي:

1) بأنّ التّفاسير في السّياق التّراثي بقيت، على تنوّعها المذهبيّ، ضربا من التّرديد داخل إطار معرفيّ قارٍ يقدِّم المدلولات القرآنيّة في محاورها الكبرى على نفس البناء ونفس الرّؤية وكأنّه وقع التّوصّل بهذا البناء وبهذه الرّؤية إلى معنى كلام الله في صيغة مثلى.

2) وبأنّ هذه المنهجيّة التّراثيّة ظلّت فاعلة حتّى الفترة المعاصرة منتجة تفاسير كثيرة تنتمي إلى ما يمكن أن نسمّيه بـ(المدرسة التّراثيّة) التي يكون فيها المفسر

متحرّكا ضمن الموروث اللغويّ والفقهيّ والعقائديّ وخاضـعًا لمـنهج يجعـل اللغـة والتّراث (يعملان) من خلال ذلك الموروث وليس العكس.

3) وبأنّ المنهج الذي يعيد إنتاج نفس المعرفة ونفس الفهـم للـنصّ مـنهج يجـب تجاوزه لأنّه يقدّم فهْما وقفيا يبدو فيه الوحيّ الإلهيّ وكأنّه قد ضُبطت دلالاته نهائيّا.

5-2 من الرّؤية السّائدة إلى الرّؤية المعضدة لـدى المسـتغانمي: تكشـف التّجربـة التّفسيريّة لعدد كبير من المفسّرين عن اجترار واضـح للمـوروث مـن دون مسـاهمة علميّة فارقة ومن دون دور فاعل للمفسر في البحث المستقلّ عن المعنـى مـن خـلال النّصّ إلاّ في مستوى التّفاصـيل والجزئيّـات والتّرجيحـات، ومـن دون وعـيّ كـليّ بمقتضيات الواقع المنويّ دراسته ومعالجته. وعليـه، فإنّـه يتسـنّى القـول بضـــرورة البحث عن نماذج منهجيّة من خارج دائرة الإرث التّقليدي قصد الخـروج بالتّفسـير من الحكايّـة إلى الكشـف والتّـدبّر. وهـذا عـيْن مـا عـبّر عنـه المسـتغانمي بالمقاربـة التّفسيريّة التي تخرُج من دائرة الرّؤية القائمة على استطالة الماضي في الحـاضر، وهـي الرّؤية السّائدة، إلى الرّؤية المعضدة، وهي التي تسعى إلى دعم جهـود السّـابقين عـبر إثارة قضايا جديدة وأسئلة طارئة تساعد على مزيد الكشف والبيان لـما غمـض مـن كتاب الله أو ما غفل عنه السّابقون، وهي دعوة ليست من بـاب النّقصـان بقـدر مـا هي من موجبات الاستخلاف. فلكلّ جيل أدواته التي لها حدود كشف تبقى صيغة النّص القرآني عالميّة خارقة للزّمن. فيشارك الجميع بذلك في البيان هذا الـنّص ومـن ثمّ لا يبقى حبيس جغرافيـا أو تـاريخ. فـإنّ كـلّ مقاربـة وقفيّـة تنـزع عنـه العالميّـة

والاستمراريّة وتجعله ضمن حقل الزّمنيّة أو النّصّ الثّقافي الحضاري المحدود في الأثر. وقد عبّر المستغانمي عن ذلك بقوله: "ولست أروم في هذا البحث أن أستقصي جميع السّور المتشابهة المطالع، وجميع السّور المتشابهة الفواصل، وجميع السّور ذات الأنساق التّعبيريّة المتشابهة في بداياتها بالدّراسة والتّحليل، فهذا أمر صعب المنال، و غير ميسور الآن، وإنّما حسبي في هذا الكتاب الذي أعدّه باكورة البحث في علم المقارنات بين السّور، أن أؤصّل لهذا النّوع من التّحليل اللغوي لمجموعات الأسر القرآنيّة، حسبي أنّي أفتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين للولوج في لجّة المقارنات بين السّور القرآنيّة، وإيجاد العلاقات التي تربطها وإيضاح المناسبات التي تجمعها، والوشائج التي تميّزها عن أخواتها، والهندسة اللغويّة التي تشيّدها وتبنيها" [5].

وعلينا، أنّ ننبّه في هذا السّياق، إلى أنّه يجب ألاّ يغيب عن أفق منظورنا أنّ بعض المهارسين للفعل التّفسيريّ المعاصر لا يزالون يعانون من ماضويّة منهجيّة عبر الحفاظ على النّسق التّفسيري التّحليلي التّرتيبي منذ لحظة ابن سلاّم (200هـ)، ممّا يعني أنّهم تحت ضاغطة نزعة استصحابيّة جعلتهم سجناء رؤية ومفاهيم ومناهج وأفكار ممتدّة في الماضي ومستطيلة فيه وجّهت خطاباتهم ورسمت اتّجاهاتهم.

لذلك فإنّ من أهمّ خصوصيّات المنهج المطلوب، حسب وجهة نظر المستغانمي، تجاوز اعتباره مجرّد آلة يحلّل بها المفسر جسم النّصّ إلى اعتباره جملة من المفاهيم الأساسيّة التي تؤطّر النّصّ من حيث طبيعته وحركته ووظيفته. فبهذا

يمكن إدراك دلالات النّصّ القرآني. فـإنّ إحاطتـه بسـياج مفـاهيمي يـتمّ اسـتيعابه وتمثّل آليّاته وخصوصيّاته هو ما يخلع على التّراث الذي أُبدِع لفهم الـنّصّ المؤسِّـس سلطة شبه تقديسيّة تجعله بمثابة نصٍّ ثانٍ.[6]

وبذلك أيضا يمكن تجاوز ممارسة تفسيريّة تراثيّة استمرّت طويلا في شكل ذهنيّـة جمعيّة تؤطّر التّفكير والممارسة وتأتي بمنتجات من قبيـل التّكـرار المنهجـيّ مـع تغـيّر جزئي في التّفاصيل. وإنّ مثل هذا التّمشـّي يـدعو بالضّـرورة إلى سـوق إشـكاليّة التّفسير المعاصر، من خلال تمثّل راهنيّته من منظور الفكر المغاربيّ المقاصـدي الـذي نتّخذ فيه، في بحثنا هذا، منتوج المستغانمي نموذجا. وهـذه الإشـكاليّة هـي التّاليّـة: هل المعاصرة المقصودة في ذاتيّتها هـي المعـاصرة التّاريخيّـة (المرحليّـة الزّمنيّـة) دون مقتضيات لاحقة سواء مـن حيـث المـنهج أو المضـمون أو الأسـلوب أو الأدوات قصد استعادة براءة القرآن الأصليّة وتتبّع مكامن الإضافة وفق منظور خليفي دافـع نحو المغايرة الإيجابيّة لا الاستئصاليّة النّافية لجهود من سبق.

إنّ الإجابة تقتضي وضعا مقارنا قصد تحديد ملامح الجدّة والطّرافة والإضـافة في التّفسير المعاصر لتصبغ عليه سمتها وتحـرّر ملامحـه مـن دون أن يكـون ذلـك مجـرّد انسكاب لفظي لمقولات من سبق في وعاء معاصر يقتفي أثـر السّـابقين. فـالتّكليف الإلهي يقتضي استفراغ الجهد قصد إثبات حدث الختم وإعجازيّة القـرآن وممكنـات امتداده في التّاريخ لتحقيق غرض الدّعوة والهداية.

هذا الوضع هو في الوقت نفسه نشوء لتعبير نقدي صارم للمدرسة التّراثيّة التي ظلّت منجذبة نحو تراث يحتويها معتمدة بناء ذهنيّا (يفكّر) من خلال التّراث وليس بقادر على أن يفكّر فيه بما يتيح التّحرّر منه.

وأهمّ معطى علمي يطرحه الدّكتور المستغانمي للانتقال إلى وضع القراءات العلميّة المقترحة: تقدير المنجز واستشراف المقترح، وهذا ما نلحظه في مقدّمة مؤلّفه (جواهر الدُّرر).

في هذه المقدّمة يرى المستغانمي أنّ أيّ دراسة حول القرآن لا تستوعب التّراكم العلمي التّاريخي حول تفسير القرآن والأطروحات الحديثة حوله أو التي لا تبني على ذلك نقدًا وإضافة، لن تقدم جديدًا وستبقى هامشيّة. وعليه، فإنّ تطوّر النّقد العلمي يكمن، في نظره، في فهمٍ أفضل للتّراث التّفسيري والتّعامل معه من منظور مختلف لا يقف عند نهاياته وما استقرّ عليه، وفي إدراك جيّد لكل مرحلة من تاريخ علم التّفسير في ضوء سيّاقها ومعطيات علمائها وما توفّر لديهم مِن معارف مَن سبقهم. فالقراءة السّياقيّة المتقنة لجهود المفسرين، هي النّسبة إليه، وحدها الكفيلة بفهمهم أفضل لجهودهم وبإنصافهم والإفادة من آثارهم لتحقيق البعد المفقود وهو تجسير الجهود قصد صياغة التّصوّر التّقدّمي للقراءة والمرافقة المحيّنة للقرآن.

هذه هي المقاربة التي ينطلق منها المنجز التّفسيري للدّكتور المستغانمي قصد الدّفع نحو حيويّة الحاضر في مجال تطوير الممارسة التّفسيريّة بصيغ مختلفة. وهي مقاربة ينطبق عليها ما قاله الشّيخ حميدة النّيفر، وهو أحد علماء التّفسير

التّونسيين المعاصرين: "إنّنا نعتبر أنّه من الممكن عمليّا القول إنّ نوعا من التّحوّل ظهر في مجال التّجديد المنهجيّ لتفسير القرآن الكريم. حصل هذا رغم هيمنة المنهجيّة التّراثيّة على أعمال المفسرين المعاصرين وعلى مناهج الدّراسات القرآنيّة في الجامعات الإسلاميّة بالبلاد العربيّة. وهذه المحاولات الحديثة، وإن لم تنجز عملا تفسيريّا كاملا، فإنّها أدركت ضرورة تأسيس منهجيّة تجديديّة لقراءة النّص القرآني. الأهمّ في هذه المحاولات أنّها استمدّت جانبا من وعيّها هذا من التّراث التّفسيري نفسه"[7]. بل نضيف إلى ذلك القولَ بأنّ التّحوّل الذي نلمحه في المنجز التّفسيري للمستغانمي، قد تجاوز نصّا تفسيريّا تراثيّا كان يبدو-على حدّ عبارة الشّيخ النّيفر أيضا-"مَدْعاة لاعتزاز عدد من الباحثين، رغم أنّه يصدق على جلّ الأعمال التّفسيريّة التي نشرت منذ منتصف القرن الماضي، ولم يحل دون ظهور محاولات تجديديّة في مستوى المنهج "[8].

هذا الرّأي الأخير يؤيّد انطباقَه على المقاربة المستغانمي التّفسيريّة، ما نراه من استنجاد المستغانمي بالممارسات التّراثيّة الأصيلة التي تعبّر عن ممارسة متطوّرة تتجاوز الجمود والعطالة التي طالتّ أذهان بعض المفسرين، فإنّنا نجد في نصوصه العيّنات التّاليّة:

- (كتب البلاغة العربيّة حافلة هي الأخرى بكثير من النّصوص والمقاطع التّحليليّة البليغة التي تبيّن جماليّات التّعبير القرآني. فإنّ الدّافع يقوى، والدّاعي يزداد

إلى ضرورة إنشاء هذا البحث، وبناء هيكله، ونسج خيوط مباحثه وتجليّة بدائع وروائع النّظم القرآني الجليل فيما يتعلّق بهذا المضمون العلميّ الفنيّ الطّريف) [9]؛

- (أظنّ أنّك قد علمت الآن، أخي القارئ الكريم، أنّ الزّاوية التي ينظر منها هذا البحث في السّور القرآنيّة ليست هي ذات الزّوايا التي نظر منها الذين درسوا علم المناسبة بين السّور، والمناسبات بين الآيات على غرار ما فعل الفخر الرّازي وابن الزّبير الغرناطي والبقاعي ومن اقتفى آثارهم من القدماء والمعاصرين) [10]؛
- (ولكن هذا لا يعني أنّ الباحثين المسلمين لم يعرّجوا في بحوثهم ودراساتهم على هذا الجانب ولم يأت له ذكر في مؤلّفاتهم وتصانيفهم. فالباحث المنصف والمتدبّر المدقّق يقف على حقيقة مفادها أنّ علماء المسلمين والباحثين في علوم القرآن وسنّة رسول الله ﷺ قد وقفوا عند كثير من التّعابير والتّراكيب المتعلّقة بأعضاء جسم الإنسان وحركاتها وإيماءاتها، وفسروا دلالاتها وإيحاءاتها. إلاّ أنّها ظلّت شذرات متفرّقات ووقفات عابرات حبيسة في بطون التّفاسير القرآنيّة العامّة وأسفار علوم القرآن المتنوّعة) [11].

بناء على هذه العيّنات يتأكّد لدينا أنّ المستغانمي بصدد بناء منحى يستفيد من التّجارب الرّاهنة والمقاربات الدّافعة نحو الإضافة والإنتاج متجرّئا في منحاه هذا جرأة من فعل ذلك من القدماء المجدّدين كالفخر الرّازي الذي قال في شأنه محمّد أركون، وهو أحد الباحثين المغاربة المعاصرين المتخصّصين في الدّراسات الإسلاميّة: (استفاد الرّازي من كلّ علوم عصره في تأليف تفسيره الجليل. فاعتمد

على علم الهيئة والطّبّ والطّبيعة واللغة وسائر العلوم المتاحة له في عصره ليؤلّف لنا مدوّنة لا يجرؤُ أحد على ردّها)[12].

ولا مؤاخذة على المستغانمي في تنويع العدّة المعرفيّة. فإنّ من الباحثين المتخصّصين من يؤكّد على ضرورة اعتماد عدّة معرفيّة لتأسيس منهجيّة أخرى وقراءة جديدة للنّصّ القرآنيّ لأنّ (ذلك وحده كفيل بتجسيم مقولة إنّ الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان)[13].

لكنّ ضرورة التّنويع العدة البحثيّة والاستفادة من التّراث تدعو إلى السّؤال التّالي الذي مازال يطرحه عديد الباحثين مثل محمّد أركون وغيره، وهو: كيف يسمح العقل المسلم لنفسه وهو يطالع التّفاسير القديمة فيجد فيها آثارا لمرجعيّات معرفيّة غير عربيّة أن يرفض بعد ذلك معالجة نفس النّصّ القرآنيّ بآليّة تقوم على نظريّات لغويّة أو اجتماعيّة أو تاريخيّة حديثة وافدة؟

الحقيقة، إنّ السّماح بتنوّع الآثار المرجعيّة جائز في نظر المستغانمي، وجائز في نظرنا أيضا. ذلك أنّنا أمام وضع منهجي يقتضي التّعدّد والتّكثّر لتخصيب العدّة المعرفيّة –المنهجيّة في تناول النّصّ القرآني وجعله ضمن مجال اقتراح المنظومات الحضاريّة وإحدى البدائل المتاحة في ذلك، لأنّ التّفسير ليس معنيّا في ذاته بقدر ما هو متاح للقارئ في إطار ما هو متوفّر من المقترحات قصد تشكيل التّصوّر الحضاري القرآني. فالقراءة المقترحة تحقق توازنا مضافا من خلال التّأكيد على الأبعاد الما بعد– نصيّة، أي المقترح المنظومي للقرآن في ظلّ التّدافع الحضاري وتعدّد

المقترحات لإعادة تشكيل الإنسان. وفي هذا السّياق يشكو المستغانمي من ضعف ما في المكتبة العربيّة من الدّراسات التّطوريّة وقلّة الاستفادة من المنتج الإنساني الذي توفّره المكتبات الغربيّة، في تنضيد المقاربات المعاصرة الخادمة لنصّ الوحيّ بيانا وتفسيرا وكشفا ويصرّح بقوله: "في حين أنّ علم التّواصل غير اللفظي له نصيب منقوص وكفل محدود من الدّراسات والبحوث، وقد ظهرت معظمها في الجامعات الغربيّة على أيدي باحثين محدّثين في الولايات المتّحدة وبريطانيا في العقود المتأخّرة من القرن العشرين. أمّا المكتبة العربيّة فتكاد تخلو من أبحاث متخصّصة في هذا الشّأن إلاّ النّزر القليل الذي تمّ نشره هنا وهناك"[14].

5-3 مشروعيّة تجديد الخطّ المنهجي في مقاربة المستغانمي التّفسيريّة: إنّ القول بأنّ (الأوائل لم يتركوا للأواخر كبير الجهد في تفسير كتاب الله) يبدو صحيحا إن قصرنا نظرنا على رؤيّة عامة لأغلب ما أُنتج إلى اليوم من الأعمال التّفسيريّة. لكنّه قول بحاجة إلى تعديل إذا أعدنا النّظر في تقييم الرّؤى وفحصنا درجات التّقليد والتّبعيّة في الجهود التي ظهرت في البلاد العربيّة الإسلاميّة في العصر الحديث وزمننا الرّاهن وأبرزنا ما للتّفاسير (القديمة) من مشروعيّة تاريخيّة في سياقها الخاص. فهذه المشروعيّة التّاريخيّة هي ذات المشروعيّة المعتمدة اليوم في إيجاد رؤية حديثة تبرز معرفة تجديديّة وتسدّد رؤية أخرى في قراءة النّصّ القرآني.

ويوجد مستوى آخر لمشروعيّة الطّرح، وهو أنّ الخطوة التي تمَّ قطعها في سبيل تجديد المنهج التّفسيري كانت بالتّساؤل عن جدوى القراءة المغلقة للنّصّ القرآني.

فإلى أيّ مدى يمكن لأحاديّة القراءة والاعتصام داخل علوم النّصّ حسب المنهج التّراثيّ أن يحقّقا للمسلمين تفوّقًا ما بالنّصّ الذي هو مناط جميع أمرهم؟

بهذا التّساؤل بدا أنّه لا شيء يبرّر امتداديّة المنهج التّفسيري (التّراثيّ) في الحاضر واستطالته وإطلاقيّته وسلطته. لكن يمكن أن تطرح حول هذه القضيّة ثلاثة أسئلة أخرى تعتبر جزءا منها تثير لدى الباحث عند دراسة المنهج التّفسيريّ المعاصر حيرة. وأوّل هذه الأسئلة هو: ما طبيعة العلاقة بين المفسر-القارئ المعاصر والتّراث التّفسيري القديم؟ ذلك أنّه ما لم يحدّد المفسر القارئ المعاصر موقفا واضحا من هذا التّراث فإنّه من المستبعَد أن نتوقّع منه تجديدا منهجيّا. فهو إذن بين أمرين فإمّا التّعامل التّفاعلي وإمّا الاحتواء المعرفيّ التّاريخيّ.

والسّؤال الثّاني هو: ما العدّة المعرفيّة التي يحتاجها المفسر اليوم لإرساء منهجيّة حديثة لتفسير القرآن؟

والسّؤال الثّالث هو: كيف يمكن تحديد وظيفة المفسر وطبيعة علاقته بالنّصّ القرآني؟

ويمكن أن نضيف على عموم الأسئلة المتداولة في حقل القراءات المعاصرة سؤالا محوريّا آخر وهو: ما غاية القراءة المنظوميّة؟ أهي مجرّد بيان أم هي صناعة وعي حضاري واعتزاز بالوحي في ظلّ التّرذيل لقيمة الغيب والوحي والنّصّ القرآني بكلّ متعلّقاته.

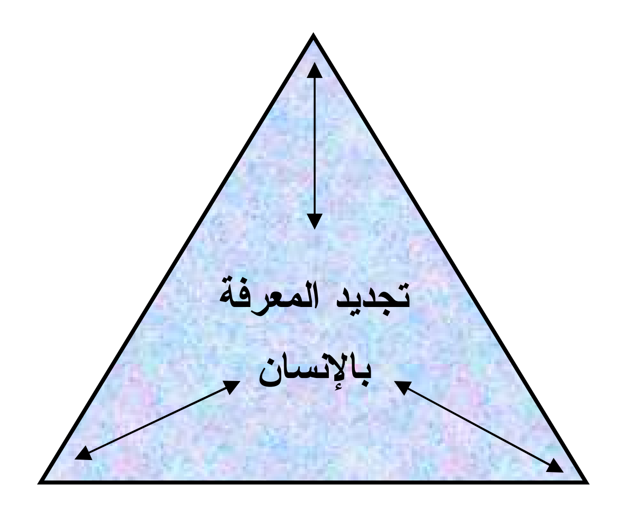
علينا في هذه الحالة أن نتصوّر كيف يكون فعل التّفسير وقراءات المفسر المقترحة. إننا لن نتصورهما سوى معاناةً لفهم الحكمة الإلهيّة بمشاغل الواقع وجدل الوحي مع التّاريخ. وهذا ما ذهب إليه المستغانمي من خلال ربطه بين المارسات السّلفيّة التّقليديّة التي عانت الحكمة الإلهيّة في حدود سياقها الحضاري وما أنتجته من نصوص ثوان في علوم القرآن والتّفسير[15]. ولعلّ المستغانمي مصيب في ذلك إذ إنّ هذه المعاناة تتكرّر في اللحظة المعاصرة وفق إدراك خليفي يستوجب من منظور شرعيّ وحضاريّ إنسانيّ، الانخراطَ في البيان والكشف، لأنّ ذلك من باب أمانة الاستخلاف. بل إنّ المستغانمي في كلّ هذا كأنّه يستحضر منهجيّا ما أورده الفيلسوف المغربي محمّد العزيز الحبابي حينما قال: "الله بمحض إرادته، هو الذي قضى بأن تكون قوانين (الطّبيعة) وقضى بأن يخضع لها سير الكون.

وما نستبطنه من قيم في هذه المعاناة التي يضعها المستغانمي وزرا على المفسر القيمُ التّاليّة التي لم يصرّح بها المستغانمي. ولكنّنا نراه يشعر بها ويثيرها في خفايا مقاربته ويذكُرها غيرُه[16]:

- يترك الله للكائن البشريّ إمكانيّة اتّباع استعداداته الطّبيعيّة المحدّدة؛
- القوانين التي تتحكّم في سير الكوّن (موضوعيّة) ومحسوسة؛
- على الكائن البشريّ أن يتبنّى العالم بالتّكيّف معه؛
- يتكوّن الشّخص بفضل الفكر وهو يصنع عالمه ويصنع العالم على مستواه بالإسهام في الخلق الإلهيّ إذ يعمل على إكماله؛

- بفضل العقل يتعاون الإنسان مع الله ويصبح إنسانا آخر له كثافته الأنطولوجيّة لأنّه مخلوق. ولكنّه يساهم في كينونة العالم؛
- إنّنا في عالم لم نخلقه. ولكن كلّ شيء في العالم يحتّم علينا أن نبدعه في حلّة جديدة. فنحن نلاحظ العالم ثمّ نغيّره بل قل: لنغيّره؛
- إنّ العالم حدث والإنسان هو كذلك حدث. وعن علاقة الحدث الثّاني بالأوّل ينتج حدث ثالث هو مهمّة الإنسان في وجوده من حيث هو المسؤول عن (الأمانة) التي حمله الله إيّاه. وهذه الأمانة تمنعنا من أن نبقى متفرّجين إذ تحتّم علينا أن نكون عاملين: نصنع، ونُصلِح وننسّق وننظّم ما هو موجود لنجعل منه شيئا كاملا.

استتباعا لذلك يمكن القول بأنّ تجربة المستغانمي تقوم على ثلاث أطر متواصلة لا يمكن الفصل بينها إلاّ منهجيّا قصد التّعريف. ويمكن أن نوضّح هذه الأطر من خلال الرّسم التّالي:



الإطار الأوّل: الموقف من التّراث الأهلي.

الإطار الثّاني: الموقف من التّراث الغربيّ (التّواصليّة النّقديّة).

الإطار الثّالث: الموقف من الواقع (الآفاق الغدويّة والشّخصانيّة الغدويّة).

يكشف لنا هذا الرّسم عن ثابت أساسيّ في بيداغوجيّا التّجديد عند المستغانمي وهو التّواصل النّقدي. ويظهر ذلك جليّا في موقفه من المدوّنة التّراثيّة سواء الأهليّة أو الغربيّة، حيث الغاية عنده ليست استملاك المدوّنة بقدر ما هي توظيف الفاعل منها في الدّفع بعمليّة الإصلاح نحو آفاق تكون أكثر خليفيّة محيّنة. فهو يسعى من خلال لبنات هذه الإبستمولوجيا الجديدة التي تعنى بالإنسان، التّدرّج من الغامض إلى الواضح. وهذا ينعكس في صياغات عناوينه تكرّرت فيها دلالة الانتقال: [من...إلى] وكأنّه يدرك وجود نقص أو غموض في مستوى البداية. لذلك آثر ركوب موجة التّغيير لجعل نقطة الوصول مختلفة عن نقطة الانطلاق. ذلك أنّ قدر هذه البيداغوجيا هو المراجعة المتواصلة قصد إيجاد بدائل تدفع بعمليّة الإصلاح نحو آفاق التّجديد والتّوضيح، ومن ثمّ تحقيق أفق التّجديد ضمن المقاربة التّفسيريّة المقترحة.

وأهمّ معطى علمي يقترحه المستغانمي للانتقال إلى وضع القراءات العلميّة هو تقدير المنجز واستشراف المقترح. وأساس ذلك أنّ أيّ دراسة حول القرآن لا تستوعب التّراكم العلمي التّاريخيّ حول تفسير القرآن وكذلك الأطروحات الحديثة حوله وتبنّي عليه نقدًا وإضافة لن تقدّم جديدًا وستبقى هامشيّة. وعليه، فإنّ

تطوّر النّقد العلمي هو الذي يمكِّن في نظره، من فهمٍ أفضل للتّراث التّفسيري والتّعامل معه من منظور مختلف لا يقف عند نهاياته وما استقرّ فيه. فالباحث المتقن هو عنده من يفهم كلّ مرحلة من تاريخ علم التّفسير في ضوء سياقها ومعطيات علمائها وما توفّر لديهم مِن معارف مَن سبقهم.

5-4 المستغانمي والإطار الحضاري الحاضن له وأزمة المصطلح: ينتمي أمحمّد صافي المستغانمي إلى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة. ولعلّ الأثر الإجرائي الذي يمكن أن نتلقّفه من فكرة الضّبط المصطلحي المقارن بين القرآن والعقل المنعكس في الحضارة العربيّة الإسلاميّة هو الأثر الحضاري المطلوب، وهذا ما يؤكّد عليه المستغانمي حرصا منه على حيويّة الأمّة الإسلاميّة ثقافةً وحضارةً من خلال إثبات حضورها في مجال الحراك المعجميّ والعلميّ كي يستقيم أودها وتتخلّص من التّبعيّة الحضاريّة للآخر الذي لا ينفكّ يترصّد مواطن الخلل والضّعف فيها.

وكثيرة هي الأمّم التي خسرت علومها وثقافتها بسبب (اضطراب دلالة المصطلح، وتعارض المفاهيم، وشيوع الغموض والقلق في التّراسل العلميّ بين مصادر المعرفة وجهات التّلقيّ). وهذا ما نبّه إليه أيضا أمحمّد صافي المستغانمي. فالاستلاب الحضاري هو الأمر (الذي يعرّض تراكم المعرفة ذاته إلى كثير من الصّعاب ومنها عدم استقرار المفاهيم وما يقوده ذلك من اضطراب ليس في الوصف والتّحليل والاستقراء إنّما في الاستنباط واستخراج النّتائج التي يهدف إلى الوصول إليها كلّ بحث) [17]. وبناء على هذا فإنّ ما تعاني منه الثّقافة العربيّة

الإسلاميّة الرّاهنة من وهن هو الإطار الذي يحتضن المستغانمي. وهو إطار تغمره آفة انسداد التّراسل الطّبيعي والحوار والجدل والمساءلة الجادّة نتيجة الخلط والغموض والارتباك في الممارسة الاصطلاحيّة والاختلال في التّراسل الطّبيعي بين الأفراد ونصّهم المرجعي (القرآن).

ونشير أيضا إلى أنّ توجّه المستغانمي الفكريّ يرفض توصيف طبيعة ثقافتنا بأنّها تطبيق إجرائي لعلاقة صوفيّة تجمع بين الشّيخ والمريد. فإنّ مثل هذا الشّكل العلائقي تسلّل إلى كلّ ممارساتنا التّاريخيّة بما فيها المصطلح، ممّا أوقعنا في أزمة تعكس بجلاء رداءة الوضع الذي ترزح تحته البلاد العربيّة برمّتها. لذلك نرى المستغانمي يلحّ على أنّه لا خلاص للمصطلح من أزمته المفهوميّة الرّاهنة إلاّ من خلال حلول عمليّة تسعى إلى زحزحة الفكر من وضع العزلة والانصياع لقول الشّيخ الذي هو بمثابة الصّورة الافتراضيّة الرّمزيّة للسّلطة الموجّهة، وعلى ضرورة التّخلّص من هذا الأنموذج السّلبي قصد الانخراط في ممارسة تفاعليّة تؤمن بوجود الآخر المختلف كشريك فاعل وطرف محاور وناقد ومحوّر وراسم لملامح المصطلح وللوحة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في بعدها الاستشرافي. فمتى اتّضح لدينا المصطلح نجونا من الاستلاب الحضاري والفقر الفكريّ لأنّ المصطلح هو (صورة مكثّفة للعلاقة العضويّة القائمة بين العقل واللغة وتتّصل أيضا بالظّواهر المعرفيّة، لأنّ المصطلحات في كلّ علم من العلوم هي بمثابة النّواة المركزيّة التي يمتدّ بها مجال الإشعاع المعرفيّ ويترسّخ بها الاستقطاب الفكريّ) [18]. لكن مثل هذا الضّبط ليس

حاضرا في وضعنا الرّاهن الذي هو الإطار الحضاري للمستغانمي. ولذا فإنّ خروجنا من بوتقة الماضويّة يبقى في نظر المستغانمي مرتهنا إلى حين الوعي بأنّ خصوصيّة الطّرح القرآني في مستوى الضّبط تتعدّى مجال المصطلح إلى مجال الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وليس عليه سوى اختيار السّبيل إمّا شاكرا وإمّا كفورا.

هذه هي المنهجيّة التي بدأت تظهر في العصر الحديث والتي برزت ملامحها في منجز المستغانمي التّفسيري بفضل ما أضفاه هذا الرّجل على أعماله من تحوّلات في الفكر الإسلاميّ بتأثير العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة وما تطرحه من أسئلة وما تدفع إليه من تعبيرات تحمل أكثر من مؤشّر على قدرتها الإبداعيّة. وقد تكون هذه المنهجيّة هي التي ألمح إليها أحد متصوّفي المغرب الأقصى- المعاصرين حين قال في عبارة موجَزة: (قد اكتمل تنجيم القرآن نصًّا ولن يكتمل تنجيمه معنى) وإنّ ما أمكننا رصده من مبادئ التّجديد في علم التّفسير من خلال تحليل المقاربة التّفسيريّة للدّكتور المستغانمي يجعلنا نعتر هذا الرّجل رأسا من رؤوس الفكر المغاربي المعاصرين وسليل التّجربة المدرسة العقلانيّة المقاصديّة الأندلسيّة.

ـ الهوامش:

[1]- الذّهبي (محمّد حسين): التّفسير والمفسرون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط2، 1976 2/ 495

[2]- المستغانمي (أمحمّد صافي): جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، دار ابن كثير، بيروت ط1، 2018، ص 11.

[3]- النّيفر (احميدة): الإنسان والقرآن وجها لوجه، مقدّمة الكتاب، دار ابن كثير، دمشق ، ط1 .2000

[4]- راجع تجربة د. المستغانمي في كتابه (بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم)، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، ط1، 2020.

[5]- المستغانمي (أمحمّد صافي): جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، [م، س]، ص 23.

[6]- النّيفر (احميدة): الإنسان والقرآن وجها لوجه، [م، س] ص 17.

[7]- النّيفر (احميدة): الإنسان والقرآن وجها لوجه، [م، س] ، ص 27-28.

[8]- المرجع نفسه، [م ، س] ، ص ص 27-28.

[9]- أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، ط1، 2020م.

[10]- أمحمّد صافي المستغانمي: جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، [م، س]، ص 25.

[11]- أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، [م، س]، ص 10.

[12] Arkoun Mohammed: Revue de Presse dans la Revue Al-watan, Alger le18-11-1992.

[13] Charfi Abdelmajid, Melanges Talbi, Faculté de Lettres, Tunis, 1993.

[14]-أمحمّد صافي المستغانمي: بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، [م، س]، ص 10.

[15]- النّيفر (احميدة): الإنسان والقرآن وجها لوجه، [م، س] ص 27، 30.

[16]- انظر مثلا: الحبابي (محمّد العزيز): الشّخصانيّة الإسـلاميّة، دار المعـارف، ط2، القـاهرة، د-ت ص 81-82.

[17]- إبراهيم (عبد الله)، الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، المركـز الثّقـافي العـربي، بـيروت، ط1 1999م، ص96.

[18]- المسدي (عبد السّلام)، المصطلح النّقدي، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشـر والتّوزيـع- تونس، د-ط ،1994، ص 126.

بلاغة النّظم، في لغة الجسم في القرآن الكريم تأليف الدّكتور أحمّد صافي المستغانمي[1]

دراسة تحليليّة.

د. خالد ميلاد
جامعة منوبة، تونس

نسعى من خلال هذا العمل إلى الإسهام في الاحتفاء بالأستاذ الدّكتور **أحمّد صافي المستغانمي**:

إنسانا أصيلا متأصّلا، أقدامه مغروسة في أرضه مستغانم الفيحاء ابنةِ الجزائر الأمّ الولّادة العظيمة الكريمة، أقدامه مغروسة في أرضه ورأسه يعانق السّماء، في مستغانم، والشّارقة، المشرقتين بأنوار العلم والمعرفة والسّخاء والبهاء، يسنده في جهوده شخصيات منَّ بها الله ﷻعلى اللغة العربيّة لتزيدها ترسُّخا ولتتعهدَها بالدّراسة والبحث في أسرار جماليّاتها وتنشرها للعالَمين.

ورائدا مؤسّسا عاملا عمولا، ومدير تنفيذ لمشروع القرن العلميّ اللغويّ المتمثّل في وضع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة حلمِ الأجيال من الباحثين والدّارسين والسّاهرين على خدمة اللغة العربيّة لغة القرآن الكريم. برعايّة صاحب السّموّ

الشّيخ الدّكتور سلطان القاسمي، حاكم الشّارقة، عضو المجلس العلميّ لاتّحاد المجامع اللغويّة، رعاه الله وحفظه وحماه.

وباحثا مُحقِّقا مدقّقا، موثّقا متدبِّرا لبلورة أسرار بلاغة القرآن وإعجاز نظمه وترتيب آياته وسوره، ساعيا إلى تعميم ما يحصله من فوائد بتقديم علومه ومعارفه العميقة الواسعة في المحامل العصريّة الأكثر رواجا واستهواء واستقطابا للمستفيدين، أعني التّلفزيون، مع الحرص على تفريغها في نصوص مكتوبة موثّقة إضافة إلى نشره كتبا علميّة أكاديميّة مختصة من مثل هذا المصنّف الطّريف في مسألة دقيقة في بلاغة نظم القرآن تتّصل بلغة الجسم ودلالاتها وما يتّصل بذلك من أساليب البيان والإعجاز.

ونعتني ههنا بقراءة هذا المصنّف القيم وتحليله تحليلا وصفيا تأليفيا نقديا، وذلك باتباع الخطة التّاليّة التي تتمثل في التّوقف عند:

أوّلا: المرجعيّات النّظريّة التي استند إليها المستغانمي في مصنّفه بلاغة النّظم.

وثانيا: بيان منهج الباحث في عمله وتحليلِه لغةَ الجسم في القرآن الكريم.

وثالثا: مدى تمثيل هذا الكتاب لمنهج علمي أعمَّ في تحليل بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وبلاغة الكلام عموما قد نسمح لأنفسنا بأن نَسِمَه بالمنهج العلميّ المستغانمي صافي في شرح نظم القرآن وتحليله الوافي.

1-**الخلفيّة الثّقافيّة، والمرجعيّات النّظريّة:** ونصنفها إلى:

1-1-**ثقافة المستغانمي الأصيلة:** من خلال سيرته التي سيفصل فيها بعض المشاركين القول، ويعنيني ههنا منها ثقافته الدّينيّة المعمَّقة التي بدأت في أسرته العربيّة الأصيلة وفي كتاتيب مستغانم حيث حفظ القرآن الكريم فتشرب اللغة العربيّة من عيونها الصّافيّة الزّلال، وتواصل التّشبع بتلك الثّقافة في مدارس مستغانم الابتدائيّة والثانويّة، ثمّ في قسم اللغة العربيّة وآدابها بكليّة وهران، وفي ما تلا كلّ ذلك خلال الدّراسات العليا من امتلاء بالعلوم الاسلاميّة في رِحاب القرآن، وعنايّة معمقة وموسَّعة بالبحث البلاغي فيه، وما يقتضيه ذلك من تعميق المعارف اللغويّة والبيانيّة والخوض في كتب الإعجاز وكتب التّفسير. وقد وجهته هذه الثّقافة الأصيلة المنغرسة في محيطه الاجتماعي الثّقافي الأوّل إلى التّأثر بمرجعيّات أساسيّة تبرز في هذا المصنّف وغيره من الأعمال، وهي، في اعتبارنا:

1-2-**القرآن الكريم**: باعتباره (أعظم كتاب أُنزل على خير نبي أُرْسِل، يحمل إلى العالمين هدايّة السّماء الخالدّة في آيات بينات تحمل بين طيّاتها كنوزا من المعارف والفنّون)[2]، وباعتباره نصا معجزا لا ينتهي البحث في أسرار بلاغته ودلائل إعجاز معانيه ومبانيه؛ فالقرآن الكريم هو مصدر بحوث المستغانمي ورحابُها وهو مرجعُها ومبتدأها وخبرها... فحياته الفكريّة العميقة إنّما تتجلى في رِحاب السّور والآيات والعبارات القرآنيّة، يشرح بعضَ معانيها ونظمِها ببعضها الآخر ويقارن ويحيل لفهم معنى من المعاني، على معنى آخر، والقرآن الكريم هو حبل الله المتين الرّابط بين

مجالات أعماله بمختلف أبعادها، فتراه، هنالك، يبحث، مثلا، في هندسة السّورة القرآنيّة في إطار رؤية تأصيليّة لعلم مقارنات السّور الذي يُعنى بإيضاح العلاقات والرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها عنوان (الأُسر القرآنيّة). وتجده ههنا يتعمق بيان بلاغة النّظم في أعضاء الجسم في القرآن الكريم، مستقرئا إياها، وواصفا مختلف سياقات ورودها، ومصنّفا إياها تصنيفا وفق مبدأ التّجاور، ومحللا مكامن البلاغة والإعجاز في خصوصيات نظمها وانتظامها مع سائر ما وردت فيه من سياقات دلاليّة لفظيّة ومقاميّة.

1 – 3 – **كتب النّحو والبلاغة:** بالمعنى الواسع الذي يشمل الصّرف بفرعيه الاشتقاقيّ والتّصريفيّ، والإعراب، من جهة، وعلوم المعاني والبيان والبديع، من جهة ثانيّة، وهذه المصنّفات قائمتها طويلة ومتأصلة في التّراث اللغوي بدءً بكتاب سيبويه، وصولا إلى أبرز شراح السّكاكي من مثل التّفتازاني، مرورا بصاحب نظريّة النّظم عبد القاهر الجرجاني. ولهذه المرجعيّات النّظريّة حضور لافت في توجيه التّحليل وتأثير مباشر في مختلف مستويات هذا العمل (حيث تركز الرّسالة على التّحليلات البلاغيّة لتعابير وتراكيب أعضاء الجسم كلّها التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وبيان الأغراض والدّلالات والجماليّات البلاغيّة التي تحملها في طيّاتها)[3].

وللجرجاني أثره الواضح في توجيه صاحب بلاغة النّظم، فإضافةً إلى ما يستنتج من متن العمل ذاته حيث عمد إلى تطبيق دقيق لطيف لنظريّة النّظم القيمة، يتجلى مثلا، في تحليله النّظم في قوله تعالى: ﴿اشتعل الرّأس شيبا﴾ (مريم، 4)[4]، أعلن

المستغانمي عن اختياره هذا التّوجه في مقدّمة بحثه، يقول: "هذه الدّراسة حلقة من حلقات تطبيق نظريّة النّظم الجرجانيّة التي تعنى بدراسة معاني النّحو ودلالات ترتيب الألفاظ والتّراكيب في ذهن قائلها، حيث يرى عبد القاهر الجرجاني أنّ النّظم يتجلى في توخي معاني النّحو وفي ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وأنّ بلاغة النّظم تتجلى في اقتفاء آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النّفس"[5].

1-4-كتب التّفسير: بمختلف اتجاهاتها سواء كانت فقهيّة أو عقليّة فالمستغانمي لا ينتقي من كتب التّفسير ما يناسب اتجاهه أو ميولاته، وإنّما يعتبرها جميعا مفيدة لتدبر كلام الله جلّ جلاله، وقد نفهم من بعض النّصوص والسّياقات تمييز المستغانمي الاتجاه الفقهي في التّفسير من الاتجاه العقلي، فهو يعتبر كتاب (الجامع لأحكام القرآن) للإمام القرطبي فيه إفاضة وإطناب وتفصيل في الأحكام الفقهيّة لأنّ الرّجل كان فقيهًا مالكيا أندلسيا فالغالب عليه هو الطّابع الفقهي، وفي مقابل ذلك يعتبر المصنّف الضخم (مفاتح الغيب) للإمام الرّازي يغلب عليه الطّابع العقلي، فقد كان متأثّرا بجهود المتكلّمين والعلماء والفلاسفة[6]. وقد يظهر تفضيله التّوجه الفقهي من خلال بعض الإشارات بشأن الزّمخشري، يقول متحدثا عن غلبة التّفاسير ذات الطّابع اللغوي انطلاقا من كشاف الزّمخشري: "وصاحبه الإمام جار الله يلقب بجار الله الزّمخشري لأنّه جاور مكّة ولم ينسحب وكتب تفسيره هناك، وإن كان يؤخذ عليه أنّه كان معتزليا يغلّب الجانب العقلي في التّحليل أحيانا لكن الله تبارك وتعالى قيّض لهذا الكتاب من نقّحه مثل الإمام ابن المُنَيِّر الإسكندراني

(ت: 683هـ=1284م) الـذي فضـح ووضّـح مـا فيـه مـن اعتـزال"[7]. عـلى أنّ للمستغانمي في اعتبارنا، مبـدأً ثابتـا يتمثـل في تفضـيله كتـب التّفسـير التـي يعنـى أصحابها باللغة والبيان بغض النّظر عن انـتماء أصـحابها إلى الاتجاهـات الفقهيّـة أو العقليّة، وهو ما سنسعى لاحقا إلى بيانه عند نظرنا في نسب الاستشـهاد، إجرائيـا في مختلف سياقات التّحليل ببعض المفسرين دون غيرهم.

والخلاصة أنّ مرجعيّات المستغانمي تتأسّس على خلفيّة ثقافيّـة أصـيلة، أصـولها منغرسة في هذه الأرض الطّيبة الكريمة مستغانم، وأنّهـا مرجعيّـات تعتمـد القـرآن نصّا هاديا يحمل في طيّاته كنوزا من المعارف والفنّون القوليّة، وهـو موضـوعُ تفسـير ومدخلٌ من مداخل التّفسير والتّحليل في آن، ذلك إضافة إلى أهمّ المصـادر النّحويّـة واللغويّة والبلاغيّة البيانيّة وأمّهات كتب التّفسير ذات التّوجـه اللغـوي البيـاني دون اعتبار لسائر اتّجاهاتها وتوجّهات أصحابها ودون تعصّب لهذا أو ذاك ممن قـد يـروق له أو يخالفه اتّجاها، هذا إضافة إلى المصنّفات الأدبيّة والشّواهد الشّعريّة التـي بلغـت 37 بيتا من عيون الشّعر العربي وبليغه. والأهمّ أنّ المسـتغانمي أفـاد مـن كـلّ ذلـك وأحسن توظيفه وتوجيهه نحو بلورة ملامحَ مستنبطة لعلم الدّلالات غـير اللغـوي أو هي بالأحرى الدّلالات اللغويّة المتّصلة بصور أعضاء جسم الإنسـان وحركاتهـا بما يجعلنا إزاء نوع من الكلام على كلام أعضاء الجسم وإيحاءاتها.

2- المنهج:

2-1- المنهجان الاستقرائي والوصفي: يتميّز مصنّف بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم بكون صاحبه أعلن في مقدّمته عن خطته البحثيّة ومنهجه، وهي طريقة ينتهجها الباحثون الأكاديميّون وتقتضيها أصول البحث العلميّ. وقد بيّن المستغانمي في هذه المقدّمة منهجه بقوله: "بغيّة إيضاح هذا الجانب المعرفي الدّقيق ودراسة نظم التّعابير والتّراكيب اللغويّة القرآنيّة المتعلقة بأعضاء جسم الإنسان بلاغيا وبيان دلالاتها المتنوعة، سلكتُ درب المنهج الاستقرائي في جمع العبارات والتّراكيب اللغويّة في القرآن الكريم كلّه، والمنهج الوصفي في وصف هذه الظّاهرة اللغويّة، والمنهج التّحليلي لتحليل تلك العبارات بلاغيّا، وبيان جماليّاتها"[8]. وهي لعمري مناهج علميّة تتخذها أحدث النّظريات اللسانيّة سبيلا إلى دراسة الظواهر اللغويّة دراسة علميّة، وهي كذلك متكاملة يقتضي الواحد منها الآخر ويستلزمه ويمهّد له: فقد مكنه المنهج الاستقرائي من جمع مادة البحث من القرآن الكريم كله ومكنه المنهج الوصفي من تصنيفها وتبويبها بحسب ما اختاره من مقاييس، فجمع النّظير إلى نظيره، والتّعبير إلى مثيله، ووضع كلّ مادّة علميّة متشابهة في فصول خاصّة... ومكنه المنهج التّحليلي من بلوغ غايته من البحث: بيان دلالات هذه العبارات وتفكيك العناصر المسهمة في كمال خصوصيات سحرها والتّوقف عند ما تتميز به من مزايا بيانيّة وأسرار بلاغيّة.

وقد انتهى عملا الاستقراء والوصف بالباحث إلى تبويب العبارات والتّراكيب القرآنيّة المتصلة بأعضاء الجسم بحسب مبدأ التّجاور، فدرس بلاغة النّظم فيها بحسب التّصنيف التّالي: 1 التّعابير اللغويّة القرآنيّة المتعلقة بالرّأس والنّاصية والعنق، وتصرف البيان القرآني في عرضها وتوظيفها. ثمّ 2 وجه الإنسان وأعضاء الحواس التي يحويها؛ 3 الأيدي والأرجل وما حوت، وما لها من دلالات وآثار وجدانيّة تحدثها في القارئ؛ 4 التّراكيب اللغويّة والألفاظ القرآنيّة المتعلقة بالقلب والصّدر والظّهر والبطن والجنب. وقد نهج الباحث منهج التّحليل لهذه الأعضاء في سياقاتها التّركيبيّة موزعا إياها بصفة خطيّة بحسب فصولٍ ومباحثَ يختص كلّ منها بعضو من أعضاء الإنسان ضمن الأبواب المذكورة.

2-2- منهج التّحليل وخطّته العامّة: لم يستند المستغانمي إلى خطة قارة ثابتة في سيرورة التّحليل المفصَّل لبيان بلاغة النّظم في أعضاء الجسم في القرآن الكريم فلم يتوخ اتباع التّدرج والبدء بالتّحليل اللغوي، فالاشتقاقي مثلا، فالتّصريفي فالتّركيبي الإعرابي، ثمّ البياني البلاغي، فالسّياقي، فالمقارني، إن توفّرت إمكانات المقارنة... وعدم استناده إلى الخطة القارة الثابتة في التّحليل الجزئي والتّفسير مظهر إيجابيّ يُعلَّلُ: (أولا)، بتجنب التّحليل المدرسي الذي من شأنّه أنّ يثقل على القارئ برتابة السّيرورة وروتينيّة تكرار التّوجّه الخطيّ بصفة منتظمة في التّحليل. (ثانيا) وهو الأهمّ في رأينا، هو اعتبار الباحث أنّ لكلّ عبارة تركيبيّة بيانيّة قرآنيّة خصائصها المميزة التي لا تتوفر في غيرها من التّراكيب، لذلك نجده يبدأ تحليله

للعبارة القرآنيّة، حينا بالتّفسير المعجمي استنادا إلى دلالة الجذر، وبالتّحليل الدّلالي الاشتقاقي التّصريفي حينا آخر وبالتّفسير التّركيبي الإعرابي، أو السّياقي. وفي ذلك سعي إلى مباغتة القارئ بتجديد مطبات التّحليل وتغيير مداخل التّفسير فيه، من ناحيّة، ودليل على حسن تدبر العبارات القرآنيّة وخصوصيّة التّعامل مع الظّاهرة البلاغيّة والسّلوك إلى تحصيل معرفة المزايا البيانيّة الجماليّة، من ناحيّة ثانيّة، إذ قد تكون المزيّة أظهرَ في الدّلالة المعجميّة أو الدّلالة الصّرفيّة الاشتقاقيّة في انسجامها مع سائر الدّلالات، كما يمكن أن تكون أبرز في النّحو ومعانيه، أعني ما تفيده معانيه، إعرابا مثلا أو تقديما وتأخيرا، من لطيف الدّلالات التي لا تحصل إلا بذلك المعنى النّحوي، من مثل دلالة معنى وظيفة التّمييز في بنيّة من أبنيته التّركيبيّة الدّلاليّة على معنى الشّمول في قوله، جل جلاله، ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، بما يناسب الغرض المقصود المتمثّل في أنّه لم يبق في الرّأس شعرة واحدة لم يشملها البياض.

2-3- المنهج اللغويّ في تحليل بلاغة النّظم: يبرز الاستقراء المعمق للمنهج المعتمد في تحليل العبارات القرآنيّة المتصلة بجسم الإنسان لبيان جماليّاتها وما اشتملت عليه من المزايا، اتساعَ معارف الباحث اللغويّة والبلاغيّة وشموليتها: فالباحث عالم بالدّلالات الصّرفيّة الاشتقاقيّة منها والتّصريفيّة كدلالة اشتقاق الفاعليّة في اسم الفاعل، وهو عالم بالدّلالات التّصريفيّة المتصلة بمعاني التّعريف أو التّنكير والتّعريف مثلا، وهو خبير بالدّلالات النّحويّة التّركيبيّة الإعرابيّة، وهو عميق الدّرايّة بالدّلالات المحصلة من الاستعارات والكنايات المبثوثة في جل

العبارات والتّراكيب القرآنيّة المدروسة، وهو متمكن من الدّلالات السّياقيّة للعبارات القرآنيّة، عالم بسياقاتها النّصيّة، وأسباب نزولها، وما قد يربطها بسياقات أخرى أو تعابير مشابهة، وهو عالم بآراء اللغويين وأهل البلاغة والبيان والأدب وهو إلى ذلك عميق الدّرايّة بآراء المفسّرين من القدامى والمحدثين. وذلك الاتّساع وهذا العمق أنتج تميُّزَ التّحليل لدى المستغانمي بالجمع بين استخدام هذه العلوم كلها، مع ملاحظة ميله الواضح إلى التّحليل اللغوي بمختلف مستوياته في علاقته بالتّحليل البلاغي، والاستناد إليهما في جميع ما عمد إلى تحليله من عبارات تقريبا وهو في ذلك، في رأينا منسجم مع طبيعة تكوينه اللغوي والبلاغي، ومنسجم مع طبيعة عنوان رسالتّه: (بلاغة النّظم)، ومنسجم مع إشارته في المقدّمة إلى أنّ هذا البحث إنّما هو، في جانب منه، تطبيق لنظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجاني ومعلوم أنّ الجرجاني نحوي وبلاغي كتب كتاب الجمل في النّحو، وكتب كتاب العوامل المائة النّحويّة في أصول علم العربيّة، وكتب المقتصِد في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، كما كتب دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وهما مصنّفان انتهى فيهما إلى وضع نظريّة النّظم أو نظريّة معاني النّحو التي مهدت لترسخ علم المعاني المترامي الأطراف بين النّحو والبلاغة. ويمكن أن نمثل لاستناد المستغانمي إلى مختلف مستويات التّحليل اللغوي الدّلالي ببحثه في:

-**الدّلالة اللغويّة، نعني المعجميّة**: يستند في بيانها إلى شروح ابن منظور في اللسان في مواضع كثيرة لا تحصى، كما يعتمد سائر اللغويين والمفسّرين، من مثل استناده إلى

الرّاغب الإصفهاني، في مصنّفه المفردات، (مادة عقب). لدى شرحه العَقِبَ في قوله جلّ جلاله ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾ (الزّخرف، 28): يقول: "وعَقِبُ الشّهر من قولهم جاء في عَقِبِ الشّهر أي آخره"[9].

-الدّلالة الصّرفيّة الاشتقاقيّة: التّضعيف في قوله جل جلاله: ﴿ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ ﴾ (المنافقون، 5)حيث جاء فعل لوّى المضعف العين، في روايّة حفص عن عاصم للدلالة على أنّهم فعلوا اللّيَّ بغايّة الشّدة والكثرة..وذلك استنادا إلى (نظم الدُّرر) للبقاعي[10].

-الدّلالة الصّرفيّة التّصريفيّة: دلالة المقولات التّصريفيّة الخاصّة بالاسم من مثل دلالة التّعريف في كلمة الرّأس في قوله، تعالى، ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾. وفي تعريف كلمة الأبصار، في قوله ﷻ: ﴿ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ (إبراهيم، 42) يقول في تعريف الأبصار: والألف واللام إما عوض عن المضاف إليه، أو للعهد أي تشخَصُ أبصارُ الظّالمين ولا يمكن حمل الألف واللام على الاستغراق، لعدم ملاءمة المعنى للسّياق، وأيضا الاستغراق في حد ذاته غير مستقيم، إذ أبصار الأخيار قارة في مواضعها[11].

-الدّلالة التّركيبيّة الإعرابيّة: كدلالة إضافة الظّرف يومَ، وتوسيط الجار والمجرور عليهم بين الفعل والفاعل في قوله جل جلاله: ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (النّور 24)، لبيان أنّ شهادة الالسّنة والأيدي والأرجل تكون ضد الأفاكين وعليهم وليست في صالحهم، وفي إضافة الالسّنة

والأيدي والأرجل إلى ضمير هم الغائبين تأكيد أنّ البهتان الذي تلفظوا به والشّهادة التي نطقوا بها صادرة منهم على الحقيقة فهم الذين صدرت منهم مقالة الإفك وهـم الذين يتحمّلون وزرها، ويحيق بهم عقابُها..[12] وتظهر إضـافات الباحـث وتميّـزه في تحليله سائر المستويات من مثل الدّلالة الإعرابيّة السّياقيّة، والدّلالة البلاغيّـة البيانيّـة يتجلّى ذلك في تحليله جماليّات التّعابير القرآنيّة وروائع دلالاتها، في مثل تحليلـه قولـه جلّ جلاله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مـريم 4) لغويـا وبيانيـا حيث حلـل في القسـم الثّـاني منهـا، أعنـي: اشـتعل الـرّأس شـيبا (1) (الاسـتعارة التّصريحيّة التّبعيّة في لفظ اشتعل، حيث شبه انتشار الشّـيب وبياضـه باشـتعال النّـار فذكر المشبه به وهو الاشـتعال، وحـذف المشـبه وهـو الانتشـار والبيـاض، وأسـند الاشتعال إلى الرّأس، وهو منبت الشّعر، لإفادة العموم والمبالغة"...إلخ. (2) أضاف إلى ذلك رأي ابن الأثير فيما يجمع بين المشـبّه والمشـبّه بـه في هـذه الاسـتعارة، وهـي سرعة الانتشار، وتعذر تلافيه، وعظـم اللوعـة في القلـب بـه وأنّـه لم يبـق بعـده إلاّ الخمود (المثل السّائر). (3) ومذهب الجرجاني في تحليل مواضع البلاغة في هذه الآيّـة الكريمة، وأن المزيّة لا تكمن في (الاستعارة) فحسبُ كما يرى الكثير وإنما في طريقـة رصف الكلام وتركيبه ويورد رأي الجرجاني حيث يقول: ولـيس الأمـر عـلى ذلـك ولا هذا الشّرف العظيم، ولا هذه المزيّـة الجليلـة وهـذه الرّوعـة التـي تـدخل عـلى النّفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ولكن لأن سُلِكَ بالكلام طريق مـا يُسـنَدُ الفعلُ فيه إلى الشّيء، وهو لما هو من سببه...إلخ)[13].

والمهمّ أنّ المستغانمي كان مولعا بتفصيل النّظر في المسائل اللغويّة والبلاغيّة معتدّا بما لها من دور في التّحليل الدّلالي في مختلف المستويات، وقد ساعده على ذلك ثقافة عميقة نحويّة صرفيّة اشتقاقيّة وتصريفيّة، وتركيبيّة إعرابيّة، وبلاغيّة تعنى بالمعاني والبيان والبديع، وتستعين بالسّياق في تحليل المعاني وبيان ما فيها من مزايا.

2-4- المنهج التّراثي التّفسيري في التّحليل: يظهر أنّ المستغانمي لم يكن في تحليله يعتبر أنّ الموروث على السّلف من التّفسير هو الرّكيزة الأساسيّة التي يعتمد عليها، وقد لاحظ في المقدّمة (أنّ علماء المسلمين والباحثين في علوم القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ، قد وقفوا عند كثير من التّعابير والتّراكيب المتعلقة بأعضاء جسم الإنسان وحركاتها وإيماءاتها، وفسروا دلالاتها وإيحاءاتها، إلّا أنّها ظلّت شذرات متفرّقات ووقفات عابرات حبيسة في بطون التّفاسير القرآنيّة العامّة وأسفار علوم القرآن المتنوّعة)[14]، وهي إشارة إلى سعيه إلى تبيّن مواضعها واستخدامها في التّحليل واستخراجها من بطون كتب التّفسير وسائر كتب علوم القرآن. كما لاحظ المستغانمي أنّ ممّا يبرز قيمة بحثه: "رصد جملة الأقوال والآراء التي جادت بها قرائح المفسرين القدماء والمحدثين"[15]. وأبرز تعلق هذا البحث "بأهداب علم التّفسير الجليل، حيث إنه يرمي إلى شدّ أسر بنيان الإعجاز البياني القرآني المتفرد بتجليّة الجماليّات الفنيّة البيانيّة البديعة التي تحفل بها الآيات التي تتحدث عن أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم"[16]. ويزيد الباحث المسألة تخصيصا إذ يبين استناده في تحليله إلى التّفاسير التي سطرها المفسّرون رحمهم الله

تعالى، خصوصا منهم الذين عنوا بإيضاح الجانب البياني الرّائع في النّص القرآني من أمثال: (الزّمخشري في كشافه؛ وأبي السّعود العمادي في إرشاد العقل السّليم؛ وأبي حيان الغرناطي في بحره المحيط؛ والآلوسي البغدادي في روح معانيه؛ وأمحمّد الطّاهر بن عاشور في تحريره وتنويره، وغيرهم)[17]. ويظهر أنّ المستغانمي معجب بصفة خاصّة، بأربعة من كبار المفسرين هم بحسب ترتيب تواتر الاستشهاد بهم: أمحمّد الطّاهر ابن عاشور التّونسي (37 مرّة)، وجار الله الزّمخشري (31 مرّة) وفخر الدّين الرّازي (25 مرّة)، وناصر الدّين البيضاوي (14 مرّة). والجامع بين هؤلاء في اعتباري، أنّهم كانوا علماء باللغة والإعراب والبيان، برعوا فيها، وعنوا في تفاسيرهم بها. والمستغانمي عليم بذلك، يقول: التّفاسير اللغويّة في الحقيقة جاءت بعد الإمام الزّمخشري الكشاف عن عيون الأقاويل، ومن النّاحيّة البيانيّة واللغويّة كلّ العلماء عالة عليه، جاء بعده النّيسابوري وجاء بعده أبو السّعود العمّاري في كتابه إرشاد العقل السّليم في مزايا الكتاب الكريم وهو تفسير رائع يقع في ست مجلّدات فيه كثير من النّكت اللغويّة.

ويتّخذ الاستشهاد بالمفسرين سبلا عديدة: منها ما ورد في سياق تحليله دلالات قوله تعالى:﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ (السّجدة، 12)، بعد ذكر السّياق الذي ورد فيه التّعبير عن تنكيس الرّأس، وبعد شرح كلمة النّكس لغويا استنادا إلى لسان العرب لابن منظور[18]، وبعد ذكر صيغة ناكسو الصّرفيّة الاشتقاقيّة مضافة إلى رؤوس المجرمين وإعراب جملة المبتدأ والخبر (في محل جر

بإضافة إذ إليها، وبعد ملاحظة دلالة الجمع في رؤوسهم ودلالة الإضافة فيها[19]،... يقول: وتأتي (العنديّة) في الجملة نفسها عند ربهم لبيان عظمة السّلطة التي يكوّنون بين يديها، فلا مجال للانفلات منها، أو الفرار، فهم عند ربهم الجبار لا يفلتون من سلطته وقهره [20]، محيلا على التّحرير والتّنوير لابن عاشور [21]، فالمفسر ههنا تفرد بإيراد معنى بيانيا لا نجده بهذه القوة والإحاطة والسّلطة في سائر المصنّفات (العنديّة). ويضيف الباحث لاحقا بعض ما ذكره الشّوكاني وابن عاشور والعمادي وابن عادل الدّمشقي [22]، في سياق مقارنة هذه العبارة القرآنيّة بعبارة وردت فيها مادّة النّكس مستعملة في باب الماضي المبني للمجهول في وصف قوم إبراهيم ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ (الأنبياء 65)، حيث يترك عمل الشّرحين اللغوي والبياني تباعا للمفسرين المذكورين فيذكرون المعنى النّحوي ويأولونه بما يرون من ألوان التّوجيه الدّلالي، يقول: "وحرف على للاستعلاء، أي علت أجسادهم فوق رؤوسهم بأن انكبوا انكبابا شديدا بحيث لا تبدو رؤوسهم (بن عاشور). قال أبو السّعود: انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة"[23]. وبهذا يصبح التّحليل مكثفا باستحضار جل ما أورده المفسرون من ملاحظات وشروح وأفكار...

والمهم أنّ حضور المفسرين وكتب التّفسير حضور مكثف في هذا العمل الضّخم الفخم، وأن الأولويّة لحضورهم إنّما كانت تستند إلى مدى عنايتهم بالتّفاسير اللغويّة والبيانيّة البلاغيّة، فكأن حضورهم في تحليل الدّلالات وبيان ما لها

من جماليّات ومزايا إنّما هو حضـور ملحـق بـالرّكيزة الأساسـيّة التـي يسـتند إليهـا المستغانمي أعني اللغة والبلاغة.

2-5- الاستشهاد بالشّعر: إذا اعتبرنا المستغانمي، بوجه مـن الوجـوه، مفسـرا فإنّ المتتبع لمسيرة فنّ التّفسير يلاحظ تحرج بعض المفسّرين الأولين مـن الاستشـهاد بالشّعر، وقد يعود ذلك إلى عدم إدراك حقيقة الصّلة بين القـرآن والشّـعر، والمتمثّلـة في إرادة نسبة صحّة هذا المعنى أو ذاك ممّا يراد تأصيله إلى الاستخدام اللغـوي، وقـد نقل السّيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن عن الأنباري ردّه عـلى هـؤلاء فقـال: قد جاء عن الصّحابة والتّابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشّـعر وأنكر جماعة، لا علم لهم، على النّحويّين ذلك، وقالوا إذا فعلتم ذلك جعلـتم الشّـعر أصلا للقرآن. قالوا: وكيف يجوز أن يحتج بالشّعر على القرآن وهو مذموم في القـرآن والحديث؟ قال: وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشّعر أصلا للقرآن، بل أردنـا تبيين الحرف (يقصد الكلمة) الغريب من القرآن بالشّـعر، لأنّ الله تعـالى قـال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾(الزّخرف، 3)؛ وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(الشّعراء، 195)؛ وقـال ابن عباس: الشّعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرفُ من القرآن الذي أنزلـه الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفـة ذلـك منـه[24]. وذهـب الجرجـاني في دلائل الإعجاز هذا المذهب[25]. وفي مراحل لاحقة، أصبح من الضّـروري الـتّمكن من رواية الشّعر والدّراية باللغة لكلّ من يتصـدّى لتفسـير الـنّص القـرآني. فـبعض معاني القرآن لا يفهمها إلاّ من امتدّ في فنّون الأدب وأحاط بلغة العرب. ويذكر أبـو

حيان الأندلسي في مقدّمة تفسيره في سياق ذكره للأدوات التي يحتاج إليها المفسر بأنّه حفظ كثيرا من الدّواوين الشّعريّة القديمة وكتب اللغة حتّى يمتلك قدرة على فهم النّص القرآني وتفسيره والنّفاذ إلى مقاصده. وقد أورد المستغانمي في عمله 37 بيتا شعريا، منها ما جاء في سياق شرحه لكلمة، يقول في شرح مادّة اشمأزَّ [26]: "لا تخرج عن معنى النّفور والانقباض والأنفة والاستنكاف من فعل شيء ما، وقد جاء استعمال هذا الفعل في أشعار العرب من مثل قول عمرو بن كلثوم (من الوافر):

إذا عضَّ الثِّقافُ بها اشمأزّت ... وولَّتْه عَشَوْزَنَةً زبونا

ومن الشّعر ما أورده الباحث في سياق ذكر أحد اللغويين إياه أثناء شرحه لكلمة، من مثل شرح فعل امتحن، [27] يقول: "الامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد، قال أبو عمرو كلّ شيء جهدته فقد مَحَنْتَه وأنشد (من الرّجز):

أتت رذايا باديا كلالُها ... قد مَحنت واضطربت أوصاله

ومنه ما أورده في سياق استشهاد مفسر ببيت لترجيح معنى على آخر، من ذلك ما فعله الطّبري لترجيح معنى من معنيي أُشْرِبَ بمعنى سُقِيَ حتى غَلَبَ عليه واستشهد بقول زهير بن أبي سلمى(من الكامل): [28]

وصحوت عنّها بعد حبّ داخل ... والحبُّ يُشْرَبُه فؤادُك داءُ

ومن ذلك ما أورده المستغانمي لبيان الاتفاق بين المعنى الذي يورده أهل اللغة والمعنى المحصل من الأشعار، يقول في شرحه معنى ترائب المرأة: [29] (عظامها

الصّدريّة أي ضلوع الصّدر حيث تكون القلادة ومفردها تريبة)، وهذا قول جميع أهل اللغة، ومنه قول امرئ القيس(من الطّويل):

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضة ترائبُها مصقولة كالسّجنجل

وخلاصة هذا أنّ منهج المستغانمي منهج جامع، جمع بين اعتماد آراء السّلف من المفسّرين، واعتماد آراء اللغويين وأهل البلاغة والبيان، واعتماد الاستشهاد بالشّعر بصفة مباشرة أو غير مباشرة، فقد استخدم الباحث الشّعر بطرق مختلفة في سياقات مختلفة كما كان يفعل سائر اللغويّين ممّن سعى إلى تقريب المعنى وتوضيحه أو ترجيحه وبيان التّفاوت الجمالي فيه.

3 – (بلاغة النّظم) منهجا علميّا في تحليل بلاغة القرآن الكريم وإعجازه وبلاغة الكلام عموما: تأصيل ونقد.

هذا المصنّف بحث في موضوع جديد متعلّق بمجال قديم متجدّد، أمّا الموضوع الجديد فهو تقصّي النّظر والبحث في أعضاء الجسم من حيث دلالاتها في ذاتها وفي هيئاتها وحركاتها في سياقات مخصوصة بما ورد في القرآن الكريم. وأمّا المجال القديم المتجدّد بتجدّد الدّرس والبحث فهو تحليل بلاغة القرآن الكريم والتّوقف عند أسرار إعجازه والشّرح الوافي ببيان بيانه البليغ الصّافي. وهي مسألة خاض فيها القدامى والمحدثون من أهل البيان وعلماء التّفسير ونظر فيها المتكلّمون واللغويّون من أمثال الجرجاني في دلائل الإعجاز وفي أسرار البلاغة.

وإذا اعتبرنا أنّ تدبّر القرآن الكريم وتعمُّقَ ما يشتمل عليه من خصائص لغويّة وبيانيّة فريدة ومعان ودلالات مستنبطة عديدة، يُعتبر واجبا على كل مسلم عالم قادر على ذلك، فإنّ هذا العمل يمثّل، من هذه الجهة، أداء علميّا عمليّا تطبيقيّا جليّا واستجابة ناجحة لذلك الواجب الذي ينهض به العلماء المسلمون جيلا بعد جيل والعمل يمثل تبعا لذلك مرحلة من مراحل التّفكير وتدبر بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وهي مرحلة يمثّل وجها من وجوهها عالمٌ ثَبْتٌ تِقْنٌ أثبت من خلال هذا البحث وغيره من الأعمال كفايّة علميّة جليّة وقدرة فنيّة لافتة على الاستيعاب والإضافة ومواصلة البناء والتّرسيخ لمنهج علمي أكاديمي في البحث تأكّدت قيمته بمثل هذه الأعمال، ويبرز ذلك خاصّة من جملة من المميّزات مختلطة ببعض النّقود التي لا تنقص شيئا من قيمة العمل وقوَّته نذكر منها:

3-1- أنّ الباحث وضع مقدّمة مفصّلة تبرز قيمة الموضوع وخصوصياته:

وتشتمل على عناصر توضح أهداف البحث وبيان إشكاليته الأساسيّة وما تطرحه من أسئلة هي فروضه أو فرضياته، وأهدافه وأهمّيته وحدوده والنّهج الذي اعتمده في عمله وتوضيح الخطوات الإجرائيّة التي اتبعها والدّراسات السّابقة التي عنيت بالموضوع من قريب أو من بعيد [30]. وخصص المستغانمي قسما من المقدّمة للبحث في الدّراسات السّابقة[31]، وهو أمر يعدُّ من مزايا هذا العمل، وعنصرا من عناصر نجاحه وقوَّته، ذلك أنّ كلّ بحث علمي جدي ينبغي أن يبدأ من حيث انتهى الباحثون فيه ومن استيعاب ما توصلوا إليه، وقراءة ذلك قراءة نقديّة تسمح

للباحث بإبراز ما سيتفرد به ويتميز، وتمكن القارئ من فهم التّوجه المخصوص الذي عمد إليه الباحث من دون سائر الباحثين، يقول بعد ذكر بعض هذه الدّراسات: "أمّا جوهر دراستي فمختلف عنها حيث تركز رسالتي على التّحليلات البلاغيّة لتعابير وتراكيب أعضاء الجسم كلّها التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وبيان الأغراض والدّلالات والجماليّات البلاغيّة التي تحملها في طيّاتها"[32]. وهو يشير، خلال ذلك في مناسبات مختلفة مواضع الإفادة من تلك البحوث، يقول مثلا بشأن أحدها: "وقد أفدت من هذا البحث في الوقوف على المعاني التي استعملت فيها كثير من العبارات والتّراكيب في الشّعر العربي والدّلالات التي تحملها"[33]. على أنه عرض مختلف البحوث بصفة خطيّة، دون السّعي إلى التّأليف بين بعضها وتبويبها بحسب اتجاهات أصحابها، بل لعله أوهمنا بذلك أو شرع فيه وسها عن إتمام إنجازه؛ إذ نصادف عنوانا: أوّلا: الدّراسات المتعلّقة بلغة الجسم،[34] ولا نجد له في السّياق (ثانيا)، بعد ذكر سبعة بحوث وتقديمها تقديما خطّيّا تحليليّا..

3-2-أنجز المستغانمي عملا تطبيقيا اختباريّا قلّ أن يتوفّر مثله في مساق ما نلاحظه من دراسات تعمد إلى الإسهاب في عرض النّظريّات وتحليلها وتثمينها دون قدرة على اختبارها وتجريب تطبيقها واختيار ما يمكن أن يفيده منها الباحث إجرائيّا في تحليله ما يمكن أن يعرض من نصوص أو خطابات. وإضافة إلى ما يستنتج من متن العمل ذاته حيث عمد إلى تطبيق دقيق لطيف لهذه النّظريّة القيمة. وقد أعلن المستغانمي عن سعيه إلى هذا التّوجه الصّعب المنال في مقدّمة بحثه حيث

بين أنّ هذه الدّراسة حلقة من حلقات تطبيـق نظريّـة الـنّظم الجرجانيّـة التـي تعنـى بدراسة معاني النّحو ودلالات ترتيب الألفـاظ والتّراكيـب في ذهـن قائلهـا، حيـث يرى عبد القاهر الجرجاني أن النّظم يتجلى في توخي معاني النّحو وفي ملاءمـة معنـى اللفظة لمعنى التي تليها وأنّ بلاغة النّظم تتجلّى في اقتفـاء آثـار المعـاني وترتيبهـا عـلى حسب ترتيب المعاني في النّفس .[35]

3 – 3 – توصل المستغانمي إلى تقـديم إضـافات أثمـرت نتـائج عميقـة الأثـر في الدّلالة المعجميّة، إذ تمكن بطريقة عمليّة استقرائيّة وصفيّة علميّة من تصحيح بعض الدّلالات اللغويّة، من مثل بيان الفروق اللطيفة بين كلمات متقاربة كـالعنق والرّقبـة والجيد، أو العين والبصر والطّرف، أو التّوصل إلى تصحيحات لغويّة ذات بـال مـن مثل تصحيح مصطلح لغة الجسد وبيان أنّ العبـارة الأدق التـي تتماشـى مـع البيـان القرآني هي أعضاء الجسم إذ اختص الجسد في القرآن الكـريم بـما لا روح فيـه، كـما اختصّ جمع أعين بجمـع العـين البـاصرة في حـين أنّ عيـون مختصّـة بجمـع عيـون الماء[36]...

3 – 4 – وضع مجموعة مستوفاة من الفهارس تأصيلا للمنهج العلمـي في الكتابـة والتّصنيف، ففي سياق ترسخ البحث وصاحبه في العمل بأصـول البحـث العلمـي المنهجي السّليم السّويّ وقوانينه وقواعده الصّارمة، وضع المستغانمي في آخر عملـه مجموعة من الفهارس القيمة التي تضاعف من قيمة العمل وتحقق مـا ورد في متونـه من غزير المعارف وتيسر الوصول إليها واسترجاع ما تضـمنته مـن مختلـف الآيـات

والأشعار والأقوال والآراء والأحكام والتّحاليل، وهـي: فهـرس الآيـات القرآنيّـة وفهرس الأبيات الشّعريّة وفهرس الأعلام، وفهرس المصطلحات البلاغيّـة إضـافة إلى قائمة المصادر والمراجع، وملحق في أعضاء جسم الإنسان ومواضـع تكرّرهـا في القرآن الكريم. وبهذه الفهارس يصبح المصنّف موثّقـا محقّقـا يرتقـي إلى النّصـوص العلميّة التي لا تحصى فوائدها ولا تعدّ.

4: نقود الباحثين عن الكمال لبلوغ تمام الجمال:

4-1- قوّة في التّحليل مقابل ضعف في التّأليف: لئن تميّز بها تميّـز بـه مـن غـزارة العلم وسلامة البيان ورجاحة النّظر والتّدبر لما ورد في القـرآن الكـريم مـن التّعـابير الفنيّة المتعلقة بأعضاء الجسم، والإلمام العجيب بآراء علماء اللغة والبلاغة والمفسرين من القدامى والمحدثين، فإنّه لم يتخلص تماما مـن النّزعـة الاستعراضـيّة التّحليليّـة الخطيّة، دون المرور، في مرحلـة لاحقـة إلى التّـأليف بعـد التّحليـل، والإجمـال بعـد التّفصيل، ومن الغريب أن نجد الباحث، رغـم سـعيه الـدّؤوب إلى اتّبـاع المنـاهج الأكاديميّة الصّارمة في هذا العمل القيم، لا يسعفنا بخواتم تأليفيّة لما حـرره وفصّـل فيه القول من أبواب وفصـول، فـلا نجـد في البحـث إلا خاتمـة عامـة مختزلـة هـي الأخرى في نهايـة البحـث. كـما نلاحـظ أنّ الباحـث لم يَسْـعَ إلى فـتح آفـاق بحثيّـة مستقبليّة يكون عمله هذا منطلقا لها، وذلك رغم اتساع الآفاق التي يمكن أن ينفـتح عليها. ويمكن أن نجعل من هذا النّقص في عمل التّأليف فرصـة للبـاحثين يسـعون من خلالها إلى تقصـي مواضيع ودراسـات تخـتص بـالنّظر في الخصـائص الدّلاليّـة

الجامعة التي يمكن استنتاجها من الاستعمالات المتواترة لكلّ عضو من أعضاء الجسم التي تمّ تحليل دلالاتها في ذاتها وفي حركاتها في القرآن الكريم، ويمكن إنشاء مباحث مقارنة بين تلك الدّلالات في القرآن وبينها في أغراض من الشّعر كالهجاء أو المدح في عصر من العصور أو مع تطوّر العصور، ويمكن أن نفتح هذا العمل الجبار على مواضيع كثيرة من مثل البحث في دراسات مقارنيّة تختص كلّ منها بعضو من أعضاء الجسم المدروسة انطلاقا من أقدم العصور والعهود، أو انطلاقا من ظهور استعماله في القرآن الكريم وانتقال ذلك الاستعمال أو تطوّره في سائر النّصوص الشّعريّة أو النّثريّة الفنيّة...

4-2-استرسال وتماه في الآراء: وتماه وممّا قد يؤخذ على المستغامي في هذا المصنّف، أنّنا لا نتبين في كثير من السّياقات حدود رأي المستغانمي ولا نميزه من رأي المفسر أو اللغوي الذي يستشهد به، إذ لا يحصر الكلام المنقول بعلامة تدل على حدود الإحالة بدايّة وانتهاء، فتختلط آراؤه بآراء اللغويين والمفسرين مع كثافة المادة المعرفيّة التّحليليّة، وهو، في اعتبارنا، من الأمور التي يمكن تلافيها وتنقيحها في ما نتوقعه للعمل من طبعات لاحقة كثيرة [37] .

4-3-سلامة مبدأ التّصنيف وظاهرة إرباكه: ولئن بدا تصنيف أعضاء الجسم واضحا لقيامه على مبدا التّجاور كما أُعلِنَ عن ذلك في المقدّمة، فإننا لا نرى موجبا لإقحام مباحث تُعنى بأعضاء (متنوّعة) من مثل الفروج والأرحام في أعضاء الجسم في الباب الأوّل الموضوع لأعضاء الرّأس والنّاصيّة والعنق، ولعله من المنطق

الالتّزام بما أعلن عنه وبمبدأ التّجاور وإفراد الأعضاء (المتنوّعة) بباب أو إلحاقه بالباب الأخير...

4-4-دروس مكثّفة معمقة في الدّلالة اللغويّة بمختلف مستوياتها في مقابل الحاجة إلى مزيد التّدقيق: ويمثل هذا المصنّف بما اشتمل عليه من تحاليل لغويّة وبيانيّة بلاغيّة دفقا من الدّروس المكثفة المعمقة المدققة في العلوم الدّلاليّة بمختلف مستوياتها، فنحن إزاء دروس تطبيقيّة في دلالة الأبنيّة الاشتقاقيّة ودلالة الأبنيّة الصّرفيّة التّصريفيّة ودلالة الأبنيّة التّركيبيّة الإعرابيّة، يمكن أن تمثل أساسا لوضع دروس في هذه الدّلالات، وذلك رغم ملاحظة بعض الأحكام العامّة الانطباعيّة التي تحتاج إلى مزيد من التّدقيق والتّعميق، من مثل تفسير المستغانمي لدلالة صيغة المضارع في قوله جلّ جلاله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (إبراهيم، 42)،[38] يقول: "جاء الفعل تَشْخَصُ في صيغة المضارع لإفادة استحضار الصّورة والمشهد وكأنّنا نرى أعيُنهم شاخصة أمامنا"[39]، ولا نحسبها كذلك تماما، ذلك أن صيغة المضارع تفيد استمرار الحدث وعدم انقطاعه، وقد يكون استحضار الصّورة معنى مستلزما يسهم في تمكنه في تصوّر السّامع، إضافة إلى المعنى الصّرفي التّصريفي كلٌّ من المعنى اللغوي المعجمي والمعنى السّياقي.

خاتمة:

يمثل مصنّف (بلاغة النّظم في أعضاء الجسم) أنموذجا بحثيا علميا تطبيقيا متطوّرا، يعكس ثقافة المستغانمي التّقليديّة الأصيلة المتأصلة وما حصله من العلوم والمعارف في مختلف مراحل حياته، ويرتقي به إلى مرتبة كبار اللغويين وعلماء التّفسير، وإذا اعتبرنا أنّ التّفسير تكثر وسائله كلما تأخر به الزّمن فالمستغانمي يمثل مرحلة معاصرة من مراحل التّنوير والتّفسير القرآني، فهو عالم نحرير يجمع بين الاتجاهات التّفسيريّة، قديمها وحديثها، ويتميز، في اعتباري، بكونّه من أهل الرّأي إذ نجده مولعا قبل كلّ شيء وبعده، باللغة والنّحو والبلاغة تنظيرا وتطبيقا، طبق ذلك على أعظم كتاب أُنزل على خير نبي أُرْسِل، وهو عالم معجب ببليغ الكلام ومعجزه، متشبع بآلات بيان سحره وأسراره وبدائعه التي لا تتسنى إلاّ لمن أفنى سني شبابه في قراءة المجلّدات الموضوعة في دقائق اللغة والبيان وعلوم القرآن ولطائف التّفسير، وقد توصل في هذا المصنّف القيم، من خلال تدبر آيات بينات تحمل بين طياتها كنوزا من المعارف والفنّون، إلى الإسهام بما ذكرنا من الإضافات المعرفيّة، والتّصحيحات اللغويّة المعجميّة، والتّدقيقات العلميّة، وعمد إلى تطوير منهج متفرد في البحث اللغوي العلمي التّطبيقي، نسمح لأنفسنا بأن نَسِمَه، دون مبالغة، بالمنهج العلمي المستغانمي الصّافي في شرح نظم القرآن وتحليله الوافي.

هوامش البحث:

[1]- نشر جائزة دبيّ الدّوليّة للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدّراسات، سلسلة الدّراسات القرآنيّة. دبيّ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة 2017.

[2]- بلاغة النّظم في أعضاء الجسم في القرآن الكريم، ص: 9.

[3]- نفسه، ص: 18.

[4]- نفسه، ص: 45.

[5]- نفسه، ص: 10-11.

[6]- المستغانمي، أمحمّد صافي، في رِحاب سورة، في رِحاب سورة الحجّ- 3، تقديم الإعلاميّ أمحمّد خلف تفريغ موقع إسلاميات حصريا، ص1.

[7] -نفسه.

[8]- بلاغة النّظم، ص14.

[9]- نفسه، ص: 371.

[10]- نفسه، ص: 29.

[11]- نفسه، ص: 37.

[12]- نفسه، ص: 179.

[13]- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود أمحمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت. ص100.

[14]- بلاغة النّظم، ص10.

[15] - نفسه، ص13.

[16] - نفسه، ص13-14.

[17]- نفسه، ص15.

[18]- نفسه، ص25.

[19]- نفسه، ص26.

[20]- نفسه، ص27.

[21]- نفسه، ابن عاشور، أمحمّد الطّاهر، التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، د.ت.، ج21، ص221.

[22]- بلاغة النّظم، ص28.

[23]- نفسه، ص29.

[24]- السّيوطي، جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدّراسات الإسلاميّة، ص847.

[25]- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود أمحمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت. ص18-19.

26- بلاغة النّظم، ص418.

[27]- نفسه، 448.

[28]- نفسه، ص431.

[29]- نفسه، ص 515.

[30]- نفسه، ص9-20.

[31]- نفسه، 16-20.

[32]- نفسه، ص 16.

[33]- نفسه، ص19.

[34]- نفسه، ص16.

[35]- نفسه، ص10-11.

[36]- نفسه، ص522.

[37]- نفسه، ص28.

[38]- نفسه، ص34.

[39]- نفسه، ص36.

الأساليب الحجاجيّة
في خطاب الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي
في مشروع المعجم التّاريخي

د / الصّديق آدم بركات
أستاذ اللسانيات المشارك
ج. أفريقيا العالميّة

أ.د / بكري محمّد الحاج
أستاذ اللسانيات
رئيس مجمع اللّغة العربيّة

المقدمة:

أوّلاً: نتقدّم بوافر الشّكر والتّقدير للجهات المنظّمة لهذا الملتقى (المجلس الأعلى للّغة العربيّة بالجزائر)، ومجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وجامعة عبد الحميد بن باديس بالجزائر على الدّعوة الكريمة للمشاركة في هذا الملتقى، ونسعد بالمشاركة في كافة فعاليّاته.

إنّ الاحتفاء برمز من رموز اللغة العربيّة ممثّلا في فضيلة الشّيخ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي هو احتفاء صادف أهله، لما يقوم به من أدوار جليلة في خدمة أمّته من خلال المشروع الحضاري الضّخم المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، وجهوده العلميّة الأخرى التي لا تخطئها العين.

فعلم مثل الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي أجدر أن تبرز جهوده العلميّة وتكتب فيها الرّسائل والأطروحات العلميّة، ويمثّل هذا الملتقى فتح الباب على

مصراعيه للباحثين والدّارسين أن يلجوا خضم هـذا البحـر الزّاخـر بكنـوز المعرفـة والخبرات التي يجب تسطيرها من خلال بحوث ودراسـات. ونسـعد أن نشـارك في هذا الملتقى ببحثنا الموسوم: (الأساليب الحجاجيّة في خطاب الدّكتور أمحمّـد صـافي المستغانمي في مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة .

يهدف هذا البحث إلى الكشـف عـن أسـاليب الحجـاج في خطـاب المسـتغانمي وتحديد الأساليب الحجاجيّة الأكثر تداولا في خطابـه المكتـوب، باسـتخدام المـنهج الوصفي من خلال عيّنة منتظمة مـن خطابـه المكتـوب في محـاضر اللجنـة العلميّـة للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة.

يتألّف هذا البحث من مقدّمة وثلاثة مباحث، أوّلها الإطار النّظري الذي نعـرف فيه بالحجاج وأساليبه، وثانيها إجراءات البحـث والتـي نحـدّد مـن خلالهـا مجتمـع البحث وعيّنته، وتحديد منهج البحـث وإجراءاتـه، وأداة البحـث وكيفيّـة تطبيقهـا. وثالثّها التّحليل الحجاجي لعيّنة البحث المتمثّلة في خطـاب المسـتغانمي المكتـوب في الجزء الأوّل من المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّـة. وخاتمـة البحـث التـي تحتـوي عـلى النّتائج والتّوصيّات.

النّظريّة الحجاجيّـة: نتنـاول النّظريّـة الحجاجيّـة مـن حيـث مفهومهـا، ونشـأتها وتطوّرها، وخصائصها، وأهدافها والمبادئ الحجاجيّة، ونتعرّض مكوّنـات العمليّـة الحجاجيّة من مقدّمات حجاجيّة تؤسّس لعمليّة الإقناع التي تظهر في شـكلة نتيجـة باستخدام الرّوابط الحجاجيّة، وتقنيّات الحجاج.

أطلق العلماء على الحجاج البلاغة الجديدة [1]، ويعدّ شاييمبيرلمان ومعه أولبر يختتيكيا أوّل من استخدما مصطلح (البلاغة الجديدة) ويقصدان بها (الحجاج) فهما رائدا نظريّة الحجاج [2] وتختلف عن البلاغة الحديثة، التي هي بلاغة أدبيّة صرف ومن الأفضل أن تدعى أسلوبيّة، وإنّما تختزل البلاغة الحديثة في دراسة الوجوه الأسلوبيّة، ومعنيّة بالزّخرف أو القيمة الجماليّة من الخطاب، والبلاغة الجديدة غير معنيّة بما سبق، فهي وسيلة للإقناع والإبداع أي الحضور، أي جلب أشياء إلى ذهن السّامع ليست حاضرة في ذلك الحين.[3].

أمّا الحجاج البلاغة الجديدة بمعناه العادي فهو طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التّأثير في السّامع، فيكون بذلك الخطاب ناجعاً فعّالاً، وهذا معيار أوّل لتحقق السّمة الحجاجيّة غير أنه ليس معياراً كافياً، إذ يجب أن لا تعمل طبيعة السّامع أو المتقبل المستهدف، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسّامع، ومدى قدرة التّقنيّات الحجاجيّة المستخدمة على إقناعه فمثلاً من استثمار النّاحية النّفسيّة في المتقبل من أجل تحقيق التّأثير المطلوب فيه[4]، ويضيف صابر حباشة المعنى الفنّي للحجاج بقوله: " أمّا الحجاج بالمعنى الفنّي، فيدلّ على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدّلاليّة والخاصيّة الأساسيّة للعلاقة الحجاجيّة أن تكون درجيّة أو قابلة للقياس بالدّرجات أن تكون واصلة بين سلالم"[5].

وعرف محمّد الولي[6] الحجاج بقوله:" الحجاج هو توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معاً. وهو لا يقوم إلّا بالكلام المتألّف من معجم اللّغة الطّبيعيّة"، وفي موضع آخر يقول: "إنّ محاولة التّحكم أو التّأثير في الإنسان بواسطة اللّغة أدعوه حجاجاً"[7].

وعرّف جميل حمداوي[8] الحجاج بقوله: "الحجاج هو فعاليّة تداوليّة جدليّة ديناميكيّة فعّالة تستلزم وجود أطراف تواصليّة بينها قواسم حجاجيّة ومشتركة، إذ يمتلك المرسل الخطيب مؤهّلات معرفيّة وأخلاقيّة كفائيّة، ويستعمل في حجاجه اللوغوس الاستدلالي بغية إقناع الآخر، ولو باستعمال خطاب الأهواء والانفعالات، ولا يعتمد الحجاج عند بيرلمان على العنف أو التّضليل أو التّوهم، بل غرضه بناء الحقيقة عن طريق الحوار البناء والاستدلال الذّي قد يكون ذهنياً وهوويًاً انفعالياً".

وقد عرّف شعبان أمقران[9] الحجاج بقوله: "الحجاج هو دراسة تقنيّات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد من درجة ذلك التّسليم".

وبالنّظر إلى التّعريفات الواردة أعلاه، يلاحظ عليها التّباين، فالقواسم المشتركة بينها قليلة، ومن أظهرها الإشارة إلى التّقنيات الحجاجيّة في تعريف صابر حباشة والولي وحمداوي وشعبان التي أشاروا فيها إلى دورها في الإقناع، ومن القواسم المشتركة –أيضا–الإشارة إلى متلق. وقد زاد حمداوي وجود أطراف تواصليّة

ونصّ على وجود مرسل، وقد تميّز تعريف حباشة بالمعنى العادي بأمرين، هما: جعله الحجاج طريقة لعرض الحجج، ومن ناحيّة أخرى أشار إلى استثمار الحالة النّفسيّة للمتلقّ، كما أنّ تعريف حباشة الفنّي قد ركّز على أمرين، هما، يعدّ الحجاج ضمن العلاقات الدّلاليّة، وأشار إلى السّلالم الحجاجيّة التي لم يذكرها أي تعريف آخر، كما أنّ هذا التّعريف لم يذكر التّأثير أو أحد مترادفاته.

أشار محمّد الولي في أحد تعريفاته إلى تعديل الرّأي أو السّلوك الذّي يقصد به التّأثير وفي تعريفه الآخر أشار إلى التّأثير وأردفه بالتّحكم، وأجمل في قوله إن ذلك كله يتمّ باللّغة، أمّا حمداوي فقد أدخل عدّة قضايا في تعريفه، وهي: الجانب التّداولي، ووجود أطراف التّواصل، ومقوّمات المرسل، وغرض الحجاج بناء الحقيقيّة عن طريق الحوار، ويعتبر هذا التّعريف الأكثر شمولاً من سابقاته أو لا حقه، وقد حدّد شعبان أمقران أنّ الحجاج هو دراسة تقنيّاته.

فتجدر الإشارة إلى عدم شمول التّعريفات التي عرضناها، فالخطاب الحجاجي يتّسم بملامح من أهمّها:

- الحجاج يتوجّه إلى متلقّ؛
- يعبّر عنه بلغة طبيعيّة؛
- مسلّماته لا تعدو أن تكون احتماليّة، وإذ هناك إمكانيّة الاتّفاق أو الدّحض؛ ممّا يجعل من إمكانيّة التّسليم بالمقدّمة المعطاة أمراً نسبياً للمتلقّ؛
- لا يفتقر تقدّمه إلى ضرورة منطقيّة؛

- ليست نتائجه ملزمة؛[10]
- هدفه الإقناع والتّأثير في المتلقّ؛
- التّأثير في الإنسان بأداة غير اللّغة لا يكون حجاجاً؛[11]
- الخطاب العلمي ذو الطّابع الرّياضي المنطقي لا يكون حجاجاً.

وقد مثل محمّد الولي[12] للخطاب الحجاجي بقولـه: "إنّ توجيـه مـدير الأمـن في السّاحة العموميّة بالخطـاب إلى المحتجـين مـن أجـل الانسـحاب، لأنّ حشـودهم تعرقل السّير وتخلق حالة من البلبلة هو حجاج، وغايته هو الإقنـاع، مـن حيـث أنّ تلويح البوليس بالهروات أو السّـلاح أو خـراطيم الميـاه، هـو تهديـد مـادي ولـيس حجاجاً".

أمّا نشأة نظريّة الحجاج فنتناولها منذ ظهورها الأوّل في أثينـا، ومـن ثـمّ ظهورهـا حديثا في منتصف القرن العشرين، وتطوّرها في الدّرس اللساني المعاصر.

اشتهرت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد باعتبارهـا المكـان الـذّي شـهد ولادة المنطق الصّوري والجدل والبلاغة الإقناعيّة أو الخطابيّـة[13]، والخطابـة عنـد أرسـطو هي مخاطبة العوام. هذا هو جوهرها، خصوصـاً الخطابـة الاستشـاريّة والاحتفاليّـة التي تلقى على العوام، أي الشّعب. أمّا القضائيّة فهـي أقـلّ تـأثّراً بالحشـود. إذ إنّهـا تلقى أمام القضاة.[14]

يعد شاييم بيرلمان أوّل مـن اسـتخدم مصـطلح البلاغـة الجديـدة، ومعـه أولـبر يختيتيكا، ويعني بها الحجاج، فهو رائد نظريّة الحجاج، وأوّل مـن بعثـه وأحيـاه مـن

النّصف الثّاني في القرن العشرين بعد ركوده مدّة طويلة، من خلال مؤلّفه مصنّف في الحجاج، البلاغة الجديدة الذّي شاركته في إنجازه تيتكا سنة 1958م[15] والذي يعدّ أهمّ محاولة لتجديد النّظريّة الحجاجيّة الأرسطيّة. وهذا الكتاب محاولة للعودة إلى الأصل حيث كانت البلاغة حجاجيّة، وحيث كانت المزيّنات الجماليّة مجرّد روادف لغويّة ودعامات تسعى إلى بعث الإقناع والفعل، لا إلى الاستمتاع الجمالي غير العابئ بالتّأثير وتعديل الرّأي والسّلوك. مشروع شاييم بيرلمان هو أيضا أوّل محاولة في القرن العشرين لردم الهوة التي تفصل البلاغة المعاصرة عن أصلها الأرسطي، بل الأثيني. إذ البلاغة الحجاجيّة بنت الحاضرة الأثينيّة.[16] والجدير بالملاحظة أنّ قرونا عديدة لم ير فيها الحجّاج بحثا ودرسا إلّا في النّصف الثّاني من القرن العشرين.

لقد أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية عقد الخمسينيّات حتّى الآن عبر ثلاثة آفاق متجاورة ومتتاليّة. وإن كانت متباينة في أهدافها وبرامجها، ولا تتعلّق هذه الآفاق بالاتّجاهات الدّاخليّة للدّراسات البلاغيّة الجديدة فقط، بل تمثّل طرائق مختلفة في منظور التّجديد وأدواته المنهجيّة، وقد كانت على النّحو التّالي:

الاتّجاه الأوّل: مع بيرلمان 1958م من خلال كتابه مصنف في الحجاج –البلاغة الجديدة ويعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلاليّة، باعتباره تحديداً منطقيّاً بالمفهوم الواسع، كتقنيّة خاصّة ومتميّزة لدراسة المنطق التّشريعي والقضائي على وجه التّحديد، وامتداداته إلى بقيّة مجالات الخطاب المعاصر.

الاتّجاه الثّاني: تمثّله البلاغة الجديـدة التـي ولـدت في أحضـان البنيويّـة، وتتمثّـل جدتها في أنّها تقوم في مقابل التّقاليد المدرسيّة للبلاغة الفيلولوجيّـة، وبمثلهـا جماعـة ممن أطلق عليهم البلاغيّون الجدد، معظمها من فرنسا، مثل جـيرار جنيـت، وجـان كوهن، وتودوروف.

الاتّجاه الثّالث: أتى بمنهج وظيفي مجاور للاتّجاه البنيوي، ومعتمد عـلى التّداوليّـة والسّيمائيّات إلى درجة أنّ أحد البنيويين تودوروف 1979م، اعترف بأنّ السّيمائيّات يمكن أن تفهم بأنّها بلاغة معاصرة.[17] ويعتمد في هذا البحث الاتّجاه الثّالث.

ولقد صار الحجاج في الدّراسـات اللغويّـة والبلاغيّـة الحديثـة أوسـع مجـالاً، لا يقتصر دوره على التّوظيف الانتقائي باعتباره عنصراً خارجيّاً ثانويّاً يوظّـف فقـط في مواقف تواصليّة معيّنة. بل تحول مع تيار التّداوليّة المدمجة في الدّراسات اللسانيّة، إلى عنصر كامن في اللّغة، من حيث بنيته، أو من حيث وظيفتـه. وبهـذا يعتـبر الحجـاج فعلاً كلاميّاً تجب دراسته في نطاق دراسة اللّغة لا في البحث عما هـو واقـع خارجهـا وهذا ما يدعو إلى اعتبار اللّغة مسرحاً لمحـاورة التّحـاجج بـين الـذّوات المتواصـلة. وتنحصر وظيفة اللّغة في دلالة الأقوال على التّوجيهات الحجاجيّة النّاتجة عنها.[18]

وتتلخّص خصائص الحجاج فيما يلي:

1- الكلام الحجـاجي هـو في الحقيقـة إحـدى الوظـائف التـي تنجزهـا اللّغـة الطّبيعيّة، التي هي نقيض اللّغة العلميّة المصنوعة الاصطلاحيّة، إذ هنـاك إلى جانـب الحجـاج، التّعبـير عـن إحسـاس مـا، أو حالـة أو نظـرة خاصّـة إلى الحيـاة والعـالم

والوصف والإخبار، وكلّها وظائف اللّغة الطّبيعيّة التي لا تتطلّع إلى التّأثير في المتلقّي الذي هو غاية الخطاب الحجاجي.[19]

2- الإقناع واحدة من الحالات الأساسيّة للتّواصل، وذلك تبعاً لكون القصد هو التّعبير عن إحساس أو حالة أو نظرة خاصّة إلى العالم أو إلى الذّات، أو الإخبار أي الوصف الموضوعي إلى أقصى درجة، لمقام ما، أو بالإضافة إلى ذلك، الإقناع أي التّوجيه إلى المستمع لتبنّي رأي ما.[20]

3- بقدر ما يتقوّى الجانب العقلي في الخطاب يقترب من البرهنة العلميّة ويبتعد عن الحجاج بمعناه المحصور، وبقدر ما يتقوّى الجانب العاطفي يقترب الخطاب من الحجاج، وينأى عن البرهنة، والجانب العاطفي أساسي في الحجاج غير أنّه يكون حاسما في أجناس من الخطاب خصوصاً في الشّعر.[21]

4- ارتباط الخطاب الحجاجي بالدّور التّداولي على عدّة مستويات، ذلك أنّ الحجاج يعتبر ظاهرة متجسّدة في الخطاب وبه يتحقّق، فهو متلبّس بألبسة لسانيّة وأسلوبيّة، على أساس أنّنا إذا أردنا رصد الصّور الأسلوبيّة في الخطاب الحجاجي أو الصّورة البنائيّة الاستدلاليّة، فإنّنا نكون مبدئيّاً بصدد أفعال كلاميّة لها مرجعيّة مقاليّة ومقاميّة مشتركة بين المتكلّم والمستمع، أو بين المخاطِب والمخاطَب.[22]

5- قد يظهر الحجاج ماديّاً عبر الوسائط اللغويّة، وقد يكون معنويّاً عبر الأفكار والمشاعر ووجود سياق حجاجي معين.[23]

6- أي خطاب حجاجي يتجذّر فيه الباعث والمتلقّين إذ المتكلّم الباعث يراعي استعداد المتلقّي لقبول ما يلقي إليه من حجج، وهي الحجج التي ينبغي بالضّرورة أن تنطوي على عناصر مقبولة. وهذا الاعتبار لا يقام له في الخطاب العلمي أي وزن. فلا أحد ينتظر موافقة مخاطب على كون زوايا المربّع متساويّة وذات 90 درجة.[24]

7- يبعث الباعث الرّسالة من أجل إحداث تغيير، أو تثبيت، رأي المتلقّي وسلوكه، أو هما معاً.[25]

8- إنّ اللغة التي يتوسّل بها في الحجاج، هي من جنس اللّغة الطّبيعيّة، التي لم يتقمّصها الإنسان وبهذا هي من ضروب الإيحاءات والمعاني الجانبيّة المواكبة والتّرادف والاشتراك اللفظي ... إلخ، هذه اللّغة المعتمدة في الحجاج بعيدة كل البعد عن تلك المعتمدة في الخطاب العلمي، أي أن اللّغة المصنوعة والاصطلاحيّة غير مفيدة في الحجاج.[26]

9- إنّ الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرّياضي الذّي هو مطلق وحتمي.[27]

10- تمتاز مادّة الحجاج في عمومها بالغموض وعدم الانضباط لأي قاعدة ثابتة ودقيقة. وهذا الغموض يكون أوفر حيثما تواجه مجالاً محصوراً من هذه المادّة. ومادّة الحجاج وفق أرسطو هي الأفعال الإنسانيّة والمصالح الإنسانيّة.[28]

وتتمثّل أهميّة الخطاب الحجاجي في:

1- إنّ التّواصل الإنساني جملة قائم على الحجاج، إلى حدّ أن المرء ليسلّم بأنّ لا تواصل من غير حجاج.[29]

2- تعود أهميّة الحجاج في الدّراسات اللغويّة المعاصرة إلى العودة القويّة للبلاغة تحت تسميّة البلاغة الجديدة، حيث ركزت على جانبين هما البيان والحجاج كوسيلة أساسيّة من وسائل الإقناع.[30]

أمّا أهداف نظريّة الحجاج فقد حدّدها صابر حباشة[31] في قوله: "تهدف إلى دراسة التّقنيّات الخطابيّة، وتسعى إلى إثارة النّفوس، وكسب العقول عبر عرض الحجج، كما تهتمّ البلاغة الجديدة أيضا بالشّروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب، ثمّ يتطوّر، كما تفحص الآثار النّاجمة عن هذا التّطور"، وحدّد الحسين بنو هاشم[32] أهداف النّظريّة الحجاجيّة في قوله: "الهدف من الحجاج ليس تقديم الدّليل على صدق النّتيجة انطلاقاً من صدق المقدّمات كما هو عليه الأمر في البرهنة الصّوريّة، بل الهدف هو نقل الاعتناق الحاصل حول المقدّمات إلى النّتائج، إنّه نوع من نقل عدوى القبول الذّي تتمتّع به المقدّمات إلى النّتائج".

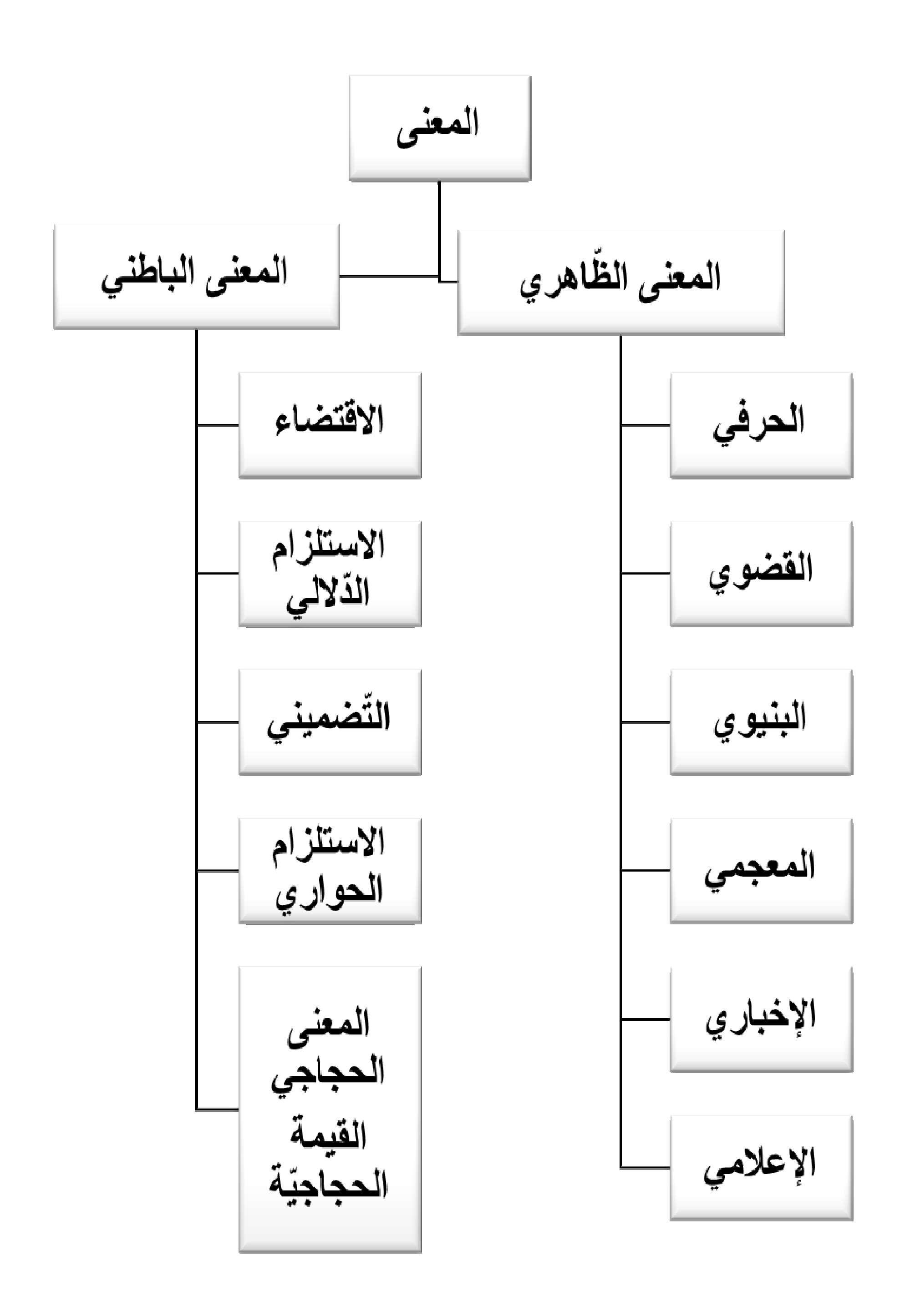
وقد حدّد جميل حمداوي الغرض من الحجاج هو الإقناع والتّأثير والتّداول والتّواصل[33] وفي موضع آخر حدّد حمداوي أهداف نظريّة الحجاج بقوله: "تهدف نظريّة الحجاج اللغوي إلى دراسة الجوانب الحجاجيّة في اللّغة ووصفها انطلاقاً من فرضيّة محوريّة ألا وهي إنّنا نتكلّم عامّة بقصد التّأثير أي تحمل اللّغة في طيّاتها

بصفة ذاتيّة وجوهريّة وظيفة حجاجيّة تستجلي في بنيّة الأقوال ذاتها صوتيّاً وحرفيّاً وتركيباً ودلاليّاً". ويقول حمداوي[34] كذلك: "يهدف الحجاج إلى ثلاثة أهداف رئيسة، هي التّأثير، والإقناع، والحوار، ولا يكن الحديث عن الحجاج إلّا إذا استحضرنا مجموعة من العناصر البارزة، مثل طرفي التّواصل الأساسيّين، المتكلّم والسّامع، والنّوايا والمقاصد، والموضوع والقواسم المشتركة والتّمثلات المتشابهة سواء أكانت تلك التّمثلات ثقافيّة أم لغويّة أم اجتماعيّة، بل عن السّياق التّلفظي بما فيه الزّمان والمكان والثّقافة".

يأتي الإقناع والتّأثير على قائمة أهداف الخطاب الحجاجي، وقد ظهر ذلك في النّصوص المقتبسة أعلاه عن أهداف الحجاج، ويفسّر ذلك الجسر بين المقدّمات والنّتائج التي تؤدّي إلى الإقناع. وجاء في المرتبة التي بعدها التّداول الذّي يظهر من بعض العبارات مثل: (إثارة النّفوس) عدوى القبول ... والتّواصل والحوار التي عدت من التّداوليّة، ومن ثمّ دراسة التّقنيّات الحجاجيّة التي تؤدّي إلى غاية الإقناع والتّأثير أيضاً.

أظهر جميل حمداوي اتّجاهين لنظريّة الحجاج، أحدهما: تنتمي دراسة الحجاج إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللّغة، أي القواعد الدّاخليّة للخطاب والمتحكّمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متكامل وتدريجي، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في انجاز تسلسلات استنتاجيّة داخل الخطاب.[35]

والأخرى: تندرج نظريّة الحجاج اللغوي ضمن النّظريات الدّلاليّة الحديثة التي تقدّم تصوّرات جديدة حول المعنى، وتقترح مقترحات جادّة حول كثير من القضايا والظّواهر اللغويّة، وتتجاوز كثير من المشاكل المنطقيّة الكلاسيكيّة خاصّة المشاكل المرتبطة بالدّور التّفسيري لمفهوم الصّدق، ويضاف إلى ذلك، أنّ وظيفة اللغة الأساسيّة ليست هي الوظيفة التّواصليّة الإخباريّة، بل هي الوظيفة الحجاجيّة ويعني هذا أنّ الوظيفة التّواصليّة وظيفة ثانويّة. [36]


المعنى
المعنى الظّاهري
المعنى الباطني
الحرفي
القضوي
البنيوي
المعجمي
الإخباري
الإعلامي
الاقتضاء
الاستلزام الدّلالي
التّضميني
الاستلزام الحواري
المعنى الحجاجي القيمة الحجاجيّة

تربط النّظريّة الحجاجيّة القول بالوظيفة أو المقصديّة أو المقـام السّـياقي التّـداولي. ومن ثـمّ لا يعتمـد تسلسـل الأقـوال والجمـل مـن الخطـاب المعنـي الإخبـاري أو المحتوى الإعلامي، وإنّما يعتمد بالأساس على المعنى الحجاجي أو القيمة الحجاجيّـة للقول. [37]

وما يهم النّظريّة الحجاجيّة هو دراسة كيفيّة اشتغال الأقوال داخل خطاب مـا أي رصد تسلسـلها وتواليهـا داخـل الخطـاب بصـورة اسـتنتاجيّة. أي تـدرس منطـق الخطاب توالياً وتدرجاً، ويعني هذا ربط القول دائماً بمقصديته التّداوليّـة والسّـياقيّة والمقاميّة، فجملة السّماء صافيّة ليس فيها إخبار تواصلي، بـل هنـاك وظيفـة تداوليّـة تتمثل في لتخرج من نزهة، هناك معنى حجاجي. [38]

أمّا المبادئ الحجاجيّة ضمن مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغويّة وبشريّة معيّنـة، والكـلّ يسـلِّم بصـدقها وصـحّتها، فالكـلّ يعتقد أنّ العمـل يـؤدّي إلى النّجـاح، وأنّ التّعـب يسـتدعي الرّاحـة، وأنّ الصّـدق والكرامة والشّجاعة من القيم النّبيلة والمحبّبة لدى المجتمع التي تجعل المتّصـف بهـا في أعلى المراتب الاجتماعيّة، والكلّ يقبل أيضـاً أن انخفـاض ميـزان الحـرارة يجعـل سقوط المطر محتملاً، وبعض هذه المبادئ يرتبط بمجال القيم والأخـلاق، وبعضـها الآخر يرتبط بالطّبيعة ومعرفة العالم.

وتتمثّل المبادئ الحجاجيّة في:

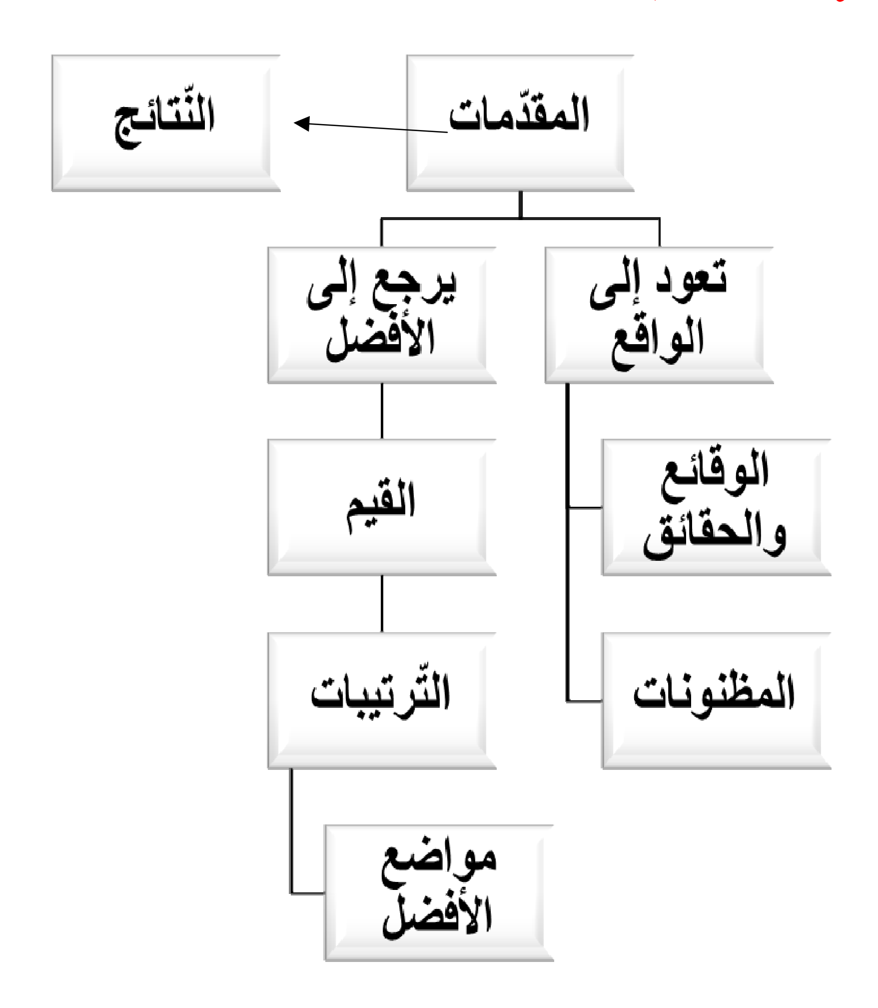
1- مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشريّة معيّنة.

2- تتّصف بالعموميّة، أي تصلح لعدد كبير من السّياقات المختلفة والمتنوّعة.

3- تتميّز بالتّدرج من خلال الانتقال من الحجّة إلى النّتيجة، والعكس صحيح أيضاً.

4- مبدأ النّسبة: أي قابليّة الحجّة المعروضة للتّنفيذ والنّفي والإبطال بحجّة مضادّة قويّة، أو تكون الحجّة الواردة في الملفوظ قابلة لنفيها، كأن تقول: اجتهد إذن تنجح، وربما قد تؤدّي الحجّة إلى نقيضها ألّا وهو الفشل.[39]

مكوّنات العمليّة الحجاجيّة:



يستمدّ الخطيب مقدّماته من موادّ تعود إلى الواقع، هي: الوقائع والحقائق والمظنونات، وممّا يرجع إلي الأفضل، ويتمثّل في القيم والتّرتيبات ومواضع الأفضل،[40] للوصول إلى النّتائج لتكتمل عمليّة الحجاج باستخدام تقنيّات الحجاج والعلاقات الحجاجيّة والسّلم الحجاجي.

وتفصل فيما تعود إلى الواقع، وهي الوقائع والحقائق والمظنونات، ومفهـوم الواقـع في الحجاج يتحدّد فقط بالفكرة التي لدينا حول جنس معـيّن مـن الاتّفاقـات المتعلّقـة بمعطيات معيّنة تلك التي تعود إلى حقيقة موضوعيّة، والتي تشير إلى مـا هـو مشـترك عند عدد كبير من الكائنات المفكّرة ويمكن أن تكون مشتركاً عند الجميع.[41]

والمقصود بالحقائق أتساق أكثر تعقيداً، تتعلّق بصلات بين الوقائع، سـواء تعلـق الأمر بنظريات عمليّة أو بتصوّرات فلسفيّة أو دينيّة تتجـاوز التّجربـة وتعـين مـوادّ اتّفاق دقيقة ومحصورة.[42]

أمّا المظنونات فترتبط بما يحدث عادة وما هو من المعقول والمراهنة عليه، ممّا يعنـي أنّها مرتبطة بالتّجربة المشتركة والحسّ المشترك، وأنّها تساعد على اختيار توجّهاتنـا في الحياة، غير أنّها، وإن كانـت تقـدّم مرتكـزات كافيّـة لكـي تؤسّـس عليهـا قناعـات معقولة، فإنّها ليسـت بـنفس وثـوق الوقـائع والحقـائق، إذ مـن الممكـن أن تكـذّبها الوقائع، لأنّ المفاجئ غير المتوقّع يبقى وارداً على الدّوام ومـن بـين المظنونـات ذات الطّابع العامّ.

- مظنون أنّ نوعيّة الأفعال تكشف عن صفات فاعلها؛
- مظنون المصداقيّة الطّبيعيّة التي تجعل تصديقنا لما يقال لنا هو ردّ فعلها الأوّل؛
- مظنون الاهتمام الذّي يجعلنا نعتبر كلّ ملفوظ يصل إلى أفهامنا مهمّاً؛
- المظنون المتعلّق باعتبار كلّ فعل إنساني ذي معنى.[43]

يتميّز الحجاج عن البرهان أو الاستدلال المنطقي بكوّنه يتأسّس على بنيّة الأقوال اللغويّة وتسلسلها واشتغالها داخل الخطاب[44]، منها العلاقة الحجاجيّة، والسّلم الحجاجي، والرّوابط الحجاجيّة، وتقنيّات الحجاج.

أمّا العلاقة الحجاجيّة فهي التي تجمع الحجّة والنّتيجة، وهي تختلف جذرياً عن الاستلزام والاستنتاج المنطقي[45]، ومن مكوّنات الخطاب الحجاجي أيضا السّلم الحجاجي الذّي يتكوّن من فئة حجاجيّة موجّهة، ويتكوّن من مجموعة من الدّرجات في القوّة والضّعف، وينبني السّلم الحجاجي على قوانين ثلاثة:

- **قانون النّفي**، مثاله: ليس علي مجتهداً، إنّه لم ينجح في الامتحان؛
- **قانون القلب**، مثاله: لم يحصل علي على الدّكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير؛
- **قانون الخفض والدّونيّة**، مثاله: الجوّ ليس بارداً، لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.[46]

أمّا الرّوابط الحجاجيّة فهي التي تربط بين قولين أو بين حجّتين على الأصح أو أكثر، وتستند لكلّ قول دوراً حجاجياً محدّداً حسب السّياق التّداولي[47]، تشتمل اللغة العربيّة على مجموعة من الرّوابط الحجاجيّة، مثل: لكن، وبل، وإذا، وإذن وحتى ، وكي، ولام التّعليل، ولا سيما، وإذ، ولأنّ، وبما أنّ، ومع ذلك، وربما وتقريباً، وإنّما، وما ... إلّا، وإنّما، وبيد أنّ، وتستتبع هذه الرّوابط علاقات حجاجيّة

قائمة على الحجج والنّتائج، وقد تكون هذه الرّوابط صريحة أو مضمرة، حسب السّياق التّداولي[48]، وأنواع الرّوابط الحجاجيّة:

- **الرّوابط المدرجة للحجج**، وهي: حتى، وبل، ولكن، وعلى ذلك، ولأنّ... ؛
- **الرّوابط المدرجة للنّتائج**، مثل: إذن، إذاً، وبالتّالي، ... ؛
- **الرّوابط التي تدرج حججاً قويّة**، مثل: حتى، بل، لكن، لا سيما، ... ؛
- **الرّوابط التي تدرج حججاً ضعيفة، وروابط التّعارض الحجاجي**، مثل: بل ولكن، ومع ذلك، ... ؛
- **روابط التّساوق الحجاجي**، مثل: حتى، ولا سيما، ... [49]

وبعد أن أكّد بيرلمان على وظيفة الحجاج وغايته المتمثّلة في تحقيق اقتناع المتلقّي عقلاً ومعملاً، علّق نجاح العمليّة الحجاجيّة وبراعتها على ما أسماه **بالتّقنيّات الحجاجيّة** وهي أهمّ ركائز الدّرس الحجاجي في البلاغة الجديدة عند بيرلمان[50] وهذه التّقنيّات هي لحمة الدّرس الحجاجي وسداه؛ لأنّ موضوع نظريّة الحجاج هو درس تقنيّات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد من درجة ذلك التّسليم.[51]

حدّدت شاذليّة سيد[52] تقنيّات الحجاج في نوعين، هما: التّقنيّات غير اللسانيّة والتّقنيّات اللسانيّة، أمّا التّقنيّات اللسانيّة فقد حدّدتها في خمسة أقسام، وهي:

1- **حجاجيّة المقام**: إنّ معرفة المقام تعين على فهم ملابسات الخطاب، ومعرفة مقاصد المتكلّم ومراعاته لحال المخاطب في حججه.

2- **القيم**: وتعدّ القيم من المسلّمات التي تجد قبولاً في المجتمع، وقد ذكرها بيرلمان في مقدّمات الحجاج بوصفها منطلقاً لها، ولها قيمة حجاجيّة، لأن المتلقّي يذعن لها، وللمحاجج أن يختار منها حسب معرفته بالمتلقّي، ومدى تسليمه بها.

3- **المواضع**: من المقدّمات العامّة للحجاج، فهي تعبّر عن فكرة أو رأي مشترك لمجموعة متعارف عليها وتجد القبول منها.

4- **المقارنة**: من الحجج المؤسّسة لبنيّة الواقع، ومن الحجج شبه المنطقيّة، وهي نوع من القياس يخضع له شيئان لمعرفة التّشابه والاختلاف بينهما.

5- **الشّخص وأعماله**: من الحجج الاتّصاليّة المؤسّسة على بنيّة الوقع، فأعمال الشّخص واحدة من الحجج التي تساق للإقناع بقضيّة ما، فهي تعين على فهم طبيعة الشّخص وبها تتّضح علاقته بمن حوله.

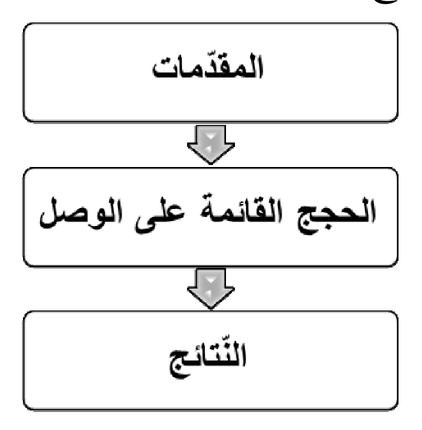
والتّقنيّات اللسانيّة هي النّوع الآخر، وبدورها تنقسم إلى التّقنيات اللغويّة والتّقنيّات البلاغيّة، وتتمثّل التّقنيّات اللغويّة التي أوردتها شاذليّة في خمس تقنيّات هي: الصّفة، واو العطف، النّفي، الشّرح، التّكرار، والأفعال الكلاميّة، أمّا التّقنيات البلاغيّة التي أوردتها شاذليّة، فهي التّشبيه، التّفريع، الطّباق، التّوازي، والازدواج.

وقد اتّفق الحسين بنو هاشم وشعبان أمقران في تحديدهما لتقنيّات الحجاج، وقد قسّماها إلى جنسين كبيرين هما:

1- الحجج القائمة على الوصل؛

2- الحجج القائمة على الفصل.

- **أوّلاً: الحجج القائمة على الوصل**: وهي التي تمكّن من نقل القبول الحاصل حول المقدّمات إلى النّتائج.



وتنقسم إلى ثلاثة أنواع:

1- حجج شبه منطقيّة.

2- حجج مؤسَّسة على بنيّة الواقع.

3- حجج مؤسِّسة لبنيّة الواقع.

1. **الحجج شبه المنطقيّة**: تقترب من الفكر الصّوري ذي الطّبيعة المنطقيّة أو الرّياضيّة، لكن تختلف عنه في كونها تفترض دوماً القبول بدعاوى ذات طبيعة غير صوريّة، وإلّا أصبح الحجاج برهنة، وهذا يتعارض مع مفهومه وطبيعته الاحتماليّة والممكنة، وهذه الحجج تستمد قوّتها الإقناعيّة من خلال استنادها إلى بعض المبادئ المنطقيّة كالتّناقض، والتّماثل التّام أو الجزئي، وقانون التّعديد، وتنقسم الحجج شبه المنطقيّة إلى أنواع:

1/ الحجج شبه المنطقيّة التي تعتمد البنى المنطقيّة وهي أنواع:

i. **التّناقض والتّعارض**: يرتبط التّعارض بالمقام وظروفه التي ترجح قضيّة على حساب أخرى، حيث يمكن تأويل الألفاظ بطرق مختلفة، بينما ارتبط التّناقض بقضايا النّفي والإثبات، والحضور والغياب، وبالتّالي فمجال الحجاج هو التّعارض وليس التّناقض المنطقي الصّارم والملزم الذّي لا يتأثّر بالظّروف ولا المقام.

ii. **التّماثل والحدّ**: يقصد به تعريف شيء أو مفهوم أو واقعة بحدّ أو تعريف مماثل فيكون كل من المعرِّف والمعرَّف متماثلين ومتطابقين لفظاً بشكل يبدو ظاهرياً أنّه منطقي، لكنّهما في الحقيقة مختلفين، لأنّ استخدام التّعريفات يفترض احتماليّة تعدّدها والاختيار من بين هذه التّعدديّة.

iii. **الحجج القائمة على العلاقة التّبادليّة قاعدة العدل والتّبادليّة** : تعتمد هذه الأخرى على البنى المنطقيّة للتّبادل، وذلك حين تبادل بين قضيّتين تبدوان متماثلتين متشابهتين، ومن الصّنف نفسه، ولكنّه تبادل عكسي من مبدأ العدل بينهما، أي باعتبار أنّ الكائنات المنتميّة إلى الفئة نفسها الأساسيّة ينبغي أن تعامل بالطّريقة نفسها، فلا يكال لإحداهما بمكيالين، ولذلك هي حجج عكسيّة ودعوة إلى تطبيق قاعدة العدل على قضيتين متناظرتين، ومن أمثلة ذلك قول أحد المتسولين: " **لا أفهم كيف يمكن أن التّسوّل جريرة في مجتمع يرى الصّدقة فضيلة**".

iv. **حجج التّعديّة**: نعني بالتّعديّة الخاصيّة الصّوريّة التي تمكن من المرور من إثبات وجود علاقة بين طرف أوّل أ وطرف ثاني ب ، وبين هذا الثّاني وطرف ثالث ج

إلى استنتاج وجود العلاقة نفسها بين أ وج وهذه الخاصيّة التي تميّز علاقة التّساوي والتّضمُّن والكبر، إنّ علاقة أ – ب تكون صادقة دائماً حين تصدق المقدّمات أ – ب وب – ج . إنّ استعمال علاقات التّعديّة مهمّ في الحالات التي يتعلّق فيها الأمر بتنظيم أحداث أو كائنات لا تتوافر إمكانيّة مواجهتها مباشرة فيما بينها، أو بتصنيفها، لتوضيح ذلك، يقدّم بيرلمان المثال التّالي: إذا تفوّق اللّاعب أ على اللّاعب ب ، وتفوق اللّاعب ب على اللّاعب ج ، سيعتبر اللّاعب أ متفوقاً على اللّاعب ج ، إذ اللّاعب ج قد يتغلّب على اللّاعب أ في مواجهة فعليّة، لكنها لا تحدث في الغالب، إذا إنّ نظام المباريات الاقصائيّة يمنع هذه المواجهة ففرضيّة التّعديّة تصبح ضروريّة إذا أريد الاستغناء عن المواجهة المباشرة بين كلّ اللّاعبين.

v. **حجّة التّضمين**: إنّ حجّة تضمين الجزء في الكلّ تسمح بالقول إنّ الكلّ أكبر من كلّ جزء من أجزائه، هذه الحقيقة قابلة للبرهنة في الرّياضيات والهندسة تصبح حجّة شبه منطقيّة إذا استنتجنا منها أن الكل أفضل من الجزء، أو ما يمنع على الكلّ لا يسمح به الجزء، أو من يستطيع الكثير يقدر على القليل.

vi. **حجّة التّقسيم**: هي التي نستخلص فيها نتيجة متعلقة بالكلّ بعد أن نستدل على الجزء من أجزائه، فبالاعتماد على هذه الحجّة، يسعى المحامي إلى بيان أنّ لا سبب يدفع المتهم إلى القتل، بما أنّه لم يتصرف بدافع الغيرة، ولا بدافع الحقد، ولا بدافع الطّمع، هذا الاستدلال يشبه تقسيم مساحة إلى أجزائها، فما ليس موجوداً في أي جزء من الأجزاء، لا يوجد كذلك في المساحة المقسمة، وإلّا تحطم كلّ ما بناه

الخطيب وأثار ضحك الآخرين، وحجّة التّقسيم لا تصلح حجّة فحسب، بل تكون كذلك وسيلة لخلق الحضور بواسطة تعداد الأجزاء.

vii. **حجّة المقارنة**: تستهدف المقارنة الإثارة أكثر مما تسعى إلى الإخبار، فإنّ اختيار طرق المقارنة يجب أن يحظى بعنايّة كبرى، لأنّه يلعب دوراً أساسياً في فعاليّة هذه الحجّة مثاله: ففي باريس، ولتأكيد شساعة بلدها، سيكون من الأفضل القول إنّه أكبر تسع مرّات من فرنسا، بدل من الإشارة إلى أنّه يغطي نصف مساحة البرازيل.

2/ **الحجج المؤسَّسة على بنيّة الواقع**: تقوم الحجج على العلاقات الموجودة بين عناصر الواقع، والتي تكون محلّ قبول واتّفاق من قبل المستمع، فيتّخذها الخطيب منطلقاً لبلورة حجاجه في اتّجاه ما يريد أن يقنع به مستمعه.

وهناك طريقان للرّبط بين عناصر الواقع:

الأولى: علاقات التّعاقب: تربط بين مظاهر من مستوى واحد.

الثّانيّة: علاقات التّعايش تربط بين أطراف متفاوتة المستوى من قبيل الجوهر وتجليّاته.

أ- **علاقات التّعاقب**: هي التي تربط ظاهرة ما إمّا بأسبابها أو بنتائجها، فتكون أمام ثلاثة أحزب من الحجاج:

- حجاج يسير في اتّجاه البحث عن أسباب ظاهرة ما، فإذا تعلّق الأمر بأفعال عمديّة، يكون البحث عن الأسباب مصحوباً بالبحث عن دوافعه؛
- حجاج يرمي إلى تحديد آثار ظاهرة ما؛

- حجاج يرمي إلى تقييم حدث ما بواسطة نتائجه.

ومن حجج التّعاقب:

I. الحجّة النّفعيّة: هذه الحجّة تربط قيمة السّبب أو الفعل أو الحدث بقيمة ما ينتج عنه من نتائج إيجاباً أو سلباً، ولذلك تعدّ هذه الحجّة من أهمّ الحجج التي يحفل بها المحاجج، فالحكم على قيمة السّبب تابع للحكم على نتائجه، مثل قولنا: (هذه السّياسة جيّدة لأنّ نتائجها جيّدة) فتقويمنا وتوجيهنا للأسباب والأحداث بأن ينظر إليها باعتبار ما سيسفر عنها من نتائج.

II. حجّة التّبذير أو التّبديد: ترتكز على القول، بما أنّنا سبق أن بدأنا عملاً تجشمنا لأجل إنجازه، تضحيات ستذهب هباء إن استسلمنا وتقاعسنا عن مواصلة الجهد لإتمامه، فينبغي، إذن، أن نواظب على العمل في الاتّجاه نفسه. هذه الحجج تلعب دوراً مهماً في جعل المتلقّي يذعن ويقتنع بمواصلة ما بدأ فيه، وإكماله ما دام أنّه قطع شوطاً في ذلك، وبذلك إمكانات وتضحيات من أجل ذلك.

III. حجّة الاتّجاه: هي تقنيّة يلجأ إليها المحاجج ويعتمد فيها أسلوب التّحذير والتّخويف من سلسلة التّنازلات التي تؤدّي بالمتلقّي في النّهاية إلى نتيجة تؤول به إلى الاستسلام، كما أنّها تعتمد التّحذير من انتشار ظاهرة ما بحجّة أنّها قد تصيب المجاور لها بالعدوى.

ب- علاقات التّعايش: تجمع علاقات التّعايش بين واقعتين متفاوتتي المستوى حيث تطرح إحداهما بوصفها تعبيراً أو تجليّاً للأخرى، والنّموذج الأصلي لهذه

العلاقة هو الصّلة الموجودة بين الشّخص وتجليّاته، أي ما يصدر عنه من أعمال أو أحكام أو يخلقه من آثار. ومن حجج التّعايش:

I. **الشّخص وأعماله**: ثنائيّة الشّخص وأعماله لا تكاد تنفصل، ولذلك فأعمال الشّخص أو فعاله المتجليّة والمتجسدة تساعدنا في الكشف عن جوهره ونيّته وأفكاره تجلينا وتنبئنا بما يصدر عنها من أعمال ومواقف قبل وقوعها، وتفسيرها لنا بعد وقوعها، وهذا في الغالب يصدق حينما، تكون أمام شخصيّة متغيرة متناقضة وفي هذه الحالة بإمكان المتلقّي ردّ حجّتنا في الشّخص وأفعاله بحجّة معتادة تقوم على مبدأ التّناقض والتّغير المرصود بين الشّخصيّة وأعمالها، فمن علاقة متبادلة تسير في اتّجاهين، فما ندّعيه ونحتجّ به من صفات خُلقيّة ونوايا ومقاصد في شخصيّة ما يصدّقها ما يتجلّى عنها من أفعال، والعكس صحيح.

II. **حجّة السّلطة**: هناك حجج متنوّعة في خطابات النّاس تستمدّ قوّتها من هيبة الشّخص ومكانته، ومن بين حجّة السّلطة التي يستخدم فيها المحاجج هيبة شخص أو مجموعة أشخاص لدفع المخاطب إلى تبنى دعوة ما، والسّلطات التي يتم الاعتماد عليها في الحجج متنوّعة. فالحاجج المتكلّم أو الكاتب يدعم أقواله وطروحاته موظّفاً لهذه السّلطات.

III. **الاتّصال الرّمزي**: الرّمز له قوّة تأثيريّة في الذّين يقرّون بوجود علاقة بين الرّامز والمرموز إليه كدلالة العلم في نسبته إلى وطن معيّن، والهلال بالنّسبة للحضارة الإسلاميّة، والصّليب بالنّسبة إلى المسيحيّة، والميزان إلى العدالة، إذن فالقيمة

الحجاجيّة للرّمز في علاقته بما يرمز إليه مرهونة بمقام استخدامه، أي بالفئة والبيئة الاجتماعيّة والثّقافيّة والدّينيّة التي أنشأته أي أنّ تأثّره العاطفي والذّهني مقتصر على الجماعة التي أتفقت على دلالتّه دون غيرها ، فلا يكون له دور وفعاليّة خارجها، لأنّ الرّموز تتغير بتغير الأوساط الاجتماعيّة والبنيات الثّقافيّة، وتنتهي دلالة الرّمز وإيحائه بانفصال علاقة التّرابط والاتّصال التي تجمع بينه وبين ما يرمز إليه.

3/ الحجج المؤسّسة لبنيّة الواقع:

أ. **الشّاهد**: يؤتى بالشّاهد من أجل توضيح القاعدة وتكثيف حصر الأفكار في الذّهن وبالتّالي يقوى درجة تصديقها لدى المتلقّي، وتوضيحها بشكل يجعلها كأنّها ماثلة بين يديه.

ب. **المثال**: إذا كان الشّاهد يستخدم لتأسيس قاعدة ما، فإنّ المثال يستخدم لتوضيح قاعدة معروفة ومسلَّم بها، أي ليعطيها نوعاً من الحضور في وعي المستمع لهذا السّبب، ينبغي للمثال أن يستهدف المخيلة، في حين أن تكون حقيقة الشّاهد أكيدة وغير مجادل فيها.

ويؤتى بالمثل لدعم وتقويّة أطروحة ما في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقوّمات الحجاج المعروفة، بحيث تكون هذه الأطروحة محلّ خلاف بين المحاجج والمتلقّي، فيستخدم المثل لترسيخ، وتثبيت قاعدة خاصّة في ذهن المتلقّي، الذي تكون له خلفيّة مسبقة حول هذا المثل.

ج. القدوة والقدوة المضادّة: الحجاج بالقدوة، مثله مثل حجّة السّلطة، يفترض وجود سلطة تكون ضامنة للفعل المزمع القيام به، يستخدم المحتج حجّة القدوة ذات قيمة اجتماعيّة معترف بها ومسلم بها، للحض على عمل ما اقتداءً به ومحاكاة له ونسجاً على منواله، أي أنّه يقدّمها للمتلقّي كقدوة يُحتذى بها، ويسلم بها، لحثه على فعل أو سلوك أو موقف معين، وكذا لدعم وترسيخ قضيّة أو دعوى معيّنة فتوظيف القدوة إذن يساهم كثيراً في حجاجيّة الخطاب، وجعله يحظى بقبول واسع. وأنسب المجالات لتوظيف مجال التّوجيه والقيادة، توجيه المتلقّي إلى سلوك معيّن وقيادته نحو موقف محدّد. وبالمقابل يمكن استخدام القدوة المعتادة حجّة، ومن هذه يكون الحض لا على الاقتداء، وإنّما على الانفصال عن الشّخص الذي يمثل عكس القدوة، مثل قولنا: "عليك بالتّفوّق في الدّراسة وإلاّ ستفشل في حياتك مثل فشل زيد" فزيد يمثل قدوة مضادّة هي دعوة للانفصال عن شخصه.

د.التّناسب التّمثيل : فهو طريقة حجاجيّة تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط بعلاقة المشابهة وإنها يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مرتبطة، والتّناسي أو التّمثيل يهتم بتشابه العلاقات بين الأطراف المتباعدة، وليس علاقة مشابهة بينهما، مثال قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾العنكبوت: ٤١

وكأن تقول: إن العلاقة بـين أ وب تشـبه العلاقـة بـين ج و د فالعلاقـة بـين الثّنائي أ–ب تسمى الثّيمة Theme والثّنائي ج–د تسمى الحامـل، تثبـت مشـابهة تهدف إلى إيضاح الثّيمة وتقويمها وبنيّتها بفصل ما تعرفه عن الحامل –أي الثّيمـة أو الموضوع الذّي تريد الدّفاع عنه وإبرازه وتوضيحه من خـلال حامـل phore يكـون منتمياً إلى مجال بعيد ومختلف عن مجال الموضوع المحمول، وبالتّـالي لا بـدّ أن يكـون هذا الحامل حاظياً بقبول مسبق لدى المتلقّي، ومألوفاً عنـده حتـى يعطـي الموضـوع دلالة إقناعيّة.

هــ – الاسـتعارة: الاسـتعارة ليسـت مجـرّد صـورة أسـلوبيّة لتجميـل الكـلام فحسب، وإن كان ذلك من وظائفها –وإنّما تجاوز ذلـك إلى اعتبارهـا حجّـة تـؤدي وظيفة إقناعيّة، وهذه الاسـتعارة مشـتقّة مـن مفهـوم التّناسـب التّمثيـل، وإن كـان التّمثيل التّناسب يعني تشابه علاقة بين الموضوع والحامل، فإنّ الاستعارة هي تمثيـل تكثف فهو موجز، ووجه الكثافة فيه والإيجاز، الاندماج الحاصل بين أحـد عنـاصر الموضوع والثّيمة، وأحد عناصر الحامل، اندماجاً لا يمكن معرفة أيّ العنصرين هـو الموضوع، وأيهما هو الحامل، ومثال ذلك:

أ ⟵ بالنّسبة إلى ب وهي علاقة الموضوع الثّيمة.

مثل ⟵ ج بالنّسبة إلى د وهي علاقة الحامل

الشّيخوخة للحياة هي ما يشكّله المساء بالنّسبة للنّهار.

والشّـــــيخوخة ⟵ بالنّسبة إلى الحياة الموضوع الثّيمة.

مثـــل المســـاء ⟵ بالنّسبة للنّهار الحامل.

انطلاقاً من هذا التّمثيل يمكن علاقة جديدة ومكثّفة تمثّل استعارات كالآتي:

⟵ أ منسوب إلى د شيخوخة النّهار.

ج ⟵ منسوب إلى د مساء الحياة.

⟵ أ هي ج الشّيخوخة مساء.

ثانياً: الحجج القائمة على الفصل: يعمد فيها إلى الكلّ فيحدث فيها فصـلاً بـين حقيقته وظاهره أي بين عنـاصر الموضـوع الواحـد، وتجزئتهـا لأهـداف حجاجيّـة فالأشياء والمفاهيم والذّوات التي تبدو أنها تشكّل كلاًّ واحداً لا يتجزأ، وأنّها تؤلّـف وحدة لا تنقسم، هـي في الحقيقـة قابلـة لأن تكســر وحـدتها وترابطهـا إلى حـدين وعنصـرين أساسيين يمثّلان ثنائيّة الظّاهر/ الحقيقـي أو الواقـع فبالنّظريّـة الأولى لا يكون الظّاهر سوى تجل للواقع ولكن حين تكون الظّواهر متعارضة، فإنّها لا يمكن أن تمثل الواقع كما هو، لأنّه محكوم بمبدأ عدم التّناقض، يصبح من الضّـــروري إذن تمييز الظّواهر التي تطابق الواقع من تلك التي تكون خادعة.

ولغايات حجاجيّة أن تكسر وحدة هذه الثّنائيّة الظّاهر/ الحقيقي أو ما عبر عنهـا بثنائيّة الحدّ 1 / الحدّ 2 فالحدّ 2 لمـا كـان تمييـزه، لا يكـون إلاّ في علاقتـه بالحـدّ 1 ومقارنته به، فإنّه لا يمكن أن يكون إلاّ نتيجة تحدثه داخل الحدّ 1 نفسه، سعياً منا إلى القضاء على ما يمكن أن تلمحه من مظاهر الحدّ 1 من تناقضات، ويزودنا الحـدّ 2 في هذه العمليّة بالمقياس أو القاعدة التي تتيح لنا أن نميز داخل مظاهر الحدّ 1 بين ما لـه

قيمة، وما ليس له قيمة فنقول عن المظاهر غير المطابقة للحدّ 2 الذي يزودنا به الواقع أنّها زائفة وخاطئة ظاهرياً.

وبالتّالي بالفصل بين حدي الثّنائيّة نستطيع أن نميز أحدهما عن الآخر، وأن نقصي ونبعد كلّ ما يجله الحدّ 1 الظّاهر من تضليل وتزييف ومظاهر خادعة بعيدة عن واقع الحدّ 2 الحقيقة ، أي اسقاط أحد الحدين وإبقاء الآخر، أي أنّنا نطلق من الحدّ 2 الذّي يمثل القاعدة والأساس، والجوهر الذي تحكم من خلاله على صحة الحدّ 1 ، فترتفع قيمة الحدّ 2 وتحط من قيمة الحدّ الآخر، ومن بين الثّنائيات على سبيل المثال عالم المادّة/ عالم المثل[53].

إجراءات البحث:

أولًا: مجتمع البحث وعيّنته: مجتمع هذا البحث هو خطاب الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي الشّفوي والمكتوب في مشروع المعجم التّاريخيّ، ونسبة لحجم البحث فقد اخترت خطابه المكتوب في الجزء الأوّل من المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة من صفحة 31 إلى صفحة 36 عيّنة للدّراسة.

ثانياً: منهج البحث: استخدمنا في هذا البحث منهج تحليل الخطاب، وقد قمنا بتحليل الخطاب عيّنة الدّراسة تحليلاً حجاجياً، وذلك للوقوف على التّقنيات الحجاجيّة التي يتصف بها الخطاب عيّنة الدّراسة، والكشف أيضاً عن الرّوابط الحجاجيّة في هذا الخطاب.

ثالثاً: أدوات البحث: لتحقيق أهداف البحث وأسئلته أستخدمنا أداة تحليل الخطاب الحجاجي، وتتمثّل أداة البحث في بطاقة تحليل الخطاب الحجاجي التي تتكون من شقّين، هما التّقنيات الحجاجيّة، والرّوابط الحجاجيّة، حيث تمّ تحديد تقنيّات الحجاج من هذه الدّراسة بناء على دراستها في أدبيات هذا البحث.

وقد استندنا في التّطبيق إلى التّقنيات الحجاجيّة التي ذكرها الحسين بنو هاشم وأمقران، لشمولها على التّقنيات الحجاجيّة التي ذكرتها شاذليّة، وقد ركزت شاذليّة على التّقنيات التي وردت في المدوّنة موضوع بحثها فقط، بينما ركز الحسين بنو هاشم وأمقران على التّقنيات الحجاجيّة التي جاء بها بيرلمان بأقسامها المختلفة فكانت شاملة، لذلك تمّ بناء أداة تحليل الخطاب الحجاجي منها.

التّحليل:

نركّز في تحليلنا للمدوّنة موضوع الدّراسة **خطاب الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي** مقدّمة المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة الجزء الأول الّذي يقع بين صفحتي 31 – 36 على:

- المقدّمات الحجاجيّة؛
- النّتائج؛
- الرّوابط الحجاجيّة؛
- التّقنيّات الحجاجيّة.

وقد اشتمل الخطاب على مقدّمات حجاجيّة مهمّـة، ففـي الفقـرة الثّانيّـة وردت مقدّمة حجاجيّة تعود إلى الأفضل فإنّ أصـعب الكـلام ديباجيّـة ... والفقـرة التـي تلتها شملت مقدّمة حجاجيّـة أيضـاً تعـود إلى الواقـع مـن خـلال حقيقـة سـاقاها الخطاب المعجم، كما لا يخفى على، ديوان ألفاظ الأمّة ... وتلتهـا مقدّمـة حجاجيّـة تعود إلى الواقع، كذلك من المظنونات والتّأليف المعجمي المتجدد دليـل عـلى حيـاة اللّغة وتفاعلها مع مستجدات العصر ومتطلباته ... ومن المقدّمات الحجاجيّة الفقرة التي تبدأ بـ ولا يخفى على كلّ ثقف أنّ اللغويين العرب قد قطعوا أشواطاً ... تعـود إلى الواقع وهي من الحقائق.

ومقدّمة حجاجيّة في الفقرة والمعاجم العربيّة القديمة يجمعها ... تعود إلى الواقـع أيضاً من المظنونات باعتبارها فعل إنساني ذي معنى. والفقرة وحـين أطـل العصـر الحديث، لاح نجم مشروع المعجم التّاريخيّ تمثّل مقدّمة حجاجيّـة سـاقها الخطـاب من الواقع ترجع إلى الأفضل من التّرتيبات التـي تمـت ابتـداء بظهـور مجمـع اللغـة العربيّة في القاهرة عامّ 1932م، وظهور المجامع اللغويّة التي تلته مروراً بقيـام اتّحـاد المجامع العربيّة، وظهور مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة في هذا الزّمان.

وقد اشتملت الفقرة لقد تأخّر العرب في مسيرة إنجاز ... على مقدّمة حجاجيّـة أيضاً تعود إلى الواقع من المظنونات التي تعبّر عن فعل متأخر كـان ينبغـي أن يظهـر منذ أمد، وفي مقدّمة حجاجيّة أخرى جاء تعليل التّأخير ويمكن تلخـيص معوقـات الإنجاز ... والتي تمثّل الواقع أيضاً من باب التّرتيبـات التـي أدت إلى تـأخر ظهـور

هذا المشروع الكبير، وقد شمل الخطاب أيضاً على مقدّمة حجاجيّة أقول: إنّ كلّ باحث ... تعود إلى الجمع بين خصائص الواقع وقيمته التي ترجع إلى الأفضل وتلتها مقدّمة حجاجيّة أخرى تصف اللغة العربيّة هي من أطول اللغات عمراً ... وقد قادت هذه المقدّمات الحجاجيّة في هذا الخطاب إلى نتائج عدّة يظهر فيها إقناع الخطاب الحجاجي، منها ولا يزال مشروع المعجم التّاريخيّ حلم الأمّة العربيّة الأكبر ... ، والنّتيجة الأخرى فالمعجم التّاريخيّ بهذا الاعتبار هو الوثيقة الكبرى لاستكمال الألفاظ العربيّة ... ونتيجة إقناعيّة ثالثة هو ضرورة تاريخيّة، لأنّه يؤرّخ لأحداث الأمّة العربيّة ... ومن النّتائج أيضاً وإنجازه ضرورة حضاريّة أيضاً ...

وقد استخدمت روابط حجاجيّة عدّة ربطت بين المقدّمات الحجاجيّة ونتائجها في هذا الخطاب الحجاجي نلخصها فيما يلي:

1- استخدم اسم الإشارة هذا في عدّة مواقع، مثل هذا، ولا يزال مشروع المعجم التّاريخيّ ... ، هذا، وتجدر الإشارة إلى أنّ مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة تحت مظلة ... ، و هذا، وإنّ المعجم التّاريخيّ العظيم، .... .

2- من ناحيّة أخرى من ناحيّة أخرى هو ضرورة تاريخيّة ...

3- تجدر الإشارة هذا، وتجدر الإشارة إلى أن مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة... .

4- وعلى الرّغم، وعلى الرّغم من انشغالاته الكثيرة والمتنوّعة ...

5- وفي هذا الشّأن، وفي هذا الشّأن تقوم اللجنة التّنفيذيّة ...

6- وأيضاً، وأيضاً من النّاحيّة التّاريخيّة ...

7- ولا يفوتني، ولا يفوتني أن أشير في هذه المقدّمة ...

8- وأخيراً وليس آخراً، وأخيراً وليس آخراً، أغتنم هذه المناسبة ...

9- لا يفوتني، ولا يفوتني أن أرفع شكراً خاصّا ...

يلاحظ أن هذه الرّوابط الحجاجيّة تسهم في وصول المقدّمات الحجاجيّة إلى نتائج إقناعيّة في الجانب التّداولي والدّلالة الحجاجيّة، ومن ناحيّة صوريّة ربطت بين أجزاء الخطاب ففي فقراته، وجعلته يتسم بالتّتابع والتّدرج للوصول إلى غايته وهي الإقناع.

أمّا التّقنيات الحجاجيّة التي استخدمت في هذا الخطاب للتّأثير في المتلقّي ووصولها إلى نتائج إقناعيّة، فتتمثّل في:

1. من التّقنيات شبه المنطقيّة التي تعتمد البنى المنطقيّة التي وردت في الخطاب الحجاجي الذّي نحن بصدد دراسته:

أ) حجّة المقارنة التي تلحظ في هي أطول اللغات عمراً ... التي استهدفت الإثارة، أكثر من سعيها إلى الإخبار.

ب) حجّة التّقسيم في الفقرة ولا يزال مشروع المعجم التّاريخيّ حلم الأمّة العربيّة الأكبر ... التي يسعى من خلالها إلى الاستدلال على الحلم الكبير للأمّة العربيّة، الذّي هو دافع قيام هذا المشروع.

ج) التّماثل والحدّ في الفقرة فالمعجم التّاريخيّ بهذا الاعتبار هو الوثيقة الكبرى لاستعمال الألفاظ العربيّة ... تمّ تعريف المعجم التّاريخيّ بالوثيقة الكبرى، فكلّ من المعرِّف والمعرَّف متماثلين من جانب دلالي منطقي، ولكن المعرَّف الوثيقة الكبرى يحتمل تعدّد الدّلالات التي يحملها.

د) حجّة التّعديّة التي تلمح في الفقرة أن أشير في هذه المقدّمة إلى النّسخة الأولى من المعجم الذّي نحن بصدده، لا تكون ولن تكون مبرأة من عيوب أو خاليّة من هنات، فالعمل البشري مهما كان القائمون عليه، يعتريه دوماً النّقص ... والتي نصت على تنظيم أحداث، وهي، إنتاج النّسخة الأولى من المعجم التّاريخيّ، وقد توجد بها الهنات وغيرها، ويمثّل في النّهايّة إنجازاً يحسب للأمة العربيّة، فالعلاقة بين صدور النّسخة الأولى للمعجم التّاريخيّ أ واحتماليّة وجود عيوب بها ب علاقة بين أ وب والتي تعد إنجازاً ج ، ولذلك تكون هناك علاقة بين أ وج .

2. الحجج المؤسّسة على بنية الواقع:

أ) الحجّة النّفعيّة التي تتمثّل في الفقرة فالمعجم التّاريخيّ بهذا الاعتبار هو الوثيقة الكبرى ... سيوفر للقراء نماذج عظيمة للاستعمال اللغوي، وبالاستعمال يتعلّم المتعلّمون ، فقد تمّ الرّبط بين الحدث المعجم التّاريخيّ وما ينتج عنه، وهو توفير نماذج الاستعمال اللغوي للقراء، وفي الفقرة التّاليّة لها، ألحق بنتيجة أخرى وهي يؤرّخ لأحداث الأمّة العربيّة في عصورها الخالية ، للحدث نفسه ألاّ وهو المعجم التّاريخيّ.

ب) الشّخص وأعماله تلمح في العبارة ... لولا أنّ فيض الله الوهّاب المنّان رجلاً عربيّاً شريفاً شهماً هماماً ثقفاً محباً للعربيّة ... وهي تقنيّة من علاقات التّعايش التي تعبّر عن ثنائيّة الشّخص وأعماله صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي التي تساعد في الكشف عن جوهره ونيّته وأفكاره التي تنبئ عما يصدر عنه من أعمال ومواقف تتمثّل في تبنّيه مشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة وتلمح كذلك في العبارة التي أثنى فيها على رئيس اتّحاد المجامع العربيّة والأمين العامّ للاتّحاد والمدير العلميّ للمشروع الذّي عبّر فيها عن أشخاصهم متّبعة بالأعمال الكبيرة التي قاموا بها في مشروع المعجم التّاريخيّ .

ج) الاتّصال الرّمزي في العبارة ولغة بهذا الشّأن الباذخ، والعلو الشّامخ والمجد المؤثل ... من تقنيّات الحجج المؤسّسة على بنيّة الواقع التي سلكت علاقة التّعايش في ربطها بين عناصر الواقع، وهذه التّقنيّة لها قوّة تأثيريّة في الذين يقرّون بوجود علاقة بين اللّغة العربيّة التي تمثّل الرّامز والوصف الذّي يشكّل المرموز لتقود إلى الإقناع بضرورة إنجاز هذا المشروع.

الخاتمة:

بدأ البحث بالحديث عن نظريّة الحجاج بشيء من الشّمول؛ ليتسنّى لنا تطبيق ما عرضناه في الإطار النّظري في الجانب التّطبيقي من هذا البحث التّحليل فقد تمّ تحديد مفهوم الحجاج ومبادئه، ومكوّناته وتقنيّاته.

تمّ اختيار الخطاب عيّنة الدّراسة، كما أشرنا من الجزء الأوّل المعجم التّاريخيّ كلمة الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي التي تقع بين صفحتي 31 - 36، وقد اشتمل التّحليل على النّظر في المدوّنة، والتّعرف على المقدّمات الحجاجيّة التي اشتملت عليها، والرّوابط الحجاجيّة الكامنة فيها، والتّقنيات الحجاجيّة التي قادت إلى الإقناع في هذا الخطاب، وصولاً إلى النّتائج الحجاجيّة التي تمثّل هدف الخطاب الحجاجي. وتوصل البحث إلى نتائج من أهمّها:

1- اتّسم الخطاب بلغة رصينة وعالية تجلت في المعاني التّواصليّة والحجاجيّة.

2- وظف الخطاب مقدّمات حجاجيّة عديدة بعضها يعود إلى الواقع منها حقائق ووقائع ومظنونات، وبعضها يرجع إلى الأفضل من مواقع الأفضل وغيرها وقد أسهمت بصورة واضحة في الوصول إلى نتائج حجاجيّة بينّاها في ثنايا التّحليل.

3- وظف الخطاب روابط حجاجيّة أدت إلى الرّبط بين أجزائه وأسهمت بدورها في النّتائج.

4- استخدم الكاتب تقنيات حجاجيّة عدة بعضها تقنيات شبه منطقيّة وحجج مؤسسة على بنيّة الواقع أسهمت في إيصال المقدّمات إلى نتائج وصولاً إلى الإقناع.

وفي ضوء هذه النّتائج يوصي البحث بما يلي:

- ضرورة دراسة خطاب الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في ضوء النّظريات اللسانيّة الأخرى ومناهجها المختلفة، مثل التّداوليّة وتحليل الخطاب بمذاهبه المختلفة؛

- دراسة دروس ومحاضرات الدّكتور المستغانمي عبر شبكة الإنترنت في ضوء اللسانيات.

• المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- بو سلاح فايزة 2015م، السّلالم الحجاجيّة في القصص القرآني – مقارنة تداوليّة جامعة وهران – الجزائر.

3- جميل حمداويي، د.ت نظريات الحجاج، شبكة الألوكة.

4- الحسين بنو هاشم 2014م، نظريّة الحجاج عند شاييمبيرلمان، ط1، دار الكتاب الجديد المتّحدة.

5- رضوان الرّقبي 2011م.

6- شاذليّة سيد محمّد السّيد 2020م، التّقنيات الحجاجيّة في وصف أم معبد الخزاعيّة العدد 47 المجلة العربيّة للدّراسات اللغويّة معهد الخرطوم الدّولي للّغة العربيّة.

7- شعبان أمقران 2018م، تقنيّات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييمبيرلمان مجلة تعليميّة، المجلّد 5، العدد 15، مخبر تجديد البحث في تعليميّة اللغة العربيّة في المنظومة التّربويّة الجزائريّة، كليّة الآداب واللغات والفنّون، جامعة جيلاني ليابس، الجزائر.

8- صابر حباشة 2008م، التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص، ط1، صفحات للدّراسات والنّشر.

9- عبد النّبي ذاكر 2011م، الحجاج مفهومه ومجالاته، مويّة عالم الفكر، عدد خاصّ العدد2، المجلّد 40.

10 -مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة 2020م، المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، الجزء الأوّل نسخة تجريبيّة، منشورات القاسمي، الشّارقة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.

11 -محمّد الولي 2011م، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاييمبيرلمانس.

الحواشي:

---

[1] – صابر حباشة 2008م، التّداوليّة والحجاج، ص96، ورضوان الرّقي، 2011م، ص69.

[2] – شعبان أ مقران 2018م، ص 223.

[3] – صابر حباشة 2008م، ص 16.

[4] – صابر حباشة 2008م، ص 21.

[5] – صابر حباشة 2008م، ص 21.

[6] – محمّد الولي2011م، ص 11.

[7] – محمّد الولي 2011م، ص 12.

[8] – جميل حمداوي، نظريات الحجاج، ص 26.

[9] – شعبان أمقران 2018م، ص 223.

[10] – أبو سلاح فايزة 2015م، ص 45.

[11] – الولي 2011م، ص 12.

[12] – محمّد الولي 2011م، ص 12.

[13] – الولي 2011م، ص 20.

[14] – الولي 2011م، ص 18.

[15] – شعبان أمقران 2018م، ص 223.

[16] – الولي 2011م، ص 33.

[17] – رضوان الرّقيبي 2011م، ص 67.

[18] – رضوان الرّقي 2011م، ص 70.

[19] – الولي 2011م، ص 14-15.

[20] – الولي 2011م، ص 15.

[21] – الولي 2011م، ص 16.

[22]- رضوان الرّقي 2011م، ص 69.

[23]- جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج، ص 48.

[24]- محمّد الولي 2011م، ص 12.

[25]- محمّد الولي 2011م، ص 14.

[26]- محمّد الولي 2011م، ص 13.

[27]- جميل حمداوي د.ت نظريات الحجاج ص 35.

[28]- الولي 2011م، ص 14.

[29]- عبد النّبي ذاكر 2011م، ص 7.

[30]- رضوان الرّقي 2011م، ص 69.

[31]- 2008م، ص 15.

[32]- الحسين بنو هاشم 2014م، ص 41.

[33]- جميل حمداوي د.ت نظريات الحجاج ص 26.

[34]- حمداوي د.ت ص 62.

[35]- جميل حمداوي د.ت ص 33.

[36]- جميل حمداوي د.ت ص 33.

[37]- جميل حمداوي د.ت ص 39.

[38]- جميل حمداوي د.ت ص 39.

[39]- جميل حمداوي د.ت ص 37 – 38.

[40]- الحسين بنو هاشم 2014م، ص 42.

[41]- الحسين بنو هاشم، 2014م، ص 43.

[42]- الحسين بنو هاشم، 2014م، ص 43.

[43]- الحسين بنو هاشم 2014م، ص 44.

[44] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 34.

[45] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 35.

[46] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 35.

[47] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 37.

[48] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 36.

[49] جميل حمداوي د.ت نظريّة الحجاج ص 37.

[50] شعبان أمقران 2018 ص 224.

[51] شاذليّة سيد محمّد السّيد 2020 ص 112.

[52] شاذليّة سيد محمّد السّيد 2020 ص 113 – ص 133.

[53] انظر: الحين بنوهاشم 2014 ص 57-99، وقارن: شعبان أمقران 2018 ص 255-233.

إطلَالةٌ على مفاتيح النّجاح عند المُستغانمي

(قراءة نقديّة تحليليّة)

أ. وئام مسالمة
الجامعة الأمريكيّة بولايّة إنديانا

يُعَدُّ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي مؤلّفا متعدّد المشارب والمناهل والإنتاج. كتب في التّفسير والبلاغة والخطابة، وله مشاركة طيّبة في مجال التّنميّة البشريّة وتطوير الذّات، وفي الأسطر الآتيّة آثرت الوقوف عند جملة من مفاتيح النّجاح من كتابه الموسوم: مفاتيح النّجاح وسُنن السّعادة.

وضع المؤلّف الدّكتور أمحمّد المستغانمي بين يدي القارئ مفاتيح السّعادة بمهارةٍ فائقةٍ في التّرتيب والعرض بادئا بالمفتاح الأوّل والأهمّ وهو الإيمان بالله تعالى. وفي رأيي هو أساس المفاتيحِ وعِمَادُها وعُمدتُها وسنامُها إذ كلما ارتبط الإنسان بخالقه فإنَّ هذا الأمر كفيلٌ وحده أن يجعله يَرفُلُ في أثوابٍ من الطّمأنينة والتّوكُّل الصّحيح على الله عزَّ وجلَّ، والمبادئ الإيمانيّة التي من شأنّها أن تُوصّل المؤمن إلى بَرّ الأمان الذّي يعتلي منهُ إلى قِمم النّجاحِ ودُروبهَا. ثُمَّ يُكملُ الدّكتور المُستغانمي بحثه وتنقيبه متنقّلاً بين جملة من المفاتيح مُستعينا بقصص من القرآن، وحِكمٍ من الشّعر ودروس من الحياة اليوميّة، وقد بلغَ عددها (خمسين مفتاحًا) تمَّ انتقاؤها بعنايّة بالغة ووسمها بعنوان لخّصَ مضامينها مُجتمعةً هو (مفاتيحُ النّجاحِ وسُننُ السّعادة)

وفيما يأتي من فقرات استعراضُ مقتطفات من المفاتيح، وذِكرُ ما لها من أهميّة مُستقاةٍ من تراثنا الإسلاميّ الأصيل ومن عدد من الكتب القيّمة المنشورة في حقلي التّنميّة البشريّة وتطوير الذّات. وملحوظة أولى أسجّلها في بدايّة المقال هي أنّ المستغانمي أبدع في التّفنن بطريقة الرّبط والعرض والتّأصيل لكلّ مفتاحٍ بتسليط الضّوء على تراثنا الغنيّ والمعارف التي أخذ بها أسلافنا الأعلام في كلّ ميدانٍ وفنّ مُشيرًا بين الفينة والأخرى إلى تجارب النّاجحين من الغرب والتّأكيد على المفاتيح والنّواميس التي أخذوا بها.

وقد تطرَّق في تمهيده إلى قضيّة مهمّة ناقشها من خلال طرحه لسؤالٍ: أين توجد السّعادة؟

من الطّبيعي هنا أن تختلف الأقوال وتتعدَّد حسب أهميّتها عند كُلّ إنسان، فمنهم من يجدُ السّعادة في حُبّ النّاسِ له، وأن يكون محطَّ أنظارِ الآخرين، ومنهم من يراها في جمع المال الوفير، وآخرُ يبحثُ عنها في الجاهِ والسّلطة، وهناك فئةٌ سمَّاها (أصحاب المبادئ) وهؤلاء يُفكّرون بطريقةٍ مختلفة عن البقيّة وعرَّفهم د. أمحمّد المُستغانمي بأنَّهم يرون أنَّ سعادة المرء حين يستنيرُ عقله بمبادئ وقيمٍ يؤمن بها وخصالٍ حميدةٍ تتجلَّى في الأفعال، وأنَّ اجتماع المبادئ مع الأفعال هو أعلى درجات الفوز والتّألّق عندهم.

وقد أشار إلى فئةٍ أخرى وهي (أصحاب الاتّجاه الرّوحيّ والنّزوع الدّيني) وهؤلاء قمّة السّعادة في نظرهم تكمنُ في إشباعِ أرواحهم بحلاوة الإيمان العميق بالله عزَّ وجلَّ، وتطبيق أوامرهِ واجتنابِ نواهيه.

ويرى الدّكتور أحمّد أنَّ هذا الاتّجاه هو الأهدى سبيلاً والأحسنُ تأويلاً؛ لأنَّ السّعادة الحقيقيّة لا يشعرُ بها إلَّا المؤمن الصّادق الذّي عاش لذَّة العبادة والتّوحيد والإيمان باللهَّ تعالى.

وأنا أتفق مع ما نوَّه إليهِ بأنَّنا غيرُ معنيين بمحاولةِ إقناع مَنْ لا يرى للإيمانِ لذَّةً أو سعادة، لأنَّه لا عتبَ على مريضٍ لم يستسغ طعم العسل المُصفَّى، واستدلَّ بقولٍ صائب حكيم يردّده العرب قديما:(قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشّمسِ من رَمَدٍ)".

ثُمَّ ربط صحّة هذا الاتّجاه مُعرّجًا على أهميّة الدّافعيّة لدى المرء حين يُمارِسُ ما يُحِبّ، ويفعَلُ ما يتناسبُ مع مُيُوله وما ينسجِمُ مع اهتماماته.

وأوضحَ أنَّه إذا حاولنا أن نجمع بين الأفكار السّابِق ذِكْرُهَا، فيمكنُ أن نصوغَ جملةً مختصرةً مفادُها أنَّ السّعادة هي النّجاحُ والتّألق في الدّنيا، والفوزُ والفلاحُ في الآخرة.

وأتبعها بفكرةٍ غاية في الأهميّة وهي أنَّ قدرة النّجاح موجودة في كيان كُلّ إنسانٍ بحيث يستطيع أن يُحقّق المزيد من التّفوّق والتّميّز في مختلف جوانب حياتهِ وارتأيتُ هنا أنَّه يعود إلى تأكيد مفهوم الدّافعيّة فقط إذا أراد الإنسان شيئا وسعى إليه.

واستدلَّ بقوله جلَّ ثناؤه في سورة النّحل:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [**النّحل**: ٩٧].

وبعد المفتاح الأوّل والأهمّ وهو الإيمان باللهّ عزَّ وجلَّ كما أشرت إلى ذلك في مُستهلّ الحديث، انتقل د. المُستغانمي إلى مفتاحٍ أحسبهُ يُعَدُّ ركيزةً أساسيّة تستندُ إليها باقي المفاتيح هو:

الرّؤية الواضحة: وأرى أنَّ الابتداء بهذا المفتاح بعد الإيمان باللهّ تعالى هو عين الصّواب؛ ذلك لأنَّ الرّؤية الواضحة للطّريق ستُبدّد أمام المرء الضّباب الحائل بينه وبين تقدُّمه في درب الحياة المليء بالعقبات، فمن خلال التّخطيط ووضوح الرّؤية يتمكّن المرء من تخطيها واجتيازها ليُواصِل طريقه بخُطىً ثابتة وواثقة إلى النّجاح والتّألّق.

وقد عرَّف د. المُستغانمي الرّؤيّة الواضحة بأنَّها (الخطوة الأولى في رحلة نظام النّجاح المتكامل، وهي الإبداع العقليّ الذّي يسبقُ دائمًا الإبداع الماديّ؛ لأنَّها الفكرة الأهمّ التي تقوم عليها جميع الأفكار، فهي النّظرة التي تراها أنت لنفسكَ، ولا يراها غيرك لك)؛ فعدم وجود الرّؤيّة الواضحة هي سبب حياة الحرمان والتّعاسة وأنا أتّفقُ مع الدّكتور المستغانمي فيما ذهب إليه حين أشار إلى أنَّ مشكلة السّواد الأعظم من العاملين والموظّفين والطّلاب اليوم هي في عدم رسمهم الرّؤية الواضحة الخاصّة بكلّ منهم، ومن أجل عدم التّحديد هذا يقضون جُلَّ أعمارهم يتخبَّطون بين الخُطوب والرّزايا والمشاكل باحثين عن حُلولٍ آنيّة ذهابًا وإيابًا في مسارح الحياةِ

دون تسجيلِ أهدافٍ مطلقًا. وأكَّد على أنَّ أصحاب الإنجازات العظيمة قد كان لهم رُؤى كبيرة رسموا حياتهم من خلالها.

ودعا إلى أنّ يكون المرء ذا همَّةٍ عاليّة سامقة، ونفسٍ شامخةٍ توَّاقة، وفِكرٍ كَفِكْرِ العُظَماء في النّظر عند تصميم الرّؤيّة إلى عَنان السّماء، وألّا نقنعَ بما دون النّجوم مستدلاً على ذلك ببيتي المتنبي:

إذا مــا رُمْـتَ في شَرَفٍ مَـروم   فَـلا تَقْنَـع بِمَـا دُونَ النُّجـوم

فَطعـمُ المـوتِ في أمـرٍ حَقـيرٍ   كَطعـمِ المـوتِ في أمْـرٍ عظـيم

ومن ثَمَّ أوضحَ فكرةً تنصُّ على أنَّ صُنع حُلمٍ كبيرٍ لا يتطَّلبُ أيَّ جُهدٍ زائدٍ على الجُهد الذّي يتطَّلبهُ إنشاء حُلمٍ صغيرٍ، ودعمَ ذلكَ ببيتٍ شعريّ آخر يقول فيه صاحبه:

وَكُـنْ رَجُـلاً رِجْلُـهُ في الثَّـرى

وَهَامَـةُ هِمَّتِـهِ فَـوْقَ الثُّرَيَّـا

مُشيرًا إلى أنَّ الرّؤية الكبيرة قد تبدو مستحيلة في بادئ الأمر، ثُمَّ صعبة المنال، ثُمَّ يَسهُلُ تنفيذُها حتَّى يقولَ القائلُ: لا مَفَرَّ منها. فالتّاريخ يشهد أنَّ الرّجال العُظماء الذّين حقّقوا نجاحاتٍ عظيمة، كانت لهم رؤى كبيرة وأحلامٌ عظيمة لم يتخلُّوا عنها.

وقد عرض لنا أمثلةً على ذلك من تُراثنا الإسلاميّ الأصيل، وها هو أبو بكرٍ الصّديق ﷺ وأرضاه استخارَ الله ﷻ نتيجة حروب الرّدة أن يجمع القرآن الكريم من صدور الصّحابة الكِرام، ويُدوّنهُ على الورق والجريد والرّقاع وغيره حتّى لا يضيّع

النّصُّ المُقدَّسُ من أيدي المسلمين، وقد خالفه بعض الصّحابة الكِرام، لكنَّ الصّدّيق الذّي تشرَّبت نفسهُ الفكرةَ، وكان له رؤية مستقبليّة بعيدة المدى لم يثنِهِ عن تطبيقها أحدٌ ولم يتخلَّ عنها، وشرع في تنفيذها وما كان إلاّ أن شرح الله صدور الصّحابة رضوان الله عليهم بالعمل الجبَّار الذّي بدأه الصّدّيق. ونستنتج من هذه العِبرة أنَّ ثَمَّة أُناسا قد يُحاولون إقناعكَ بالتّخلّي عن رُؤيتك، وسيضعون العقبات في طريقك، ويُطلقون مصطلح المستحيل أمامكَ، هؤلاء هم سارقو الأحلام ومُدمّروا الرّؤى، فأعرِضْ عنهم، وضع حجابًا بينك وبينهم، وعليك الأخذ بالأسباب، وعلى الله تبليغ المقاصد.

وهذا ما حصلَ مع الشّابّ صاحب الإرادة الحديديّة (**محمّد الفاتح**) عندما سمع حديث رسول الله عليه أفضل الصّلاة والسّلام في فتح مدينة القسطنطينيّة فتاقت نفسهُ واشرأبَّ لأن يكون هو القائد الفاتح، واجتهدَ وكدَّ، وخطَّط، وصحَّ عزمه وبلَّغهُ الله مقصده، وحقَّق رُؤيته العظيمة.

وواصل الدّكتور المستغانمي عرضَ مزيد من قصص الإرادة والعزيمة المشوّقة منها قصّة (**الطّالب مونتي**) الذّي لم يتخلَّ عن رؤيته عندما أعطاه أستاذه درجةً منخفضة إزاء كتابته لهدفٍ رآه أستاذه أنَّه بعيد عن الواقعيّة وهو امتلاك مزرعة على مساحةٍ هائلة من الأرض، يُربّي فيها العديد من خيول السّباق العتيقة.

ورفض مونتي طلب أستاذه بأن يُعيدَ الكتابة ليحصل على درجة أعلى وحاججه مونتي بقوله:

(إِحتفظ أنتَ بالورقـة وسَـأحتفظ أنـا بِحُلمـي)، والآن أصـبح مـونتي يمتلـكُ مزارعهُ على مساحاتٍ شاسـعة مـن الأرض في كاليفورنيـا، ويُـربّي خيـول السّـباق ويُدرّب مئات من مُدرّبي الخيول.

فالرّؤى الكبيرة مع السّعي والعمل والإصرار حتمًا ستنتج الأعمال الجليلـة بـإذن الله تعالى.

ونختمُ هذا المفتاح بجملةٍ من التّوجيهات الماتعة التي أفادنا بها د. المستغانمي بأنَّه يُستحسنُ أن تكون رؤيتك متضمِّنة لأهمّ مجـالات الحيـاة الحيويّـة وهـي: الجانـب المادّي، والوظيفيّ، والصّحيّ، ووقت الفراغ، وجانب العلاقـات، وتطـوّير الـذّات وجانب دورك تُجاه مجتمعك وأُمَّتك.

بعد مفتاحي الإيمان بالله تعالى والرّؤيّة الواضحة، نُعرّج على مفتـاحٍ آخـر غايّـة في الأهميّة هو الرّغبة المشتعلة.

وقع اختياري على هذا المفتاح كما يُقـال لغايّـة في نفـس يعقـوب، وإذ بي أجـد د. المستغانمي في مُستهلّ الحديث عنه يبدأ كلامه قائلاً:

" قد لا أكون مبالغًا إذا قرَّرتُ في هذه الأسطر أنَّ الرّغبة المشـتعلة هـي مـن بـين المفاتيح الأقوى تأثيرًا التي يتأتّى بها فتحُ باب النّجاح الأكبر، فكثيرٌ من المفاتيح هـي ضروريّة ولازمةٌ، وتتعاضدُ فيما بينها لِتيْسِيرِ نَجاح الفرد، وتذليل الصّـعوبات التـي تواجههُ، إلّا أنَّ الواقع يشهدُ ويؤكّدُ أنَّ الرّغبة المشتعلة هي الوقود الـدّافع والجِـذوة

المُتوقّدة التي تُلهِبُ ضمير الفرد، وتُحرّكُ وجدانَه، وتُؤجّجُ كَيانه، فينطلِقُ في سعي حثيث، وإصرارٍ لا يعرفُ الوهن لتحقيق أهدافه، وإنجاز مشاريعه".

وأنا أتّفقُ بشدَّةٍ مع هذا الكلام والذّي استقرَّت غايته في نفسي مُذْ وقعت عينايَ على عُنوان مفتاحه، وذلك لأنَّ الإنسان قد يملكُ خطّة ورؤيّة وأهدافا ولكن إن لم تكنْ هناك رغبة مشتعلة على الدّوام تحثُّه للمُضيّ قُدُمًا وباستمرارٍ فإنَّه حتمًا سيُطفئ شُعلته بيده وقد لا يُنجز ما خطّط له.

وهذا ما دعا إليه الدّكتور المستغانمي من خلال تأكيده ونَصيحتِه لكلّ إنسانٍ بأن يُحافظ على ديمومةِ اشتعال الرّغبة، ومن خلال عرضهِ أمثلة واقعيّة لأشخاص تَحَدَّوْا أنفسهم أوّلاً، وثابروا على إيقاد شُعلة الرّغبة وحرَصوا على عدم انطفائها لأنَّ الأهداف أكبر وأسمى.

وحتَّى يَضمن ديمومتها لا بُدَّ أن يسأل المرءُ نفسه الأسئلة الآتيّة:

1. هل هذا العمل الذّي أصبو إلى تحقيقه يتناغم مع قيمي ومبادئي؟
2. هل يُحقّق عملي هذا رُؤيتي في الحياة؟
3. هل يُحقّق معالِمَ الشّخص الذّي أرغبُ أن أكونَهُ في المُستقبل؟

وأرى أنَّ الدّكتور أصاب في وضعها فهي لُبُّ الفَتيلِ وجِذوته، ومن خلال تطبيقها على نفسي ومجالستي لكثيرٍ ممّن حافظوا على فتيل الشّعلةِ مُتقدّة، أدركتُ أنّ ديمومتها يستمرُّ اتّقادُها في حال الرّضى الدّاخلي وشعور المرء بأنَّ عمله يتناغم مع توجّهاته ويضعهُ على الطّريق الموصِل لرؤيته المستقبليّة لنفسِه.

ومن ديمومةِ الرّغبة يقودنا د. المستغانمي للتّمييز الفاصل بين المصطلحات وفرُوقها، وقد أحسن التّفريق بينها في هذا المقام، مشيرًا إلى ضرورة معرفة الفرق بين الرّغبة والإعجاب العابر والتّمني المَشوب بالميل النّفسيّ لاستجلاب أمرٍ أو نيله أو حِيازته.

والفرقُ يتمثّل في التصاقِ الرّغبة بِسِمتين قويّتين هما: التّحديد والإصرار؛ فلا يكفي أن تُعجَبَ بأمرٍ ما أو تتمنّى نيله، بل لا بُدَّ أن تكون جازمًا في طلبك له وحُبّك لتحقيقه، مُكّنًا بين أضلُعكَ رغبةً مُتوقّدة تدفعُك نحوهُ دفْعًا، وتهزّكَ لتحقيقه هزًّا.

وقد تَوَّج الدّكتور المستغانمي هذا الكلام بمثالٍ واقعيّ من التّاريخ الحديث مُستعرِضًا قصّة عميد اللغة العربيّة الدّكتور طه حسين عندما عزم على دراسة الأدب الفرنسي وتاقت نفسه للتَّغني بِلُغة الجمال، ودراسة النّظريّات الأدبيّة والنّقديّة التي كانت تحفلُ بها بلدُ الحدائق الغنَّاء باريس، فسلكَ إلى مُبتغاهُ كُلَّ سبيل، وتوسَّلَ إليها بكلّ وسيلة. ومرَّ بظروف كثيرة وصِعَاب جمَّة ولكنَّه اتّخذ النّجاح خليلاً لامتلاكه هدفًا مُحدَّدًا ورغبةً مُتأجّجةً صادقة فأبدع وتألّقت سيرته وعَمَّت أرجاء الكون.

وقد قدَّم لنا الدّكتور المُستغانمي نصيحة اختتمَ بها هذا المفتاح بقوله: " وأعلم أنَّ درجة نجاحك تُقاس بقوَّة رغبتك وكِبَرِ حُلمك، وكيفيّة تعاملك مع محطَّاتِ الإخفاقِ المؤقّتِ، واعلمْ أنَّه إذا كانت لديك الرّغبة الصّادقة المُتأجّجة للنّجاح، فقد

أدركتَ نصفه، وإذا لم تتوفّر لديك الرّغبة الصّادقة، فقد أدركت نصف الفشل. فاحرِق جميعَ سفن العَودة كما أحرقها طارق بن زياد، وغيره من النّاجحين الكبار".

وقد أصابَ الدّكتور المستغانمي في هذه النّصيحة عين الحقيقة، وهذا ما تدعو إليه كتب التّنميّة البشريّة من أنَّ النّجاح يأتي بقوَّة الإرادة والاستمراريّة في العمل والاجتهاد والتّطبيق؛ لأنَّ الفرق الجوهريّ حسب ما بيّنه في مفتاحهِ بين النّاجح وغيرهِ يكمنُ في رغبة كُلّ منهما في إدراكِ أقصى ما تُمكّنهُ قُدراته البشريّة، وأن يتفوَّق في عمله فوق المستوى العادي الذّي يُقدّمهُ من يعيشون في السّفوحِ المنخفضة ومن يشغل مكانًا في القِمم السّاميّة.

ولا تستوي نبتةُ النّجاح على ساقها، ولا تنضج ثمرتها إلّا مع مفتاحٍ المبادرة إلى التّنفيذ والتّغيير وهو ما عنونه د. المستغانمي بقوله: اعتنق فلسفة التّغيير.

صدّر الدّكتور المستغانمي مفتاحه الرّائع هذا بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11]. ثُمَّ عرَّف التّغيير بوصفه خيارًا استراتيجيًّا "وبأنّه قانون الحياة المتدفّقة الجارية، والذي لا يعتنقُ فلسفة التّغيير، يكون قد حكم على نفسه بالجمُودِ والهُمودِ في عصرِ المتغيّراتِ الكُبرى، والتّحوّلات الإنسانيّة العظيمة والانفجارات المعرفيّة الهائلة. والذّين لا ينظرون إلى الماضي أو الحاضر فمن المُؤكّد أنّهم سيخسرون المستقبل".

كما أنّه أشادَ بضرورةِ اعتناقِ فلسفة التّغيير، واتّخاذها شِرْعةً ومذهبًا مُشيرًا إلى ذلك بقوله:

" واعلم أنَّ الماء الجاري يتجدَّد، وأنَّ الحركة في الطّريق الصّحيح تؤتي ثمارها ولو بعد حِين "

واستدلَّ الدّكتور المستغانمي على قوله بتدبّرِ قولِ الإمام الشّافعيّ:

ســــــافرْ تجـــــدْ عِوضـــــاً عمَّـــــن تفارقـــــهُ

وَانْصَـــبْ فَـــإنَّ لَذِيـــذَ الْعَـــيْشِ فِي النّصَـــبِ

إنّي رأيــــــتُ وقــــــوفَ المـــــاء يُفســــــدهُ

إِنْ سَـــال طَـــابَ وَإنْ لَمْ يَجْـــر لَمْ يَطِـــبِ

والأُسْـــــدُ لـــــولا فـــــراقُ الأرضماافترســــت

والسّـــهمُ لـــولا فـــراقُ القـــوس لم يُصـــب

وهنا يحضرني ما ذكرهُ الفيلسوف الإغريقـي هـرقليطس حـين وصـل إلى نتيجـةٍ مفادُها أنّ التّغيير هو جوهر الحياة، وأنّ مقاومة هذا التّدفق الطّبيعـي هـي معارضـة لجوهر الوجود، وقال: "لا شيء ثابت في الوجود سوى التّغيير".

وقد تبحَّر الدّكتور المستغانمي وأسهب في بشرح هذا المفتاح متنقّلاً بـين عنـاوين تعكِسُ مفادَ خبرته الحياتيّة وانتقالهِ بسلاسةٍ من فكرةٍ إلى أخرى، حيث أشـار إلى أنَّ التّغيير يبدأ من الدّاخل وعلى النّـاس أن ينظـروا في أنفسـهم ويُحـاكوا ذواتهـم عنـد مواجهتهم لأيّ مشكلةٍ بدلاً من البحث خارجها.

ومن هنا شدّد على أنَّ التّغيير مُتاحٌ ومُستطاعٌ للجميع فإذا تعلَّـم كـلٌّ منَّـا مبـادئ النّجاح ومفاتيحه وأحسن تطبيقها وتنفيذها، فإنَّه نـاجحٌ لا محالـة، وبالتّـالي سـتتغيَّر

حياته إلى الأفضل، وسوف يفوز بكلّ ما تصبو إليه نفسه، فكُلُّ فردٍ في هـذا المجتمـع مُطالبٌ بالتّغيير ويستطيع أن يُؤثّر ولو بشكلٍ قليلٍ أو نسبيّ في الآخرين. واستشـهد بقول ألبرت شويتزر: " **لديَّ اعتقادٌ راسخٌ بـأنَّ كـل شـخصٍ منَّـا يسـتطيع القيـامَ بالقليل لإنهاء تعاسة الآخرين** ".

من ناحية أخرى، أكّد الدّكتور المستغانمي أنَّ الـنّفس البشـريّة تسـتطيع التّغيـير وبمقدورها أن تعتنق كُلَّ يومٍ فلسفاتٍ ومذاهب جديدة؛ فلا تغييرَ في الواقـع إلاَّ إذا غيَّر الإنسانُ ما بنفسِهِ، ومـا بداخلـه مـن أفكـارٍ ومعتقـداتٍ سـلبيّة، وتخلَّـص مـن المُثبّطات والعوائق التي تحُولُ دون بلوغهِ ما يُريد.

وتتطابق رؤية الدّكتور المستغانمي مع ما جاء به الغرب بهذا الخصوص، ومنه مـا ذكرته الرّوائيّة إيلينا فيرانتي مؤخّرا: " **لا ينبغي أن نخـاف مـن التّغيـير، فلـيس مـن المفترض أن نخشى من كلّ ما لا نألّفه". وإذا أتقنا التّعامل مع هـذا التّغيـير المسـتمرّ سَنُحسِنُ التّعامل مع الحياة** ".

وهذا بالضّبط ما أعرَبَ عنهُ الدّكتور المسـتغانمي بأنَّـه لـيس للظّـروفِ سـلطانٌ علينا، وأنَّ غالبيّة من يعيشون التّخبّط في ظلمات القلق والخوف والتّشتّت والضّـياع هم من يسيرون بأنفسهم إلى حـتفهم. صـحيحٌ أنَّـه لا يمكنـك الـتّحكم في كُـلّ مـا يحدث لكَ ولكنَّه بمقدوركَ أن تـتحكَّم في الطّريقـة التـي تتفاعـلُ بهـا مـع الأشـياء والأحداث.

واختتم المستغانمي مفتاحه هذا بنصيحةٍ ذهبيّة قائلاً: " **ضع صورتك التي ترغبُ أن تكون عليها في المستقبل بين عينيك، واجتهد في تنشيط مُخيّلتك، واتّبع الأساليب العلميّة الدّقيقة، وتحرَّك تُجاه ما تُريد، اِرتقِ سُلَّمَ التّغيير الآن، وتطَّلع إلى قمم النّجاح العاليّة، واعلم أنَّ سُلَّم النّجاح لا يُعاني من الازدحام في أعلاه** ".

والواقع يدعونا إلى الاعتراف بهذه النّصيحة الثّمينة الصّائبة الصّحيحة؛ إذ إنّ قوَّة الخيال وقُدرات العقل الباطن للإنسان ليس لها حُدود، وإنّ المرء يجنى أعظم المُخرجات حين يُؤمن بالله تعالى، ويؤمن بقدراته على العمل والتّغيير، ويضع أهدافه نُصب عينيه ويخطو ساعيًا ليعتلي سُلَّم التّميَّز صانعا النّجاح والتّألّق.

وبعد أن حدّد الدّكتور المستغانمي **المفاتيح الأساسيّة التي ينطلق منها المرء ليحقّق أحلامه وأهدافه تطرّق إلى البنزين الذّي يُحرّك المرء، ويغذّي العقل والوجدان ويرقى به إلى أعلى مستويات النّجاح، وهو مفتاح القراءة.**

استهلّ الدّكتور المُستغانمي مفتاح القراءة بآيّة عظيمة من الذّكر الحكيم هي أوّل آيّة التقت فيها السّماء بالأرض: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [**العلق**: ١ – ٥].

ثمَّ وصفها بقوله: " فكلمة (**اِقرأ**) هي أوَّلُ كلمةٍ التقت فيها السّماءُ بالأرض واهتزَّت لها الأكوان، بعد أن عمَّت الجهالةُ الجَهلاء، وتحكَّمت أعراف الجاهليّة الصّمّاء البكماء، وكادت تنطمسُ معالمُ الدّين الحقّ، وغارتِ الفضائلُ، ووقعَ الضّعيفُ بين أنيابِ القويّ، حينها استيقظت الإنسانيّة على نداء السّماء : **اِقرأ** ".

وصدق الدّكتور المستغانمي فيما عبَّر عنه بأنّنا عندما نستنطقُ تاريخ الأمّم والدّول ونتدارسُ أحوال حضاراتها وأحداث شُعوبها، ونتصفّحُ تراجم عُظمائها وسِيَرَ النّاجحين في جميع المجالات والتّخصّصات سنجدُ أنَّهم كُلّهم دون استثناء ولا إقصاء، قد تميَّزوا وأتقنوا **مهارة القراءة**.

وضرب لنا مثلاً على ذلك ابن تيميّة الدّمشقيّ شيخ الإسلام والمسلمين في عصره، فلم يكن يرفعُ رأسه عن كتابٍ، ولا يخلي فترةً زمنيّة من قراءة. وعرّج على ذكر أبي زكريَّا النّووي صاحب لقبِ (بحرِ الفقه والحديث) الذي زادت مؤلّفاتهُ ورَبَتْ عن شهوره وأعوامه، ويرجعُ فضلُ ذلك لكثرة قراءاتهم والتّعمّق فيها.

وأمّا رُوَّاد القراءة في العصر الحديث فيُطالعنا اسم العقَّاد الذّي ملأ سمع الزّمان والمكان، وهيمن على النّقد وملك مقاليد الكتابة والأدب، والفلسفة والفكر. وعندما يقتفي القارئ آثار سيرته فإنّ يُفاجَأُ أنَّه لم يُكمِل دراستهُ الابتدائيّة!

ومع ذلك تميَّز على أترابه وأقرانه فقط لأنَّه امتلك مهارة القراءة ولم يمتلِكها فحسب! بل شُغِفَ بها، فكان لا يتركُ كتابًا إلاّ وطالعه من الغلاف إلى الغلاف وكان ديدنُهُ دومًا: (كتابٌ تقرؤهُ ثلاث مرّاتٍ، أنفعُ من ثلاثة كتبٍ تقرأ كلاً منها مرَّة واحدة).

وأعجبني اللقبُ الذّي أطلقه الدّكتور المستغانمي على القراءة بأنَّها (**مُعجزة**) وسردَ لنا مثالاً حيًّا من الواقع لتلميذٍ أمريكيّ فقير يُدعى (بين كارسون)، وهو الآن يَشْغَلُ منصبَ مدير قسم جراحة الأعصاب في مستشفى (جون هُوبكِينز)

بالولايات المتّحدة الأمريكيّة؛ فقد استطاع لفرط ذكائه، وصبره وجَلَدِهِ على القراءة وتفوّقه في دراسته في جراحة الأعصاب أن يتمَّ تعيينهُ وهو في سنّ الثّالثة والثّلاثين رئيسًا لقسم الجراحة العصبيّة في قسم الأطفال المتعلّقة بفصل الأجنَّة التي تُولد ملتصقة، ولا يخفى على أحد صعوبة هذا الأمر وحجم الدّقة والمهارة العاليّة التي يتطلّبها.

وكالعادة في المفاتيح السّابقة، ختم الدّكتور المستغانمي مفتاحه هذا بنصيحةٍ وتوجيهاتٍ لكلّ من يرغب أن يشُقَّ طريقه إلى النّجاح الباهر في أيّ ميدانٍ بقوله: "اقرأ، ثُمَّ اقرأ، ثُمَّ اقرأ " وكأنَّه بهذا التّوكيد الثّلاثيّ يعطي لنا مفتاح الولوج إلى جنانِ الفوز والتّنعُمِ بِلذَّةِ النّجاح.

ونختمُ بمفتاحٍ يُتوّجُ إطار النّجاح في كلّ ميدان من ميادين العمل المختلفة ويجعلُ له بصمةً متفردّة وهو: الإتقان.

افتتح الدّكتور المستغانمي هذا المفتاح بتوجيهِ قائد البشريّة نبينا وحبيبنا محمّد ﷺ عندما أوصانا قائلاً: " إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ" [صحيح الجامع الصّحيح للألباني].

وذلك لأنَّ الأعمال المُتقنة تستهوي كُلّ إنسانٍ، والنّفس الإنسانيّة تعشقُ كُلَّ شيءٍ مُتقَنٍ وجميلٍ في كُلّ مجالات الحياة، لأنَّ الجودة والإتقان مُتطَّلبٌ بشريٌ مشترك يقتسمها كُلُّ بني الإنسان، وهي غايّة يشرئبّ إليها كلّ مُبدعٍ فنَّان، إنّ بذل قُصارى

جهده وأقصى ما في وسعه بالطّريقة العلميّة الصّحيحة، فحتمًا سيمهّد بذلك للامتياز في الإنجاز، وبلوغ أعلى درجات الإتقان.

واستشهدَ الدّكتور المستغانمي بقصة (سيزر رتيز) الذي دخل مجال الفندقة بنفسٍ توّاقة، وكان يهتمُّ بتفاصيل كُلّ شيء ويحرِص على الإتقان، حتّى أصبح اسمه مقترنًا بالجودة الرّائعة في قواميس اللغة الإنجليزيّة.

واستحضر قول (أوبرا وينفري): " إنَّ قيامك بأفضل ما لديك في هذه اللحظة يضعك في أفضل مكانٍ في اللحظة التّالية ". لنجد أنّها تؤكّد وتدعو إلى تبنّي سياسة الإتقان. وهذا ما أشار إليهِ الدّكتور المستغانمي في دعوته إلى اتّخاذ الجودة والإتقان شعارًا ومذهبًا، فبرأيهِ إتقانُكَ القيام بالأشياء يُفيدُ الآخرين، وعندما تُقدّم لهم منتجًا بأعلى مستويات الإتقان، فإنّ ذلك سيدعو النّاس إلى احترام ما تنتج، وسترسم اسمك مع النّاجحين المتقنين؛ لأنّ الواقع أثبت أنّ ثمَّةَ ارتباطا وثيقا بين نجاحك في الحياة وجودة العمل الذّي تُقدّمه في أيّ مجالٍ كنت، فالعملُ الجيّد المتقن يتحدَّث بصوتٍ جهوريّ مرتفع فيعترفُ بجودته القريبُ والبعيد.

وختامًا أرى أنَّ هذا العمل القيّم على الرّغم أنّني استعرضتُ جزءًا يسيرًا منه لغنى المحتوى وكثرة تفاصيله فهو يُمثّل إضافة علميّة جديدة وثقافيّة مهمّة، فلم يسبق لي أن قرأتُ كتابًا قام على التّأصيل بين مجال التّنمية وتراثنا العربيّ الإسلاميّ الزّاخر بهذا الإتقان والإبداع وحُسن الجمع بين كالأجناس الأدبيّة وربطها بحنكَةٍ وسلاسة مع علومٍ غربيّة مترجمة.

مميّزات الأسلوب عند المُستغانمي في (مفاتيح النّجاحِ وسنَنُ السّعادةِ):

أذكرُ أنَّهُ في أوَّل مرّة وقعت عيناي على الكتاب، وجدتُ نفسي أخطو تُجاههُ وأرمقُ عنوانه بكلّ شَغفٍ.

شعرتُ حِينها اِنجذابًا هزَّ عرشَ رُوحي التي تَهوى مهارة التّواصلِ وبَراعة الوِفاق الصّادرِ عن أستاذٍ فذّ اِنصاعتْ لهُ اللغة مطواعةً، فهو عَرَّابُها وطَبيبُها الذّي يعرفُ دَاءها ودَواءها.

لا يملكُ مهارةَ الجمع والتّأليف بين العُلومِ إلاَّ من كان من أبنائها المُخلَصِين الأبرَار. هذا المزجُ الجميل الذّي تجلَّى كهمزة وصلٍ بين التّنميّة البشريّة بفروعها المتنوّعة في العصر الحديث، ووصلها بالماضي المجيد الأصيل المحروس بدينا الحنيف ومبادئه السّاميّة وقيمنا العربيّة الأصيلة.

وما أراهُ أنَّ دَماثة أستاذنا الفاضل حملتهُ على التّلميح دون التّصريح لكل من فُتِن بعلوم البرمجة اللغويّة العصبيّة بأنّها علمٌ منحولٌ متحدّرٌ من القرآن الكريم الذّي جاءت آياته متضمّنة كلّ مفاتيح التّنميّة وتطوير الذّات، ولكن نحنُ من غفلنا عن فَهمها والتّطبيق الصّحيح لكلّ ما بيَّنهُ الله عزَّ وجلّ لنا من دُروبٍ توصلنا إلى الفَلاحِ والنّجاح في دُنيانا وأُخرَانَا.

فبهذا الوصلِ الحقّ وتأصيله، ردَّ المستغانمي الحقوق إلى أصحابها بإعادة المياه إلى مجاريها، وتصحيح المسار، وليعلم سَائِرُ المسلمين أنّ أصول التّنميّة البشريّة وتطوير الذّات هي من معين القرآن الكريم وسنّة نبيّنا الذّي لا ينطق عن الهوى، وقد كرّس

آباؤنا وعلماؤنا وحكماؤنا حياتهم في تطبيق سنن النّجاح، وقد احتفظ لنا التّاريخ بصور مشرّفة لنجاحاتهم باهرة.

وحَرِيٌّ بأبنائنا المعاصرين، أن يقفوا وقفة تأمّل وتمعّن، وألاّ يمرّوا على أسّس النّجاح ومفاتيحه عند المسلمين مُرور الكرام ظانين أنَّ الغرب أتى بعلم فريد منقطع النّظير، ومع ذلك لا نريد أن نبخسهم حقهم في تطوير بعض النّظريات والمعارف فلكلّ مجتهد نصيب.

وقد لَحَظتُ أنَّ بعض المفاتيح يُمكنُ دَمجها مع بعضها البعض لارتباطها معًا ولكنَّ أستاذنا الفاضل آثرَ أنْ يُسلّط الضّوءَ عليها مُنفردة ويُعطيها حقّها بالكامل ويُسهب الشّرح فيها والاستدلال عليها وبهذا أطَّرها بمفتاح الإتقان من كلّ الزّوايا.

وعادة ما تتّسم الدّراسات التّحليليّة النّقديّة بمناوراتٍ بين أصاب وأخطأ، وبين موافق ومعارض، ولكنّني وجدت في هذا الكتاب إنصافًا لنا كمسلمين بوجود استدلالاتٍ قويّة وواضحة من خلال هذا التّأصيل المستنير. والمُتبصّر فيه يلحَظُ كثيرًا من نواميس النّجاح هي تُراثنا المجيد، وقد تلقّيناها في المدارس والكليّات على أنّها غربيّة الوجهة، أجنبيّة المنبت والمنشأ.

حين دخلتُ مجال التّنميّة البشريّة قبل عدَّة سنوات، أذكُر وقتها أنّني شعرتُ بالغَيرةِ على تُراثنا فناقشتُ الأستاذ المُختصّ الذّي درَّسنا إيَّاها حول بعض القضايا وكان عربيّ الجنسيّة لكنَّه تتلمذ على أيدي أساتذة من الغرب، ففوجئتُ حين وافقني

الرّأي بلا أدنى تعنُّتٍ قائلاً: " نعم يا وئام باختصار البرمجة اللغويّة العصبيّة ومعظم ما جاء في تطوير الذّات هو علمٌ مأخوذٌ من القرآن الكريم".

هنا تنفّست بحسرة وحزن.

لماذا تُدفَع الآلاف من الأموال لدوراتٍ ومناهج تدريبيّة يتهافتُ الشّباب عليها كي يتعلّموا أسّس النّجاح وعاداته، وينسون ويتناسون المنهج الرّبّاني العظيم؟! مع أنّه منهجٌ مجانيّ لن يُكلفهم سوى التّفكُّر والتّدبُّر واستخراج لآلئه بالفَهم الواعي والإدراك الصّحيح، وهذا لا يعني أنّ الغربيّين لم يفعلوا شيئا في هذا المجال، فقد علّمنا ديننا أن نكون منصفين ولو مع الأعداء. علّمنا ألاّ نبخس النّاس أشياءهم وكلّ من اجتهد وخرجَ بشيء مفيد فله اجتهادهُ الذّي هو دعوةٌ لنا لننهضَ بدورنا ونسبُرَ أغوارَ تُراثنا العربيّ والإسلاميّ ونسلّط الضّوء على نفائسه ومكنوناته القيّمة. وهذا ما فعلهُ د. المستغانمي في مفاتيحه بِبرَاعةِ طرحه لها.

وأذكرُ أنّني قرأتُ كتابًا للدّكتور راتب النّابلسي بهذا الخُصوص أيضًا تناول فيهِ الرّبط والتّأصيل ولكن ما تميّز به د. محمّد في سُننهِ ومفاتيحه هو مناقشة دقائق الأمور والاستدلال عليها والتّفنّن في طريقة الرّبط على نطاقٍ أوسع وأشمل بخلطَةٍ عربيّة غربيّة تحملُ كلّ أجناس المعارف الدّينيّة والأدبيّة والشّعريّة والقصصيّة بتركيبة فريدة ومتميّزة عمّا سبقها من دراسات تحدثت في نفس المضمون.

إطلالةٌ على مصادر الكتاب عند المُستغانمي: تجدر الإشارة إلى أنّ مصادر الكتاب التي تناولها في شرحه لسنن النّجاح ومفاتيحه كثيرة، يأتي في مقدّمتها:

القرآن الكريم حيث اجتهد المؤلّف في الاستشهاد على الأفكار والمعاني التي يبسُطها بآياتٍ من الذّكرِ الحكيم و**أحاديثٍ نبويّة شريفة**. إضافةً إلى الاقتباس من **كُتبٍ غربيّة في التّنميّة البشريّة وتطوير الذّات** مثل:

(**مبادئ النّجاح، أراك على القمّة، نجاحات عظيمة، ارسم مستقبلك بنفسك العادات السّبع للناس الأكثر فعاليّة في العالم**).

وقصصٍ من الحياة الواقعيّة من التّراث العربيّ والغربيّ لأشخاص ناجحين عَبَّدُوا طُرقَ النّجاحِ بأيديهم وذلَّلوا سُبلَ الصّعاب بوضوح رؤيتهم وسعيهم الدّؤوب كأمثالِ **ابن تيميّة الحرَّاني الدّمشقيّ وطارق بن زياد وطه حُسين وعبَّاس محمود العقَّاد** وأمثالهم من النّاجحين. أمَّا من الغرب فذكر أعلاما من النّاجحين مثل: (**براين تريسي، بين كارسون، سيزر رتيز، أوبرا وينفري**).

هذا، والله الهادي إلى سواء الصّراط، والموفّق للنّجاح، وكلّ من سار على الدّرب وصل.

التّجاذب اللفظيّ في القرآن الكريم عند أحمد صافي المستغانمي

ـدراسة تطبيقيّة في سورة الانفال ـ

د. بوطيبة بن قلاوز أحمد
كليّة العلوم الإنسانيّة والعلوم الإسلاميّة؛
ج. وهران 1

مقدمـــة: الحمد لله الذي منّ على عباده الإحسـان، وأعـزّهم سـبحانه بنعمـة القرآن، فطيّب السّمع واللسان؛ وأنار بفهمه القلوب؛ مواطن الكـتمان، ثـمّ الصّـلاة على الرّحمة المهدة؛ والنّعمة المسداة سيدنا محمّد سيد الأوّلين والآخرين.

أمّا بعد:

يعدّ القرآن الكريم رحمة وبشـرى للمسلمين، وهدايـة إلى الطّريـق القـويم قـال تعـــالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء 09].

فإذا كان القرآن بهذه المكانة فـلا مـانع أن يلـق اهتمامـا وعنايـة ممّـن شرفهـم الله بخدمته ، فاشتغلوا به تلاوة ورسـما وتفسـيرا وتـدبرا لمعانيـه، واسـتنباطا لأحكامـه وكشفا لأسراره وموطن إعجازه وبلاغته، فكان تراث هـذه الأمّـة زاخـرا في حقـل الدّراسات القرآنيّة لعلماء جهابذة سخروا حياتهم في خدمة كتـاب الله تعـالى، ولقـد

كان ولا يزال هذا القرآن مثقلا بحمولة زاكيّة تحمل سرّ ومكامن الإعجاز لهذا الكتاب مما استدعى ذلك إلى الالتفاف حوله من أجل استخراج الجواهر والدُّرر ونظرا لأهميّة الموضوع وعظمته؛ اخترنا علمًا من الأعلام الذين وفقهم الله لهذا ألاّ وهو الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، الذي نحن بصدد الحديث عنه، وعن جهوده، وتطبيق ذلك على سورة من سور القرآن.

وقد هدفت الدّراسة للوصول إلى أربعة أمور:

1 – التّعريف بالدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي كأحد أعلام الدّراسات القرآنيّة المعاصرة التّفسير وعلوم القرآن المعاصرين، والتّعريف بجهوده المتنوّعة في الدّراسات القرآنيّة، تأليفا وتحقيقا.

2 –التّعريف بأهمّ آراء وترجيحاتِه واختياراته في حقل الدّراسات القرآنيّة.

وقد اعتمدت في دراستي المنهجَ الوصفيّ التّحليلي، والإستقرائيّ، وذلك بعرضِ جهود الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، ومن ثمّ تطبيق ذلك على سورة الانفال دراسة تطبيقيّة.

أوّلا: القرآن والإعجاز: يعدّ التّعبير القرآني فريد في سموّه وعلوّه، فقد أبهر أهل الفصاحة والبيان فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله أبدا، وما قول الوليد بن المغيرة إلاّ شاهد لذلك حيث قال: (والله لقد سمعت من محمّد ﷺ آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثّمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه).[1]

والحق ما شهدت به الأعداء، ولقد انتبه علماء الإسلام لهذا الجانب العظيم القدر من جوانب الدّرس القرآني حيث كتبوا فيه كمّا كبير من الكتب، والمؤلّفات التي تكشف عن وجوه الإعجاز في كلام الله تعالى.

نذكر منها ما يلي:

- ثلاث رسائل في الإعجاز: تأليف الرّماني(386ه)، والخطابيّ (388ه) وعبد القاهر الجرجانيّ (471ه). والكتاب بتحقيق محمد خلف الله أحمد ود.محمّد زغلول سلام، ونشرته دار المعارف، مصر، القاهرة. وهذا الكتاب يقدم رؤّية متنوّعة لقضيّة الإعجاز القرآن ومحاولة لتفسير آيات التّحدي، والكتاب صغير الحجم، ولكن هذه الرّسائل الثّلاث مهمّة جدّا، وهي من أوائل المؤلّفات في إعجاز القرآن؛
- إعجاز القرآن للقاضي أبي بك محمّد بن الطّيب الباقلاني(403ه). يعتبر هذا الكتاب من أقدم وأجود الكتب المؤلّفة في إعجاز القرآن الكريم، وبيان وجه الإعجاز في القرآن. ومؤلّفه توفي عامّ 403هـ؛
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ(471ه) وهذا الكتاب من أمّهات كتب إعجاز القرآن، وهو الذي وضع فيه نظيرته (نظم القرآن) وأصبحت نبراساً لمن جاء بعده وصنف في إعجاز القرآن، وقد عرف عبد القاهر الجرجانيّ بهذه النّظريّة (نظريّة النظم) فيما بعد. والكتاب مهم جداً لكلّ باحث في إعجاز القرآن وأجود طبعاته الطّبعة التي حققها محمود محمّد شاكر؛

- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسّيوطي(911ه): يقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلّدات، وأجود طبعاته التي حقّقها علي محمّد البجاوي في دار الفكر العربيّ وليست التي عرضت غلافها هنا، والكتاب يستعرض فيه السّيوطي خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، ثمّ ختم الكتاب بفوائد كليّة. وهو كتاب قيم جدير بالقراءة؛
- النّبأ العظيم لعبد الله دراز: يعدّ من الكتب التي ألّفت في بيان الإعجاز بأسلوب علميّ رصين معاصر، ناقش صاحبه مسألة الصّرفة، والقوفِ على مصطلح الإعجاز؛
- أعجاز القرآن للدّكتور حسين نصار؛
- مؤلّفات الدّكتور فاضل السّمرآئي كتاب لتّعبير القرآني؛
- الإعجاز البلاغيّ: دراسة تحليليّة لتراث أهل العلم، للعلامة الدّكتور محمّد محمّد أبو موسى: وقد حرّر فيه عدة مسائل تتعلق بتعريف العلماء للإعجاز ورؤيتهم لوجه إعجاز القرآن، وأضاف الكثير من الأفكار لموضوع إعجاز القرآن؛
- جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور لــــ أمحمّد صافي المستغانمي الجزائري.

وغيرها من المؤلّفات والدّراسات العلميّة والأكاديميّة والبحوث والمقالات.

إلاّ أن الإلمام بجهود العلماء في الدّراسات القرآنيّة من الصّعوبة بمكان؛ وذلك أنّ هذا الجهد العريض يتطلّب عديد الدّراسات والبحوث والمسح للموسوعات والتّراجم، ولكن ما يكفينا بعض التّوصيف لفهم تطور هذا الدّرس وما حواه من

جوانب خادمة للقرآن الكريم كعلم القراءات والرّسم والتّفسير والإعجاز بأنواعه والاستنباط ... وفيما يلي الحديث عن عَلَمٍ من أعلام الدّراسات القرآنيّة، وذلك ببيان جهوده في هذا الحقل، ألا وهو الشّيخ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي.

ثانيا: أمحمّد صافي المستغانمي وجهوده في حقل الدّراسات القرآنيّة:

وإذا كان وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو الذّوق كما أشار إليه السّكّاكي في كتابه مفتاح العلوم، يذهب إلى أنّ الإعجاز شيء لا يمكن التّعبير عنه. إنّه شيء يدرك ولا يمكن وصفه، حيث يقول: «مدرك الإعجاز عندي هو الذّوق ليس إلاّ»[2]

فإنّي أرى أنّ الشّيخ صافي قد حصل له من الذّوق ما يفتح له الشّهية إلى مزيد التّأمل في كتاب الله تعالى.

ومن هذه الدّراسات التي تكشف لنا عن غزارة علم هذا الرّجل في الدّراسات القرآنيّة واللغويّة، والبيانيّة ما يلي:

- جواهر الدُّرر في مقارنات السّور؛
- حصّص تلفزيونيّة: بعنوان في رِحاب سورة؛
- بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم؛
- تصريف القول في القصص القرآني.

فالشّيخ حفظه الله لم يترك مجالا للاستناد عليه وعلى علمه الغزير المؤّصل، المتّصل بكتاب الله العظيم، فكلّ ما أقوله إنّما هو ثناء مستل من عمل يثني على نفسه.

ومن يدري ماذا سيكون بعد هذه الدّراسات في حقل الدّراسات القرآنيّة، وماذا سيرى الباحثون من عجائبه، فإنّ هذا الكتاب كما قال رسول الله ﷺ «وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ».[3]

ومن هذه الأوّجه الإعجازيّة في القرآن الكريم ما أشار إليه الدّكتور صافي في كتابه جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، عند قضية التّجاذب اللفظي لألفاظ القرآن ذلك أنّ القرآن الكريم له خصوصيّة في استعمال اللفظ، فقد اختصّ كثيرا من الألفاظ باستعمالات خاصّة في السّورة الواحدة ممّا يدل على قصد واضح بينٍ في التّعبير.

حيث تعتبر هذه النّظرة جديدة من النّظرات الكاشفة عن جوانب الإعجاز في النّص القرآنيّ، نظرة تخرجه من حيّز الدّراسات القديمة، إلى حيّز الدّراسات الحديثة، ترمي إلى تأسيس علم جديد يهتم بالأسر القرآنيّة أو ما يسمى علم مقارنات السّور.

ثالثا: إطّلاقات مفردة القرآن وعلاقتها بعلم مقارنات السّور:

التّعريف بالقرآن الكريم لغة: قصدت إلى هذه الجزئيّة والتي تظهر لأوّل الأمر أنّها حشو، للإشارة إلى أمر في غاية الأهميّة، وهذا ممّا يزيد هذه الفكرة والرّؤية التي أبدع فيها الباحث قوّة، ودعما.

أوّلا وبالرّجوع إلى معاجم اللغة والتّفاسيرِ التي تهتم بمعاني القرآنِ، تبيّن أنّ هناك أقوال:

الأوّل: أنّ القرآن اسم علم على كتابِ الله ليس مشتقّا، والثّاني: أنّه مشتقّ من فعل مهموز؛ وهو: (قرأ، اقرأ)، ويعني: تفهم، تفقّه، تدبّر، تعلّم، تتبّع، وقيل: تنسّك، تعبّد، وقيل: (اقرأ): تحمّل؛ فالعرب تقول: (ما قرأَتْ هذه النّاقَة في بطنها سَلا قطّ؛ أي: ما حملَت جنينا قط)؛ لسان العرب.

فالمعنى: تحمَّل هذا القرآن؛ بقَرِينةِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: 5] واستعن على تحمّل القول الثّقيل بقيام الليل ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[المزمل: 2]؛ وهو ما أمرَ به في أَوّل السّورة (ولقد حمّل اليهودُ التَّوراةَ فلم يحملوها).

الثّاني: من القرء، وهو الجمع والضمّ... وقيل: من فعل غير مهموز (بدون همزة)، وهو (قَرَن)؛ من قرنت الشّيء بالشّيءِ، وهو القران.

والثّالث: من القِرى (بكسرِ القاف)، وهو الضّيافة والكرم أو الإكرام؛ ففي حديثِ أبي هريرة عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّت بِهِمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[4].

وعن عَبْدِ الله بنِ مسْعودٍ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ»؛[5] فيقال: مأدبة بضمّ الدالِ وفتحها منَ الأدبِ قال القرطبيّ: وتأويلُ الحديثِ أنه مثل؛ شبَّه القرآن بصَنِيعٍ صنعه الله ﷻ للنّاسِ، لهم فيه الخيرُ والمنافع، ثمّ دعاهم إليه؛ يقال: مأدبة ومأدَبة؛ فمن قال: مأدبة، أراد الصّنيعَ

يصنعه الإنسان فيدعو إليه النّاس، ومن قال: مأدَبة، فإنّه يذهب به إلى الأدب، يجعله مفعَلة من الأدب.[6]

تلك بعض معاني (اقْرأ) تبين وجه المناسبة بين ما ذهب إليه الباحث في هذه الرّؤية مع معنى من أعنى القرآني وهو أنّ القرآن من مصدر قرن والذي يدل على الجمع والضمّ.

رابعا: مصطلح التّجاذب اللفظيّ عند أمحمّد صافي المستغانمي: أشار الكاتب في مقدّمة كتابه إلى مسألة مهمّة وهي التّجاذب اللفظيّ في السّور القرآنيّة، وقد ميّز هذا المصطلح عن غيره من المصطلحات التي قد تلتبس على القارئ بأنّها تعبّر عن معنى واحد وهي في حقيقة الامر تختلف لعدّة اعتبارات ذكرها.

مصطلحي التّجاذب اللفظيّ والمصاحبات اللغويّة والفرق بينهما:

أ- **المصاحبات اللغويّة**: وهذا المصطلح يعني: تكرر اصطحاب كلمات مع كلمات اخرى في سياق محدّد[7]، أو كما عرّفه بعضهم بقوله: الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معيّنة دون غيرها.[8]

ب- **التّجاذب اللفظيّ**: وهو تكرّر اصطحاب الكلمات أو المفردات التي يجمعها جذر لغويّ واحد. حيث قال صاحب كتاب جواهر الدُّرر: تجاذب الألفاظ التي يجمعها بناء لغويّ واحد، وهي التي تكون مشتقّة من مادّة معجميّة واحدة، حيث ضرب لذلك مثال فقال كمادة (علم) وما ينشق منها كعلام، عليم، عالم... وتكون مستعملة في سياق واحد متناغمة مع الجوّ العامّ للسّورة الواحدة.[9]

أسباب اختيار مصطلح التّجاذب اللفظيّ:

1. قصور مصطلح المصاحبات اللغويّة عن التّعبير عن الظّاهرة التي قصدها الكاتب، فهذا المصطلح يصدق على الالفاظ المترادفة، والمتقاربة في المعنى أو يجمعها سياق واحد أو العهد الذّهني بين المتخاطبين.

2. وهو أنّ مادة (جذب) التي تدلّ على المعنى المراد وقد أشار الكاتب إلى ذلك فقال: ذلك التّجاذب الذي يجده المتدبر للقرآن بين ألفاظه التي تصدر من مادة معجميّة واحدة.

3. أهميّة التّجاذب اللفظيّ في القرآن الكريم:

تكمن هذه الأهميّة فيما يلي:

- كونه وسيلة لتوجيه كثير من مسائل التّشابه اللفظي التي وردت في الذّكر الحكيم، ووقف عندها الباحثون مليّا قديما وحديثا متدبّرين ومتأمّلين؛
- كونّه يساعد في إيضاح الثّوب اللفظيّ للسّورة وأيقوناتها اللفظيّة التي تتردّد فيها، وتصبّغها بصبغتها التي يعرفها بها القرّاء والمستمعون.

خامسا: التّجاذب اللفظيّ في سورة الأنفال:

1- تعريف سورة الانفال.

1.1- تعريف السّورة: - تقرأ هذه الكلمة بقراءتين: السّورة، والسّورة، فالأولى تعني الرّفعة والمنزلة والشّرف[10] وهي مأخوذة من سورة البناء، ويقال سور المدينة: أي حائطها المشتمل عليها، وسورة القرآن، تشبيها بها لكونّه محاطا بها إحاطة السّور

بالمدينة، أو لكونّها كمنازل القمر، وهي المنزلة بعد المنزلة، وبه سمّيت سور القرآن لإجلاله ورفعته.[11]

وفي هذا يقول الشّاعر:

ألم تر أنّ الله اعطاك سورة   ترى كلّ ملك دونها يتذبذب[12]

- والثّانية(السّورة): بمعنى أسأرت، أي أبقيت منها بقيّة، وأفضلتها، والسّور الباقي.[13]

- أمّا في الاصطلاح: فهي طائفة مستقلّة من آيات القرآن، ذات مطلع ومقطع.

وعرّفت بأنّها قرآن اشتمل على آيّ ذي فاتحة وخاتمة، وأقلّها ثلاث أيات.

وسور القرآن أقسام منها الطّوال، والمئون، والمثاني، والمفصّل، قال ﷺ «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَمَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ وَمَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ».[14]

فالطّوال من القرآن سبع:(البقرة، آل عمران، النّساء، المائدة، الانعام، الاعراف واختلفوا في السّابعة فذهب قوم إلى أنّها يونس، وذهب آخرون إلى أنّها الأنفال وبراءة على اعتبار أنّهما واحدة).[15]

والمئون: ما كان عدد آياتها مائة أو تزيد أو تنقص منها شيء يسير.

والمثاني: هو ما ولي المئين من السّور التي دون المائة، والمفصّل: ما ولي المثاني من قصار السّور، وسمّي مفصّلا: إمّا لكثرة الفصل بـ بسم الله الرّحمان الرّحيم، وقيل

لقلّـة المنسـوخ فيـه، ولهـذا سـمّي محكـما، قـال ﷺ(إنّ الـذي تدعونـه المفصّـل هـوَ المُحكَم).[16]

1.2. **الأنفال**: بعد أن وقفنا عند مسمّى السّورة نأتي إلى مسمّى الأنفال، باعتبـار أنّ سورة الأنفال هي المقصودة بالبحث هنا.

لغة تطلق ويراد بها الغنيمة والهبّة[17]، قال ابن فارس:(النّون والفاء والـلام أصـل صحيح يدل على عطاء وإعطاء. منه النّافلة: عطيّة الطّوع من حيـث لا تجـب. ومنـه نافلة الصّلاة. والنّوافل: الرّجل الكثير العطاء.[18] ومن النّافلة ما يفعل تطوّعا، زيـادة على ما افترض.[19]

قال ابن عطيّة: (والنّافلة في كلام العرب: الزّيادة على الواجب، وسمّيت الغنيمـة نفلا، لأنّها زيادة على القيام بالجهاد، وحمايّة الدّين، والدّعاء إلى الله).[20]

أمّا في الاصطلاح: فهي بمعنى قول من قال: هي زيادات يزيدها الإمـام بعـض الجيش أو جميعهم إمّا من سلبه على حقوقهم من القسمة، وإمّا ممّا وصل إليـه بالنّفـل أو ببعض أسبابه، ترغيبا له وتحريضا لـمـن معـه مـن جيشـه عـلى مـا فيـه صـلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابـن عبـاس من أنّه الفرس والدّرع ونحو ذلك، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أنّ ذلك ما عاد مـن المشركين إلى المسلمين من عبد أو فـرس؛ لأنّ ذلـك أمـره إلى الإمـام إذا لم يكـن مـا وصلوا إليه لغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام، وقد يدخل فيه مـا غلـب عليه الجيش بقهر.

وإنّما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصّواب لأنّ النّفل في كلام العرب إنّما هـو الزّيـادة على الشّيء، يقال منه: نفلتك كذا، وأنفلتك: إذا زدتك.[21]

أسماؤها: الاسم الذي عُرفت به، وهو ما ورد في مطلعها: سورة الأنفال. وتكـرّر في فيها، ولم يرد في سورة أخرى غيرها، وممّا يدل على ما ورد في السّـنة النّبويـة: عـن سعد بن أبي وقاص، قال: لما كـان يـوم بـدر قتـل أخـي عمـير، وقتلـت سـعيد بـن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به نبي الله ﷺ قـال: «اذهـب فاطرحه في القبض» قال: فرجعت وبي ما لا يعلمـه إلاّ الله مـن قتـل أخـي، وأخـذ سلبي، قال: فما جاوزت إلاّ يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك».[22]

- **وجه التّسميّة:** أخرج البخاريّ، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابـن عبـاس سورة الأنفال، قال (نزلت في بدر) فباسم الأنفال عرفت بين المسـلمين، وبـه كتبـت تسميّتها في المصحف حين كتبت أسماء السّور في زمن الحجاج، ولم يثبّت في تسميّتها حديث، وتسميّتها سورة الأنفال من أنّها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال، ومـن أجـل أنّها ذكر فيها حكم الأنفال.

مسميّات أخرى: إضافة إلى اسم الأنفال، هناك أسماء أخـرى اجتهاديّـة سـميّت بها هذه السّورة.

-**سورة بدر**: وما يدل على هذه التّسمية، ما أخرج أبو الشّيخ عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ﴿سورة الأنفال﴾ قال (تلك سورة بدر) ووجه التّسمية: أنّ معظمها في ذكر حرب بدر، وما جرى فيها.

-سورة الجهاد: وذكر هذا الاسم الإمام البقاعيّ(ت:885هـ) في نظّم الدُّرر فقال: (قالوا: ومن السّنة التي سنّ رسول الله ﷺ بعد بدر أن نقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الأنفال).[23] أمّا سبب قراءتها ما ذكره ابراهيم البقاعيّ(ت:885هـ) أيضا حيث قال: (واسمها الجهاد كذلك لأنّ الكفار دائماً أضعاف المسلمين، وما جاهد قوم من أهل الإسلام قطّ إلاّ أكثر منهم، وتجب مصابرة الضّعف، فلو كان النّظر إلى غير قوّته سبحانه ما أطيق ذلك، ولهذه المقاصد سنّت قراءتها في الجهاد لتنشيط المؤمنين للجلاد، وإنّ كثّرت من الأعادي الجموع والأعداد، وتوالت إليهم زمر الأمداد من سائر العباد).[24]

ووجه التّسمية: أنّ موضوع السّورة الرّئيسي يتحدّث عن الجهاد وأحكامه،[25] فسمّيت باسم موضوعها وهذا في كلّ سور القرآن.

هل هذه الأسماء اجتهاديّة أم توقيفيّة؟

إنّ ما عليه جمهر العلماء أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفيّة في مجموعها، ودليل ذلك أنّ جبريل عليه السلام كان يعلم النّبي ﷺ، ويأمره بأنّ يضع كذا بموضع السّورة كذا ويسمّيها باسمها، من ذلك ما جاء أنّ النّبي ﷺ قال لعمر رضي الله عنه لما كرّر السّؤال عن الكلالة (يا عمر ألاّ تكفيك آيّة الصّيف التي في أواخر سورة النّساء)[26] والآية هي:

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾[النّساء :176].أمّا باقي الأسماء فقد اختلف فيها العلماء إلاّ أنّ الرّاجح فيها أنّها اجتهاديّة، والظّاهر أنّه لا يجوز التّوقيف إلاّ من النّبي ﷺ، والمراد الاسم الذي تذكر به، وإلاّ فقد سمى جماعة من الصّحابة والتّابعين سورا، بأسماء من عندهم كما سمى حذيفة التّوبة: بالفاضحة، وسورة العذاب، وسمى سفيان بن عيينة الفاتحة: بالوافيّة، وسماها بحر ابن أبي كثير: بالكافيّة، لأنّها تكفي عمّا عداها.[27]

ومنهم من اعتبرها توقيفيّة كما فعل الزّركشي: (ينبغي البحث عن تعداد الأسامي: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات فإنّ كان الثّاني فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كلّ سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسماء لها. وهو بعيدّ قال: وينبغي النّظر في اختصاص كلّ سورة بما سميّت به ولا شكّ أنّ العرب تراعي في كثير من المسميّات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشّيء من خلق أو صفة تخصه أو يكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرّائي للمسمى. ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطّويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن كتسميّة سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصّة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها.[28]

2. **الموضوع العامّ لسورة الأنفال:**﴿سورة الأنفال﴾ نزلت تحكيّ أحداث غزوة بدر، في مشهد تفصيليّ، لما جاء مجملا في سورة ﴿آلـ عمران﴾، حيث تناوّلت السّورة

أيضا العديد من الأحكام فيما يتعلّق بالحرب والسّلم مع الكفار، كما أنّها اشتملت على موضوعات دعويّة وتربويّة... وغيّرها.

3- تطبيقات في ﴿سورة الأنفال﴾:

3.1. مادة دابر ودبر والأدبار ومدبرين: لما ذكر الله المسلمين بما أيدهم يوم بدر بالملائكة والنّصر من عنده، وأكرمهم بأنّ نصرهم على المشركين الذين كانوا أشدّ منهم وأكثر عددا وعددا، وأعقبه بأنّ أعلمهم أن ذلك شأنّه مع الكافرين به اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والقرار، فالجملة معترضة بين جملة:﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12] وبين جملة ﴿فلم تقتلوهم﴾ [الأنفال: 17] الآية وفي هذا تدريب للمسلمين على الشّجاعة والإقدام والثّبات عند اللقاء وهي خطة محمودة عند العرب لم يزدها الإسلام إلاّ تقويّة.[29]

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الانفال:16]

فمادة دبره: قرأها الجمهور «دبُره» بضم الباء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «دبْره» بسكون الباء[30].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ (الأنفال:15).

و (الأدبار) جمع دبر (بضمتيّن) وهو الخلف، ومقابله القبل بوزنه وهو القدام ولذلك يكنى بهما عن السّوأتين، وتولية الدّبر والأدبار عبارة عن الهزيمة؛ لأنّ

المنهزم يجعل خصمه متوليّا ومتوجّها إلى دبره ومؤخّره، وذلك أعون له على قتله إذا أدركه.[31]

لكن سرّ التّعبير بهذه المفردات في سورة الانفال التي فصلت لنا في مشهد متكامل لغزوة بدر، ليس عبثا و إنّما لقصد وسرّ إعجازيّ عظيم، أنّ هذا التّناغم بين التّناغم بين مصطلح الإدبار الذي في هذه الآية متمكنة الفصاحة، لأنّها بشعة على الفار ذامة له، إذ تصفه بأبشع صور الخذلان والضّعف والتّولي يوم الزّحف.

3.2 مادة يشاقّ ويشاقق: ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [**الأنفال**: 13].

فـ: (يشاقّ) و (يشاقق) وهما لغتان: الفكّ لغةُ الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرّسول ﷺ فكّ الإدغام. وحيث لم يرد ذكْرُ الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدغم. قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [**الأنفال**: 13] .

وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ [النساء: 115]، في حين قال﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر: 4] .

ولعله وحّد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنّه ذكر الله وحده وفكّهما وأظهرهما لأنّه ذكر الله والرّسول فكانا اثنين.

وخصوصيّات الاستعمال القرآنيّ كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لنتبيّن (القصد) والدّقة في اختيار ألفاظ القرآن.

ومع هذا الاستعمال الرّياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتّعبير القرآنيّ هو في قمّة الأدب والفنّ.

فإنّك إذا نظرت إلى أيِّ ضرب من ضروب التّعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نُبوٌّ ولا اختلاف.[32]

3.3. **مادة يعذبهم ومعذبهم:** ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 33].

فانظر كيف أنّه تعالى عبّر في الأولى بالفعل فقال (ليعذبهم) والثّانية بالاسم فقال (مُعَذِّبهم) ومعنى ذلك أنّه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرّسول بينهم فإنّه – أي العذاب – موقوتٌ ببقائه بينهم. فذكر الحالة الثّابتة بالصّيغة الاسميّة والحالة الموقوتة بالصّيغة الفعليّة وهو نظير قوله تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: 59] فالظّلم من الأسباب الثّابتة في إهلاك الأمّم فجاء بالصّيغة الاسميّة للدّلالة على الثّبات، ثمّ انظر كيف جاءنا بالظّلم بالصّيغة الاسميّة أيضاً دون الفعليّة فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظّلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السّيئ.

فانظر كيف ذكر أنّه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنّه لا يهلكهم إلاّ إذا كان الظّلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنّه جاء بالاستغفار بالصّيغة الفعليّة (يستغفرون) وجاء بالظّلم بالصّيغة الاسميّة (ظالمون).[33]

هذا سرّ من أسرار هذا الكتاب المكنوزة، التي تدعوا إلى هـذا التّنـوّع في توظيـف مفردات هذه السّورة القرآنيّة.

4.3. مـادة جنحـوا واجـنح: قـال تعـالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[الأنفـال: 61].

تأتي بهذه الآية الكريمة كانتقال من بيان أحوال معاملـة العـدو في الحـرب: مـن وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحلّ المسلمون العهـد معهـم إنّ خـافوا خيـانتهم ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين، والأمر بالاستعداد لهـم إلى بيـان أحكـام السـلم إن طلبوا السّلم والمهادنة، وكفوا عن حالة الحرب.

فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السّلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

والملاحظ في الآية القرآنيّة استعمال لفظة الجنوح:

والجنوح: الجيم والنّون والحاء أصل واحد يدل على الميل والعدوان. ويقال جنح إلى كذا، أي مال إليه. وسمي الجناحان جناحين لميلهما في الشّـقين. والجنـاح: الإثـم سمّي بذلك لميله عن طريق الحقّ.[34]

والجنوح الميل، وكلّ مائل إلى الشّيء فقد جنح إليـه.[35] وهـو مشـتقّ مـن جنـاح الطّائر: لأنّ الطّائر إذا أراد النّزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الـذي ينـزل منه، ومن الامتداد إلى جانـب وشـق جـاء معنـى الميـل، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] - أي مالوا كما يميـل الإنسـان في جانـب وشِـقّ. يقـال: (أنـا إليـك بجُناح - كغراب: أي متشوق) (أي مائل جدًّا).[36]

فمعنى وإنّ جنحوا للسّلم إن مالوا إلى السّلم ميل القاصد إليه، كما يميـل الطّـائر الجانح. وإنّما لم يقل: وإنّ طلبوا السلم فأجبهم إليهم، للتّنبيه على أنّـه لا يسـعفهم إلى السّلم حتى يعلم أن حالهم حال الرّاغب، لأنّهم قد يظهـرون الميـل إلى السّـلم كيـدا فهذا مقابل قوله: وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إلـيهم عـلى سـواء [الأنفـال: 58] فإنّ نبذ العهد نبذ لحال السّلم.

واللام في قوله: للسّلم واقعة موقع (إلى) لتقويّة التّنبيه عـلى أنّ مـيلهم إلى السّـلم ميل حقّ، أي: وإن مالوا لأجل السّلم ورغبة فيـه لا لغـرض آخـر غـيره، لأنّ حـقّ جنح أن يعدى ب (إلى) لأنّه بمعنى مال الذي يعدى بإلى فلا تكون تعديته باللام إلاّ لغرض، وفي (الكشاف): أنّه يقال جنح له وإليه.

وقوله: فاجنح لها جيء بفعل اجنح لمشاكلة قوله جنحوا...[37].

خاتمـــة: الحمد لله أوّلا وآخرا على ان وفقنا لإتمام هذا البحث، حيث الوقوف عند علم من أعلام الأمّة، لدراسة منهجه في جانب مهـم مـن جوانـب الدّراسـات الإسلاميّة، ألاّ وهو الدّرس القرآني.

لقد عرفـت الشّـيخ صـافي منـذ حـوالي(7سـنوات)، عرفتـه مدرّسـا ومحـاضرا وخطيبا في مساجد ولاية مستغانم، تلك الدّروس والمحاضرات التي لا تخـرج عـن إطار القرآن الكريم في بيان أوجه الإعجاز والبلاغة في كتاب الله تعالى، وكـذا وجـه المناسبة بين السّورة والسّورة، والآية وأختها فقد وجدته عالماً مختلفـا، صـاحب رأيّ واجتهاد، ونظرٍ وتحقيق.

إلى أن جاءت هاته الفرصـة السّـانحة والتـي احتضـنتها كليّـة الآداب والفنّـون بجامعة مستغانم، للوقوف على جهـود هـذه القامّـة العلميّـة، وكـذا للاحتكـاك بـه مباشرة، ولا يعرف الفضل وأهله إلاّ ذووه. فكلّ الشّكر لمن فكر ودبّر لإنجاح هـذا العرس العلميّ.

أمّا النّتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدّراسة: فسأكتفي بالإشـارة إليهـا اختصارا:

1- هذه المقاربة التي أشار إليها أمحمّد صافي المسـتغانمي، تحيلنـا عـلى أنّ هنـاك روابط تربط بين الألفاظ والسّور القرآنيّة، مكوّنـة بـذلك أسرا قرآنيّـة تتناسـب مـع المحور العامّ للسّورة.

2- علم المقارنات السّور عند أمحمّد صافي المستغانمي علـم حـديث يحتـاج إلى مزيد تـدقيق وبحـث، ومـا كتـاب (جـواهر الـدُّرر في علـم مقارنـات السّـور) إلاّ إضاءات منه لهذا المولود الجديد.

3- اختيـار الباحـث لمصـطلح التّجـاذب وعدولـه عـن المصـاحبات اللغويّـة لأسباب مقّنعة ذكرها.

4- عدول الباحث عن مصطلح التّرادف إلى مصطلح التّقارب، ينم عن خلفيّة لديه في أنّه لا ترادف في القرآن، أي أنّ مفردة دالة على معنى خاصّ بها، وهذا ذهـب إليه الكثيرون كأبي هلال العسكريّ، والبيضاويّ وابن فارس... وغيرهم.

5- من فوائد التّجاذب اللفظي أنّه يسهم في توضيح المعنى، وتقريبه للقارئ.

6- التّجاذب اللفظيّ قاعدة مهمّة من القواعد المساعدة في العمليّة الاسـتنباطيّة من القرآن الكريم.

7- التّناسق والتّناغم بين ألفظ ومفردات سورة القرآن (مادة شـقّق، مـادة دبّـر مادة عذب، مادة جنح) يدل على أنّ هذا الاستعمال لهذه المفردات لـيس عبثـا، وإنّـما هو خادم للمعنى العامّ.

وأختم كلامي بذكر التّوصيات التّالية، وهي عبارة عن مجموعة من الدّعوات:

1-دعـوة للبـاحثين في القـرآن وعلومِـه لمواصـلة الجهـود العلميّـة التـي بـذلها المتقدمون.

2 – دعوة لأستاذنا الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي لمواصلة إخراجِ ما عنده من تراث علميّ في هذا الجانب من جوانب الإعجاز القرآني لا سيما في علم مقارنات السّور.

3 –دعوة للجامعات والمراكزِ والمخابر البحثيّة لاحتضان مثل هذه الجهود...

4 –دعوة للعلماء والمشتغلين بكتاب الله تعالى للسّعي الجادّ في إنضاج نظريّة علميّة متكاملة في حقل الدّراسات القرآنيّة؛ انطلاقا ممّا بدأه الأوّلون وانتهاء إلى ما وصل إليه المتأخرون كأمثال أمحمّد صافي المستغانمي في رؤيته الجديدة المقترحة حتى تستوي هذه الدّراسات على ساقها كدّراسات علميّة دقيقة تساعد على استنباط من القرآن الكريم؛ فتكون مرجعيّة علميّة للدّارسين والباحثين في كتاب الله تعالى.

5 –دعوة لطلاب العلم أن يسلكوا نفس الطّريقِ في دراسة جهود مشايخهم وكبار أساتذتهم؛ أثناء حياتِهم، لِما في ذلك من فوائد تعود على البحث والباحث والأساتذة أيضا.

والله أسأل أن يحقق بغيتيّ... بصواب قول واكتساب ثواب ويكون هذا البحث مني خالصاً... ألقاه عند الحقّ يوم حسابي يا ربّ فاقبل فيك سعيّ واهدني... وارحم جميع الصّحب والأحباب...

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ؛

وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

الإحالات والمراجع:

1 -أحمد أحمد غلوش، السّيرة النّبوية والدّعوة في العهد المكي، النّاشر: مؤسّسة الرّسالة، غط1 1424هـ-2003م، ص565.

[2]- خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة، عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني (المتوفى: 1429هـ)، مكتبة وهبة، ط1، 1413 هـ - 1992 م، 1/ 182.

[3]- أخرجه التّرمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميّ-بيروت- 1998، باب ما جاء في فضل القرآن الكريم، حديث رقم:6029، 5/ 22.

[4]- أخرجه أبو داود في سننه باب ثواب قراءة القرآن، حديث رقم: 1455، 2/ 71.

[5]- أخرجه الطّبراني في المعجم الكبير، حديث: 8642، 129/ 9.

[6]- ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، ط3 1421هـ- 2000م، ص15-16. جمع القرآن (دراسة تحليليّة لمروياته) (أصل الكتاب رسالة علميّة، بكلية العلوم الإسلاميّة -جامعة بغداد، أشرف عليها الدّكتور عمر محمود حسين السّامرائي)، لـ: أكرم عبد خليفة حمد الدّليمي، دار الكتب العلميّة بيروت، الطّبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006م، ص18-19.

[7]- جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، أمحمّد صافي المستغانمي، ص34.

[8]- علم الدّلالة، أحمد مختار عمر: ص74.

[9]: ينظر: جواهر الدُّرر ص35.

[10]-ينظر: تهذيب اللغة،13/ 36، ومقاييس اللغة، 3/ 115، المعجم المؤصّل الاشتقاقيّ،2 / 987.

[11]-المفردات في غريب القرآن، للأصفهانيّ(ت:502ه)،1/ 433، تهذيب اللغة، 13 /36.

[12]- البيت للنّابغة الذّبياني ديوانه، ص18.

[13]-المصدر نفسه،1/ 434، وينظر تهذيب اللغة،13/ 34.

[14]- اخرجه أحمد في مسنده عن وائلة بن الأسقع، حديث رقم (8003)، 28/ 188. والطّبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (1698)،22/ 75. وابيهقي في السّنن الصّغير، حديث رقم (962)،1/ 341.

[15]-ينظر أسماء السّور وفضائلها، منيرة محمّد ناصر الدّوسري، تقديم: محمّد بن عبد ارحمانبن سليمان الرّومي، دار ابن الجوزي، ط1، 1462ه.

[16]-اخرجه البخاريّ في باب فضائل القرآن، باب تعليم الصّبيان القرآن، حديث رقم (5035)، 6/ 429.

[17]- ينظر: العين8/ 325، مقاييس اللغة، 5/ 455.

[18]- مقاييس اللغة :5/ 455.

[19]- المعجم المؤّصل الاشتقاقيّ، 4/ 2231.

[20]- ينظر: المحرّر الوجيز،2/ 496.

[21]- ينظر: جامع البيان للطّبري، 13/ 366.

[22]- أخرجه أحمد في المسند، مسند ابي اسحاق سعد ابن ابي وقاص، حديث رقم 1556، 3/ 129. والبزار في المسند، حديث رقم: 1239، 4/ 72.

[23]- نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسّور، إبراهيم البقاعيّ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، ج8 ص215.

[24]- المصدر نفسه، ج8، ص215.

[25]-المصدر نفسه، ج8، ص214.

[26]- اخرجه مسلم في كتاب الفرائض-باب ميراث الكلالة-حديث رقم (1617)،3/ 1236.

[27]- التّحبير في علم التّفسير للسّيوطي، ص369.

[28]- البرهان في علوم القرآن، الزّركشي (المتوفى: 794هـ)، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابىّ الحلبي وشركائهن، ط1 1376 هـ - 1957 م، 1/ 270.

[29]– محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسي (المتوفى: 1393هـ)، التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر– تونس، 1984 هـ/ 9/ 286.

[30]– بن عطيّة الأندلسيّ المحاربيّ (المتوفى: 542هـ)، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة– بيروت ط1 – 1422 هـ..2/ 510.

[31]– رشيد رضا (المتوفى: 1354هـ)، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م،9/ 512.

[32] – فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السّامرائي، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ.

[33]– **أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، فاضل السّامرائي، ص**03.

[34]– مقاييس اللغة بن فارس (المتوفى: 395هـ)، تح: عبد السّلام محمّد هارون النّاشر: دار الفكّر عامّ النّشر: 1399هـ – 1979م.1/ 484.

[35]– جمهرة اللغة بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) تح: رمزي منير بعلبكي دار العلم للملايين– بيروت، ط1، 1987م 1/ 442.

[36]– محمّد حسن حسن جبل، المؤّصل الاشتقاقيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010 م. 1/ 344.

[37]– ينظر: التّحرير والتّنوير، 58–59/ 10.

التّفكير التّداولي عند أمحمّد صافي المستغانمي من خلال كتابه (الخطيب النّاجح).

د. دلال وشن
ج.حمّة لخضر، الوادي

الملخص: يحاول المقال وصف واستقراء كتاب (الخطيب النّاجح) للعلامة أمحمّد صافي المستغانمي، واكتشاف ما فيه من ملامح تفكير تداولي كما ورد في كتب السّابقين وكما جاء في كتب مؤسّسيها أوستن وسيرل من المحدثين.

وستحاول الدّراسة كذلك مقارنة ما جاء به العلامة أمحمّد صافي المستغانمي، من آليات وإجراءات تتعلّق بالخطابة والخطيب وبما قدّمته التّداوليات المعاصرة في مجال نظريّة المحادثة والحجاج وفق المقاربة التّداولية الجدليّة.

"وإذا أصيب القوم في أقوالهم فأقم عليهم مأتما وعويلا"

أمحمّد صافي المستغانمي(الخطيب النّاجح).

"من كانت له عصبيّته الويل لمن يخالفه، لكن الظّفر بقواطع، الحجج أقوى من الظّهور بالعصبيّة، لأنّ العصبيّة يطويها الزّمان وقول الحقّ لا يطويه زمان ولا سلطان".

طه عبد الرّحمن(تجديد المنهج في تقويم التّراث).

مقدّمة:

1 - **الخطابة ومكانتها عند العرب وفي الإسلام:** خلق الإنسان بطبعه اجتماعيّا مدنيا يحتاج إلى الاجتماع بغيره والتّكلّم والمعاشرة، فكان التّواصل وكانت اللغة أفضل وسائل هذا التّواصل، ولمّا تطوّر الإنسان وشكّل المجتمعات تطوّرت طرائق تواصله وطرائق استعماله اللغويّ. فأوجد فنّون القول من شعر ونثر وطوّرت هذه الفنّون كلما تقدّمت الحياة واختلفت الغايات وتشعّبت الأهداف.

واشتهر الإنسان العربي دون غيره من النّاطقين باللغات بفصاحة لسانه وقوّة بيانه وتفرُّدِ ملكته تفرُّدَ لغته العربية وتميّزها، فكان الشّعر ديوان العرب أقيمت له الأسواق وتنافس في نظمه فحول الشّعراء وسادة البيان.

ولم يكن النّثر في تاريخ العرب أقل شأنا من الشّعر إذ اشتهر العرب بالوصايا والمقامات والخطب... وعلا شأن هذه الفنّون النّثرية بمجيء الإسلام ونزول القرآن بلسان عربيّ مبين. وازدادت ملكة العربيّ قوّة ومتانة ولغته حسنا وبهاءً بتحدّي القرآن الكريم له في ذلك.

ولعلّ الخطابة قد أخذت حصّة الأسد من التّميّز والاهتمام بشأنها بعد مجيء الإسلام وذلك للحاجة المسيسة لها في نشر الرّسالة المحمّدية، إذ تعدّ واحدة من الوسائل الفعّالة في ذلك، ويكفيها تميّزا وبهاء بين كلّ فنّون القول أنّ الرّسول ﷺ قد اتخذها سلاحا في دعوته وفي التّأثير على النّاس واعتناق الإسلام واتباع دين الحقّ. وقد كان لنا في رسول الله الأسوّة الحسنة ـ بتعبير العلاّمة أمحمّد صافي ـ.

" فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم وأكرمه ربّه عزّ وجلّ بمقدرة خطابيّة فائقة وموهبة بيانيّة سائقة رائقة، استطاع من خلالها مخاطبة أهل مكّة ويثّرب وغيرهم من القرى والقبائل العربية الفصيحة بلسان يفوق ما ألفوه "[1].

وللخطابة تاريخ عريق منذ عهد اليونان والرّوم في القرن الخامس (ق 5 ق.م) قبل الميلاد عند الإغريق أشهرهم أرسطو صاحب كتاب (الخطابة)، كما عرفت الخطابة في العصر الرّوماني نشاطا جيّدا ومتميّزا وفتحت لها المدارس في روما وغيرها. ثمّ عند العرب في الجاهليّة والإسلام، فارتبطت في الجاهليّة بالحميّة والعصبيّة الجاهليّة وشنّ الغارات والمدافعة عن النّفس والمال.

أمّا في الإسلام فازداد الاهتمام بالخطابة بازدياد الحاجة إليها، والعصر الإسلاميّ مقسّم على مراحل ثلاث هي:

- مرحلة صدر الإسلام؛
- المرحلة الأمويّة؛
- مرحلة العصر العبّاسيّ.

وواكبت الخطابة أحداث هذه العصور بما تميّز به كلّ عصر وكلّ مرحلة من تطوّرات وتغيّرات في الدّولة والمجتمع[2].

أمّا الخطابة في العصر الحديث فأصبحت واحدة من الضّرورات التي يجب أن يتسلّح بها كلّ من يروم إيصال أفكاره إلى الجمهور، واستمالتهم والتّأثير في سلوكهم. وقد أشار إلى ذلك العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي في (الخطيب النّاجح)

بقوله: "من هنا كان لزاما على كلّ من ينبري للدّعوة الإسلاميّة في العصر الحديث أنّ يتسلّح بفنّ الخطابة فهو وسيلة الإقناع والإمتاع والسّلاح الجبّار لتحقيق النّصر على مستوى النّفوس والعقول والأفكار، وإذا انتصر الإسلام في السّاحة الفكريّة والعقليّة فإنّ النّصر يكون حليفه في المجالات الأخرى، ولسوف تعود رايته خفاقة من جديد وما ذلك على الله بعزيز"[3].

2- **كتاب الخطيب النّاجح في سطور**: يعدّ كتاب الخطيب الناجح للعلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي درّة من درر كتب العربيّة في الفترة المعاصرة، بما ضمّه من مداخل وفصول ومباحث دقيقة تتعلّق بالخطابة والخطيب، والتي من شأنها أن تفيد الباحث المتخصّص وغير المتخصّص.

جاء كتاب الخطيب النّاجح في حلّة أنيقة ولغة جذابة وأسلوب بديع ينمّ عن باحث جادّ أصيل محبّ للعربيّة متمكّن مطّلع على كلّ صغيرة وكبيرة من أصولها، باحث سَبَرَ أغوارها، فإذا كانت العربيّة بحرا فإنّ العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي كان خير غوّاص صال وجال في أحشائها فاستكشف مكامنها وأخرج ما في جعبتها من دُرر وصدفات ليكون كتاب الخطيب النّاجح.

أمّا عن الأسباب التي دفعت العلاّمة صافي إلى معالجة موضوع الكتاب هي:

أوّلا: حبّه للعربيّة وعشقه لجمالها وشغفه بقواعدها، فأراد أن يكون بما قدّمه ويقدّمه حتى اليوم واحدا من حماة صروحها وأمجادها، ومدافعا عن لغة القرآن

الكريم التي سحرت البلغاء بجزالة ألفاظها وإحكام نظمها وروعة تناسقها وسحر أصواتها وقوّة أساليبها وتراكيبها.

ثانيا: وهو سبب أكاديميّ بحت حاول من ورائه العلاّمة صافي أن يقيّم ويقوّم الخطابة والخطيب، بما وضعه من منهج علميّ موضوعيّ يهدف إلى أن يكون هذا الفنّ مقنّنا دون إفراغه من محتواه التّشويقي، حتى يحقّق الأهداف المرجوة منه. وقد صرّح العلاّمة أمحمّد صافي بهذا السّبب الرّئيس قائلا:" وإنّ الذي حرّك أشجاني ودفعني إلى كتابة هذه السّطور حول الخطيب النّاجح أني رأيت السّواد الأعظم من خطباء المساجد والمحافل اليوم خِلْوًا من زاد فنّ الخطابة، يعتلون المنابر وبضاعتهم من العلم الشّرعي مزجاة، وحظّهم من اللّسان العربي قليل، بل لا أكون مبالغا إذا قلت إنّ أعدى أعدائهم النّحو العربي، حيث يلجأون إلى العاميّات والرّطانات ظنّا منهم أنّهم يلطفون بها خطبهم، مستهينين بالعربيّة الفصحى وأبنائها"[4].

وقبل الخوض في ملامح الفكر التّداولي في مؤلّف الخطيب النّاجح، فإنّ الضّرورة المنهجيّة والمنطقيّة تفرض علينا التعريج على محتوى هذا الكتاب بفصوله ومباحثه، وقبل ذلك عنوانه الكامل الذي يعدّ عتبة نصيّة تخبرنا عما جاء به.

يقع كتاب الخطيب النّاجح للعلاّمة أمحمّد صافي في (370ص) ثلاثمئة وسبعين صفحة، صدرت طبعته الأولى سنة (1438ه) ثمانيّة وثلاثين وأربعة عشرة للهجرة الموافق ل(2017م) سبعة عشر وألفين ميلادي، عن دار ابن كثير ببيروت ويضمّ

الكتاب مقدّمة ومدخلا وفصلين ويضمّ كلّ فصل مباحث ومطالب عدّة تجمع بين الحديث عن الخطابة والخطيب.

والعنوان الكامل للكتاب هو:" الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع"، ويظهر جليّا أنّ العلاّمة أمحمّد صافي ومنذ البداية قد أعلن أنّ الكتاب يتناول جانبين:

- **الجانب الأوّل**: يهتمّ بكلّ ما من شأنه أن يؤدي وظيفة الإقناع والتّأثير في المستمع واستمالته بما أوتي من وسائل لغويّة وبيانيّة ووسائل غير لغويّة كالإشارات والإيماءات ... وغيرها، ووسائل الإقناع فيها ما يتعلّق بالخطبة ولغتها، وفيها ما يتعلّق بالخطيب في ذاته وكفاءته اللغويّة والتّداولية، ثم ّمظهره الخارجيّ؛

- **الجانب الثّاني**: وهو الحديث عن وسائل الإمتاع في الخطبة، فإذا كان الهدف هو استمالة المستمع ومحاولة إقناعه بموقف معيّن والتّأثير فيه، فإنّه لن يتأتى ذلك إلاّ بأسلوب ممتّع يبعده عن الملل ممّا يسمع، ويجعله في حالة أهبة واستعداد لما سيسمع وتشوّق وشغف للمزيد منه.

وهذا لا يجيده إلاّ الخطيب الحاذق الذي عليه أن يعلم عيوب الخطبة وطرائق معالجة أدوائها، والاطلاع على تجارب السّلف ممّن سبقوه في هذا المجال واتباع نصائحهم ووصاياهم الفنيّة والتّقنية المتعلّقة بفنّ الخطبة.

وقد أسهب العلامة أمحمّد صافي في هذا الجانب، فنقّب وتأمّل وصنّف وتفنّن في تقديم الأمثل في هذا الجانب، فاختار من الخطب أروّعها وأجوّدها، واختار من

وصايا السّلف الصّالح أمتعها وأنفعها ليقدّمه للخطيب المعاصر في طبق خطابيّ مميّز وممتاز.

قدّم الدّكتور صافي نماذج لخطب عربيّة من أروع الخطب في العصور العربيّة الزّاهرة بدءً بخطب الجاهليّة الغرّاء (كخطب عبد المطلب بن هاشم، خطب وفود العرب على كسرى، خطبة أكتم بن صيفي، خطبة قيس بن ساعدة الإيّادي...). ثمّ عرّج على روائع الخطب في العصر الإسلاميّ الرّاشديّ، ولا أروع في هذا العصر من خطب المصطفى ﷺ الذي يعدّ حجّة البيان وفارس البرهان، وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيّ يوحى. بالإضافة إلى نماذج من خطب الصّحابة كأبي بكر الصّديق، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان...).

كما تناول في مبحث مستقلّ خطب العصر الأمويّ، كخطبة معاوية بن أبي سفيان وخطبة يزيد بن معاوية، خطبة السّائب بن مالك الأشعريّ، خطبة السّيدة زينب بنت عليّ. يليه خطب من العصر العباسيّ ثمّ الخطب الأندلسيّة: كخطب أبي جعفر المنصور، خطبة هارون الرّشيد، خطبة طارق بن زياد. أمّا من العصر الحديث فقد اختار الدّكتور صافي خطبة لمصطفى كامل، وخطبتين لرّائد الإصلاح في الجزائر البشير الإبراهيمي، وخطبة للإمام محمّد الغزالي[4].

3- **الخطابة بين مفهوم أمحمّد صافي والتّداوليات المعاصرة:** يروم هذا المبحث التّوصّل إلى تعريف الخطابة وأهمّ مقوّماتها كما هي في فكر العلاّمة أمحمّد صافي

وسيتمّ ذلك بالتّعرّض لتعريفها لغة واصطلاحا عند غيره ثـمّ التّعمّـق فـيما أتـى بـه وأبدع الدّكتور المستغانمي.

أ/ تعريف الخطابة لغة: خَطَبَ يخطُبُ، خطابَةً فهـو خطيـبٌ، والجمـع خطبـاء. نقول خطبَ في الجمهور ألقـى حـديثا أي خُطبـةً، خطـبَ الإمـام في المصـلّين يـوم الجمعة: وعظَهم. والخطاب: كلام يحمل شكوى أو تذمُّرا يكون القصـد منـه إثـارة انتباه المسؤولين[6].

أمّا الدّكتور صافي ففي تعريفه للخطابة لغة قال: "الخطابـة فـنّ محـاورة الجماهـير وإقناعهم واستمالتهم وهي مادّة (خ، ط، ب) ولها في العربيّة معان"[7]، ثمّ ركّـز عـلى ما جاء في معجم مقاييس اللغة لابـن فـارس قـال:" الخـاء والطّـاء والبـاء أصـلان أحدهما الكلام بين اثنين (المخاطبة بين اثنين)، (الخطبة النّكاح بين اثنـين) (الخطبـة الكلام المخطوب به ويكون بـين اثنـين فـأكثر). (الخَطـبُ الأمـر يقـع بـما فيـه مـن التّخاطب والمراجعة). أمّـا الأصـل الآخـر: فـاختلاف لـونين (اخـتلاف لـونين في الأتان والحمار، خَطباءُ وأَخطبُ. كما أشـار إلى الاسـتعمال المجـازي لمـادة (خطـب) وإلى ما جاء في أساس البلاغة من استعمالات مجازيّة للّفظ مثل: فلانٌ يخطـب عمـل كذا: يطلبه، أخطبك الصّيد فارمه: أكثبـك وأسـكنك، أخطبـك الأمـر: وهـو أمـرٌ مُخطِبٌ، ومعناه أطلبك من طلبت إليه حاجة فأطلبني...[8]

ومادة (خطب) في القرآن فيذكر الدّكتور صافي مواضـع كثـيرة وآيـات كريمـة ورد فيها لفظ (الخطاب) بمعنى الكلام منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ

نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [23] وورد في تفسير الآية ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [23] أي غلبني في المكالمة.

ب/ تعريف الخطابة اصطلاحا: ورد في الخطابة العديد من التّعريفات ومن أقدّمها تعريف أرسطو الذي يعرفها بأنّها قوة تنطوي على إقناع النّاس ما أمكن في كلّ أنواع الأمور. والخطابة هي نوع من أنواع المحادثات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالجمهور الذي يسمعها والذي يتأثّر بها، لذلك كان من أكمل التّعريفات وأشملها للخطابة هو أنها (فنّ مخاطبة الجماهير للتّأثير عليهم واستمالتهم)[9].

أمّا من منظور العلاّمة أمحمّد صافي المستغانمي فللخطابة تعريفات متقاربة تدور كلّها حول العناصر الآتيّة:[10]

- العنصر الأوّل: مخاطبة الجماهير؛
- العنصر الثّاني: الإلقاء والمشافهة؛
- العنصر الثّالث: الإقناع والاستمالة.

1/ العنصر الأوّل: مخاطبة الجماهير: إذ إنّ الخطبة حديث موجّه لجمهور من النّاس، وليس حديثا فرديا مع فرد أو اثنين لأنّ الحديث الموجّه لفرد أو اثنين لا يحتاج إلى شرح المعنى أو الفكرة بصوت هادئ، وطريقة الأحاديث والمحاورات المألوفة.

2/ العنصر الثّاني: الإلقاء والمشافهة: فتكون الخطبة بطريقة إلقائيّة، يعتمد على جهارة الصّوت، وتكييف نبراته حسب العاطفة المسيطرة على الخطيب ووفق

المضمون المراد شرحه، وتصحب الطّريقة الإلقائيّة إشارات باليد أو بغير اليد وتبدو على الخطيب انفعالات تثير السّامعين وتوجّه عواطفهم نحوه وتجعلهم أكثر استجابة لرأيّه.

3/ **العنصر الثّالث**: الإقناع والاستمالة: وتكون الخطبة مقنعة إذا اشتملت على أدلّة قويّة وبراهين ساطعة تثبت صحّة الفكرة التي يدعو إليها الخطيب. فإذا خلت الخطبة من الأدلّة المقنعة فإنّها لا تزيد على أن تكون إبداء رأي، والخطيب النّاجح هو الذي يشرح الأدلّة التي يسوقها شرحا وافيا مستعينا بالأساليب اللغويّة والبيانيّة.

وتوفّر تلك الأساليب مع نبرة الصّوت وحذق الخطيب عنصر الاستمالة والتّشويق الذي يجب أن يسيطر على الخطّبة، وذلك لتوجيه عواطف السّامعين وإقناعهم بالفكرة التي يدعو إليها وسوقهم من الاقتناع النّظري إلى التّطبيق العمليّ.

وخلاصة تعريف الدّكتور صافي للخطبة: إنّها نوع من النّثر يختلف بخصائصه ومميزاته عن الأنواع الأدبيّة الأخرى ترتكز على ركني الإقناع والاستمالة للتّأثير في السّامعين وإخراجهم من قناعاتهم وآرائهم ووجهات نظرهم إلى التّصديق بروايّة الخطيب الذي أمامهم والاقتناع بها والتّحوّل في مواقفهم إلى العمل بما جاء في كلامه ونصائحه. كما أنّ الخطبة تتميّز بالصّدق والواقعيّة وجديّة المواضيع التي تطرحها وتناقشها وتبتعد كلّ البعد عن الخيال.

إنّ العناصر الثّلاثة التي ذكرها الدّكتور أمحمّد صافي والتي تشكّل مقوّمات تعريف فنّ الخطابة يقترب كثيرا ممّا تهتم به التداوليات المعاصرة وبخاصّة ما جاء في

نظريّة المحادثة لبول غرايس الذي ربط التّخاطب وتداوليّة اللغة بقصدية المتكلّم فتكلّم عن العلامة اللغويّة وأنواعها (علامات ذات دلالة طبيعيّة/ علامات ذات دلالة مقصودة أو المعنى الطّبيعي والمعنى غير الطّبيعي) ورأى أنّ العلامة اللغويّة تتكوّن من ثلاث محاور أساسية هي: الدّال والمدلول، القصد والخطاب، علامة تحتوي على مقاصد المتكلّم ويتغيّر معناه بتغيّر السّياقات التي يرد فيها.

والقصد يرتبط باستعمال العلامة اللغويّة أيا كان نوعها لينجح المرسل في إيصال مراده إلى المرسل إليه، فمع أنّ الوظيفة الرّئيسية للسان هي التّواصل وهي وظيفة يشترك فيها مع غيره من الأنظمة السّيميوطيقية إلاّ أنّ القصديّة وإرادة المتكلّم شرط في هذا التّواصل حتى يبلغ درجة التّأثير في المتلقي، ولا يمكن لهذا الدّليل أن يكون أداة التّواصل القصديّ ما لم يشترط القصديّة الواعيّة[11].

وهذا الأمر يتجلّى واضحا في التّعريف السّابق الذّكر لدى صافي، إذ أنّ الخطابة فنّ من القول مقصود في ذاته لأداء وظيفة تواصليّة معيّنة يحدّدها الهدف من الخطبة ويختلف الهدف بحسب موضوعها ومجالها والفئة المستهدفة أو الموجهة إليها كما أنّ تداوليّة الخطابة تعكس أنّها فعل واع صادر من عقل واع بما يقول وما يستعمل من علامات.

وعند شرح العمليّة التّواصلية نجد أنّ التّواصل اللغوي يخضع لنوعين من القصد: قصد رئيسيّ وقصد ثانويّ (فالقصد الرّئيسي هو الإيحاء بذات الحكم في ذهن المستمع، أي دفعه إلى نفس الحكم، أمّا القصد الثّانوي فهو قصد التّعبير عن

الاعتقاد الشّخصي في صحة مضمون الحكم، فالمقصد الثّانوي ليس مطلوبا لذاته بل يوضع لخدمة المقصد الرئيسيّ)[12].

وتتحقّق فكرة القصد الرّئيس والقصد الثّانوي في الخطبة التي تعدّ فعلا كلاميا له قصد رئيسيّ وهو محاولة استمالة المستمع ذهنيا وعاطفيا بهدف التّأثير في قناعاته وأحكامه وتوجيهها وجهة معينة، وقصد ثانويّ وهو بث المعتقد الشّخصي للخطيب بهذا المستمع. إنّ الفعل اللغويّ اكتسب خاصيّة أساسية وهي الانخراط في مشروع شامل للتّواصل، نقطة انطلاقه المتكلّم الذي يعتمد على قدراته التّواصلية، التي تنسجم مع المرجعيّات الاجتماعيّة، إنّه فعل قصدي يحقّق غايات معيّنة ومقاصد معلومة مسبقا، وإدراك هذه الغايات والمقاصد يتوقف على مدى الانسجام المفترض بين المتكلّم في سياقه المقامي. وقدرة المتلقّي على الفهم والإدراك وفي هذه الحالة يمكن الحديث عن نجاح الفعل الكلاميّ.

4- **أركان الخطابة:** تشتمل الخطابة على أركان ثلاثة هي:[13]

1/ الخطيب: وهو المتحدّث إلى النّاس ليحاول إقناعهم برأيّه بشتّى الوسائل.

2/ الخطاب: وهو ما يلقيه الخطيب على الجمهور، وعادة ما يكون قد أعدّه وجهزّه من قبل.

3/ المخاطب: ويأتي المخاطب على ثلاثة أجزاء هي:

أ/ المخاطب وهو الشّخص أو الأشخاص الذين يتمّ توجيه الخطاب إليهم ويكن إمّا جمهورا مستمعا أو خصما.

ب/ الحاكم وهو الذي يحكم على أهليّة الخطيب في امتحان الخطابة وممارستها.

ج/ النّظرة: وهم الأشخاص الذين يستمعون للخطيب ويقومون على تشجيعه بالهتافات وغيرها من الأساليب.

وهذه الأركان الثّلاثة قد أولاها العلاّمة صافي في مؤلّفه أهميّة بالغة إذ هي صلب موضوع المؤلّف ومتنه الذي عمد إلى الإسهاب في مظانه، وشمّر للخوض فيها بعدّها مقوّمات الفنّ الخطابي كما أولتها التّداوليات المعاصرة أهميّة لا تقلّ عما ورد في كتاب (الخطيب النّاجح)، وأهميّة التّداولية تكمن في أنّها مشروع شاسع في اللسانيات النّصية، يهتم بالخطاب ومناحي النّصية فيه، نحو المحادثة المحاججة التّضمين...، ولدراسة التّواصل بشكل عامّ، بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلاميّة قصد محدّد إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السّامع وعناصر السّياق، فهي تتساءل إلى: أيّ مدى تنجز الأفعال الكلاميّة تغيّرات معينة أيضا، وبخاصة لدى الآخرين؟[14].

4-1 - تداوليّة الخطاب في فكر أمحمّد صافي: لقد فصّل العلامة **أمحمّد صافي** في عنصر الخطاب فكان كلامه في الفصل الأوّل المعنون بـ(مقوّمات الفنّ الخطابي) عن فنّ الخطابة وماهيتها وتاريخها والعوامل المساعدة على نشأتها عند العرب ومكانة الخطيب في الجاهليّة وصفاته ثمّ مكانة فنّ الخطابة في الإسلام، ليذكر فيما بعد أنواعها التي تختلف باختلاف مواضيعها وأهدافها، ثمّ يعرّج صافي على أهمّ نقطة في هذا المبحث وهي كيفية إعداد الخطبة والأسلوب الخطابيّ وخصائصه

والاستشهاد وأنواع الشّواهد في نصّ الخطبة، فمن جهة يقـدّم أمحمّـد صـافي جانبـا عمليا يمكّن المهتم والمنشغل من معرفة آليات كتابة نصّ الخطبة، ومن جهـة أخـرى يمثّل هذا العنصر انعكاسا للاهتمام بتداوليّة الخطاب في ذاته في فكر العلاّمـة أمحمّـد صافي. فقد وصف الخطاب ببعض الشّروط البيانيّة التي تجعله فصـلا بيّنـا وفيهـا لا يخالف قواعد الوضوح في الألفاظ والعبـارات، الإيجـاز والحـذف حسـن اسـتعمال المترادفات، التزام الجمل القصيرة، تنويع الأساليب...

إنّ مبحث مراعاة مقتضى الحال الذي تكلّم عنه العلاّمة الصافي مبحث كثـيرا مـا تكلّم عنه الدارسون المحدثون وقاربوا بينه وبين المفاهيم التداولية الحـديث، ومـنهم (صلاح فضل) الذي يقول: " ويأتي مفهوم التداولية هـذا ليغطّـي بطريقـة منهجيـة منظّمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)[15]. وفكـرة مقتضى ـ الحال تداولية أساسا حيث نتجت في الشروط التي يكون بها الخطاب مطابقا للحـال التي يستخدم فيها بين السامع والمتكلّم، ومختلف الملابسات التي تكشف ذلك.[16]

وفكرة مقتضى الحال والظروف والملابسات المحيطة بالنشـاط اللغـوي والمـؤثرة فيه، تحقّق الفهم والإفهام بتعبير الجاحظ، وتحقّـق المنفعـة والفائـدة الإبلاغيـة لـدى السامع، " فشرف المعنى ووجه قبوله قائم على صوابه وصحتّه، مـع مـا يقدّمـه مـن فائدة للمخاطب وهذا هو مبدأ المنفعة، أحد أسـس التداوليـة اللسـانية الحديثـة) إلى موافقته لمقام المخاطب وحاله.[17]

ومن أجل إحراز المنفعة وفائدة المخاطب يوازن الخطيب بين المعنى والمخاطب والحال، ويوازن بينها بمقدار فيتخيّر الألفاظ وينتقيها ويوجز في مواطن الإيجاز البليغ، ويحسن سوق الشواهد التي تقرّب المعنى وتجليه، وتبيّن القصد وتعرّيه. هذا وغيره كثير مما يتعلّق بتداولية الخطاب في ذاته وما يقتضيه الأمر من اهتمام الخطيب ببنية الخطبة الداخلية والخارجية.

4-2- تداولية المتكلّم والمخاطب في فكر محمد الصافي: إن الحديث عن المتكلّم لا يستقيم إلاّ بدور السامع، حتّى إن ما يرتبط بقصد المتكلّم يفترض وجود سامع مقصود بالخطاب. ولذلك فالحديث عن المتكلّم هو حديث ضمني عن السامع أيضا. وقد سبق إلى هذا الرأي ابن فارس في كتابه " الصاحبي في فقه اللغة"(ص190) بالقول:" باب الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السّامع"[18].

واهتمام العلامة الصافي بالمتكلّم واضح وجليّ من خلال ما أفرده له من مباحث تتعلّق بمواصفات الخطيب الناجح ومصادر ثقافته والصفات المتعلقة بمظهره الخارجي، إذ أن المظهر الخارجي للخطيب ودوره لا يقلّ أهميّة عن الكلام الذي يتلفّظ به، فكما أنه يجب أن يكون متخيرا لألفاظه، ومنتقيا لمعانيه، عليه أن يجيد الوقوف حال أداء الخطبة، ويتخيّر الحركات والإشارات التي تساعده في تبليغ المعنى وتحقيق مقصدية الخطبة، دون أن ننسى وقاره وجمال مظهره.

وهذا الاهتمام يعكس إيمانه بما للمتكلّم من دور بارز في العمليـة التواصـلية بينـه كخطيب وبين جمهور المتلقين، وبوصفه منتج الخطاب وباعثه، ولأنّـه وحـده الـذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها وهو ما كرّسته التداوليات المعاصرة التي تـرى أن المتكلّم هو أساس فهم المعنى وقصد الدلالة.

ولقد كانت التداولية متأخرة في اهتمامها بالمتكلّم إذا قارناهـا بـما ورد في الـدرس العربي عموما والبلاغي بشكل خـاصّ والـذي " قـام منـذ بداياتـه عـلى الاعتـداد بمجموع العناصر المساهمة في تشكيل الدلالة، بما فيها المتكلّم، وما ينبغـي أن يكـون عليه من علم بأحوال الخطاب المختلفة، ودراية بأقدار السـامعين ومنـازلهم، بحيـث يخاطب كلّ سامع بما يناسبه"[19].

ومن أشكال اهتمام العلاّمة الصافي بالمتكلّم (الخطيب الناجح) الصفات التاليـة: الاستعداد الفطري، طلاقة اللّسان، الفراسة والقدرة على الاستنباط، قـوة الملاحظـة جودة النطق، مجانبة اللحن، التمهّل في الإلقاء، التواصل المباشر مع الجمهور. وهـذه الصفات وغيرها ممّا يحتاج إليه الخطيب بعدّه منتجـا للخطـاب لخّصـها ابـن الأثـير بقوله:" معرفة اللغة ممّا تداول اسـتعماله" وسـمّاها ابـن جنـي " الأحـوال الشـاهدة بالقصود، الحالفة على ما في النفوس". و مـن أحسـن مـا يـرتبط بـالمتكلّم مـن قـيم تداولية أنّهم ميزوا بينه وبين الكلماتي،[20] وعرّفوا المتكلّم بأنه هو فاعل الكـلام تعريفـا تداوليا مرتبطا بإنجازه افعل الكلامي حقيقة في الواقع ولا يعدّ متكلّما إلا بذلك.

كما لا يستقيم دور المتكلّم إلاّ بمستمع لحديثه مقصود بالخطاب وقد خصّص ابن فارس في "الصاحبي" بابا لذلك سمّاه " باب الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع"، ولعلّ اهتمام الصافي في معرض حديثه عن الخطيب وصفاته وسرده العوامل التي تساهم في نجاح خطبته لهو اهتمام ضمني بالسامع الذي توجّه إليه الخطبة ولأجله تصاغ.

أشار العلاّمة الصافي في معرض حديثه عن الخطيب وصفاته وعيوب الخطبة وطرائق معالجة أدوائها إلى عناصر هامّة تعدّ مبادئ في أي حوار أو محادثة بين متخاطبين وقد سمّاها بول غرايس في نظرية المحادثة " بمبادئ التعاون" والمقصود بها تلك المبادئ التي يرتكز عليها المرِسل للتعبير عن قصده مع ضمانه قدرة المرسل إليه على تأويله وفهمه، وصاغه على النحو التالي" ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار

وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار وتنبثق عن هذه المبدأ أربع مبادئ فرعية :[21]

1/ **مبدأ الكمّ**: أو الاقتصاد اللغوي أي المساهمة في الحوار بالقدر المطلوب والكافي دون إفراط أو تفريط.

2/ **مبدأ الكيف**: وهو يهتم بالصدق بين المتخاطبين فالمتكلم لا يقول ما يشك في صحته والمستمع لا يجيب بما هو كذب .

3/ **مبدأ المناسبة أو التّرابط:** أي تكون مشاركة طرفي الخطاب مناسبة للموضوع الحوار وبما يناسب المقام .

4/ **مبدأ النوع أو الطريقة (قواعد جهة الخبر):** فيحترز طرفي الخطاب من الالتباس والتّعميم المخل مع ترتيب الكلام .

فمن العيوب الخطبة التي يمكن ضمّها تحت مبدأ الكمّ، الإطالة في الخطبة التي تولدّ الرتابة والملل لدى المخاطب، فينفر من الاستماع إليها، وسوء الإلقاء الذي يقتل الرغبة في الإنصات ويقطع حبل التواصل بين الخطيب وجمهوره، بالإضافة إلى السجع المتكلّف والزخرفة اللفظية المصطنعة التي تعدّ حشوا في الكلام، وضربا من التكلّف لا فائدة منه.

أمّا سوء الاستشهاد وسوء الاستنباط فإنّه يقلّل من مصداقية الخطبة، كما يخفّض من نسبة التأثر والاقتناع بما يقول، وعدم توفقه في الاستدلال بالأنسب منها يعدّ خرقا لمقتضيات المقام، أمّا خلوّها من الآيات القرآنية ومن الأحاديث النّبوية فيجعل المستمع يشكّ في صدق متكلّمه.

كما أن شيوع العاميّات في الخطبة واللّحن في القول مع عيوب النطق التي قد يعاني منها الخطيب، وعدم مرافقة الكلام بنبرات صوتية تنقل عاطفته وتؤدي المعنى المقصود، كلّها تدخل تحت خانة اختراق مبدأ النّوع أو الطّريقة.

خاتمة: ومحصول القول: إنّ كتاب (الخطيب النّاجح) موسوعة تحتاج إلى تأمّل دقيق، وبحث عميق، ودراسة مستفيضة، وهو ما لا يسمح به المقام. فكلّ صفحة من صفحاته زاخرة بأفكار تداولية عدّة، تتعلّق مجملها بالاستعمال اللغوي عند الخطيب وانتقاله إلى مخاطبه.

وقد رأينا كيف تتلاقى صفات الخطيب الناجح ومبادئ الخطبة وطرائق إلقائها مع نظرية المحادثة ومبادئ التعاون لبول غرايس، وكيف تكلّم الصافي ضمنيا عن تداولية الخطاب والمتكلم والمستمع معا، في معرض حديثه عن الأدواء التي يجب أن يتجنبها الخطيب والوصايا التي قدّمها له.

وستكون لنا وقفة مطولة مع إنتاجه الفكري تداوليا، وخدمته للعربيّة في مشروع كتاب مستقبلي بحول الله.

قائمة المراجع:

1. الحاج عين الحقّ نووي، مدخل في علم الخطابة، بوستاكا راجا،2017.
2. . صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، دار الكتاب اللبناني للطّباعة والنّشـر والتّوزيع بيروت،ط1، 2004.
3. . أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجحين عوامل الإقناع ووسائل الامتاع دار ابن كثـير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1438/ 2017.
4. . محمّد فيضي، التّعريف بفنّ الخطابة mawdoo3.com
5. خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداولية مع محاولة تأصيلية في الدّرس العربيّ القـديم، بيـت الحكمة للنّشر والتّوزيع، سطيف، الجزائر،ط2، 2012.
6. دلال وشن، القصديّة الإبلاغيّـة في المـوروث اللسـاني العـربيّ دراسـة في الأسّـس النظريـة والإجرائية للبلاغة العربيّة (رسالة دكتوراه مخطوطة) إشراف د. محمّد خان، جامعة بسـكرة الجزائـر 2016.
7. الشّيخ علي الفـتلاوي، الرّسـالة في فـن الإلقـاء والحـوار والمنـاظرة، دار الكتـب والوثـائق العراقيّة، 2012.
8. فان دايك، علم النصّ، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة، مصر201.

الهوامش:

---

[1]– أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب النّاجح،ص15.

[2]– الحاج عين الحق نووي، مدخل في علم الخطابة، ص20/ 23.

[3]– أمحمّد صافي المستغانمي، المرجع السّابق، ص14.

[4]–نفسه، ص11.

[5]– نفسه، ص فهرس الكتاب.

[6]- موقع المعاني،almaany.com

[7]- أمحمّد صافي المستغانمي، المرجع السّابق، ص19.

[8]– نفسه، ص19/ 20.

[9]– محمّد فيضي، التّعريف بفنّ الخطابة، 23 ديسمبر 2018..mawdoo3.com

[10]–أمحمّد صافي المستغانمي، الخطيب الناجح، ص21.

[11]– دلال وشن، القصدية الإبلاغية في الموروث اللساني العربي دراسة في الأسّس النّظرية والإجرائية للبلاغة العربية (رسالة دكتوراه مخطوطة)، ص83.

[12]– المرجع نفسه،ص 84.

[13]– الشّيخ علي الفتلاوي، التّعريف بفن الإلقاء والحوار والمناظرة، ص15.

[14]– فان دايك، علم النصّ، ص131.

[15]– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص26.

[16]– خليفة بوجادي، في اللسانيّات التّداولية مع محاولة تأصيلية في الدّرس العربيّ القديم، ص156.

[17]– المرجع نفسه، ص134/ 135.

[18]– المرجع نفسه، 134.

[19]– المرجع نفسه، ص133.

[20]– المرجع نفسه، ص135.

[21]- للاستزادة أكثر ينظر: صلاح إسماعيل نظريّة المعنى في فلسفة بول غرايس، الدّار المصريّة السّعودية للطّباعة والنّشر والتّوزيع، مصر،2005.

إسهامات الشّيخ الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في إثراء اللغة العربيّة.

أ. زوليخة خرّاز
المجلس الأعلى للّغة العربيّة

اللغة العربيّة، لغة ناضجة، حاملة في طيّاتها أسرارًا، وقوانين مثيرة، وتختزن علومًا جمّة ملأت الأسفار، وعمّرت بتدريسها الحلقات، وأثّرت وزيّنت المكتبات بأجود وأنفس الكتب. وحين نرصد تطوّرها على المسار التّاريخيّ؛ فنحن نرصد في الوقت ذاته تطوّر الفكّر الذي عبّرت به هذه اللغة، وفي خطوة عظيمة، فتفرّغ العلماء والباحثين، وأسهموا بأعمال جليلة، ووقّفوا أعمارهم وكرّسوا جلّ جهدهم لخدمة هذه اللغة.

ومن بين هؤلاء العلماء الأجلاء، الأفاضل، العلّامة الشّيخ أمحمّد صافي المستغانمي، الشّخصيّة الجزائريّة، المهاجرة، التي خدمت الشّأن العامّ، وقدّمت وتقدّم أفكارًا في البلاغة، وفي اللغة، والجديد في الدّراسات القرآنيّة، والتّفسّير.

هو الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، من مواليد الشّهر العاشر من سنة 1965م بمدينة مستغانم، نشأ في كنف أسرة كريمة محبّة للعلم وأهله، في سنّ مبكرة، فقد الشّيخ أمحمّد والده، لتتولى أمّه الفاضلة تربيّته وتعليمه، فحفظ القرآن الكريم منذ الصّغر، وتدرَّج في تعليمه، ليتحصل على شهادة الباكالوريا سنة 1984م، ليلتحق

بعدها بكليَّة اللُّغة والأدب العربيّ بجامعة وهران، ويتخرج منها سنة 1988م بتقدير امتياز، واشتغل بعد تخرجه أستاذا في المرحلة الثَّانوية بمستغانم بين عاميّ 1988م و1992م.

بدأت الرّحلة؛ من سوريا، لينهل من العلوم الشَّرعيّة واللُّغويّة، ويتحصّل على الإجازة في روايّة ورش عن نافع ثمّ في القراءات العشر (في الرّبع الأوّل من القرآن الكريم) بدمشق على يدي الشّيخ محمّد شقرون حفظه الله، سنة 1979م، انتقل إلى الإمارات العربيّة المتّحدة ليعمل مُدرسا للّغة العربيّة، لغاية سنة 2003م، وفي سنة 2009م، تحصّل على شهادة الماجستير بتقدير امتياز من كليّة العلوم والآداب جامعة الشّارقة، وكان عنوان دراسته (تصريف القول في القصص القرآنيّ- دراسة بلاغيّة تحليليّة لقصَّة موسى عليه السلام). وسنة 2014م، تحصل على شهادة الدّكتوراه في تخصّص البلاغة بعنوان (بلاغة النَّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم) من الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، التي طُبعت لدى جائزة دبيّ للقرآن الكريم.

مساره:

- أمينًا عامًّا لمجمع اللغة العربيّة للشّارقة.
- عضو اتّحاد المجامع اللغوية العلميّة العربيّة؛
- عضو مراسل مع مجمع اللغة العربية في القاهرة؛
- عضو المجلس الاستشاري للّغة العربيّة لدى وزارة الثّقافة وتنميّة المعرفة؛
- المدير التّنفيذيّ لمشروع المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة؛

- عضو مجلس الأمناء بالجامعة القاسميّة؛
- المنسّق العامّ لجائزة الألكسو الشّارقة للدّراسات اللغويّة والمعجميّة؛
- عضو في المجلس الاستشاريّ في كليّة الآداب جامعة الشّارقة؛
- عضو في المجلس الاستشاريّ في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة عجمان للعلوم والتّكنولوجيا؛
- عضو لجنة تحكيم مجلّة العلوم الإنسانيّة جامعة محمّد الخامس أبو ظبي؛

منجزاته:

عالم...، شاعر...، مؤلّف....

*شاعر: حائز على جائزة البردة في دورتها الأوّلى في أبو ظبي، ضمن العشرة الأوائل، على مستوى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، بقصيدة بعنوان (يا صاحب الحوض العميم تحيّة (70) بيتا، منشورة ضمن كتاب القصائد الفائزة بجائزة البردة 2004م.

مؤلّف لعدد من الأوبرات الشّعرية منها:

1 - ملحمة السّلام.

2 - وامحمداه.

3 - هويّتي وفاء وانتماء.

4 - باني الإمارات زايد الخير.

5 - اليُتم نجاح.

❋مؤلّف لعدّة مصنّفات في مجالات متنوّعة أيضا منها:

– كيف تصبح فصيح اللسان؛

– الخطيب النّاجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع؛

– تصريف القول في القصص القرآنيّ؛

–مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة؛

– مشارق الأنوار في صحيح الأذكار؛

– بلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم؛

– جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور؛

– ديباج القرآن وعرائس الفرقان وقفات تدبريّة في سور ﴿آلـــــــحم﴾؛

– هندسة السّورة القرآنية؛

– درر البيان في توجيه متشابه القرآن؛

– الموسوعة القرآنيّة الجامعة؛

– من روائع البيان القرآنيّ؛

– الأساور المرصَّعة في فواتح السّور والأحرف المقطعة.

والمتأمّل في أيٍّ من مؤلَّفات الدّكتور المستغانمي النّفيسة الخاصّة بتحليل النّصّ القرآنيّ يلاحظ بوضوح موسوعيّته وإلمامه بشتّى العلوم، نذكر البعض منها على سبيل المثال؛

تصـــريف القــول في القصّــص القــرآني: يُعـالج كتـاب (تصــريف القــول في القصص القرآني: دراسة بلاغيّـة تحليليّـة لقصّـة موسـى) قضـيّة تصــريف القـول وتنوّعه في عرض مضامين قصّة عليه السلام بأثواب وطرائق تعبيريّة متنوّعة في سور قرآنيّـة شتّى. ركّز فيها المؤلّف على تحليل مشاهد من القصّة ذاكـرا جملـة مـن الفـروق مـن زاويّة علم المعاني حيث تعـرّض في مباحـث الكتـاب إلى جماليّـات التّوكيـد وعدمـه وجماليّات الوصل والفصل، وعرض نماذج من الجمل الاسميّة والفعليّـة والفـروق بينها، وجوانب من الإيجاز والمساواة والإطناب، وقد خلص المؤلّف إلى أنّه لا تَكرار في رسم المشاهد المتعلّقة بالقصص القرآني، وإنّـما هـو البيـان القـرآني المتفـرّد الـذي يعرض القصّة الواحدة والمشهد الواحد في أثواب تعبيريّة متنوّعـة وجذّابـة وبديعـة تتناغم وتتناسب مع السّياق الـذي وردت فيـه، وأنّ هـذا الصّـنيع هـو ضرب مـن ضروب الإعجاز البياني في نصوص التّنزيل.

جواهر الدُّرر في علم مقارنـات السّــور: هـذا الكتـاب رؤّيـةً تأصـيليّةً لعلـم مقارنات السّور الذي يُعنى بإيضاح العلاقات والـرّوابط المضـمونيّة واللّفظيّـة بـين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها المؤلّـف عنـوان (الأُسر القرآنيّـة). يتميّـز هذا الفرع العلميّ من علوم القـرآن بالبحـث في الـرّوابط الدّقيقـة، وبيـان الهندسـة اللفظيّة الموزّعـة في طيّـات السّـور المتشـابهة المطـالع، والسّـور المتشـابهة الفواصـل والسّور التي تبدأ بأنساق وأنماط تعبيريّة متشابهة من غير أن تتّحد مطالعهـا في المـوادّ المعجميّة المستعملة وتثبت بما لا يـدع مجـالا للشّـك جانبـا مـن أسرار المجموعـات

القرآنية التي تتشابه مطالعها مثل أسرة سور الحمد، وسور المُسبّحات، وأسرة تبارك وغيرها وجوانب أخرى من العلاقات بين السّور المتشابهة الأنساق في مطالعها مثل أسرة الصّافات والذّاريات والمرسلات وأخواتها.

الخطيب النّاجح: الخطابةُ فنُّ التّحدُّث إلى الجماهير بإقناعٍ وإمتاع. ولهذا الفنّ من القول منزلةٌ ساميةٌ ومكانةٌ عاليةٌ عند العرب قديما وحديثا، وعند كافّة شعوب العالم. ولهذا الفنّ من القَول أيضا أصولٌ وأساليبُ ومهاراتٌ يصلُ مَنْ أتقنها إلى ذُروة التّفنّن والإبداع في مخاطبة الجماهير واستهوائهم، وتحريك عواطفهم إقناعهم بما يريد من أفكار بأساليب حجاجيّة قويّة، ومهارات لغويّة جاذبة، وملكةٍ لفظيّة غزيرة مثراءة.

فما هي الخطابة، وما مقوِّمات الخطيب النَّاجح، وما المهاراتُ التي ينبغي له أن يَمْهَرَ فيها، وما الزَّاد الذي عليه أن يتشبَّعَ به ويرتوي منه، وما العوامل المساعدة على نجاح الخطبة في العصر الحديث؟ هذه الأسئلةُ وغيرُها تجيبُ عنها صفحات هذا الكتاب، ولسوف يَجِدُ فيها الخطيبُ المبتدئُ ما يُعينُهُ على اقتحام عقبة البدايات الصّعبة، وتتفتّحُ أكمامُ الفصاحة بين جنبيه، ولسوفُ يجدُ فيها الخطيبُ المتمرّسُ أيضًا ما يُبصِّرُه، ويرتقي به إلى مصافّ الخطباء المجيدين المصاقعة الذين يُشارُ إليهم بالبنان في ميدان الخطابة الفسيح الممتع المؤثّر الجذّاب.

مفاتيح النّجاح وسنن السّعادة: تضمّن هذا الكتاب أهمّ مفاتيح النّجاح وخطواته العمليّة التي تقودُ من اتّبعها إلى شاطئ النّجاح، وتجعله يجني ثمرات

تفوّقه وتميّزه. كبارُ العلماء والباحثين من ذوي المَلكات والمراتب العلميّة السّامية وكبارُ الزُّعماء والقادة من ذوي الرُّؤى البعيدة، وجهابذةُ رجالِ الأعمال في دُنيا التِّجارة والمال، يكادون يتَّفقون على أنَّ الإنسانيّةَ اليوم تعيشُ عصرَها الذّهبيَّ عصرَ الإنجاز والتّفوّق والإبداع.

وفي هذا الكتاب جاءت المبادئ والقوانين التي عملَ بها النّاجحون، والأساليب التي اتَّبعوها، والمهارات التي اكتسبوها، والاستراتيجيّات التي رسموها ونفَّذوها والإجراءات العمليّة التي طبّقوها.

وله أيضا، عدّة بحوث علميّة محكّمة ومقالات المنشورة في الملتقيّات الدّولية والوطنيّة والمجلّات العلميّة. ومشاركات في كثير من التّظاهرات الشّعرية داخل الإمارات وخارجها، ومنسّق لعدّة دورات تربويّة، ودورات تطوير الذّات والمشاركة في عدّة ملتقيات ومؤتمرات دوليّة؛

وعدّة برامج تلفزيونيّة:

- لغة الجسم في القرآن الكريم في تلفزيون الشّارقة؛
- وبرنامج الأمثال في القرآن الكريم في قناة المجد العلميّة؛
- وبرنامج البيان القرآني بقناة المجد العلميّة في مائة وأربع عشر (114) حلقة؛
- وبرنامج مع القرآن بتلفزيون الشّارقة؛
- وبرنامج في (**رِحاب سورة**) وهو أشهر برنامج تميّز وتألّق فيه، عبر 340 حلقة.

خدماته الجليلة في المعجم التّاريخي للّغة العربيّة: إنّ التّطوّر الحضاريّ لأيّ أمّة من الأمّم مرهون بمدى اهتمامها بلغتها، لأنّها عنوان حضارتها، وبوّابة تاريخها وسعيّها إلى الحفاظ على إرثها اللّغويّ، فكم من لغة ماتت بسبب إهمال أهلها لها وعدم احتوائها في معجمات تخلّدها لجهلهم لقيمتها، فعجزوا عن مواكبة الرّكب الحضاريّ، وفي المقابل نجد أمّما أخرى عملت على إحياء لغتها، إدراكا منها بأهميّتها وإيمانها القويّ بأنّ اللّغة؛ عنوان الحضارة بها تكون أو لا تكون، واللّغة العربيّة كانت ولا تزال محلّ اهتمام العرب وغير العرب. وما المعاجم إلاّ إحدى الوسائل التي ترفع أمّة من الأمّم إلى الدّرجات العليا في مضمار الحضارة.

وحاجة اللغة العربيّة إلى المعجم التّاريخيّ هي حاجتها إلى ذاكرة تخزّن التّراث وهو ضرورة حضاريّة، لا غنى عنها، في ظلّ التّطوّر الهائل، والتّقانات الحديثة يتمثّل ذلك في « مواكبة الرّكب الحضاريّ والارتقاء باللغة العربيّة إلى مصاف اللغات العالميّة التي تملك معجما تاريخيّا على غرار اللّغة الإنجليزيّة والفرنسيّة والهولندية وغيرها... ».

مسيرة عمل وبصمة المستغانمي في إنجاز المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة:

فكرة إنشاء المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، رأت النّور منذ إنشاء مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، في ثلاثينيات القرن الماضي، بإشراف المستشرق الألماني، (فيشر/ Fisher) ولكن الظّروف حالت دون إتمامه فتوقفت الجهود بعد حين. جاءت عدّة محاولات أخرى، كلها توقّفت، حتّى تجدّد الاهتمامُ بقضيّة المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، من

قبل صاحب السّمو حاكم الشّارقة الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي، فأعاد إحياء العمل على إنجاز هذا المشروع العظيم وتولّى تنفيذه، ودعمه، وتغطيّة جميع تكاليفه.

وما كان حلمًا وضربًا من الخيال قبل ثمانين (80) عامًا، أصبح اليوم واقعًا مشهودًا بإطلاق الأجزاء الثّمانيّة (08) الأولى للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، في حفل أقيم بمدينة (خورفكان) وبحضور سمو حاكم الشّارقة الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي، وعدد من رؤساء مجامع اللغة العربيّة، وكبار العلماء والفقهاء.

حيث أطلق سمو حاكم الشّارقة، الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي المجلّدات الأولى من المشروع المعرفيّ الأكبر للأمّة، الذي يؤرّخ للمرّة الأولى، تاريخ مفردات الضّاد وتحولات استخدامها عبر سبعة عشر (17) قرنا منذ عصر ما قبل الإسلام، مرورًا بالعصر الأميّ، فالعباسيّ، فعصر الدّول والمماليك، وصولاً إلى العصر الحديث.

وهنيئًا للأمّة العربيّة على صدور ثمانيّة أجزاء (08) في الحرفيّ (الهمزة والباء)، في ثوبه الجميل وإخراجه الرّائع، فأَنعِمْ به من منجزٍ، عمل نبيل جدير بكلّ أمّة تحافظ على هويّتها، وتحيّ ماضيها، وتثريّ حاضرها ومستقبلها، وأول الغيث قطرة ومسافة ميل تبدأ بخطوة واحدة، وممّا لا شكّ فيه بدأت الخطوات... للحفاظ على لغتنا التي هي عنوان الهويّة، وخزانة الماضي، ومستقبل أجيالنا.

هذا المشروع الذي قال فيه سمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي عضو المجلس الأعلى في الإمارات حاكم الشّارقة، من مدينة (خورفكان) خلال إطلاق

المجلّدات الأولى من المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة: «إنّ مشروع المعجم التّاريخي للّغة العربيّة كان حلماً يراودني منذ زمنٍ بعيد، وازداد حرصي على دعمه وإخراجه لما علمت أن المحاولات السّابقة جانبَها التّوفيقُ لأسبابٍ متعدّدة»، مشيراً إلى أن المعجم العظيم الذي يؤرخُ لألفاظِ العربية منذُ العصرِ الجاهلي الذي سَبَقَ بُزوغَ شمس الإسلام، مُروراً بالعصرِ الأموي فالعباسي فَعَصْرِ الدّولِ والإمارات ووُصولاً إلى العصرِ الحديث».

مراحل تنفيذ هذا المشروع الضّخم، بدأت من اجتماعات اتّحاد المجامع اللغويّة العربيّة، وعدّة مراسلات لتّنظيم سير العمل، وتوحيد جهود الدّول العربيّة وكوكبة من علماء اللغة العربيّة، وخدّامها وسدنتها في مشارق الأرض ومغاربها حيث شارك في هذا المنجز، الذي يشّرف عليه اتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة بالقاهرة ويتولى جانبه العلميّ، ومجمع اللغة العربيّة في الشّارقة إدارة لجنته التّنفيذية، وعشرة مجامع عربيّة للّغة العربيّة. أفكار... آراء... وجهود متواصلة كلّلت بفضل عنايّة الله تعالى، وحرص، وسهر الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي على كلّ كبيرة وصغيرة لإنجاز هذه المفخرة، التّحفة،

بمتابعة اللجنة الجزائريّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة، من تاريخ تنصيبها يوميّ الخميس والجمعة 12 و13 شعبان 1440هـ الموافق 18 و19 أبريل 2019م.

كلمات تبقى خالدة قالها **الدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي في المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة؛**

ـ المعجم التّاريخيّ، فتح مبين للّغة العربيّة، وتاج فخار على مفرق الشّارقة؛

ـ المعجم ضرورة لغويّة وحضاريّة وتاريخيّة؛ ضرورة لغويّة لأنّه يؤرّخ لألفاظ العربيّة المستعملة منذ نشأتها الأولى إلى الوقت الحاضر، وعرف عن زمن ميلاد الكلمة، وهو ضرورة حضارية لأنّ التّأريخ للكلمة يرصد خطّ سيرها ابتداء من نشأتها الأولى مروراً بالعصور التي مرت بها، والتّطورات التي صاحبت استعمالها ومرحلة نشأة المصطلحات، وهو ضرورة تاريخيّة لأنّه يؤرّخ لأحداث الأمّة العربيّة في عصورها الغابرة، ويرصد حركة الدّول التي نشأت تحت راية الإسلام، ويؤرّخ للمحافل التي أقيمت للشّعر، ويسلط الأضواء على منتديّات العرب ومجامعها وتجاراتها وحروبها وغاراتها وأيامها والشّعوب التي تحدثت بها والعلوم التي دوّنت بها إلى أن نصل إلى عصر الصّحافة والإعلام وقنوات التّواصل الاجتماعيّ الحديث

ـ مشروع المعجم التّاريخي هو حُلم الأمّة العربيّة الأكبر، ومشروعها الأعظم وحامل ذاكرتها الجماعيّة، وإنجازه سيُحدث حركة عظيمة في ميدان المعجميّات وسيعود بالعربيّة إلى أمجادها، ويبعث فيها الحياة من جديد، وإن كانت العربيّة لم تمت ولن تموت لارتباطها بوحي السّماء؛

ـ وليس من المبالغة القول إنّه لا يوجد مشروع استقطب اهتمام اللغويّين، ولفتَ انتباهَ عشّاق لغة الضّاد كما لفتهم مشروع المعجم التّاريخي للّغة العربيّة؛ ذلك لأنّ عدداً من اللغات العالميّة قد أنجزت معجمها التّاريخيّ خصوصاً ما يتعلّق باللغات المتفرّعة عن اللاتينية الأمّ مثل الفرنسيّة والإنكليزية ومثيلاتها، وظلّ المشروع

العربيّ يترنّح بين عوائق ضبابيّة التّخطيط، ومزالق ضخامة المشروع، وعوائق فداحة التّكاليف الماديّة. ولا يخفى أنّ الذين أرّخوا للغاتهم مثل الإينگليز والفرنسيّين والألمان والسّويديين وغيرهم، في الحقيقة أرّخوا للغاتهم التي هي حديثة المولد مقارنةً باللغة العربيّة التي هي ضاربة الجذور في أعماق التّاريخ من لدن العرب العدنانيين الذين ينحدرون من أرومة إسماعيل عليه السلام إلى عصرنا الحاضر.

الخاتمة:

وختاماً لهذه الورقة البحثيّة، لردّ الأفضال لأصحابها، وتكريم العلماء، يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة: «العلماء هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النّجوم، يُهتدى بهم في ظلمات البرّ والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهم خلفاء الرّسول ﷺ في أمّته، والمحبّون لمقامات من سنّته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا».

ما الفخر إلاّ لأهل العلم إنّهم على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
ففزْ بعلمٍ تعِش حيًّ أبه أبدًا النّاس موتى وأهب العلم أحياءُ

للنّجاح أناس يقدّرون معناه، وللإبداع أناس يحصدونه، لذا نقدّر جهودكم وعطاؤكم فأنتَم أهل للشّكر والتّقدير والتّكريم. فوجب علينا تقديركم... وتتسابق الكلمات وتتزاحم العبارات لتنظم عقد الشّكر الذي لا يستحقه إلاّ أنتم... إليكم يا من كان لهم قدم السّبق في ركب العلم والتّعليم... إليكم يا من بذلتم ولم تنتظروا العطاء...

فإنّه من الوفاء لعلمائنا إكرامهم، على كلّ ما يقدمونه من خدمة الشّأن العامّ والدّكتور أمحمّد صافي المستغانمي، الشّخصيّة ـ العالمة، الفذّة، تستحق هذا التّكريم والتّبجيل، وخير تكريم، وإكرام له، تلقي علومه، ونشرها، وبرسالة قصيرة أوجهها، للطّلبة والباحثين، والمختصين، بالغور والتّنقيب، والدّراسة الجادّة في مآثر ومنجزات هذا الشّيخ العلامة، مفخرة الجزائر، والأمّة الإسلاميّة.

القسم الرّابع

ذات العلاقة.

ما كان حلمًا وضربًا من الخيال قبل ثمانـين (80) عامًـا، أصـبح اليـوم واقعًـا مشهوذًا بإطلاق الأجزاء الثّمانيّة (08) الأولى للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّـة، في حفل أقيم بمدينة (خورفكان) وبحضور صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي حاكم إمارة الشّارقة، عضو المجلس الأعلى للاتّحـاد في دولـة الإمارات العربيّة المتّحدة وعدد من رؤساء مجامع اللغة العربيّـة، وكبـار العلـماء والفقهاء. حيث أطلق سمو حاكم الشّارقة الدّكتور سلطان بن محمّـد القاسـمي المجلّدات الأولى من المشروع المعرفيّ الأكـبر للأمّـة، الـذي يـؤرّخ للمـرّة الأولى تاريخ مفردات الضّاد وتحوّلات استخدامها عبر سبعة عشر(17) قرنا منذ عصر ما قبل الإسلام مرورًا بالعصر الأمـويّ، فالعبـاسيّ، فعصـــر الـدّول والمماليـك وصولاً إلى العصر الحديث.

واليوم نشهد صدور الأجزاء الثّمانيّة (08) الأولى، في الحرفين الهمـزة والبـاء في ثوبه الجميل، وإخراجه الرّائع، فأَنعِمْ به من منجز! وهنيئًا للأمّة العربيّة، بهـذا المنجز العظيم.

دورات المجموعة الجزائريّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة :

1. تمّ تنصيب اللّجنة الجزائريّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة، يوم الخميس 12 شعبان 1440هـ الموافق 18 أبريل 2019، بفندق الأبيار، على مدار يومين انطلقت الأعمال بحضور البروفيسور **صالح بلعيد**، المقرّر العامّ للجنة الجزائريّة ورئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة، والأستاذ الدّكتور **مأمون عبد الحليم وجيه** المدير العلميّ للمعجم التّاريخيّ، الأستاذ الدّكتور **صافي أمحمد المستغانمي** الأمين العامّ لمجمع اللغة العربيّة للشّارقة، والمدير التّنفيذي للّمعجم التّاريخيّ والأستاذ باسل **عبد الرّزاق حايك**، المهندس المشرف على المعجم واللجنة الجزائريّة المكوّنة من اثنين وثلاثين (32) عضوا، والأسرة الإعلاميّة. وتمّ خلالها شرح تقنيّات ومهارات صناعة المعجم التّاريخي للّغة العربيّة وتوزّيع المجموعة الجزائريّة على ثلاث (03) لجان: الوسط، الغرب، الجنوب.

2. النّدوة التّكوينيّة للجنة الجزائريّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة، يوم الجمعة 08 جمادى الآخر 1441هـ الموافق 03 يناير 2020 بفندق الأبيار، بحضور البروفيسور **صالح بلعيد**، المقرّر العامّ **للّجنة الجزائريّة، ورئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة**، والأستاذ باسل **عبد الرّزاق حايك**، المهندس المشرف على المعجم والدّكتور **نصر الدّين وهابي**، واللجنة الجزائريّة المكوّنة من أربعين (40) عضوا والأسرة الإعلاميّة، وتمّ خلالها التّعرف على الخطوات العلميّة والحاسوبيّة للتّعامل مع المنصّة الرّقميّة للمعجم التّاريخي للّغة العربيّة.

3. النّدوة المخصّصة لعرض جملة من **الإشكالات والعوائق المتعلّقة بتحرير مداخل المعجم التّاريخي للّغة العربيّة**، مع مقرّر اللجنة الثّالثة الدّكتور **عبد الرّزاق عبيد** بمقرّ المجلس، **يوم 04 فبراير 2020**.

4. النّدوة المبرمجة عن طريق (google meet) والمخصّصة لعرض **الانشغالات والصّعوبات** المطروحة في عمليّة تحرير مداخل المعجم التّاريخي للّغة العربيّة مع **البروفيسور** صالح بلعيد، **يوم 31 مايو 20202**.

5. النّدوة المبرمجة عن طريق (zoom) والمخصّصة لتأهيل أعضاء اللجنة الجزائريّة (المحرّرون، الخبراء، المقرّرون) على **تقنيّات التّحرير المعجميّ** بتأطير من المدير التّنفيذي للمعجم التّاريخي الدّكتور **أحمد صافي المستغانمي** والمدير العلميّ للمعجم التّاريخيّ الدّكتور **مأمون وجيه**، **والبروفيسور** صالح بلعيد، يوم **03 جوان 2020**.

6. النّدوة المبرمجة عن طريق (zoom) لمناقشة **الانشغالات المتعلقة بالتّحرير المعجميّ**، بتأطير الدّكتور **مصطفى بن عاشور**، **يوم 16 يونيو 2020**.

7. النّدوة التّكوينيّة حول: (**التّحرير في المعجم التّاريخيّ: التّقنيات والإجراءات**) بالاشتراك مع مخبر الدّراسات اللغويّة والأدبيّة في الجزائر، وفريق مشروع البحث التّكوينيّ الجامعيّ P.R.F.U، كليّة الأدب والفنّون، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، يوم السّبت 23 يناير 2021م، بحضور البروفيسور **صالح بلعيد**، المقرّر العامّ **للّجنة الجزائريّة**، **ورئيس المجلس الأعلى**

للغة العربيّة وفريق المحرّرين الجدّد، وبتأطير الأستاذ الدّكتور جيلالي بن يشو الخبير الثّالث اللجنة الثّالثة، وإشراف مدير جامعة عبد الحميد بن باديس الأستاذ الدّكتور مصطفى بلحاكم. عالجت إشكاليّة التّحرير المعجميّ باعتباره العمود الفقري لصناعة المعجميّة، الذي يتطلب مهارات خاصّة، وحسًّا تذوّقيًّا لاستنباط المعنى الذي ينطوي عليه السّياق المحدّد، محاور هذه النّدوة:

أ. الجذر المعجميّ: مداخله ومعانيه.

ب. منصّة المعجم التّاريخيّ: الخطوات والتّقنيّات.

ت. البطاقة المعجميّة: تعريف المدخل، الشّاهد، المستعمل الأوّل، التّاريخ...

ث. مواقع ومحرّكات البحث المساعدة.

8. الدّورة التّكوينيّة حول: (مهارات استعمال المكتبة الشّاملة في التّحرير المعجميّ) من تنظّيم كليّة الأدب العربي والفنّون، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم وفريق مشروع البحث التّكوينيّ الجامعيّ P.R.F.U، يوم السّبت 20 فبراير 2021م، عن طريق تقنيّة التّحاضر عن بعد (Zoom) تحت إشراف الأستاذة الدّكتورة مختارية بن قبلية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم وتقديم الدّكتور ياسين بوراس، جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج - بوعريريج.

9. الدّورة التّكوينيّة التّطبيقيّة حول: الجهود التّنفيذيّة في إنجاز المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، من تنظّيم قسم اللغة والأداب العربيّ، جامعة حمّة

لخضر، الوادي، يوم الإثنين 22 فبراير 2021م، بحضور البروفيسور **صالح بلعيد**، المقرّر العامّ **للّجنة الجزائريّة ورئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة**، وفريق المحرّرين الجدّد، وبتأطير الأستاذ الدّكتور الأستاذ الدّكتور **نصر الدّين وهابي** الخبير الثّاني، من للجنة الثّانيّة للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة وإشراف رئيس جامعة الشّهيد حمّة لخضر بالوادي، الأستاذ الدّكتور **عمر فرحاتي** وعميد كليّة الآداب واللغات، الأستاذ الدّكتور **مسعود وقّاد**. وعالجت موضوع الجهود التّنفيذيّة في إنجاز المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، من خلال المحاور التّاليّة:

أ. إبراز بعض آثار الاستقرار الوطنيّ في الحياة الفكريّة والمعرفيّة في الجزائر من خلال النّشاط العلميّ الجامعيّ المنخرط في المشاريع العلميّة العربيّة والعالميّة عبر المشاركة الجزائريّة في مشروع إنجاز المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة.

ب. التّعريف بالمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة، وبيان القيّم المعرفيّة والفكريّة والحضاريّة المرتبطة بإنجازه.

ت. إبراز الجهود اجزائريّة في تنفيذ هذا المشروع العربيّ الكبير عبر أعمال المجلس الأعلى للّغة العربيّة، ومشاركة الأستاذة الباحثين اللغويين الجزائريّين في بنائه وتكّوين مادّته العلميّة.

ث. تنميّة المهارات العلميّة والنّظريّة والتّطبيقيّة للباحث الأكاديميّ الجزائريّ عبر العمل على إشراكه في المشاريع الكبرى ذات المستوى العربيّ والعالميّ.

ومن خلال هذه النّدوات التّكوينيّة التي عقدتها اللجنة الجزائريّـة للمعجـم التّاريخيّ للّغة العربيّة، خلصت إلى النّتائج التّاليّة:

1 . صدور المجلّدات الثّمانيّة (أ-ب) في نسختها التّجريبيّة.

2 . الاستفادة من هنات المهلة التّجريبيّة.

3 . تحسّن جيّد في إتقان عمل الصّناعة المعجميّة التي جعلت الفريق الجزائريّ يعالج الجذور ومتعلّقاتها بحرفة وعلميّة.

4 . كسب مهارات البحث في الجـذور العربيّـة، واسـتكّناه الشّـواهد الأقـدم بحثًا عن الدّقة المتناهيّة في مشروع الأمّة العربيّة والإسلاميّة، بما يحمله هذا المكنز الذي يؤرّخ للعربيّة ذات الامتداد التّاريخيّ الطّويل.

5 . مواصـلة الفريـق الجزائـريّ إنجـاز الجـذور المطلوبـة منـه، مـع تقـدّيم تصحيحات لجذور أنجزتّها فرق عربيّة أخرى.

ويسعد المجلس الأعلى للّغة العربيّة، أن يكون حاضرًا في المنجز المدقّق، مع ما يليه من جذور أخرى، تمّت الموافقة عليهـا، وهـذا في توشـيح صـاحب السّـمو الشّيخ الدّكتور سلطان **بن محمّد القاسمي**، حاكم إمارة الشّارقة، عضو المجلـس الأعلى للاتّحاد في دولة الإمارات العربيّة المتّحـدة، في المجلّـدات الأولى الجامعـة بين المجلّدات الثّمانيّة، وما يليها من مجلّـدات مـن الحـرف (أ) إلى (ج)، يـوم 01 نوفمبر 2021م، بالشّارقة تزامنًا مع فعاليّات المعرض الشّارقة الدّوليّ للكتاب.

ويقدّم رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة، والمقرّر العامّ للّجنة الجزائريّة البروفيسور صالح بلعيد، تهانيه الخالصة للفريق الذي أعلى مقام **الجزائر** في هذه التّحفة المعجميّة العربيّة، كما يهنئ كلّ الفرق العربيّة المتعاضدة في مجلّدات تمّت ومجلّدات تَتْرَى.

وتهاني المجلس الأعلى للّغة العربيّة، لكلّ من الأستاذ الدّكتور **حسن الشّافعي**، رئيس اتّحاد المجامع والمجالس العلميّة العربيّة، والسّيد الأستاذ الدّكتور **مأمون عبد الحليم** وجيه المدير العلميّ للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة وللسّيد الأستاذ الدّكتور **أمحمّد صافي المستغانمي**، المدير التّنفيذيّ للمعجم.

ونَكُنُّ كلّ التّقدير لمن يعمل من أجل خدمة الشّأن العامّ، والعربيّة من الشّأن العامّ، فأَنعِمْ بها من لغة!

الجزائر: 01 نوفمبر 2021م.



الأحد 26 سبتمبر 2021
العدد 7202



ثقافة،

يومي 06 و07 أكتوبر المقبل بجامعة «عبد الحميد ابن باديس» بمستغانم

«أمحمد صافي المستغانمي: مسار ومنجزات» محور ملتقى دولي

يستعد المجلس الأعلى للغة العربية بالتنسيق مجمع اللغة العربية بالشارقة وجامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانمالى تنظيم ملتقى دولي حول شخصية عالمة فذة قدمت خدمات نالت بعدا عالميا، تعد شخصية أصيلة تضاف إلى المستغانميين الذين شرفوا بلدهم الجزائر في الاصلاح والرواية واللغة العربية، وفي البلاغة والتفسير والذكر الحكيم، وذلك يومي 06 و07 أكتوبر المقبل بجامعة «عبد الحميد ابن باديس» بمستغانم.

● جاء في الديباجة، أن هذا اللقاء الفكري يأتي في إطار رد الأفضال لذويها وتكريما لشخصيات وطنية خدمت الشأن العام، حيث يعتبر المفكر والمصلح أمحمد الصافي المستغانمي من الشخصيات العالمة المهاجرة التي لم تنس خدمة الوطن، شخصية قدمت خدمات جليلة لمشروع قومي كبير وهو «المعجم التاريخي للغة العربية»، كان له فيه فضل الانطلاقة الذي بدأت ثماره تقطف من خلال المجلدات الثمانية التي برزت في اليوم العالمي للغة العربية 18 ديسمبر 2020.
ئ وأمحمد الصافي المستغانمي الباحث المطروح للدراسة جدير بأن يبحث فيه، وتجرى عليه الدراسات وتنجز عليه الاطروحات نظير ما قدمه من أفكار في البلاغة وفي اللغة والتفسير وهي جملة تداعيات علمية تعمل على تقديم قيمة مضافة للبحث العلمي باللغة العربية.

ويصب منظمة هذه الفعالية من خلال هذا الملتقى الدولي إلى استقطاب أمثال هذه الكفاءات المهاجرة لتقديم الوصفات المائزة التي بصروا بها، واسقاطها على الراهن من أجل حسن التدبير، والاحابة على الاشكالبات التالية: إلى أي مدى يمكن الافادة من مفاتيح النهوض التي نجحوا بها في الخارج؟ وتطبيقها على الداخل، وهل يمكن استقطاب هذه الكفاءات محليا؟ وما هي



UNIVERSITE
Abdelhamid Ibn Badis
MOSTAGANEM

الوصفات التحديثية التي تفيدنا لخدمة المواطنة اللغوية، وتحسين الواقع الثقافي واللغوي؟ وكيف نربط هذه الأدمغة لخدمة الشأن العام في بلدهم الأم؟ وما هي الخدمات المنتظرة منهم؟ هي جملة منةالافكار التي نطرحها على الباحثين ويتبارى فيها أهل القلم من أجل تقديم مدونة علمية مائزة يستحقها المكرم.
يتضمن الملتقى عديد المحاور الأساسية أولها الجهود البلاغية البيانية في برنامج «في رحاب سورة» الذي بلغت حلقاته على الشبكة 300حلقة، مقاربة التفسير من خلال برنامج «في رحاب سورة» دراسة شخصية السور القرآنية ومعالمها وخصائصها ومقارنات السور، مقام أمحمد صافي المستغانمي مع الشخصيات الجزائرية العالمية المهاجرة، حول مسار الباحث أمحمد صافي المستغانمي ومنجزاته، دراسة تحليلية لأعماله، هذا المحور يتضمن بدوره عدد من المحاور الفرعية:

جوهر الدرر في علم مقارنات السور، مفاتيح النجاح وسنن السعادة، بلاغة النظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، تصريف القول في القصص القرآنية: دراسة مقارنة أقصى موسى، ديباج القرآن وعرائس الفرقان: وقفات تدبرية في «ال حم»، هندسة الصورة القرآنية رؤية تأصيلية، الخطيب الناجح بين عوامل الاقناع ووسائل الامتاع، كيف تصبح فصيح اللسان؟ في حين يحلل المحور الخامس جهود أمحمد صافي المستغانمي في المجلدات الثمانية للمعجم التاريخي للغة العربية. المحور السادس يسلط الضوء على دراسة واصفة تحليلية لبرنامج البيان القرآني 114 حلقة، فيما يتناول المحور السابع دراسة واصفة تحليلية لبرنامج «كذلك يضرب الله امثالهم» 30 حلقة، أما المحور الثامن والأخير يناقش الفكر التداولي في مؤلفات أمحمد صافي المستغانمي.

كريمة. ك



ISSN 1111-0449 السبت 14 شعبان 1440 هـ الموافق لـ 20 أفريل 2019م العدد:17927 الثمن 10 دج الموقع الإلكتروني www.ech-chaab.com france prix 1 €

الشعب | السبت 20 أفريل 2019 م الموافق لـ 14 شعبان 1440 هـ — ثقافة

أشرف على تنصيب اللجنة الجزائرية لإنجازه صالح بلعيد

المعجم التاريخي للغة العربية الأول من نوعه في الجزائر المستقلة

■ 20 ألف عنوان تم جمعه والعمل جاري لمعالجته عن طريق الرقمنة

من أجل النهوض باللغة العربية وإعطائها الأهمية التي تستحقها لعدة إعتبارات حضارية، دينية، خلقية وفكرية وكذا أبعادها العميقة في محيطينا الواقعي، أشرف رئيس المجلس الأعلى للغة العربية صالح بلعيد على تنصيب اللجنة الجزائرية لإنجاز المعجم التاريخي للغة العربية الذي من المتوقع أن يكون جاهزا خلال خمس سنوات. بحيث يؤرخ للغة والحضارة العربية على امتداد 17 قرنا ويشمل هذا المعجم خمسة عصور وهي العصر الجاهلي، الإسلامي، الأموي، العباسي، وعصر الدويلات والمماليك والعصر الحديث .

سهام بوعموشة

في كلمة ألقاها رئيس المجلس الأعلى للغة العربية صالح بلعيد أمس الأول في الدورة التكوينية للمعجم بفندق الأبيار، أوضح أنه منذ سنة 2016 والعمل جاري لإنجاز هذا المشروع العملاق مشروع النهضة العربية في كل مرافقها، والأول من نوعه في دولة الإستقلال قائلا:» هو عمل هام يستحق كل التجنيد والتفاني من أجل جمع تاريخ الأمة العربية، والذي هو حلم انتظرناه منذ سبعين سنة«، مشددا على الإلتزام وإحترام الوقت لنكون في مستوى خدمة اللغة العربية، وحسبه فإن هذا العمل إضافي يندرج في إطار إمتحان مجامع اللغة العربية.

وأضاف أن هذه الدورة التكوينية الأولى للمعجم التاريخي للغة العربية، يشارك فيها دكاترة ونخبة وطنية يعملون على تكوين المجموعة الجزائرية للمساهمة في هذا المعجم مع عشرة دول، بحيث بذلت جهود ، وحسب رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، فإن المشروع كان حلما منذ سنة 1939 عندما تأسس مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقام المستشرق الألماني فيشر بالعمل على المشروع الذي توقف بعد وفاته بعد الحرب العالمية الثانية، إلى غاية سنة 2004 أستأنف العمل لكن الظروف المالية حالت دون إتمامه وتأجيله ليشرع فيه سنة 2016 بفضل المساعدة المالية من حكومة الشارقة.

وأكد بلعيد أنه تم جمع المصادر المقدر عددها بـ3132 مصدر تضم أكثر من ثلاثين مجلد ، كما أن 95 بالمائة من المادة اللغوية جاهزة، أي 18 ألف مصدر، بحيث قسم العمل لثلاث مجموعات كل مجموعة يشرف عليها رئيس يتكفل بمتابعة المادة ثم منسق ومختص في المعلوماتية، ويكون العمل حسب القطب الجغرافي.



مأمون وجيه : اللغة العربية ركن أصيل من أركان الأمن القومي للمجتمع

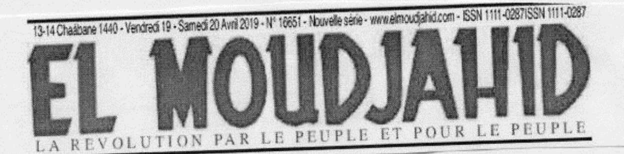
من جهته وصف المدير العلمي للمعجم التاريخي المصري الدكتور مأمون وجيه، اللغة العربية في أي مجتمع بأنها ركن أصيل من أركان الأمن القومي للمجتمع، وهي الوطن قائلا:» فإذا إنتبه المجتمع لذلك عاش وعاشت معه اللغة وإن لم ينتبه لذلك فالأمر واقع نعيشه«.

وأبرز الدكتور وجيه أن اللغة هي الحبل السري الذي يربط الحاضر بالماضي. أي بتراث الأجداد بل هي الوسيلة الوحيدة لفهم التراث ونقله للأجيال الحاضرة و من ضيعها ضيع ماضيه و جذوره ، مشيرا إلى أن لغتنا العربية تشكو وتئن وتستغيث بأهلها قائلا:» جئنا دعما للغة العربية ولدعم مشروعها التاريخي ألا وهو المعجم الذي هو قضية الأمس واليوم والغد«.

وقال الدكتور أمحمد صافي المستغانمي المدير التنفيذي للمعجم التاريخي، أن كل أمله في أن يرفع الجزائريون اللغة العربية مثل باقي إخوانهم في المشرق ويتفانون في خدمة اللسان العربي، لأننا ورثة العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي الذي قلما تجد الأمة العربية مثله. أضاف يقول.

وأعرب عن أمله في إنتاج عمل جيد للنهوض باللغة العربية، التي تتدحرج بسبب المعوقات التي تحول دون تقدمها سواء من الناحية المالية أو التشرذم العربي، مؤكدا أن هناك أكثر من 20 ألف عنوان تم جمعه والعمل جاري لمعالجته عن طريق رقمنته، كما تم تخصيص منصة رقمية قوية ومحرك بحث يحسب بالثواني في آلاف الكتب، صاحبها من مقدونيا والبرمجة تقع في سلوفينيا .

في هذا السياق أوضح أنه تم شراء هذه المنصة التي تعمل على دراسة الكلمة عن طريق القارئ الآلي وكل الكتب المصورة تحول إلى نسخة ورقية قابلة للتصحيح، مشيرا إلى أن كل لجنة مكونة من 7 إلى 10 متخصص يشرف عليها خبيران كبار في اللغة العربية، بحيث كلف المشروع مبالغ كبيرة.وتجدر الإشارة إلى أن، المعجم التاريخي يتوزع على ثلاث مراحل بحثية وهي مرحلة النقوش القديمة، اللغات السامية التي تنتمي إليها العربية والمرحلة الثالثة هي اللغة وإستخدامها، بحيث يعنى المعجم التاريخي بتتبع اللفظ العربي في أول إستعمال له ويجيب على أسئلة من هو المستعمل الأول للفظة؟ وفي أي سياق ورد؟ وما الدلالة التي كان يحملها؟ وهل تغير من ناحية الشكل والصوت والتهجية؟ وهل طرأ عليه تغيير في البنية الصرفية؟ وغيرها من الأسئلة التي لا يمكن للقواميس والمعاجم اللغوية العادية الإجابة عنها.



13-14 Chaâbane 1440 - Vendredi 19 - Samedi 20 Avril 2019 - N° 16651 - Nouvelle série - www.elmoudjahid.com - ISSN 1111-0287ISSN 1111-0287

EL MOUDJAHID

LA REVOLUTION PAR LE PEUPLE ET POUR LE PEUPLE

EL MOUDJAHID — Nation — 11

ENCYCLOPÉDIE HISTORIQUE DE LA LANGUE ARABE

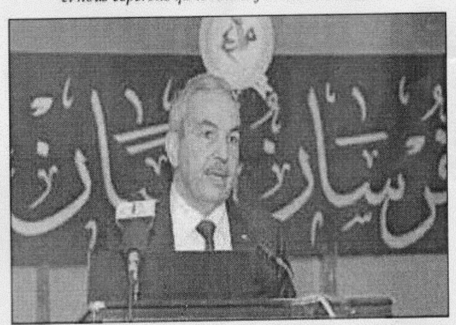
UN PAS VERS LE RENOUVEAU

«Nous avons procédé à l'installation du comité algérien, composé de trente personnes, dans le cadre de l'élaboration de l'encyclopédie historique de la langue arabe. La contribution de notre pays dans ce projet est importante, et nous espérons qu'il voie le jour dans trois ans.»

C'est ce qui ressort des déclarations du président du Conseil supérieur de la langue arabe, Salah Belaïd, qui s'est exprimé, jeudi dernier, en marge de cette installation qui donne le coup d'envoi d'un colloque de deux jours, marqué par la présence de nombreux chercheurs provenant de plusieurs autres pays arabes.

La réalisation d'une encyclopédie historique de la langue arabe est un projet de longue date, que vient d'entamer l'Union des Académies de la langue arabe pour les générations à venir et mettre fin à 80 années d'attente.

Prenant la parole, le directeur scientifique de l'encyclopédie historique, le Dr Mamoun Wajihi, a indiqué que la langue constitue pour chaque nation un pilier de la sécurité nationale et affirmé que la langue lie la génération présente à celle passée. «Autrement dit, elle nous lie à nos racines. C'est tout simplement la patrie. C'est une question de passé, présente et future», a-t-il soutenu. De son côté, le directeur exécutif de ce projet et secrétaire général du Centre de la langue arabe à Sharjah (EAU), le Dr Ahmed Safi Mostaghanemi, s'est réjouit d'être en Algérie, «terre d'arabité par excellence», et souligné à cet effet que la langue arabe «ne peut être», aujourd'hui, enseignée «comme elle l'était il y a quelques décennies» du fait que les techniques de son enseignement ne sont pas adaptées, selon lui, aux dernières évolutions.



Les conférenciers se sont, d'autre part, accordés pour dire que ce lexique est un projet «géant» et «contemporain» pour un «renouveau» de la langue arabe dans son intégralité, ce qui convient de lui conférer toute l'importance qu'il mérite et ce, pour des raisons civilisationnelle, religieuse, morale, intellectuelle, et pragmatique.

S'intéresser au lexique historique de la langue arabe implique une analyse des objectifs de la réforme et de la modernisation aux niveaux culturels arabes.

Il est, selon eux, urgent de quitter le cours systématique dans lequel se sont tournés les pays arabes aujourd'hui, pour aller vers une inoculation scientifique qui suit les mécanismes de l'époque, et qui, est en accord avec les actions menées par les pays occidentaux pour préserver leurs langues.

Ainsi, le succès de ce projet est un encouragement et une entrée dans le domaine de la qualité et du marché de la concurrence afin de lever les défis liés à l'ouverture scientifique, à la sobriété intellectuelle et à la flexibilité mentale.

Il convient de signaler, enfin, que les orateurs ont mis à profit cette opportunité pour affirmer que l'encyclopédie historique sera le miroir qui reflètera tous les aspects de la vie de cette langue et qui reliera son passé à son présent, et ce, pour une réforme linguistique importante et contemporaine.

Sami Kaïdi



قرب إنهاء المعجم التاريخي للغة العربية

أعلن رئيس المجلس الأعلى للغة العربية صالح بلعيد بوهران، أنه سيتم الانتهاء من إنجاز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية في آفاق 2027.

وقال بلعيد لدى تنشيطه محاضرة للتعريف بهذا المشروع، بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران، إن هذا المشروع الذي يتم برعاية تقنية من قبل الجزائر ورعاية علمية من مصر ورعاية مالية من امارة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة) والذي شرع في تجسيده في أواخر سنة 2016، «سيتم تقديم النسخة التجريبية له في ظرف 5 سنوات (2023) على أن يتم الانتهاء من إنجاز المشروع بشكل نهائي في آفاق 2027».

ويشارك في إنجاز المشروع الذي يشرف عليه اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية بمصر 30 باحثا جزائريا مختصا، وفق ذات المصدر، الذي أوضح أن المعجم الذي يؤرخ للغة العربية يأتي تماشيا مع اللغات الحية التي عملت على إنجاز معاجمها التاريخية على غرار معجم أكسفورد للغة الانجليزية والمعجم التاريخي للغة الفرنسية.

وسيكون هذا المعجم الذي يبحث في تطور اللغة العربية منذ العصر الجاهلي (القرن الثالث بعد الميلاد) الى اليوم بمثابة ديوان يجمع مفردات اللغة العربية وتطورها وكذا التحديد الدقيق للكلمات وتدقيق قواعد اللغة العربية ويسمح بالترسيخ العلمي للغة العربية، كما أشير إليه. وهذا المعجم الذي يشمل «ملايير الكلمات» سيساعد الباحثين في كل الاختصاصات في «إنجاز أبحاثهم بشكل دقيق وكذا تدقيق المعاجم المدرسية ويكون مادة لوضع معاجم متخصصة كما سيسمح بحل قضايا تاريخية وتربوية»، وفق ذات المصدر.

Horizons
QUOTIDIEN NATIONAL
VENDREDI 19 - SAMEDI 20 AVRIL 2019 - 13-14 CHAÂBANE 1440 - N° 6706 - PRIX 10 DA

10 | SOCIÉTÉ
HORIZONS • Vendredi 19 - Samedi 20 Avril 2019

ENCYCLOPÉDIE D'UN LEXIQUE HISTORIQUE DE LA LANGUE ARABE

Un rêve se concrétise

La réalisation d'une encyclopédie du lexique historique de la langue arabe se concrétise, après l'installation d'une commission composée de 30 chercheurs dans le domaine. L'annonce a été faite, jeudi dernier, à l'hôtel d'El Biar (Alger), par Salah Belaïd, président du Haut-Conseil de la langue arabe (HCLA). Le projet sera financé par l'Académie de la langue arabe, Charjah (Emirats arabes unis), et plus de 20.000 sources seront mises à la disposition des chercheurs. Dans son allocution, le président du HCLA n'a pas caché sa satisfaction de voir aboutir ce projet, vieux de plusieurs années, initié par l'Union des académies arabes. Selon lui, «l'objectif est de promouvoir et de préserver la langue pour les générations à venir et mettre fin à plus de 80 ans d'attente». «Le lexique historique de la langue arabe est un projet géant et contemporain pour son renouveau en intégralité», a-t-il renchéri. Il a souligné ensuite la nécessité de conférer à cette langue toute l'importance qu'elle mérite pour des raisons à la fois «civilisationnelles, religieuses, morales, intellectuelles et pragmatiques». «C'est un travail considérable qui révélera les trésors de la langue arabe restés jusque-là méconnus», a-t-il renchéri. Belaïd a précisé qu'il constituera aussi un outil pour recueillir l'histoire des Arabes et des musulmans. Le Dr Mamoune Ouajih, directeur scientifique du projet, a affirmé que les dix pays arabes qui font partie du projet accordent une importance particulière au patrimoine linguistique. Selon lui, «s'intéresser au lexique historique de la langue arabe, c'est exhumer l'histoire qui révélera la valeur d'une langue qui dominait les sciences et favorisait la traduction, d'où l'étendue de sa propagation à travers les pays du Proche-Orient et ailleurs». La tâche assignée aux chercheurs implique une analyse des objectifs de la réforme et de la modernisation au niveau culturel arabe et islamique. «Il est urgent d'aller vers une inoculation scientifique des mécanismes et méthodes en accord avec les actions menées par les pays occidentaux pour préserver leurs langues», a-t-il expliqué. Pour lui, «le succès du projet est un encouragement et une entrée dans le domaine de la qualité et du marché de la concurrence, afin de relever les défis liés à l'ouverture scientifique, à la sobriété intellectuelle et à la flexibilité mentale». Enfin, le Dr Amhamed Safi Al Mostaghanemi, directeur exécutif de l'encyclopédie, a soutenu que l'œuvre sera le reflet de tous les aspects de la vie arabe et une concrétisation des rêves de ses locuteurs. «Nous devons travailler dur pour asseoir nos repères culturels et modernes et recueillir dans cette plateforme synoptique tout notre patrimoine». «Nous serons à la hauteur des attentes pour consolider notre arabité dans toute sa gloire en mettant en place tous les mécanismes de sa promotion», a-t-il conclu.

■ Samira Belabed


ملحق
الصّور



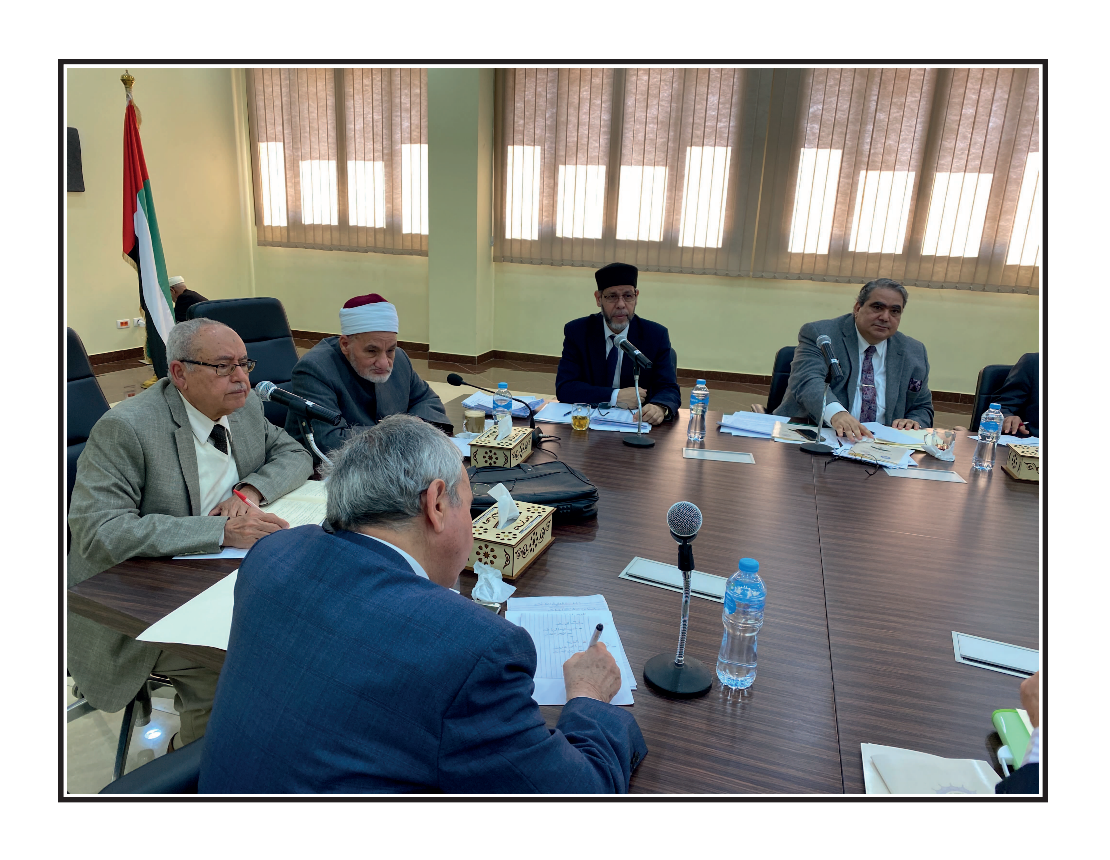
صورة مع الوالدة رحمها اللّه تعالى



صورة خاصّة مع سموّ حاكم الشّارقة
الدّكتور سلطان القاسمي



جلسات في مجمع القاهرة للّغة العربيّة



اجتماع المجلس العلمي
لاتّحاد المجامع اللغويّة والعلميّة



في رحاب الجامعة القاسميّة



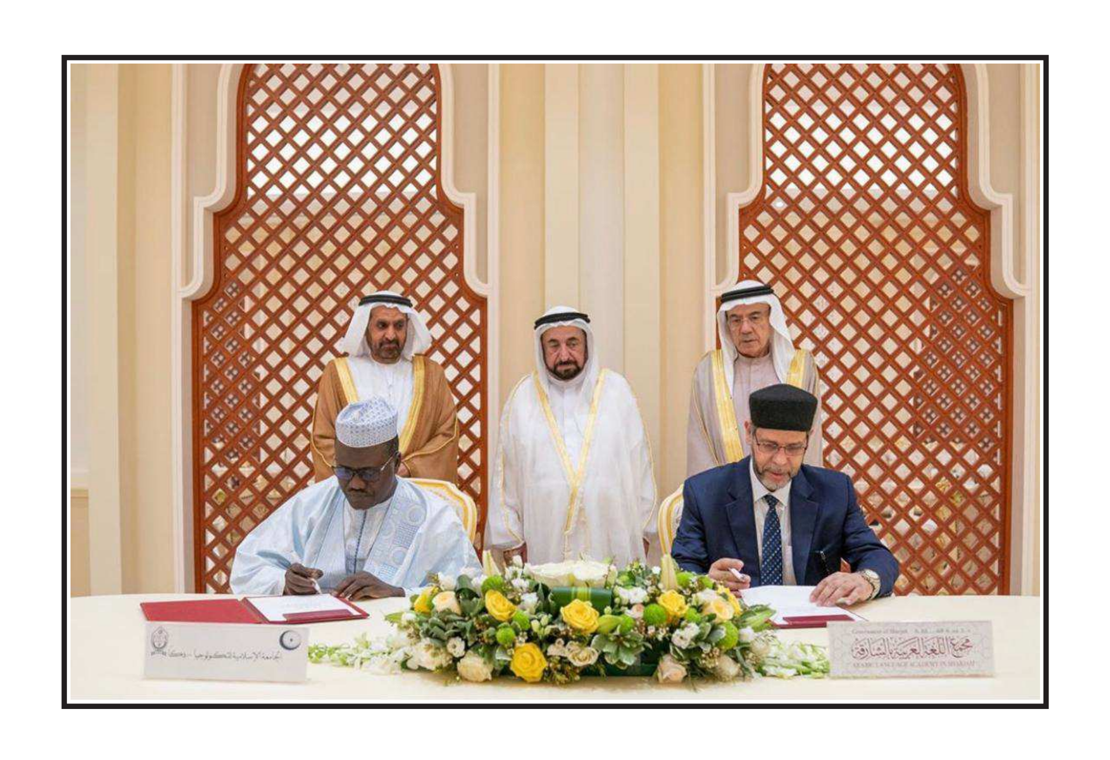
في رحاب بلاد شنقيط رفقة الدّكتور
حسن الشّافعي + الدّكتورالخليل النّحوي



خلال عرض المعجم التّاريخي



مع مجموعة من العلماء في دُبَيْ



توقيع اتّفاقيّة مع الجامعة الإسلاميّة



اتّفاقية مع جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة في سيول



توقيع اتّفاقيّة مع الجامعة الأمريكيّة





كلمة في اليـونسكو/ UNESCO



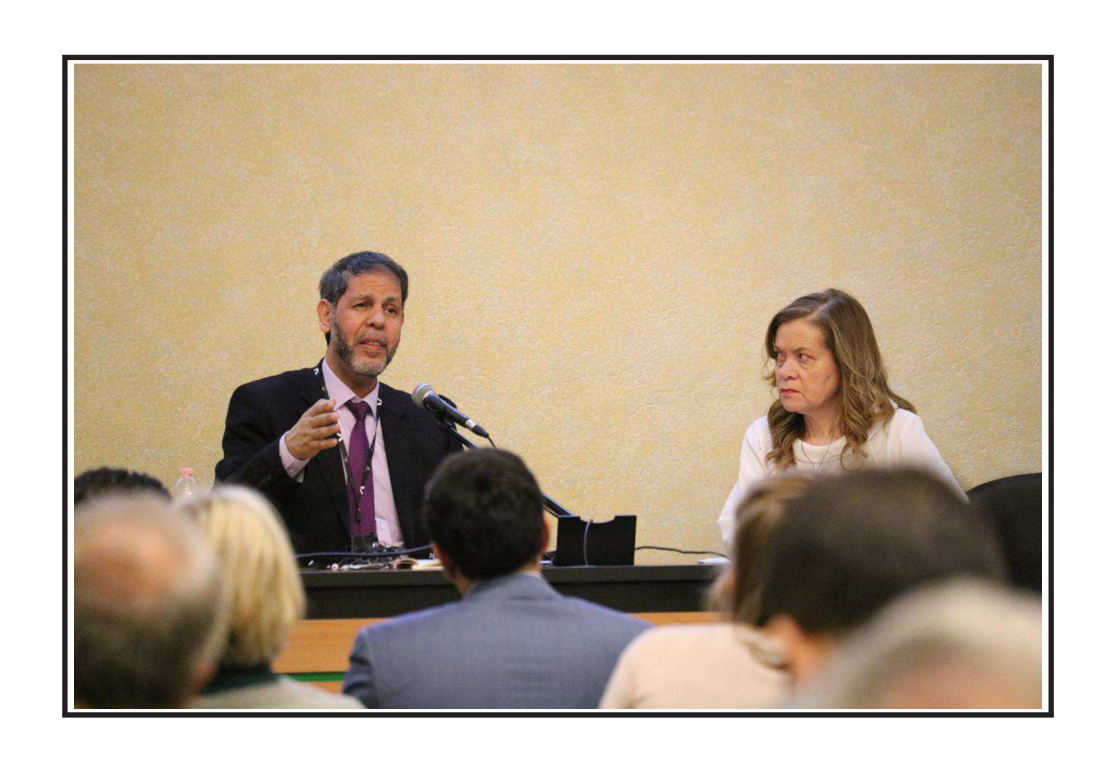
كلمة في اليـونسكو / UNESCO



في صحبة الدّكتور عبد الفتّاح الحجمري في مكتب تنسيق التّعريب



مع الدّكتور أحمد مطلوب
رئيس المجمع العلمي العراقي



مع ممثّلي الاتّحاد الأوروپـي في ميلانو



مع ضيوف من المستشرقين من پولندا



بمناسبة زيارة سموّ حاكم الشّارقة
لمجمع الشّارقة



في تكريم طلّاب وطالبات المجمع



زيارة بيت الشّعر في الخرطوم
بجمهورية السّـــودان



تكريم من ولي عهد الشّارقة



توقيع كتاب جواهـــر الدّرر



في رِحاب جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة



تنصيب اللجنة الجزائريّة
للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة





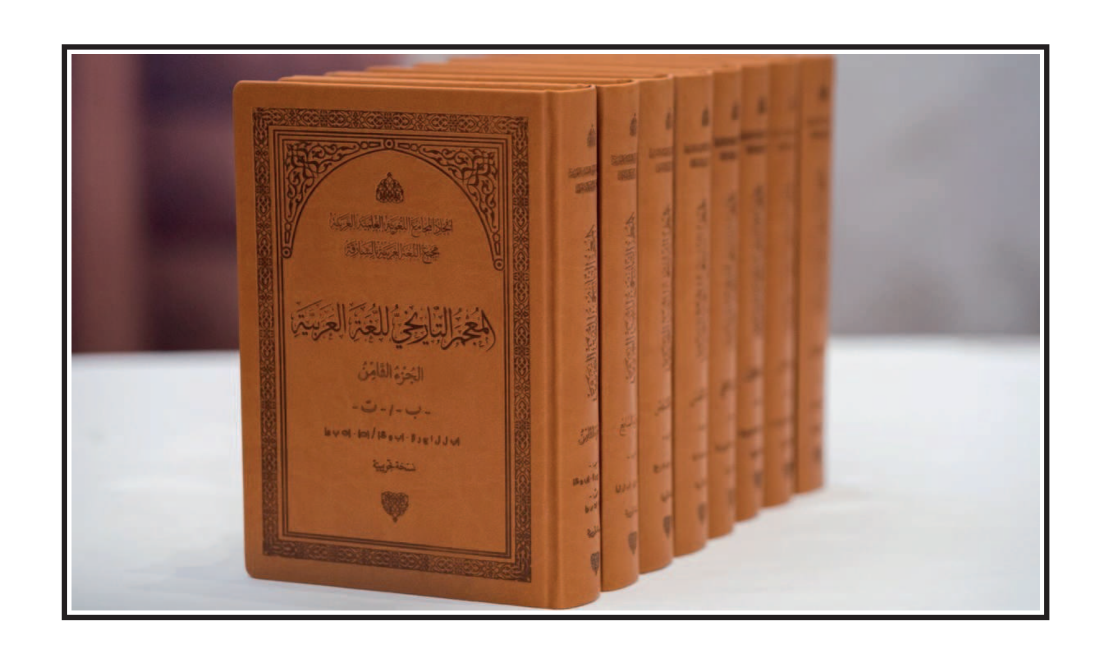
تنصيب اللجنة الجزائريّة للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة



تنصيب اللجنة الجزائريّة للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة



المجموعة الجزائريّة
للمعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة



المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة



مع القاسمي في قصره

تم إخراج وطبع بـ :



للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الحضرية قطعة 1- عين النعجة رقم 1 جسر قسنطينة - الجزائر
ها : 05.50.54.83.07/ 07.71.52.50.50

البريد الالكتروني: inma.book@yahoo.com